

الممثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر
لضياء الدين بن الأثير

قدمه وعلق عليه

دكتور أحمد الحومى و دكتور بدوى طبانه

القسم الثاني

ملتم الطبع والنشر
دار نهضة مصر للطبع والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثانية

المقالة الثانية في الصناعة المعنوية

وهي تنقسمُ قسَمين :

الأول منهما : في الكلام على المعاني مجَمَلًا :

والثاني : في الكلام عليها مفصَّلًا .

وقبلَ الكلام على ذلك لا بُدَّ من توطئة تكون شاملة لما نحن بصددِ ذكره ها هنا ، فأقول :

اعلم أن المعاني الخطابية قد حُصِرَتْ أصولها ، وأوَّلُ من تكلم في ذلك حكاه اليونان ، غير أن ذلك الحصرَ كُلِّيًّا لا جزئيًّا . ومحالٌ أن تُحصَرَ جزئيات المعاني ، وما يتفرَّع عليها من التفريعات التي لانهاية لها ، لا جرمَ أن ذلك الحصرَ لا يستفيد بمعرفته صاحبُ هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ، فإن البدويَّ البادي راعى الإبل ما كان يمرُّ شيءٌ من ذلك بفهمه ، ولا يحظر بيأله ، ومع هذا فإنه كان يأتي بالسحر الحلال ، إن قال شعراً أو تكلم نثرًا .

فإن قيل : إن ذلك البدويَّ كان له ذلك طبعاً وخليقة ، والله فطره عليه ، كما فطر ضروبَ نوعِ الأدميِّ على فطرٍ مختلفة ، هي لهم في أصل الخلقة .

فإنه فطر الترك على الإحسان في الرمي ، والإصابة فيه من غير تعليم .

وكذلك فَطَرَ أَهْلَ الصِّينِ عَلَى الْإِحْسَانِ فِي صَنْعَةِ الْيَدِ ، فَمَا يَبْأِشِرُونَهُ
مِنْ مَصُوعِغٍ ، أَوْ خَشَبٍ ، أَوْ فَخَّارٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .

وكذلك فَطَرَ أَهْلَ الْمَغْرِبِ عَلَى الشَّجَاعَةِ ، وَهَذَا لَانْزَاعِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ مُشَاهِدٌ .
فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنِّي أَقُولُ : إِنْ سَلَّمْتُ إِلَيْكَ أَنْ الشُّعْرَ وَالْخَطَابَةَ
كَانَا لِلْعَرَبِ بِالطَّبَعِ وَالْفِطْرَةِ ، فَمَاذَا تَقُولُ فِيمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنْ شَاعِرٍ وَخَطِيبٍ
تَحَضَّرُوا وَسَكَنُوا الْبِلَادَ ، وَلَمْ يَرَوْا الْبَادِيَةَ ، وَلَا خَلَقُوا بِهَا ، وَقَدْ أَجَادُوا
فِي تَأْلِيفِ النِّظْمِ وَالشُّعْرِ ، وَجَاءُوا بِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ مَا جَاءَتْ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ ،
وَلَا نَطَقُوا بِهَا ؟

فَإِنْ قُلْتَ : إِنْ هُوَ لَاءَ وَقَفُوا عَلَى مَا ذَكَرَهُ عُلَمَاءُ الْيُونَانِ وَتَعَلَّمُوا مِنْهُ .
قُلْتُ لَكَ فِي الْجَوَابِ : هَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ ، وَلَا عَلِمَ أَبُو نُوَّاسٍ شَيْئًا مِنْهُ ،
وَلَا مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَلَا أَبُو تَمَّامٍ ، وَلَا الْبَحْتَرِيُّ ، وَلَا أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتْنَبِيُّ ،
وَلَا غَيْرُهُمْ ! .

وَكذلكَ جَرَى الْحَكْمُ فِي أَهْلِ الْكِتَابَةِ ، كَعَبْدِ الْحَمِيدِ ^(١) ، وَابْنِ الْعَمِيدِ ^(٢)
وَالصَّابِي ، وَغَيْرِهِمْ .

(١) هُوَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى الْكَاتِبُ ، نَشَأَ بِالْأَنْبَارِ بَلِيغًا حَصِيْفًا ،
وَصَاحِبَ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ آخِرِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمِيَّةِ أَيَّامِ وِلَايَتِهِ وَخِلَافَتِهِ ، حَتَّى
قَتَلَا سَنَةَ ١٣٢ هـ ، وَيَعُدُّ عَبْدُ الْحَمِيدِ مِنْ أَسَاتِذَةِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَشَيْخِ
كِتَابِ الرِّسَالِ عَامَةً .

(٢) هُوَ الْأَسْتَاذُ الرَّئِيسُ الْوَزِيرُ أَبُو الْفَضْلِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْعَمِيدِ
أَكْبَرَ كِتَابِ الْمَشْرِقِ ، وَصَاحِبَ الطَّرِيقَةِ الْإِنْشَائِيَّةِ الشُّعْرِيَّةِ ، وَوَزِيرَ رُكْنِ
الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، ثُمَّ عَضُدِ الدَّوْلَةِ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٣٦٠ هـ . وَمِنْ الْأَحْكَامِ
الْأَدْبِيَّةِ الشَّائِعَةِ « بَدَأَتْ الْكِتَابَةُ بَعْدَ الْحَمِيدِ وَخَتَمَتْ بِابْنِ الْعَمِيدِ .

فإن ادّعتَ أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان ، قلتُ لك في الجواب : هذا باطلٌ بي أنا ، فإنني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظرُ إلى كلامي فقد أوردتُ لك نبذةً منه في هذا الكتاب ، وإذا وقتت على رسائلي ومكاتباتي — وهي عدّة مجلدات — وعرفت أني لم أتعرض لشيء مما ذكره حكماء اليونان في حصر المعاني ، علمت حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوةٍ من ذلك كله ، وأنه لا يحتاج إليه أبداً . وفي كتابي هذا ما يُفنيك ، وهو كاف .

ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا ، وانساق الكلامُ إلى شيء ذكره لأبي عليّ ابن سينا^(١) في الخطابة والشعر ، وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى « اللاغوزيا »^(٢) وقام فأحضر كتاب « الشفاء » لأبي عليّ ،

(١) هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن علي الحكيم المشهور ، ولد بقرية من قرى بخارى وانتقل في البلاد ، واشتغل بالعلوم ، وحصل الفنون . ولما بلغ عشر سنين من عمره كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب ، وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة والخبر والمقابلة ، ولما توجه نحوهم الحكيم أبو عبد الله النسائي أنزله أبو الرئيس أبي علي عنده ؛ فابتدأ أبو علي يقرأ عليه كتاب « إيساغوجي » وأحكم عليه علم المنطق وإقليدس والمجسطي ، وفاقه أضعافاً كثيرة . حتى أوضح له منها رموزاً ، وفهمه إشكالات لم يكن النسائي يدرها كما أتقن الفقه والبحث والمناظرة ، كما نبغ في الطب ومات بهمدان سنة ٤٢٨ هـ وهو في الثامنة والخمسين من عمره .

(٢) هكذا في الأصل ، ولم يذكر ضرب من ضروب الشعر بهذا الاسم ، وإنما المذكور نوع من الشعر يسمى « طراغوزيا » ، قال ابن سينا : فمن ذلك نوع من الشعر « يسمى طراغوزيا » ، له وزن لذيد ظريف يتضمن ذكر الخير والأخبار والمناقب الإنسانية ، ثم يضاف جميع ذلك إلى رئيس =

وَوَقَفَنِي عَلَى مَا ذَكَرَهُ ، فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ اسْتَجْهَلْتُهُ ، فَإِنَّهُ طَوَّلَ فِيهِ وَعَرَّضَ ،
كَأَنَّهُ يَخَاطَبُ بَعْضَ الْيُونَانِيِّينَ ، وَكُلُّ الَّذِي ذَكَرَهُ لَعَوٌّ لَا يَسْتَفِيدُ بِهِ صَاحِبُ
الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ شَيْئًا .

ثمَّ مع هذا جميعه فإنَّ مَوَّالَ الْقَوْمِ فيما يذُكِرُ من الْكَلَامِ الْخَطَأَ بَيِّنٌ أَنَّهُ
يُورَدُ عَلَى مُتَمَدِّمَتَيْنِ وَنَتِيجَةٍ ، وَهَذَا تَمَّا لَمْ يَخْطُرْ لِأَبِي عَلِيٍّ بِنِ سِينَا بِيَالٍ فِيهَا
صَاعَةٌ مِنْ شَعْرٍ أَوْ كَلَامٍ مَسْجُوعٍ ؛ فَإِنَّ لَهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي كَلَامِهِ ، وَعِنْدَ
إِفَاضَتِهِ فِي صَوْنِغٍ مَا صَاعَاهُ لَمْ تَخْطُرِ الْمَقْدَمَتَانِ وَالنَّتِيجَةُ لَهُ بِيَالٍ .

ولو أَنِّي أَفْكَرَ أَوْلَى فِي الْمَقْدَمَتَيْنِ وَالنَّتِيجَةِ ، ثُمَّ أَتَى بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ
لَمَا أَتَى بِشَيْءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَطَالَ الْخَطْبُ عَلَيْهِ ! .

بل أقولُ شَيْئًا آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ الْيُونَانَ أَنْفَسَهُمْ لَمَّا نَظَمُوا مَا نَظَمُوهُ
مِنْ أَشْعَارِهِمْ لَمْ يَنْظَمُوهُ فِي وَقْتِ نَظْمِهِ وَعِنْدَهُمْ فِكْرَةٌ فِي مَقْدَمَتَيْنِ وَنَتِيجَةٍ ،
وَإِنَّمَا هَذِهِ أَوْضَاعٌ تَوْضَعُ ، وَتَطَوَّلُ بِهَا مَصْنَفَاتُ كُتُبِهِمْ فِي الْخَطَابَةِ

= يراد مدحه ، وكانت الملوك فيهم يغنى بين أيديهم بهذا الوزن ،
وربما زادوا فيه نغمات عند موت الملوك للنياحة والمرثية (أنظر الفن
التاسع من الجملة الأولى من كتاب الشفاء - فن الشعر ١٦٦) وقال في
موضع آخر : إن « طراغوذيا » هو المديح الذي يقصد به إنسان حى
أو ميت وكان يغنون به غناء فحلا ، وكانوا يبتدئون فيذكرون فيه
الفضائل والمحاسن ، ثم ينسبونها إلى واحد ، فإن كان ميتا زادوا
في طول البيت أو في لحنه نغمات تدل على أنها مرثية ونياحة (المصدر
السابق ١٦٩) وكلمة « طراغوذيا » تحريف لكلمة « تراجيديا »
Tragedy وترجمتها المأساة أو الرواية المحزنة .

وَالشُّعْرُ ، وَهِيَ كَمَا يُقَالُ : « فِقَاقِعَ لَيْسَ لَهَا طَائِلٌ » كَأَنَّهَا شِعْرُ
الْأَبْيُورْدِيِّ (١) .

* * *

وَحَيْثُ أُورِدَتْ هَذِهِ الْمَقْدَمَةُ مِنْ قَبْلِ الْخَوْضِ فِي تَقْسِيمِ الْمَعَانِي فَإِنِّي
رَاجِعٌ إِلَى شَرْحِ مَا أَجْمَلْتُهُ ، فَأَقُولُ :

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ (٢) : فَإِنَّ الْمَعَانِي فِيهِ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

أَحَدُهُمَا يَبْتَدَعُهُ مُؤَلِّفُ الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْتَدِيَ فِيهِ بِمَنْ سَبَقَهُ :

وَهَذَا الضَّرْبُ رَبِّمَا يُعْتَمَرُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَادِثِ الْمُتَجَدِّدَةِ ، وَيُنَبِّهُهُ لَهُ
عِنْدَ الْأُمُورِ الطَّارِئَةِ (٣) ، وَلِنُشِرَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى نَبْذَةِ لَتَكُونَ مَثَلًا
لِلْمَتَوْشِّحِ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ .

(١) هُوَ أَبُو الْمَظْفَرِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْأَبْيُورْدِيُّ ، يَتَّصِلُ
نَسَبُهُ بِأَبِي سَفْيَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، كَانَ مِنَ الْأَدْبَاءِ الْمَشْهُورِينَ رَاوِيَةً نَسَابَةَ شَاعِرًا
ظَرِيفًا ، قَسَمَ أَشْعَارَهُ إِلَى أَقْسَامٍ ، سَمَّاها الْعِرَاقِيَّاتِ وَالنَّجْدِيَّاتِ وَالوَجْدِيَّاتِ
وغيرها ، وَالْعِرَاقِيَّاتِ أَكْثَرُهَا فِي مَدْحِ الْمُقْتَدِرِ وَالْمُسْتَظْهِرِ وَوَزَرَاهُمَا .
تُوفِيَ سَنَةَ ٥٥٧ هـ ، وَ« أَبْيُورْدٍ » الْمُنْسُوبُ إِلَيْهَا بَلِيدَةٌ بِخِرَاسَانَ .

(٢) ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ فِي الصَّنَاعَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ أَنَّهَا تَنْقَسِمُ

قَسْمَيْنِ :

الْأَوَّلُ مِنْهُمَا فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَعَانِي مَجْمُوعًا .

وَالثَّانِي فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا مَفْصَلًا

(أَنْظُرْ صَفْحَةَ ٣ مِنْ الْقِسْمِ الثَّانِي)

(٣) سَبَقَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ ابْنَ الْأَثِيرِ إِلَى هَذَا التَّقْسِيمِ ، قَالَ

أَبُو هَلَالٍ :

وَالْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٍ يَبْتَدَعُهُ صَاحِبُ الصَّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ =

فَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ مُصَلِّينَ (١) :

بَكَرُوا وَأَسْرَوْا فِي مُتُونِ ضَوَامِرٍ قِيدَتْ لَهُمْ (٢) مِنْ مَرَبِطِ النَّجَّارِ
لَا يَبْرَحُونَ ، وَمَنْ رَأَاهُمْ خَالَهُمْ أَبْدَأُ عَلَى سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ
وَهَذَا الْمَعْنَى تَمَّا يُعْتَرُّ عَلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَادِثِ الْمُتَجَدِّدَةِ ، وَالخَاطِرُ فِي مِثْلِ هَذَا
الْمَقَامِ يَنْسَاقُ إِلَى الْمَعْنَى الْمُخْتَرَعِ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كَلْفَةٍ ، لِشَاهِدِ الْحَالِ الْحَاضِرَةِ .
وَكَذَلِكَ قَالَ فِي هَذِهِ النَّصِيدَةِ فِي صِفَةِ مَنْ أُحْرِقَ بِالنَّارِ .

مَازَالَ سِرُّ الْكُفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ حَتَّى اصْطَلَى سِرَّ الزَّنَادِ الْوَارِي
نَارًا يُسَاوِرُ جِسْمَهُ مِنْ حَرِّهَا لَهَبٌ كَمَا عَصَفَتْ شِقِّ إِزَارِ (٣)
طَارَتْ لَهَا شُعْلٌ يَهْدِمُ لَفْحَهَا أَرْكَانُهُ هَدْمًا بَغِيرِ غُبَارِ
فَصَلَّنَ مِنْهُ كُلُّ مَجْمَعٍ مَفْصَلِ وَفَعَلْنَ فَاقِرَةً بِكُلِّ فَقَارِ (٤)
مَشْبُوبَةٌ رُفِعَتْ لِأَعْظَمِ مُشْرِكِ مَا كَانَ يَرْفَعُ ضَوْءَهَا لِلْسَّارِي (٥)

= يَكُونُ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رَسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثَلَةٍ مِمَّا تَلَّهُ يَعْمَلُ عَلَيْهِمَا .
وَهَذَا الضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عِنْدَ الْخُطُوبِ الْحَادِثَةِ ، وَيَتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ الْأُمُورِ
النَّازِلَةِ الطَّارِئَةِ . وَالْآخِرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالِ تَقْدِيمِ وَرَسْمِ فَرْطِ . .
(أَنْظَرَ كِتَابَ الصَّنَاعَتَيْنِ (٦٩) .

(١) دِيوَانُ أَبِي تَمَّامٍ ١٥٤ مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ فِي مَدْحِ الْمُعْتَصِمِ وَذِكْرِ
إِحْرَاقِ الْأَفْشِينِ ، وَمَطْلَعُهَا :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسِّيُوفُ عَوَارُ فَحَذَارُ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارُ

(٢) قِيدَتْ : سَيِّقَتْ .

(٣) عَصَفَتْهُ صَبِغَتْهُ بِالْعَصْفَرِ

(٤) الْفَاقِرَةُ : الدَّاهِيَةُ وَالْفَقَارُ : خِرَزَاتُ الظُّهْرِ .

(٥) مَشْبُوبَةٌ : مُشْتَعَلَةٌ ، وَهِيَ وَصْفٌ لِلنَّارِ الْمَذْكُورَةِ فِي بَيْتِ قَبْلِ

هَذَا أَغْفَلَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ ، وَهُوَ :

لِللَّهِ مِنْ نَارِ رَأَيْتَ ضِيَاءَهَا ضِاقُ الْفَضَاءِ بِهِ عَلَى النَّظَارِ

صَلَّى لَهَا حَيًّا وَكَانَ وَقُودَهَا مَيْتًا وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَاءِ
وَهَذَا مِمَّا يُعِينُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَعْنَى فِيهِ شَاهِدُ الْحَالِ .

* * *

وقد ذيل البحترى على ما ذكره أبو تمام في وصف المصلبين ، فقال :
كَمْ عَزِيزٍ أَبَادَهُ فَقَدَا يَرْ كَبُ عُوْدًا مُرْكَبًا فِي عُوْدِ
أَسْلَمَتْهُ إِلَى الرُّقَادِ رِجَالُ لَمْ يَكُونُوا عَنْ وَتَرِهِمْ بِرُقُودِ
تَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ ضَبَعُ الْبَوَادِي وَهُوَ فِي غَيْرِ حَالَةِ الْمُحْسُودِ
غَابَ عَنْ صَحْبِهِ فَلَا هُوَ مُوجُوبٌ دُ لَدِيهِمْ وَلَيْسَ بِالْمَفْقُودِ
وَكَانَ امْتِدَادَ كَفَيْهِ فَوْقَ الْ جِذَعِ فِي مَخْفِلِ الرَّدَى الْمَشْهُودِ
طَائِرٌ مَدَّ مُسْتَرِيحًا جَنَاحَيْهِ هِ اسْتِرَاحَاتٍ مُتَعَبٍ مَكْدُودِ
أَخْطَبُ النَّاسُ رَاكِبًا فَإِذَا أُرْ جَلَّ خَاطَبَتْ مِنْهُ عَيْنَ الْبَلِيدِ

وهذه أبياتٌ حسنةٌ قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود ، إلا أن
فيها معنى مأخوذاً من شعر مُسَلِّمِ بْنِ الْوَلِيدِ الْأَنْصَارِيِّ (١) ، وهو قوله :

نَصَبَتْهُ حَيْثُ تَرْتَابُ الرِّيحُ بِهِ وَتَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ أَضْبَعُ الْبَيْدِ

لكن البحترى زاد في ذلك زيادةً حسنةً ، وهي قوله « وَهُوَ فِي غَيْرِ
حَالَةِ الْمُحْسُودِ » .

* * *

(١) ديوانه ١٢١ من قصيدة في مدح داود بن يزيد بن حاتم ابن
خالد بن المهلب ، ومطلعها : -
لاتدع بي الشوق لاني غير معمود نهي النهى عن هوى الهيف الرعايد

وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ مَا جَاءَ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ المُنْتَبِي فِي وَصْفِهِ الحُمَى ،
وَهُوَ قَوْلُهُ (١) :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءٌ فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَدَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامٍ (٢)
أَرَأَيْتَ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقِبَةُ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ
وَقَدْ شَرَحَ أَبُو الطَّيِّبِ هَذِهِ الأَبْيَاتِ حَالَهُ مَعَ الحُمَى .

وَمِنْ بَدِيعِ مَا أَتَى بِهِ فِي هَذَا المَوْضِعِ أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ بنَ حَمْدَانَ (٣) كَانَ

(١) ديوانه ١٤٢/٤ من قصيدته في ذكر الحمى التي كانت تغشاها
بمصر ، ومطلعها :

ملومكما يجلب عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام
(٢) بأربعة سجام : أي ذات سجام ؛ وأراد بالأربعة اللحاظين
والموقنين للعنين ، فإن الدمع يجري من الموقنين ، فإذا غلب وكثر جرى
من اللحاظ أيضا . والمعنى أن الحمى تفارقه عند الصبح ، فكأن الصبح
يطردها ، وأنها إذا فارقت تجرى مدامعها عن أربعة سجام يريد
كثيرة الرخضاء وهو عرق الحمى - فكأنها يبكي عند فراقه محبة له .

(٣) هو سيف الدولة أبو الحسن علي ، صاحب حلب ، ممدوح
المنتبي ، وكان سيف الدولة أديبا شاعرا نقادا للشعر ، يحب جيده ، ويطرب
لسماعه ، وكان يقرب الشعراء وأهل الأدب ، حتى قيل إنه لم يجتمع
ببواب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، وكان
يجالس الشعراء ، وينقد أشعارهم نقد يدل على شاعرية وعلم ، ويبدل
لهم الجوائز السنوية ، توفي سنة ٣٥٦ هـ .

مُخَيِّمًا بِأَرْضِ دِيَارِ بَكْرِ^(١) عَلَى مَدِينَةِ « مَيَّا فَارْقِينَ »^(٢) فَصَفَتِ الرِّيحُ
بِخَيْمَتِهِ ، فَتَطَيَّرَ النَّاسُ لِذَلِكَ ، وَقَالُوا فِيهِ أَقْوَالًا ، فَدَحَهُ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَصِيدَةٍ
يَعْتَدِرُ فِيهَا عَنْ سُقُوطِ الْخَيْمَةِ ، أُولَاهَا :

* أَيْنَعُ فِي الْخَيْمَةِ الْعُدْلُ^(٣) *

فَمَنْهُ مَا أَحْسَنَ فِيهِ كُلِّ الْأَحْسَانِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

تَضَيَّقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤَهَا وَيَرْكُضُ فِي الْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ^(٤)
وَتَقْصُرُ مَا كُنْتَ فِي جَوْفِهَا وَتُرْكَزُ فِيهَا الْقَنَا الذَّبْلُ
وَكَيفَ تَقُومُ عَلَى رَاحَةٍ كَأَنَّ الْجِجَارَ لَهَا أَنْمَلُ

(١) ديار بكر بلاد كثيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل ، وحدها
ما عرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ومنه
حصن كيفا وآمد وميا فارقين .

(٢) ميا فارقين أشهر مدينة بديار بكر ، قيل ما بنى فيها بالحجارة
فهو بناء أنوشروان ، وما بنى بالآجر فهو بناء أبرويز ، والذي يعتمد
عليه أنها من بناء الروم ، لأنها في بلادهم .

(٣) ديوان المتنبي ٣/٦٦ ، وعجز المطالع :

* ويشمل من دهرها يشمل *

ومعنى البيت : أينفع في سقوطها عدل العدل ، فحذف المضاف ،
وروى الخوازمي « أيقده » وهي رواية جيدة ، فلا يقدر فيها محذوف ،
يقول : لا ينفع في هذه الخيمة أن تعذل على سقوطها ، فعذرنا بين ،
والموجب لفعالها ظاهر ، وكيف لها أن تشمل من يشمل الدهر بسلطانه ،
ويجبر عليه بإحسانه .

(٤) الأرجاء النواحي جمع رجا ، والثنية رجوان ، والجحفل
الجيش العظيم . يقول : كل قطر منها يسع جحفلا ، ولكنها تضيق جميعا
بشخصك ، لإجلال لك ، وإعظاما لك أن تغلوك .

فَلَيْتَ وَفَارَكَ قَرَفْتَهُ وَحَمَلْتَ أَرْضَكَ مَا تَحْمَلُ
فَصَارَ الْأَنَامُ بِهِ سَادَةً وَسُدَّتْهُمْ بِالَّذِي يَفْضَلُ
رَأَتْ لَوْنُ نوركَ فِي لَوْنِهَا كَلونِ الْغَزَالَةِ لَا يُغْسَلُ^(١)
وَأَنَّ لَهَا شَرْفًا بِإِذْخًا وَأَنَّ الْخِيَامَ بِهَا تَخَجَّلُ
فَلَا تُنكَرَنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمَنْ فَرَجَ النَّفْسَ مَا يَقْتُلُ
وَلَوْ يُبْلَغُ النَّاسُ مَا يُبْلَغَتْ خَلَاتَهُمْ حَوْلَكَ الْأَرْجُلُ
وَلَمَّا أَمَرْتَ بِتَطْنِيْبِهَا أُشِيعَ بِأَنَّكَ لَا تَرْحَلُ^(٢)
فَمَا اعْتَمَدَ اللهُ تَقْوِيضَهَا وَلَكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ
وَعَرَفَ أَنَّكَ مِنْ هَمِّهِ وَأَنَّكَ فِي نَصْرِهِ تَرْفُلُ
فَمَا الْعَانِدُونَ وَمَا أَتَلُوا^(٣) وَمَا الْحَاسِدُونَ وَمَا قَوْلُوا^(٤)
هُمْ يُطْلَبُونَ ، فَمَنْ أَدْرَكُوا؟ وَهُمْ يَكْذِبُونَ ، فَمَنْ يَقْبَلُ؟
وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ مَا يَشْتَهُونَ وَمِنْ دُونِهِ جَدُّكَ الْمُقْبِلُ
هذه الأبيات قد اشتملت على معانٍ بديعةٍ ، وكفى المتنبي فضلًا أن
يأتي بمثلها . وهذا مقامٌ يظهرُ في مثله براءة الناظم والناثر .

- (١) أصل الغزاة ارتفاع الشمس ، وهو وقت سميت الشمس به ، يقول : لون الممدوح ونوره لا يلحقه تغيير ، كلون الشمس الذي لا يزول عنها بالغسل .
- (٢) الأطناب حبال البناء ، والتطنيب مد الأطناب .
- (٣) أتلوا - بالثاء المثناة - جمعوا . ورواية الديوان « وما أملاوا » بالميم .
- (٤) ما قولوا أى كرروا القول وخاضوا فيه ، وقولتى ما لم أقل : أى نسبته إلى ، والتقويل والادعاء .

وقرأتُ في كتاب (الرّوضة) لأبي العباس المبرّد (١) ، وهو كتابٌ جمعه ، واختار فيه أشعار شعراء ، بدأ فيه بأبي نُوَاسٍ ، ثمَّ بمن كان في زمانه ، وانسحب على ذيله ، فقال فيما أورده من شعره : وله معنى لم يُسبق إليه بإجماع ، وهو قوله (٢) :

تُدارُ علينا الرّاحُ في عَسَجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التّصَاوِيرِ فَارِسٌ (٣)
قَرَارَتِهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابِهَا مَهًا ثَوْرَتِهَا بِالْعَشِيِّ الْفَوَارِسُ (٤)

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي المعروف بالمبرد ، كان شيخ أهل النحو والعربية ، وإليه انتهى علمها بعد طبقة أبي عمر الجرمي وأبي عثمان المازني ، وكان من أهل البصرة ، حسن المحاضرة ، مليح الأخبار ، كثيرة النوادر قال أبو سعيد السيرافي : سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول : ما رأيت أحسن جوابا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم . وصنف كتباً كثيرة ، ومن أكبرها كتاب « المقتضب » وكتاب « الكامل » . وكان مولد المبرد سنة عشر ومائتين ، ومات سنة خمس وثمانين ومائتين .

(٢) ديوان أبي نواس ٢٩٥ من أبيات أولها :

ودار ندامي عطلوها وأدجوا بها أثر منهم جديد ودارس

(٣) الراح الخمر ، والعسجدية نسبة إلى العسجد وهو الذهب ، ويريد بها كأساً مذهبة لا من ذهب ، وحباه بكذا يجبوه أعطاه ومنحه ، وفارس هي الأمة المعروفة .

(٤) قرارتها أسفلها ، وهي هنا ظرف مكان ، والمها جمع مهاة . وهي البقرة الوحشية يضرب بها المثل في حسن العيون ورواية الديوان « مها تدرها . » وادرى الصيد ختله ، القسي جمع قوس ، يقول : إن الكأس محلاة من أسفلها بصورة كسرى ، أما جوانها فمحلاة بصورة فرسان يتحنون غفلة المها ، ليرموها بسهام أقواسهم .

فَلِرَّاحٍ مَا زَرَّتْ عَلَيْهِ جِيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ^(١)

وقد أذكر كثير العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه إنه معنى مُبتدع .

ويحكى عن الجاحظ^(٢) أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديماً وحديثاً

إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواسٍ انفراداً يبدعه ! .

ولا أعلمُ أنا ما أقول لهما^(٣) ، ولا بنى سوي أن أقول : قد تجاوز بهم حدَّ

الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدؤن هذا يُباعُ الحمار ! .

وفصاحةُ هذا الشعر عندى هي الموصوفةُ . لا هذا المعنى ، فإنه لا كبير كلفةٍ

فيه ، لأن أبا نواسٍ رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير ، فحكاها في شعره .

والذى عندى في هذا أنه من المعانى المشاهدة ، فإن هذه الخمر لم تحمِلْ إلا ماءً

يسيراً ، وكانت تستغرقُ صورَ هذا الكأس إلى مكانِ جيوبها ، وكان الماء فيها

قليلاً بقدر القلانس التي على رءوسها . وهذا حكايةُ حالِ مشاهدةِ البصر .

(١) الحبيب طوق الثوب ، والقلانس جمع قلنسوة لباس للرأس ،

يقول : إنهم كانوا يصبون الخمر في تلك الكأس ، حتى تحاذى أطواق

صور الفوارس ، ثم يمزجونها بالماء حتى تحاذى رءوسهم .

(٢) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى ، ولد

بالبصرة وتربى فيها ، ودرس هناك كل ما كان ذائعا من العلوم

والفنون في أيامه ، ولازم إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى ،

وأخذ عنه ، حتى صار زعيم فرقة تنسب إليه ، وعرف كثيرا من كبار

الكتاب والمترجمين والفرس وغيرهم ، وقرأ كل ما ترجم في زمانه ووقع

عليه نظره ، فكان من كبار العلماء والكتاب ، ومات بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ .

(٣) فى الأصل « لها » فى عبارة غير مفهومة . ولعل الصواب ما

ذكرناه . والإشارة هنا إلى المبرد والجاحظ اللذين عدا هذا المعنى معنى

مبتدعاً ، وأكبرا به من شأن أبى نواس ، فيما نرى .

وكذلك ورد قوله في الخمر أيضاً^(١) :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم تنم
فاسقني الخمر انتي اختمرت بخمار الشيب في الرحم

وهذا معنى مخترع ، لم يُسبق إليه ، وهو دقيقٌ يكادُ لدقته أن يلتحق
بالمعاني التي تُستخرج من غير شاهد حال متصور .

وبلغني أنه اختلف في هذا المعنى بمحضرة الرشيد هارون — رحمه الله —
فقيل : إنه يريد بخمار الشيب في الرحم أن الخمر تكون في جوانبها ذات
زبدٍ أبيض على وجهها . فقال الأصمعي^(٢) : « إن أبا نواس أطفُ خاطراً
من هذا وأسدُّ غرضاً ، فأسألوهُ ، فأحضر وسئل ، فقال : إن الكرم أول
ما يجرى فيه الماء يخرج شبيهاً بالقصنة ، وهي أصل العنقود ، قال الأصمعي^٢ :
ألم أقل لكم إن الرجل أطفُ خاطراً ، وأسدُّ غرضاً ؟ ! » .

وقد جاء لابن حمد يس الصقلی^(٣) في الهلال لآخر الشهر ما لم يأت به غيره ،
وهو من الحسن واللطافة في الغاية القصوى ، وذلك قوله :

كأنما أدهم الظلماء حين نجبا من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

(١) ديوان أبي نواس ٣٢٤ .

(٢) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب عن عبد الملك ، كان
صاحب لغة ونحو ، وإماماً في الأخبار والملح والغرائب ، توفي سنة ٢١٧ هـ
بالبصرة ، وقيل بمرو .

(٣) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمد يس
الأزدي الصقلی ، نشأ بجزيرة صقلية ، وانتقل إلى الأندلس ، ومدح
المعتمد بن عباد ، فأحسن إليه ، وأجزل عطاياه ، مات سنة ٥٢٧ هـ
بجزيرة مبرقة ، وقيل ببلدة بجاية .

وهذه حكايةُ حالِ مُشاهدةٍ بالبصر ، إلا أنه أُبدعَ في التشبيه .

وأمثالُ هذا كثيرةٌ في أقوال المجيدين من الشعراء .

وجملةُ الأمر في ذلك أن الشاعرَ أو الكاتبَ ينظرُ إلى الحالِ الحاضرةِ ، ثم يستنبطُ لها ما يُناسبها من المعاني ، كما فعل النابغة^(١) في مدح النعمان وقد أتاهُ وفدٌ من الوفود ، فمات رجلٌ منهم قبل أن يَرُدَّهُم ، فلما رَفَدَهُم جعل عطاءً ذلك الميتَ على قبرِهِ ، حتى جاء أهله وأخذوه ، فقال النابغة في ذلك :

حياء شقيقٍ فوق أحجارِ قبرِهِ وما كان ينجي قبلَهُ قبرُهُ وإفدٍ
وهذا بيتٌ من جملة أبياتٍ ، فانظرْ كيفَ فعل النابغةُ في هذا المعنى !

وكذلك ورد قولُ أختِ جَسَّاسٍ ، زوجةِ كُليبٍ ، فإنه لما قتلَ جَسَّاسٌ كليباً اجتمع النساءُ إليها ، وَندَبْنَهُ ، فتحدثتُ بهنَّ إلى بعضٍ ، وَقُلْنَ : هذه ليستُ ثائِكةً ، وإنما هي شامتهُ ، فإنَّ أخاها هو القاتلُ ، فَنَمَّ ذلكُ إليها ، فقالت :

(١) هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، أحد أشرف قبيلة ذبيان من القبائل المصرية ، وأحد فحول شعراء الجاهلية ، لقب النابغة لنبوغته في الشعر فجاعة ، وهو كبير ، وهو ممن تكسب بالشعر في الجاهلية ، ولكنه آثر مدح الملوك ، ملوك المناذرة بالخير والغباسة بالشام ، وكان ممن مدحهم من الأولين النعمان بن المنذر فقربه إليه . ثم وشى به عنده ، وهم بقتله ، ففر إلى ملوك الشام فمدحهم ، ولم يطب مقامه بالشام ، فعاد يستعطف النعمان بقصائد رائعة كانت سببا في عفوه عنه ، وطال عمر النابغة ، حتى مات قبيل الإسلام .

يَا ابْنَةَ الْأَقْوَامِ إِنْ شِئْتَ فَلَا تَعَجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي
 فَإِذَا أَنْتِ تَبَيَّنْتَ الَّذِي يُوجِبُ اللَّوْمَ فَلَوْ مِى وَعَظَلِي
 إِنْ أُخْتًا لَمْ أَمْرِي لِيْمَتْ عَلِي (١)
 جَلَّ عِنْدِي فِعْلُ جَسَّاسٍ فَوَا حَسْرَتَا عَمَّ أَنْجَاتٍ أَوْ تَنْجَلِي
 فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلِي وَجَدِي بِهِ قَاطِعُ ظَهْرِي وَمُدْنٍ أَجَلِي
 لَوْ بَعَيْنٍ قُفَّتْ عَيْنٌ سِوَى أُخْتَهَا فَانْفَقَاتِ لَمْ أَحْفَلِي
 يَا قَتِيلًا قَوْضَ الدَّهْرُ بِهِ سَقَفَ بَيْتِي جَمِيعًا مِنْ عَلِي
 هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَجَدَّ ثِقَةً وَأَنْدَسَنِي فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِي
 يَشْتَفِي الْمُدْرِكُ بِالنَّارِ وَفِي دَرَكِي ثَارِي تُكَلُّ مُشْكَلِي
 إِنْ سِي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَأَعْمَلَّ اللَّهُ أَنْ يَرْتَا حَلِي

وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون من الشعراء لاستمظمت ،
 فكيف امرأة وهي حزينه في شرح تلك الحال المشار إليها .

واعلم أنه قد يستخرج من المعنى الذى ليس بمبتدع معنى مبتدع .

فمن ذلك قول الشاعر المعروف بابن السراج فى الفهد :

تَنَافَسَ اللَّيْلُ فِيهِ وَالنَّهَارُ مَعًا فَقَمَّصَاهُ بِجِلْبَابِ مِنَ الْمَقَلِ

وليس هذا من المعانى الغريبة ، ولكنه تشبيه حسن واقع فى موقعه :

(١) هكذا روى صدر البيت فى الأصل ، والمشهور فى روايته :

* إن تكن أخت امرىء ليمت على *

وقد جاء بعدهُ شاعرٌ من أهل الموصل ، يقال له ابن مسهر فاستخرج من هذا البيت معنىً غريباً ، فقال :

وَنَقَطَتْهُ حَبَاءٌ كَيْ يُسَالِمَهَا عَلَى الْمَنَايَا نِعَاجُ الرَّمْلِ بِالْحَدَقِ

وهذا معنىً غريب ، لم أسمع بمثله في مقصده الذي قصد من أجله .

وقليلاً ما يقعُ هذا في الكلام المنظوم والمنثور ، وهو موضع ينبغي أن توضع اليدُ عليه ، وبتدبُّه له .

وكذلك فلتكن سياقة ماجرى هذا الجرى .

وقد جاء في شيء من ذلك في الكلام المنثور .

فمن ذلك ما ذكرته في وصف نساء حسان ، وهو :

« أَقْبَلَتْ رِبَائِبُ الْكِنَاسِ ، فِي مُحْضَرِّ اللَّبَاسِ ، قَقِيلٌ : إِنَّمَا يَخْتَرْنَ
الْخَضْرَاءَ مِنَ الْأَلْوَانِ ، لِيَصِحَّ تَشْبِيهُنَّ بِالْأَغْصَانِ » .

وهذا معنى غريب ، وربما يكون قد سُبقتُ إليه ، إلا أنه لم يبلغني ، بل ابتدعته ابتداءً .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن مناظرة بلد ، فذكرت

القتال بالمنجنيق (١) ، وهو :

« فزَلْنَا بِرَأْيٍ مِنْهُ وَمَسَمَعٍ ، وَاسْتَدْرْنَا بِهِ اسْتِدَارَةَ الْخِتَامِ بِالْأَصْبَعِ ،

(١) هو اسم أعجمي ، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ، ويجمع على مجانيق ومناجيق ، قال ابن قتيبة في كتابه « المعارف » وأبو هلال العسكري في « الأوائل » : وهو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة =

وَأَصْبَتِ الْمُنْجِنِيقَاتُ فَأَنْشَأَتْ سُحْبًا صَمْبَةً الْقِيَادَ ، مَخْتَصَّةً بِالرُّبَا دُونَ الْوَهَادِ ،
فَلَمْ تَزَلْ تَقْدِفُ السُّورَ بِوَيْبُلٍ مِنْ جُلُودِهَا ، وَتَقْجُؤُهَا بِرُعُودِهَا قَبْلَ
بُرُوقِهَا ، وَرُوقِ السَّحْبِ قَبْلَ رُعُودِهَا ، حَتَّى غَادَرَتْ الْحَزْنَ مِنْهُ سَهْلًا ،
وَالْعَامِرَ بَلَقَمًا مُخْلِ .

وفي هذا معنيان غريبان .

أحدهما : أن هذه السحب تخصُّ الرُّبَا دُونَ الْوَهَادِ .

والآخرُ : أن رُعُودَهَا قَبْلَ بُرُوقِهَا . وكلُّ ذلك يُقْفِظُنُ لَهُ بِالشَّاهِدَةِ .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب ، فقلت :

« إِذَا تَخَاقَ الْمَرءُ بِخُلُقِ الْبَاسِ وَالنَّدَى لَمْ يَخْفُ عَرِضُهُ دَنَسًا ، كَمَا أَنَّ الْمَاءَ
إِذَا بَلَغَ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ نَجَسًا » .

وهذا المعنى مبتدعٌ لي ، وهو مستخرجٌ من الحديث النبويِّ في قوله
صلى الله عليه وسلم « إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا » .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته في وصف مفازة ، فقلت

« مَفَازَةٌ لَا تُوْطَأُ بِأَجْفَانِ سَاهِرٍ ، وَلَا تُقْتَلُ بِافْتِحَامِ خَابِرٍ ، وَلَوْلَا مَسِيرُ
الهِلَالِ مِنْ فَوْقِهَا لَمَا عَرَفَتْ تَمَثَالَ حَافِرٍ » :

* * *

= المنجنيق التي يجعل فيها الحجر . ويجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ،
ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة ، فيخرج الحجر منه ، فما
أصاب شيئاً إلا أهلكه .

ومن ذلك ما ذكرته في كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار
بلد من بلاد المكتوب عنه :

وكان ذلك في زمن الشتاء ، فسقطَ عَلَى العدوِّ ثلجٌ كثيرٌ صار به
محصوراً ، فقلت :

« وقد عَاجَلَهُ قِتَالُ البُرُوقِ قَبْلَ البَوَارِقِ ، وَأَحَاطَ بِهِ التَّلَاجُ فَصَارَ خِنَادِقُ
تَحْوُلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخِنَادِقِ ، وَالشِّتَاءُ قَدِ لَقِيَ عَسْكَرَهُ مِنَ البَرْدِ بِعَسْكَرِهِ ،
وَالسَّمَاءُ قَدِ قَابَلَتْهُ بِأَغْبَرٍ وَجْهَهَا لِأَبْخَضَرِهِ ، وَالأَرْضُ كَأَنَّهَا قُرْصَةُ النَّقِيِّ ،
وَعَسَى أَنْ تَكُونَ أَرْضَ مُحْشَرِهِ . »

والمعنى المخترعُ من هذا الكلامِ قولي : « والأرضُ كأنها قرصةُ النَّقِيِّ
وَعَسَى أَنْ تَكُونَ أَرْضَ مُحْشَرِهِ » وهو مُسْتَخَرَجٌ من الحديثِ النبويِّ في
قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءٍ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ »
يُرِيدُ الخُبْزَةَ البِيضَاءَ - ولما كان التَّلَاجُ عَلَى الأَرْضِ مِمَّا لَذَكَ وَمَشَابِهُهَا لَهُ
استنبطتُ أَنَا لَهُ هَذَا المعنى الختِرعَ ، فجاءَ كما تراهُ ، وهو من المعاني التي يدلُّ عليها
شاهدُ الحال .

* * *

وأحسن من هذا كله ما كتبتَه في فصل من كتابِ الى ديوانِ الخِلافةِ
ببغداد ، فقلت :

« وَدَوْلَتُهُ هِيَ الضَّاحِكَةُ ، وَإِنْ كَانَ نَسْبُهَا إِلَى العَبَّاسِ ، وَهِيَ خَيْرُ دَوْلَةٍ
أُخْرِجَتْ لِلزَّمَنِ ، كَمَا أَنَّ رَعَايَاهَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وَلَمْ يُجْعَلْ شِعَارُهَا
مِنَ لَوْنِ الشَّبَابِ إِلَّا تَفَاوُلًا بِأَنَّهَا لَا تَهْرَمُ ، وَأَنَّهَا لَا تَزَالُ مُحْبُوبَةً مِنَ أبْكَارِ
السَّعَادَةِ بِالحَبِّ الَّذِي لَا يُسْتَلَى وَالوَصْلِ الَّذِي لَا يُصْرَمُ ، وَهَذَا معْنَى اسْتِنْبَاطِهِ
الخِدَامُ لِلدَّوْلَةِ وَشِعَارِهَا ، وَهُوَ مِمَّا لَمْ تَحْطَ بِهِ الأَقْلَامُ فِي خَطِّهَا ، وَلَا أَجَالَتُهُ
الخَوَاطِرُ فِي أَفْكَارِهَا . »

وغرابةُ هذا المعنى ظاهرةٌ ، ولم يأت بها أحدٌ قبلي .

* * *

وبلغني من المعاني المخترعة أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ بنى باباً من أبوابِ المسجدِ الأقصى بالبيت المقدس ، وبني الحجَّاجُ باباً إلى جانبه ، فجاءت صاعقةٌ فأحرقت البابَ الذي بناه عبدُ الملك ، فتطيرَ لذلك : وشقَّ عليه ، فبلغَ ذلك الحجَّاجَ ، فكتب إليه كتاباً : « بلغني كذا وكذا ، فليمنِ أميرَ المؤمنين أنَّ الله تقبلَ منه ، وما مثلي ومثله إلا كابنِي آدمَ إذ قرَّبنا قرَّبانا فتقبلَ مِن أحدِهما ، ولم يُتقبلَ مِنَ الآخرِ » فلما وقفَ عبدُ الملكَ على كتابهِ سرِّي عنه .

وهذا معنى غريب استخرجهُ الحجَّاجُ من القرآن الكريم ، وهو من المعاني المناسبة لما ذكرتُ فيه ، ويكفي الحجَّاجُ من فطنةِ الفكرة أن يكونَ عندهُ استعدادٌ لاستخراجِ مثل ذلك .

* * *

وأما المعاني التي تُستخرجُ من غيرِ شاهدِ حالٍ متصورةٍ فإنَّها أصعبُ منَّا مما يُستخرجُ بشاهدِ الحالِ ، ولأمرٍ ما كانَ لأبكارها سرٌّ لا يهجمُ على مكانه ، إلا جنانُ الشهم ، ولا يفوزُ بمحاسنه إلا من دقَّ فهمه حتى جلَّ عن دقة الفهم ، وللهجومُ على عذارى المعاني الحمية بحجبِ البواتر أيسرُ من الهجومِ على عذارى المعاني الحمية بحجبِ الخواطر ، وما ذلك مما يلقيه إليك الأستاذُ وليس يقومُ به إلا الفذُّ ، ولا أقولُ الأفذاذَ ، وأين الذي ينشئُ فيحسنُ فيها الأنشاءَ ، ويُبرزُ فيها صوراً يركبها كيف يشاء ؟

ومنَ نظرَ إلى هذا الموضعِ حقَّ النظر ، وأخذَ فيه بالعينِ دونَ الأثرِ علمَ

أنه مقام يزنق بمعارف الأفهام ، فكيف بمواقف الأقدام ، وليست المعاني فيه
إلا كالأرواح ، ولا الألفاظ إلا كالأجسام ، فمن شاء أن يخناق خلقاً من
الكلام ، فليأت به على صورة الأناسي لا على صورة الأنعام ، فإن من
القول الغانية التي هي أحسن من الغانية ، ومنه البهيمية التي لا تشبه إلا
بالسانية (١) .

فَمَا جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

شَرَابُكَ فِي التَّرَابِ إِذَا عَطِشْنَا وَخُبْرُكَ عِنْدَ مُنْقَطِعِ التَّرَابِ
وَمَا رَوْحَتَنَا لِقَدْبِ عَنَا وَلَكِنْ خِفَتْ مَرَزِيمَةُ الذَّبَابِ (٢)

فالبيت الثاني من هذين البيتين هو المشار إليه بأنه معنى مبتدع .

ويحكى عن الرشيد هارون - رحمه الله - أنه قال : لم يُهَجَّ بِإِدٍ وَلَا
حَاضِرٌ بِمَثَلِ هَذَا الْهَجَاءِ ! .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ (٣) :

(١) من معاني السانية الناقة يسقى عليها ، وسنت تسنو سقت الأرض ؛
وسنت النار علا ضؤوها .

(٢) حكى الجاحظ أن الرشيد قال : لا أعرف لمحدث أهجى من
قول أبي نواس :

وما روحتنا لتدب عنا ولكن خفت مرزومة الذناب
شرايبك في السحاب إذا عطشنا وخبزك عند منقطع التراب
وكيف تنال مكرومة ومجداً وخبزك محرز عند الغياب
وإبطلك قابض الأرواح يرمي بسهم الموت من تحت الثياب
وانظر ديوان أبي نواس ١٤ .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن يزيد الشيباني ، ومطلعها :
أجررت جبل خليع في الهوى غزل وشمرت همم العذال في العذل

تَنَالُ بِالرَّفْقِ مَا تَعْنِي الرَّجَاءُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلًا يَأْتِي عَلَى مَهْلٍ
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

تَسْكُنُ سَاكِنَ الدُّنْيَا مُحَمَّدٌ فَقَدْ أَضْحَتْ لَهُ الدُّنْيَا عِيَالًا
كَأَنَّ أَبَاهُ آدَمَ كَانَ أَوْصَى إِلَيْهِ أَنْ يَمُوتَهُمْ فَعَمَالًا
وهذا معنى دندن^(١) حوله الشعراء ، وفاز على بن جبلة بالإفصاح عنه .

* * *

وقد قيل : إن أبا تمام أ كثر الشعراء المتأخرين ابتداءً للعمانى ، وقد
عدت معانيه المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى .

وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وما هذا من مثل أبي تمام كبير ،
فإني أنا عدت معاني المبتدعة التي وردت في مكاتباتي ، فوجدتها أ كثر
من هذه العدة ، وهي مما لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه !

فأما ماورد لأبي تمام فمن ذلك قوله^(٢) :

يَأْيُهَا الْمَلِكُ النَّاسِي بِرُؤْيَتِهِ وَجُودُهُ لِمُرَاعِي جُودِهِ كَتَبُ
لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصَعِنِكَ لِي أَمَلًا
إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجِّي حِينَ تَحْتَجِبُ

(١) أصل الدندن صوت الذباب والزنابير ، ودندن صوت وطن ،
ودندن فلان نغم ولا يفهم منه كلام .

(٢) ديوان أبي تمام ٢٢ من أبيات أربعة يعاتب بها أبادلف ، وقيل
عبد الله بن طاهر ، والبيتان اللذان قبلهما :

صبراً على المظلّم يمله الكذب فللخطوب إذا سامحتها عقب
على المقادير لوم إن منيت به من عاذل وعلى السعى والطلب

وكذلك قوله :

رَأَيْنَا الْجُودَ فِيكَ وَمَا عَرَضْنَا لِسَجَلٍ مِنْهُ بَعْدُ وَلَا ذُنُوبٍ
وَلَكِنْ دَارَةُ الْقَمَرِ اسْتَمْتَمَتْ فَدَائِمًا عَلَيَّ مَطَرٌ قَرِيبٌ

وكذلك قوله في الهجاء^(١) :

وَأَنْتَ تُدِيرُ قُطْبَ رَحًا مَلِيًّا وَلَمْ تَرَ لِلرَّحَا الْعَلِيَاءِ قُطْبًا
تَرَى ظَهْرًا بِكُلِّ صِرَاعٍ قَرْنٍ إِذَا مَا كُنْتَ أَسْفَلَ مِنْهُ كَعْبًا^(٢)
وكذلك قوله^(٣) :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أُنْحَاحَ لَهَا لِسَانِ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِمَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ
مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ

وكذلك قوله^(٤) :

لَا تَنْكُرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مِمَّا لَشَرُّوْدًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ

(١) ديوان أبي تمام ٤٨٦ من قصيدة يهجو بها عتبة بن أبي
عاصم ، ومطلعها :

أَعْتَبَةُ أَجْبَنُ الثَّقَلَيْنِ عَتْبَا بَجْهَلِكَ صَرْتَ لِلْمَكْرُوهِ نَصْبَا
(٢) في الأصل :

تَرَى قَطْرَ بِكُلِّ صِرَاعٍ قَرْنٍ إِذَا مَا كُنْتَ أَسْفَلَ مِنْهُ جَنْبَا
والصواب عن الديوان .

(٣) ديوان أبي تمام ٨٥ من قصيدة يمدح فيها أبا عبد الله أحمد
ابن أبي دواد ، ويعتذر إليه ، ويستشفع بخالد بن يزيد ، ومطلعها :

أَرَأَيْتَ أَى سَوَالِفٍ وَخُدُودٍ عَنَتَ لَنَا بَيْنَ اللُّوَى وَبُرُودِ
(٤) ديوانه ١٧٢ من قصيدة في مدح أحمد بن المعتصم ، ومطلعها :

مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةٍ مِنْ بَاسٍ تَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ

فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَفْلَّ لِأُنُورِهِ مِثْلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ (١)
وكذلك قوله (٢) :

لَا تُنْكِرِي مَطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْفَيْئِ
فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِ
وكذلك قوله في الشَّيْبِ (٣) :

شُعْلَةٌ فِي الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعْتَنِي فِي صَمِيمِ الْفُوَادِ تَكْلًا صَمِيمًا
تَسْتَشِيرُ الْأُمُومُ مَا أَكْتَنَ مِنْهَا ضُعْدًا وَهِيَ تَسْتَشِيرُ الْأُمُومَا
فالييت الثاني من اللعاني المحترعة ، وقد تفقه فيه فجعله مسألة من مسائل
الدور ، وهذا من إغراب أبي تمام المعروف .
وهذا القدر كاف من جملة معانيه ، فإننا لم نستقصها هاهنا .

* * *

ومن هذا الباب قول ابن الرومي (٤) :

(١) يشير بذلك إلى قول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض
مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » سورة النور . آية ٣٥ ، والمشكاة
هي الكوة في الجدار غير النافذة .
(٢) الديوان ٢٤٦ من قصيدة في مدح الحسن بن رجاء ، مطلعها :
يكفي وعاك فإنني لك قال ليست هوادي عزمي بتوال
والوغي الحرب ، والقالي المبغض ، والهوادي الأوائل ،
والتوالي الأواخر .

(٣) الديوان ٢٩١ من قصيدة في مدح أبي سعيد ، مطلعها :
إن عهداً لو تعلمان ذميما أن تناما عن ليأتي أو تنيا
(٤) ولد أبو الحسن علي بن العباس الرومي ببغداد ، وعاش فيها
متأثراً بمزاجه اليوناني وبالثقافة العربية كذلك ، فكان شعره صورة طريفة =

كُنْ أَمْرِي مَدْحَ أَمْرٍ لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَسَاءَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ
وَكذلك قَوْلُهُ (١) :

عَدُوْلِكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
وَكذلك قَوْلُهُ (٢) :

لِمَا تُؤَدِّنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطُّفْلِ سَاعَةَ بَوْلِهِ
وَأِلَّا فَمَا يُبْسِكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّمَا لِأَوْسَعِ (٣) تَمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْنَعِدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا لِلسَّهْلِ كَأَنَّهُ بِمَا هُوَ لِأَقْرَبِ (٤) مِنْ أَذَاهَا يُهْدَدُ
وَكذلك قَوْلُهُ (٥) :

رَدَدْتَ عَلَيَّ مَدْحِي بَعْدَ مَظَلِّ وَقَدْ دَنْتَ مَلْبَسَهُ الْجَدِيدَا

= في الأدب العربي من حيث الابتكار والتنسيق المنطقي والاستقصاء ، في أسلوب جزل متين ، وقد أجاد فنون الشعر وخاصة الوصف . مات ابن الرومي سنة ٢٨٣ هـ ، والبيتان من أبيات أربعة ، وبعدهما :

غير فإني لا أطيل مدأحي إلا لأوفى من مدحت ثناءه
وأعد ظلما أن أقل مديحته حمداً وأسخط أن أقل عطاءه
(١) ديوان ابن الرومي ١٣٩ ورواية الديوان « يحول » موضع « يكون »
في عجز البيت الثاني .

(٢) الديوان ٣٩٣ من قصيدة في مدح صاعد بن مخلد ، ومطلعها :
أبين ضلوعي حمرة تتوقد على ما مضى أم حسرة تتجدد
(٣) رواية الديوان « لأفسح »

(٤) رواية الديوان « بما سوف يلقي »

(٥) ديوان ابن الرومي ٣٧٠ من أبيات أربعة .

وَقَلْتُ : امدح به من شئت غَيْرِي وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ المَدْحَ الرَّدِيدَا (١)
وَهَلْ لِلْحَيِّ فِي أَكْفَانٍ مَيِّتٍ لَبُوسٌ بَعْدَ مَا أَمْتَلَاتُ صَدِيدَا (٢)

وقد ورد لأبي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ مِنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ (٣) :

أَجْزَيْتَنِي إِذَا أَنْشِدْتَ مَدْحًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَنَاكَ الْعَادِحُونَ مُرَدًّا
وَدَعَّ كُلُّ صَوْتٍ بَعْدَ (٤) صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الصَّاحِبُ المَخْجِي وَالْآخِرُ الصَّدَى
فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ قد توارَدَ على معناه الشعراء قديمًا وحديثًا ، لكنَّ الْبَيْتَ
الثَّانِي - في التَّمثِيلِ الذي مثَّله - ليس لِأَحَدٍ إِلَّا لَهُ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ (٥) :

بِهَجْرٍ سِيُوفِكَ أَعْمَادَهَا تَمَنَّى الطَّلِي (٦) أَنْ تَكُونَ الْعُمُودَا
إِلَى إلهام تَصْدُرُ عَنْ مِثْلِهِ (٧) تَرَى صَدْرًا عَنْ وُزُودٍ وَرُودَا

(١) بعد هذا البيت بيت أغفله ابن الأثير ، وهو :

ولا سيما وقد أعبقت فيه مخازيك اللواتي لن تبيدا

(٢) رواية الديوان « وما للحي » موضع « وهل للحي » .

(٣) ديوان المتنبي ١/ ٢٩١ من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ،

ويهنيه بعيد الأضحى ، ومطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

(٤) رواية الديوان « غير صوتي » .

(٥) ديوان المتنبي ١/ ٢٦٩ من قصيدة في مدح بلدر بن عمار

الأسدي ، ومطلعها :

أحلما نرى أم زمانا جديدا أم الخلق في شخص حتى أعيدا

(٦) الطلي الأعناق ، والعمود جمع عمد وهو جفن السيف .

(٧) إلهام الرعوس . يقول : أبدأ سيوفك تصدر عن هام إلى

هام أخرى .

وكذلك قوله في بدر بن عمار ، يُهْنِيهِ بِبُرْثِهِ مِنْ مَرَضٍ (١) :
 قَصِدْتَ مِنْ شَرْقِيهَا وَمَغْرِبِيهَا حَتَّى اشْتَكَّتْكَ الرَّكَابُ وَالسُّبُلُ
 لَمْ تُبْنِقْ إِلَّا قَلِيلَ عَافِيَةٍ قَدْ وَفَدْتَ تَجْتَدِيكُمَا الْعِلَلُ
 وقد وقفتُ على ما شاء الله مِنْ أشعارِ الفحولِ مِنَ الشُّعْرَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ،
 فَلَمْ أَجِدْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي ذِكْرِ الْعَرَضِ مَا يُعَدُّ مَعْنَى مُخْتَرَعًا ، لَا ، بَلْ لَمْ أَجِدْ
 مِنْ أَقْوَالِهِمْ شَيْئًا مَرَضِيًّا ، مَا عَدَا الْمُتَلَبِّي ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمَرَضَ فِي عَدَّةِ مَوَاضِعَ
 مِنْ شِعْرِهِ ، فَأَجَادَ ، وَهَذَا الْبَيْتُ الثَّانِي مِنْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مَعْنَى مُخْتَرَعٌ لَهُ ،
 وَقَدْ أَحْسَنَ فِيهِ كُلَّ الْإِحْسَانِ .

ومما ابتدعه بإجماع قوله في مدح عضد الدولة في قصيدته النونية
 الَّتِي مَطَّلَمُهَا :

* مَقَانِي الشُّعْبِ طِيْبًا فِي الْمَغَانِي (٢) *

فقال عند ذكره :

(١) الديوان ٣ / ٢١٧ من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار وقد فصد
 لعاة ، ومطلعها :

أبعد نأى المليحة البخل في البعد ما لا تكلف الإبل
 (٢) ديوان المتنبي ٤ / ٢٥١ ، وعجز البيت : * بمنزلة الربع من

الزمان * .

وهو مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس
 وأبا دلف ، ويذكر طريقة بشعب بوان ، والمغاني : جمع مغنى ، وهو
 المكان الذى فيه أهله ، والشعب : هو شعب بوان ، وهو موضع كثير
 الشجر والمياه ، يعد من جنان الدنيا ، كنهه الإيلة ، وسغد سمرقند ،
 وغوطه دمشق . وشعب بوان بأرض فارس بين أرجان والنوبندجان .

فَعَاشَا عَيْشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا وَلَا يَتَحَادَدَانِ (١)
 وَلَا مَلَكًا سِوَى مُلِكِ الْأَعَادِي وَلَا وَرثَانًا سِوَى مَنْ يَقْتُلَانِ (٢)
 وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَأَثَرَاهُ لَهُ يَأْيُ حُرُوفٍ أَنْيْسِيَانِ (٣)

أى : جعل الله ابني عدوِّ كآثره — يعنى ابني عضدِ الدولة — كياءى حروفِ تَضْعِيرِ « إنسان » ، فإن ذلك زيادةٌ ، وهو نقصٌ فى المقدار .

إِلَّا أَنْ سَبَكَ هَذَا الْبَيْتَ قَدْ شَوَّهَهُ ، وَأَذْهَبَ طَلَاوَةَ الْمَعْنَى الْمُنْدَرَجِ تَحْتَهُ .
 وَمِنْ مَعَانِيهِ الْمَبْتَدَعَةُ قَوْلُهُ (٤) :

فَإِنْ تَفَقُّ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ
 وَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ (٥) :

صَدَمَتْهُمْ بِحَمِيمِ أَنْتَ غُرَّتُهُ وَسَمَّهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمِ (٦)

(١) يدعو لهما بالبقاء الدائم بقاء الشمس والقمر ، ينتفع الناس بضوءهما ، ولا يكون بينهما تحاسد ولا اختلاف .

(٢) هذا دعاء لأبيهما بطول الحياة ، بقول : لا ملكا ملكك ، بل ملك الأعداى ، ولا وراثك ، إنما يرثان من يقتلانه من الأعداى .

(٣) يقول . عدوك الذى له ولدان وكآثرهما ، كياءين زائدين فى « أنيسيان » لأنه إذا كان مكبرا كان خمسة أحرف ، فإذا صغر زيد فيه ياعان فى عدده ، ونقص فى معناه وفخره ، فهما زائدتان فى نقصه .

(٤) الديوان ٢٠/٣ من قصيدة فى رثاء والدة سيف الدولة ، ومطلعها :
 نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال

(٥) الديوان ٢٣/٤ من قصيدة فى مدح سيف الدولة ، ومطلعها :
 عقيبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

(٦) الحميس : الحيش ، والغرة : الوجه ، والسهمرية : الرماح ، والغمم : كثرة الشعر وإسباله على الوجه .

فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ يَسْتَقُطْنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ
وَهَذَا مِنْ أَعَاجِيبِ أَبِي الطَّيِّبِ الَّتِي بَرَّرَ فِيهَا عَلَى الشُّعْرَاءِ .

* * *

ومن الإحسان في هذا الباب قول بومضهم :
وَقَدْ أَشَقُّ الْحِجَابَ الصَّعْبَ مَأْرَبُهُ دُونِي وَآبِي وَوُجَا فِيهِ إِنْ طُرِقَا
كَالطَّيْفِ يَا بِي دُخُولَ الْجَنَنِ مُنْفَتِحًا وَلَيْسَ يَدْخُلُهُ إِلَّا إِذَا انْطَبَقَا
ورأيت ابن حمدون البغدادي^(١) صاحب كتاب « التذكرة » قد أوردَ
هذين البيتين في كتابه ، وقال : قد أغرب هذا الشاعر ، ولكنه خطأ ، وجرى
على عادة الشعراء ، لأنَّ الطَّيْفَ لَا يَدْخُلُ الْجَنْنَ ، وَإِنَّمَا يُتَخَيَّلُ إِلَى النَّفْسِ .
وهذا كلامٌ مَنْ لَمْ يَطْعَمَ مِنْ شَجَرَةِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ . وليس مثله عندي
إلا كما يُحْكِي عَنْ مَلِكِ الرُّومِ إِذْ أَنْشَدَ عِنْدَهُ بَيْتَ الْمُتَنَبِّيِّ الَّذِي هُوَ :
كَأَنَّ الْعَيْسَ كَانَتْ قَوْقَ جَفْنِي مُنَاخَاتٍ ، فَلَمَّا تُرُنَّ سَالَا^(٢)

(١) هو محمد بن الحسن محمد بن علي بن حمدون ، من بيت
فصل ورياسة ، وكان ذا معرفة بالأدب والكتابة ، سمع وروى ،
وصنف كتاب « التذكرة » في الأدب والنوادر والتواريخ ، وهو كتاب
كبير يدخل في اثني عشر مجلدا ، اختص بالمستنجد ، يجتمع به
ويناديه ، وولاه ديوان الزمام ، توفي محبوساً سنة اثنتين
وستين وخمسمائة .

(٢) ديوان المتنبي ٣ / ٢٢٢ من قصيدة له في مدح بدر بن عمار ومطلعها :
بقائى شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زمو لا الجمالا
ومعنى البيت : كنت لا أبكى قبل فراقهم ، فكأن إبلهم ببروكها
كانت تمسك بكائى ودمعى عن السيل ، فلما أثاروها الرحيل سألت
دمرعى ، فكأنتها كانت مناخة فوق جفنى .

فسأل عن المعنى ، ففسّر له ، فقال : ما سمعتُ بأكذبَ من هذا الشاعر ،
أرأيتَ مَنْ أَنَاخَ الْجَمَلَ عَلَى عَيْنَيْهِ لَا يِيهَاكُهُ ؟

وَمِنْ مَحَاسِنِ هَذَا الْقِسْمِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :
تَخَيَّرَهُ اللَّهُ مِنْ آدَمَ فَمَا زَالَ مُفَجَّدِرًا يَرْتَقِي
وَكذَلِكَ قَوْلُ الْآخَرِ :

بِأَيِّ غَزَالٍ غَازَلْتَهُ مُقَلَّتِي بَيْنَ الْغُورِ وَبَيْنَ شَطَى بَارِقِ (١)
عَاطِيَتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْجَبُ ذَيْلُهُ صَهْبَاءَ كَالْمَسْكِ الْفَتِيْقِ لِنَاشِقِ (٢)
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْنِهِ وَذُوَابَتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي
حَتَّى إِذَا مَاتَ بِهِ سِنَّةُ الْكِرَى زَحْرَحْتُهُ شَيْنًا وَكَانَ مُعَانِقِي
أَبْعَدْتُهُ عَنِّ أَضْلَعِ تَشْتَاقُهُ كَيْ لَا يَنَامَ عَلَيَّ وَسَادِ خَافِقِي

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على
القلوب ، حتى كادت ترقص رقصاً .

والبيت الأخير منه هو الموصوفُ بالإبداع ، وبِه وبأمثاله أقرت الأبصارُ
بفضل الأتباع .

(١) الغوير مواضع ، منها ماء لكلب بالسماوة بين العراق والشام ،
وماء بين العقبة والقاع في طريق مكة ، وموضع على الفرات . وبارق
ماء بالعراق ، وهو الحد من القادسية إلى البصرة ، وهى من
أعمال الكوفة .

(٢) فتق المسك بغيره استخراج رائحته بشيء تدخله فيه .

وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَوْلُ بَعْضِ الْمَصْرِيِّينَ — يَهْجُو إِنْسَانًا يَقَالُ لَهُ
«ابن طَلِيلٍ» احْتَرَقَتْ دَارُهُ :

انظُرْ إِلَى الْأَيَّامِ كَيْفَ تَسْوِقُنَا طَوْعًا إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْأَقْدَارِ
مَا وَقَدَ ابْنُ طَلِيلٍ قَطُّ بِدَارِهِ نَارًا ، وَكَانَ هَلَاكُهَا بِالنَّارِ
وَكذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ابْنِ قَلَاقِسٍ ^(١) ، مِنْ شِعْرَاءِ مِصْرَ :

زِدْ رِفْعَةً إِنْ قِيلَ أَنْفَضَ ^(٢) وَانْخَضَ إِنْ قِيلَ أَثْرَى
كَأَلْفَضٍ يَدْنُو مَا اكْتَسَى ثَمَرًا ، وَيَبْنَى مَا تَعَرَّى
وَهَذَا مِنَ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ .

* * *

وَمِنْ هَذَا الْأَسْلُوبِ قَوْلُ الشَّاعِرِ الْمَعْرُوفِ بِالْحَافِظِ فِي تَشْبِيهِ الْبَهَارِ ^(٣) وَهُوَ :

عُيُونُ تَبْرِ كَأَنَّهَا سَرَقَتْ سَوَادَ أَحْدَاقِهَا مِنَ الْفَسَقِ
فَإِنْ دَجَا لَيْلُهَا بِظُلْمَتِهِ ضُمِّنَ مِنْ خَوْفِهَا عَلَى السَّرِقِ
وَهَذَا تَشْبِيهٌُ بَدِيعٌ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ ، وَهُوَ مِنَ الْإِنْفَاقَةِ عَلَى مَا لَا خَفَاءَ بِهِ .

(١) ابن قلاقس : هو أبو القشوح نصر بن عبد الله بن قلاقس
الإسكندري ، رحل إلى اليمن . ومدح بعض رجالها ، وعاد بثروة ،
فانكسر المركب ، فغرق ما كان معه بالقرب من دهلك ، فعاد إلى اليمن .
ثم انتقل إلى صقلية ، ثم توفي بعيداً على شاطئ البحر الأحمر من
بلاد مصر سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) أنغض إذا تحرك واضطرب ، وأنغض رأسه حركة كالمتعجب
من شيء .

(٣) البهار بالفتح العرار الذي يقال له عين البقر ، وهو بهار البر ،
وهو نبت جعد له فقاحة صفراء تنبت أيام الربيع ، يقال لها العرارة ،

وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا :

لَا تَضَعُ مِنْ عَظِيمٍ قَدْرًا وَإِنْ كُنْتَ مُشَارًا إِلَيْهِ بِالْعَظِيمِ
فَالشَّرِيفُ الْعَظِيمُ يَنْقُصُ قَدْرًا بِالْتَعَدِّي عَلَى الشَّرِيفِ الْعَظِيمِ
وَلَعُ الْخَمْرِ بِالْمَقُولِ رَمَى الْخَمْرَ بِدَنْجِيْسِمَا وَبِالتَّخْرِيمِ
وَمِنْ غَرِيبٍ مَا سَمِعْتُهُ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ الْمَعَارِبَةِ
يُرْنِي قَتِيلًا :

غَدَرْتُ بِهِ زُرْقُ الْأَسِنَّةِ بَعْدَ مَا قَدْ كُنَّ طُوعَ يَمِينِهِ وَسِمَالِهِ
فَلْيَحْذِرِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ نُجُومَهُ إِذْ بَانَ غَدْرُ مَنَاهَا بِمِثَالِهِ

* * *

وَكَذَلِكَ جَاءَ وَصْفُ بَعْضِ الْمَنَاوِيَةِ فِي الْخَمْرِ وَكَاسَاتِهَا :

ثَقَلْتُ زُجَاجَاتُ أُنْتَدْنَا فُرْغًا حَتَّى إِذَا مُلِئَتْ بِصَرْفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ وَكَذَا الْجِسْمُ تَخِفُ بِالْأُرُوجِ
وَهَذَا مَعْنَى مُبْتَدِعٍ ، أَشْهَدُ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِالْمَقُولِ فِعْلَ الْخَمْرِ سَكْرًا ، وَيَرِقُّ
كَارَقَتْ لُطْفًا ، وَيَفُوحُ كَمَا فَاحَتْ نَشْرًا .

* * *

وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ابْنِ حَمْدٍ يَسُ الصَّقَلِيِّ :

يَا سَالِبًا قَمَرَ السَّمَاءِ جَمَالَهُ أَلْبَسْتَنِي لِلْحُزْنِ ثَوْبَ سَمَائِهِ
أُضْرَمْتُ قَلْبِي فَارْتَمَى بِشَرَارَةِ وَقَعَتْ بِخَدِّكَ قَانَطَفَتْ مِنْ مَائِهِ
وَهَذَا الْمَعْنَى دَقِيقٌ جَدًّا .

وَقَدْ سَمِعْتُ فِي الْخَلَالِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَسْمَعَ فَلَمْ أَجِدْ مِثْلَ هَذَا !!

وقد جاءني في الكلام المنثور من هذا الضرب شيء ، وسأذكركم
ها هنا منه نبذة .

فمن ذلك ما ذكرته في وصف صورة مليحة فقلت :

« ألبس من الحسن أنظر لباس ، وخلق من طينة غير طينة الناس ،
وكما زاد حسناً فكذلك ازداد طيباً ، واتفتت فيه الأهواء حتى صار إلى كل
قلب حبيباً ، فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه ، أو مر على النيلوفر (١) ليلاً
لتفتحت أحداقه » .

والمعنى الغريب ها هنا أن الشمس إذا طلعت على النيلوفر تفتح أوراقه ،
وإذا غربت عنه انضمت .

ثم إنني سمعت هذا في شعر الفرس لبعض شعرائهم ، فحصل عندي منه
تعجب .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته في ذم الشيب فقلت :

« الشيب إعدام للإيسار ، وظلام للأنوار ، وهو الموت الأول الذي
يُصلي ناراً من الهم أشد وقوداً من النار ، ولئن قال قوم إنه جلالة فإنهم
دقوا به وما جأوا ، وأفتوا في وصفه بغير علم فضلوا وأضلوا ، وما أراه إلا
محرماً للعمر ، ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا . ومن عجيب شأنه
أنه المملول الذي يشفق من بعده ، والخلق الذي يكره نزاع برده ، ولما
فقد الشباب كان عنه عوضاً ، ولا عوض عنه في فقده » .

(١) النيلوفر ، ويقال النيلوفر ، ضرب من الرياحين ، ينبت في

المياه الراكدة (انظر القاموس ١٤٧/٢)

والمعنى المخترعُ ما هنا في قولِي : « وَمَا أَرَاهُ إِلَّا مُحَرَّاتًا لِلْعَمْرِ ، ولم تدخل
آلةَ الحَرْثِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا ذُلُّوا » .

وهو مُسْتَنْبَطٌ من الحديثِ النبويِّ ، وذلكَ أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
رَأَى آلَةَ حَرْثٍ ، فقال : « مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا ذُلُّوا » فأخذتُ أَنَا
هذا وبتلتهُ إلى الشَّيْبِ ، فجاءَ كما تراهُ في أعلى درجاتِ الحُسْنِ ، وذلكَ لما بينه
وبين الشَّيْبِ من المناسَبَةِ الشَّيْبِيَّةِ ، لأنَّ الشَّيْبَ يَفْعَلُ في البدنِ ما يَفْعَلُهُ
الحراثُ في الأرضِ ، وَإِذَا نَزَلَ بِالْإِنْسَانِ أَحْدَثَ عِنْدَهُ ذُلًّا .

* * *

ومن هذا الباب ما ذكرته في فصل من كتاب الی بعض الناس أعبت
به ، فقلت :

« وَإِذَا كَتَبْتُ مَثَالِيهِه^(١) فِي كِتَابِ اجْتِمَاعِ عَلَيْهِ بَنَاتُ وَرْدَانَ^(٢)
وَحَرْمٌ عَلَى أَنْ أبدأَ فِيهِ بِالْبَسْمَلَةِ ، لِأَنَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ » .
وهذا معنى لطيفٌ في غاية اللطافة ، وهو مُخْتَرَعٌ لِي .

* * *

وكذلك كتبت الی بعض الناس كتابا من هذا الجنس أهزل معه فقلت
في فصل منه ما أذكره ، وهو :

« يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْكُرَني عَلَى وَسْمِهِ بِرِجَائِي دون امتداحي ، فَإِنِّي لم
أَسْمُهُ إِلَّا لِتَحْرُمَ بِهِ الأَضْحِيَّةُ في يَوْمِ الأَضْحِي ؛ ولا شَكَ أَنَّ سَيِّدَنَا مَعْدُودٌ
في جُمْلَةِ الأَنْعَامِ ، غَيْرَ أَنَّهُ من ذواتِ القُرُونِ ، والقُرُونُ عَدُوهُ عندِ الخِصامِ » -
وهذا معنى ابتدعتهُ ابتداءً ، ولم أَسْمعه لأحد من قبلي .

(١) جمع مثلية وهي العيب والمنقصة ، جمعها مثالب . يقال : ثلبه
يثلبه لأمه وعابه .

(٢) بنات وردان دوبيات تلزم الكنف كالجعل والصراصير .

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن هزياة الكفار ، وذلك فضل
منه ، فقلت :

« وكانت الوقعة يوم الأحد مُنتصفَ شهر كذا وكذا ، وهذا هو
اليوم الذي تحيِّره الكفار من أيام الأسبوع ، ونصبوه موصيًّا لِشَرعِ كُفْرِهِم
المشروع ، فحصل ارتيابهم به إذ تضمَّن للإسلام مزيداً ، وقالوا : هذا يومٌ
قد أسلم ، فلا نجعله لنا عيداً ، وقد أفصح لهم لسانه لو كانوا يعلمون ، بأنَّ
الدين عند الله هو الإسلام وأنَّ أوليائه هم المسلمون . »
وهذا معني انفردتُ بابتداعه ، ولم يأت به أحدٌ يَمُنُّ تقدمني .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب ، الى ديوان الخلافة ببغداد ،
وهو في وصف القلم : فقلت :

« وقلمُ الديوانِ العزيز هو الذي يَحْفِضُ ويرفع ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وهو
المُطَاعُ ، لِجَدْعِ أَنْفِهِ وَسَوَادِ لِبَاسِهِ ، وقد وَرَدَ الأمرُ بِطَاعَةِ الحَبَشِيِّ
الأجدع ، ومن أحسنِ صفاته أنَّ شعاره من شعارِ مَوْلَاهُ ، فهو يخلعُ على
عبيده من الكرامة ما يخلعُ . »

في هذه الأوصاف معانٍ حسنة لطيفة ، ومنها معني غريبٌ لم أسبق إليه ،
وهو قولِي « إِنَّهُ المُطَاعُ لِجَدْعِ أَنْفِهِ وَسَوَادِ لِبَاسِهِ ، وقد وردَ الأمرُ بِطَاعَةِ
الحَبَشِيِّ الأجدع » فإنَّ هذا مما ابتكرته .

وهو مستخرجٌ من الحديثِ النبويِّ في ذكرِ الطاعةِ والجماعة ، فقال صَلَّى
اللهُ عليه وسلَّم : « أَطِعْ وَلَوْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا مَا أَقَامَ عَلَيْكَ كِتَابَ اللهِ »
فاستخرجتُ أنا للقلم معني من ذلك ، وهو أنَّ القلمَ يَجْدَعُ وَيَقَمَّصُ لِبَاسَ
السَّوَادِ فَصَارَ حَبَشِيًّا أَجْدَعًا .

وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في قصيدته السيفية (١) ،
فإنه استخرج المعنى المخترع من القرآن الكريم ، وأنا استخرجت المعنى من
الخبر النبوي كما أريتك .

وهذا المعنى المشار إليه في وصف القلم أوردته بعبارة أخرى على وجه
آخر ، ونهت عليه في كتاب « الوشى المرقوم في حل المنظوم » وهذا كتاب
الفتة في صناعة حل الشعر وغيره .

* * *

وبعد هذا فسأقول لك في هذا الموضوع قولاً لم يقله أحد غيري ،
وهو أن المعاني المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ،
فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من الجهولات تأخذها ، وتقلبها ظهراً
لبطن ، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها ، وعند ذلك
تخرج بك الفكرة إلى معلوم ، فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعاني
ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في الجهولات الحسابية .

إلا أن هذا لا يقع في كل معنى ، فإن أكثر المعاني قد طرقت وسبق
إليه ، والإبداع إنما يقع في معنى غريب لم يطرقت ، ولا يكون ذلك إلا في
أمر غريب لم يأت مثله ، وحينئذ إذا كتب فيه كتاب ، أو نظم فيه شعر
فإن الكاتب والشاعر يعثران على مظنة الإبداع فيه .

(١) يشير إلى قوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فإنه قد ضرب المقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
وقد سبق الاستشهاد به في معرض الكلام عن معانيه المبتدعة .

وقد لَابَسْتُ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ . وسأوردُ هَاهُنَا مَا يُحَدِّثُ
حَدُّوهُ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .

ومن ذلك ما كتبتَه عن نَفْسِي إِلَى بَعْضِ مَلُوكِ الشَّامِ وَأَهْدَيْتُ إِلَيْهِ
رُطْبًا ، وَهُوَ :

« خَلَدَ اللَّهُ دَوْلَةَ مَوْلَانَا ، وَعَمَّرَ لَهَا مَجْدًا وَجِنَانًا ، وَخَوَّلَهَا السَّمَادَةَ عَطَاءً
حِسَابًا ، وَأَنْشَأَ اللَّيَالِي بِلِخْدِمَتِهَا عُرْبًا أَنْرَابًا ^(١) ، وَأَبْقَى شَيْبَتَهَا بَقَاءً
لَا يَسْتَجِدُّ مَعَهُ خِضَابًا ، وَلَا جَعَلَ لَهَا فِي مُحَاسِنِ الدُّوَلِ السَّابِقَةِ أَشْبَاهًا
وَلَا أَضْرَابًا ، وَأَلْقَى الْيَأْسَ بَيْنَ أَعْدَائِهَا وَحُسَّادِهَا ، حَتَّى يَبْهَثَ لَهَا فِي الْأَرْضِ
غُرَابًا .

« إِذَا أَرَادَ الْعَبِيدُ أَنْ يُهْدُوا لِمَوَالِيهِمْ قَصَّرَتْ بِهِمْ يَدُ وَجْدِهِمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّ
كُلَّ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِنْدِهِمْ ، لَكِنْ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَنْزَفَةِ مَا يَهْدِي وَإِنْ كَانَ قَدْرُهُ
خَفِيفًا ، وَلَوْلَا اخْتِلَافُ الْبِلَادِ فَمَا يَوْجَدُ بِهَا لِمَا كَانَ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ طَرِيفًا .

« وَقَدْ أَهْدَى الْمَلُوكُ مِنَ الرُّطْبِ مَا يَتَجَلَّى فِي صِفَةِ الْوَارِسِ ، وَبُزْهِىَ
بِحَسَنِهِ حَتَّى كَانَتْهُ لَمْ يُدَنَّسْ بِيَدِ لَأَمْسِ ، وَمَا سُمِّيَ رُطْبًا إِلَّا لِاشْتِمَاقِهِ مِنَ الرُّطْبِ
الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْيَأْسِ .

« وَقَدْ أُنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ثَنَاءً جَمًّا ، وَفَضَّلَ شَجَرَتَهُ
عَلَى الشَّجَرِ بِأَنْ سَمَّاهَا أُمًّا ، وَلِئِنْ عَدِمَ عَرَفًا لَذِيذًا فَإِنَّهُ لَمْ يَعْدَمَ مَنْظَرًا لَذِيذًا

(١) العرب جمع العروب من النساء بوزن العروس، وهي المتعجبة
إلى زوجها ، والأتراب جمع ترب بكسر التاء اللدة والسن ومن ولد
معك ، اقتباس من قول الله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن
أبكاراً * عربا أترابا * لأصحاب اليمين »
سورة الواقعة : الآيات ٣٥ - ٣٨ .

وَلَا طَعْمًا ، وَهُوَ أَوْصَافٌ أُخْرَى هِيَ لِفَضْلِهِ بِمَنْزِلَةِ الشُّهُودِ ، فَهِيَ أَنَّهُ أَوَّلُ غِذَاءٍ يُفْطِرُ عَلَيْهِ الصَّائِمُ ، وَأَوَّلُ غِذَاءٍ يَدْخُلُ بَطْنَ الْمُؤَلُّودِ .

« وَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مَعْدُودٌ مِنَ الْحُلُوءِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ ذَوَاتِ الْغِرَاسِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا سِوَى أَنَّهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَتِلْكَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .

« وَإِذَا أَنْصَفَ وَاصِصْفُهُ قَالَ : مَا مِنْ ثَمَرَةٍ إِلَّا وَهِيَ عَنْهُ قَاصِرَةٌ ، وَلَوْ تَفَاخَرَتِ الْبِلَادُ بِمَحَاسِنِ ثَمَارِهَا لَقَامَتِ أَرْضَ الْعِرَاقِ بِهِ قَاحِرَةٌ .

« وَهِيَ قَدْ سَارَتْ إِلَى بَابِ مُولَانَا وَهُوَ يَجْنِي الْمَنَابِتَ سَارًا إِلَى يَجْنِي الْكَرَّمَ ، وَمَلِكُ الْفَاكِهَةِ وَقَدْ عَلِيَ مَلِكِ الشِّيمِ .

« وَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِ الطَّرِيقُ أَنْشَأَ الْحَسَدَ لغيرِهِ مِنَ الْفَوَاكِهِ أَرِيَا ، وَمَا مِنْهَا إِلَّا مَنْ قَالَ : يَا أَيَّتَنِي كُنْتُ رُطْبًا .

« وَإِنَّ كَانَ مِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي تَخْتَلِفُ فِي الصُّوْرِ وَالْأَسْمَاءِ ، وَيُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَيُسْتَقَى بِشْرَابٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَاءِ ، فَكَذَلِكَ تِلْكَ الشِّيمُ الْعَرِيقَةُ تَتَّحِدُ فِي عُنُصُرِهَا وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ الْوَتِيرَةُ ، وَمَنْ أَفْضَلُهَا شِيمَةُ السَّمَّاحِ الَّتِي تَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنْ عَيْبِهَا ، وَتَسْمَحُ لَهُمْ بِالْعَطَايَا الْكَثِيرَةِ ، وَقَدْ ضَرَبَ لَهَا الْمَمْلُوكُ مِثَالًا ، فَقَالَ : هِيَ كَجَنَّةِ بَرَبُوتِ (١) ، بَلْ ضَرَبَ لَهَا مَا ضَرَبَ لِلْمِثْلِ النَّبَوِيِّ ، وَهِيَ نَخْلَةٌ بِكَوْبُوتِ (٢) .

« وَلَا يَخْتَمُّ كِتَابُهُ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي طَابَ سَمْعًا ، وَزَكَ أَصْلًا وَفَرْعًا ، وَتَصَرَّفَ فِي أَسَالِيْبِ الْبَلَاغَةِ ، فَجَاءَ بِهِ وَتَرًّا وَشَفْعًا ، وَالسَّلَامُ . »

(١) مَأْخُودٌ مِنْ تَشْبِيهِ الْقُرْآنِ « وَمِثْلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْبِيهُاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمِثْلِ جَنَّةِ بَرَبُوتِ » سُورَةُ الْبَقَرَةِ : الْآيَةُ ٢٦٥ .

(٢) سَيَأْتِي هَذَا الْمِثْلُ النَّبَوِيُّ فِي الصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ عِنْدَ إِيرَادِ نَصِّ الْحَدِيثِ .

وهذا كتابٌ غريبٌ في معناه ، وقد اشتملَ على معانٍ كثيرةٍ :

فمن جُمَلتِها أنَّ الرُّطْبَ مشتقٌّ من « الرُّطْب » الذي هو ضدُّ « اليابس » .

ومن جُمَلتِها أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِيَ النَّخْلَةَ أُمًّا ، فقال :

« أُمَّكُمْ النَّخْلَةُ » .

ومن جُمَلتِها أَنَّهُ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَطِّرُ عَلَى رُطْبَاتٍ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ

فَتَمْرَاتٍ .

ومن جُمَلتِها أَنَّهُ كَانَ يُلُوكَ التَّمْرَةَ ، وَيُحَنِّكُ بِهَا المَوْلُودَ عِنْدَ مِيلَادِهِ ،
وَلَمَّا وُلِدَ عَبْدُ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ جَاءَتْ أُمُّهُ أُمُّهُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ
وَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَاكَ تَمْرَةً ، وَوَضَعَهَا فِي فِيهِ .

ومن جُمَلتِها أَنَّهُ وَالْحُلُوءُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ خَلَقِ اللهُ ، وَتَلَّكَ مِنْ

خَلَقِ النَّاسِ .

ومن جُمَلتِها أَنَّ العَبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « يَا رَسُولَ اللهِ ! إِنَّ قَرِيشًا

تَذَاكَرَتْ أَحْسَابَهَا ، فَضَرَبُوا لَكَ مِثْلًا بِنَخْلَةٍ بِكِبْوَةٍ ^(١) .

(١) ذكر صاحب اللسان أن ناساً من الأنصار قالوا للنبي صلى الله

عليه وسلم : إنا نسمع من قومك : إنما مثل محمد كمثل نخلة تنبت في

كبا ، قال : هي بالكسر والقصر الكناسة ، وجمعها أكباء . . . وفي

الحديث عن عباس أنه قال : قلت : يا رسول الله إن قريشاً جلسوا ،

فتذاكروا أحسابهم ، فجعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض .

قال شمر : قوله « في كبوة » لم نسمع فيها عن علمائنا شيئاً ،

ولكننا سمعنا الكبا والكبة ، وهو الكناسة والتراب الذي يكنس من

البيت . انظر لسان العرب ٧٧/٢٠

وكلُّ هذه المعاني حسنةٌ واردةٌ في موضعها . ومن كتَّبت في معنى من المعاني
فديكتُبُهُ هكذا ، وإلا فليَدَع .

* * *

ومن ذلك رقعة كتبتها الى بعض حجاب السلطان في حاجة عرضت
لي ، وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم ، وهي :

ما مِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ صَحَّتْ صَدَاقَتُهُ يَوْمًا بِأَنْجَحَ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ
إِذَا تَلَّمَّ بِالْمِنْدِيلِ مُنْطَلِقًا لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَابٍ وَلَا غَلَقِ
« الهدية مُسْتَقَّةٌ مِنَ الْهُدَى ، غَيْرَ أَنَّهُا تَرَفُّ إِلَى الْقَلْبِ لَا إِلَى النَّدَى ،
وَصَهَارَتِهَا أَنْفَعُ مِنَ الصَّهَارَةِ ، وَكَلَّمًا تَرَدَّدَتْ كَانَتْ بَكَرًا ، فَهِيَ لَانْفِكَ عَنْ
الْبَكَارَةِ ، وَمِنْ خِصَائِصِهَا أَنَّهَا تُمَسِّكُ بِمَعْرُوفٍ أَمِنَ مِنَ السَّرَّاحِ ، وَإِذَا
رَامَتْ فَتَحَ بَابٍ لَا تَفْتَقِرُ فِي عِلَاجِهِ إِلَى مِفْتَاحٍ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهَا الْحُسْنَاءُ
الْمُتَأَنِّقَةُ فِي عِمَارَةِ بَيْتِهَا الَّتِي تَوْصَفُ بِأَنَّ الْقَنْدِيلَ يُصَيِّمُ بَرِيَّتَهَا .

« وَقَدْ أُرْسِلَتْهَا إِلَى الْمَوْلَى وَهِيَ تَتَهَادَى فِي إِعْجَابِهَا ، وَتُدِلُّ بِكَبْرَةِ
دَرَاهِمِهَا وَثِمَابِهَا ، وَتَقُولُ : أَنَا الْكَرِيمَةُ فِي قَوْمِهَا ، الشَّرِيفَةُ فِي أَنْسَابِهَا .

« وَأَحْسَنُ مَا فِيهَا أَنَّهَا جَاءَتْ مَرًّا ، لَمْ تَعْلَمْ بِهَا الْيَدُ الْمَيْمَنِيَّةُ مِنَ الْيُسْرَى .
« نَحْذُهَا يَا مَوْلَايَ ، وَاكْشِفْ نَقَائِمَهَا ، وَأَمِطْ عَنْهَا جَلْبَابَهَا ، وَقَدْ كَانَتْ
مِنْكَ حُرَّةً ، وَهِيَ الْآنَ فِي حَيْزِ الْمَمْلُوكَةِ ، وَمِنَ السَّنَةِ فِي مِثْلِهَا أَنْ تَوْخَذَ
بِالنَّاصِيَةِ وَيُدْعَى بِالْبَرَكَةِ ، وَالسَّائِرُ بِهَا فَلَانٌ ، وَهُوَ فِي الْجَهْلِ بِهَا حَامِلُ
أَسْفَارٍ ، وَنَاقِلٌ لَهَا مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ . وَلِرُبَّمَا نَطَقَ لِسَانُ حَالِهَا الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ
مِنْ نَطْقِ اللِّسَانِ ، وَأَذْكَرَتْ بِحَاجَةِ مُرْسَلِهَا ، وَحَاشَى فِطَانَةَ الْكَرِيمِ مِنْ
النَّسِيَانِ ، وَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ إِلَّا فَضِيلَةٌ مِنَ الْجَاهِ تُسْفَرُ بَيْنَ السَّائِلِ وَالْمُسْتَمُولِ ،

وتنقل البعيدَ إلى درجة القريبِ ، والممنوعَ إلى درجة المبدولِ « فإذا فعل المولى ذلكَ كانَ له مِنَّةُ السَّفارةِ ومِنَّةُ الإنعامِ ، وإنْ سُمعَ بأنَّ سعيًا واحدًا فازَ بشُكرينِ اثنينِ ففي مثل هذا المقامِ . ومن الناس من يقولُ : ليس على جانب السلطانِ ثقلٌ في صنعه ، وهل هاهنا إلا كلماتٌ تُقالُ ، والكلامُ ماعونٌ لا رخصةٌ في منعه ، ولم يذرْ أنْ ملاطفةَ الخطابِ ضربٌ من الاحتيالِ ، وأنْ نقلَ الخطواتِ فيه أثقلُ من نقلِ الجبالِ ، وأنْ صاحبَ الحاجةِ يحظى بجلاوةِ النجاحِ ، والحاجِبُ يلقي مرارةَ السؤالِ .

« وهذا يقوله الخادمُ إيجابًا لإحسانِ المولى الذى هو إحسانٌ شاملٌ ، ولا يعلمه إلا عالمٌ بفضله ، ولا يجهله إلا جاهلٌ ، والله تعالى يجعلُ الحاجاتِ مغدوقةً بيبابه ، حتى لا تنفكَ في الدنيا من إمدادِ شكره ، وفي الآخرة من إمدادِ ثوابه ، والسلام . »

فتأمل أيها الناظرُ في كتابي هذا إلى ما اشتملتُ عليه هذه الرُقعةُ من المعاني حتى تعلم كيف تصنعُ يدك فيما تكتبه !

* * *

ومن ذلك رُقعة أخرى كتبتها في هذا المعنى المتقدم ذكره ، وأرسلت معها هدية من المسك ، وهى :

« الهديةُ رسولٌ يخاطبُ عن مرسله بغير لسان ، ويدخلُ على القلوب من غير استئذان ، وقد قيلَ : أختُ السحرِ فى ملاطفةَ قَصدها ، غير أنها لا تحتاجُ إلى نفسها ولا إلى عُقدِها (١) ، وما من قلبٍ إلا وصورتها تُجلى عليه

(١) إشارة إلى قوله تعالى « ومن شر النفاثات فى العقد » سورة الفلق : الآية ٤ والنفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها ويرقين ، والنفث النفخ مع ريق .

في سرقة^(١)، ولولا شرف مكانها لما حُلَّت للنبي صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة، ولها صفات غير هذه كريمة الأخطار، حسنة لدى الأسماع والأبصار، ومن أحسنها أنها تستجدُّ وُدًّا، وتجعل قُرباً ما كان بعداً، وتقول لنار الإحنة: « يانار كُونِي بَرْدًا » ولهذا قيل تهادوا تحابوا، ولا شك أنها وُصلة بين المودات، فإذا تواصل الناس تقاربوا.

« وقد أرسل الخادم منها شيئاً إذا كتّمه ذاع، وإذا خزّنه ضاع، وقد شبه به الجليس الصالح بعدد أسباب الانتفاع، ومما زاد مزية على مزيته أنه وشيم المولى توأمان، غير أن شيمته تنتمي إلى كرم محتدها، وهو ينتمي إلى سرر الغزلان، فإذا ورد على مجلسه قيل: هذا عطرُ ورد على جونة^(٢) عطار وعرف له حق المشاركة فإن أذنى الشرك في الشيم جوار. وقد نطق الخبر النبوي بأنه أحد الثلاثة التي لا تُردُّ على من أهداها، وإذا نظر إلى محصول بقائها وفائدتها، وجد أطولها عمراً وأجداها، وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم في إرساله، وإذا سأل غيره في قبول هديته كفاه نصُّ الخبر مؤونة سؤاله، والسلام.»

وهذه الرقعة أحسن من التي قبلها.

فما اشتملت عليه من المعاني قولي: « وما من قابٍ إلا وصورتها تُنجي عليه في سرقة، ولولا شرف مكانها لما حُلَّت للنبي صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة.»

وهذان الغنيمان مستخرجان من خبرين نبويين:

(١) السرقة واحدة السرقة بفتح الحاء شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة:

(٢) الجونة سلية مستديرة مغطاة أدماء تكون مع العطارين:

أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « جاءني جبريل عليه السلامُ
ومعه سرقةٌ من حرير — يعني حريرةً بيضاء — وفيها صورةٌ عائشة ، رضى
الله تعالى عنها ، وقال : هذه زوجتك في الدنيا والآخرة . »

والخبرُ الآخر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حرمت على الصدقةُ
وأحلت لي الهدية . »

وتما اشتملت عليه أيضاً قولى : « وقد أرسل الخادمُ منها شيئاً إذا كتتمهُ
ذاع ، وإذا خزنه ضاع . » وهذه مغالطةٌ حسنة ، لأن المسك إذا كتتم ذاعت
رائحته ، وإذا خزِن ضاع : أى فاح ، ويقال « ضاع الشيء » إذا ذهب ،
فالمغالطة هاهنا فى الجمع بين الضدين .

وكذلك قولى : « وقد شبه به الجليسُ الصالح » وهذا مستخرجٌ من
الخبرِ النبوى أيضاً ، وذلك أنه قال صلى الله عليه وسلم : « مثلُ الجليسِ الصالحِ
مثلُ حاملِ المسكِ إما أن يَحْذِيكَ ^(١) ، وإما أن يبتاع منه ، وإما أن تجد منه
عرفاً طيباً . ومثلُ جلسِيسِ السوءِ مثلُ نافخِ الكبرِ ، إما أن يُحْرِقَ قَوْبَكَ
وإما أن تجد منه رائحةً كريهةً . »

ومما اشتملت عليه من المعانى أيضاً قولى : « إنه أحدُ الثلاثةِ التى لا تُردُّ
على من أهداها . »

وهذا مُستخرجٌ من الخبرِ النبوى أيضاً ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :
« ثلاثةٌ لا تُردُّ : الطيبُ والرَّيحانُ ، والدَّهْنُ . »

* * *

(١) الحذوة - بالكسر - العطية .

ومن ذلك رقعة كلّفني بعض أصدقائي إملاءها عليه ، وهي رقعة
من عاشق الى معشوق ، وهي :

وَإِذَا قِيلَ : مَنْ يُحِبُّ ؟ تَخَطَّأَ لِكَ لِسَانِي ، وَأُنْتُ فِي الْقَلْبِ ذَاكَ

« يَأْمَنُ لَا أَسْمِيَهُ وَلَا أَكْنِيَهُ ، وَأَذْكَرُ غَيْرَهُ وَهُوَ الَّذِي أَعْنِيَهُ ، لَا تَكُنْ
مَعَّنِ أَوْتَى مُلْكًا فَلَمْ يَنْظُرْ فِي زَوَالِهِ ، وَعَرَفَ مَكَانَهُ مِنَ الْقُلُوبِ فَجَارَ فِي
إِدْلَالِهِ ، وَلَا نَفْتَرَ بِقَوْلٍ مِنْ رَأْيِ الْحُسْنِ لِلْإِسَاءَةِ مَاحِيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّاحِيَّ
يَقُولُ : كَفَى بِالْتَّذَالِ لَاحِيًا ، وَكَثِيرًا مَا يَزُولُ الْعِشْقُ بِجِنَايَاتِ الصُّدُودِ ،
وَازْيَادَةُ فِي الْحَدِّ نَقْصَانٌ فِي الْحُدُودِ .

« وَقَدْ قِيلَ : إِنْ الْحَسَنَ عَلَيْهِ زَكَاةٌ كَزَكَاةِ الْمَالِ ، وَلَيْسَتْ زَكَاةُهُ عِنْدَ
عُلَمَاءِ الْحَبِيَّةِ إِلَّا عِبَارَةٌ عَنِ الْوِصَالِ ، وَهَذِهِ صِدْقَةٌ تَقَسَّمُ عَلَى أَرْبَابِهَا ، وَلَا
يُنْتَظَرُ أَنْ يَحُولَ الْحَوْلُ فِي إِجَابِهَا ، فَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى تَجَدُّدِ الْأَيَّامِ ،
وَالْمُسْتَحَقُّونَ لَهَا قِسْمٌ وَاحِدٌ ، وَلَا يُقَالُ : لَهُمْ ثَمَانِيَةُ أَقْسَامٍ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ
الْخُصُوصُونَ بِفِكَ الرَّقَابِ ، وَرَقِبَةُ الْعِشْقِ أَشَدُّ أَسْرًا مِنْ رَقِبَةِ تَتَحَرَّرُ
بِالْكِتَابِ . فَأَخْرَجَ يَامُولَايَ مِنْ هَذَا الْحَقِّ الْوَاجِبِ ، وَإِلَّا فَتَأْتِ لَطَالِبِ
مُنَى وَمَطَالِبِ ، وَلَا تَقِلْ هَذَا غَرِيمٌ أَكْثَرَ عِدَّةِ اللَّيَالِي فِي مَطْلِهِ ، وَأَعِدَّةُ
وَالْمَوَاعِيدُ زَادَتْ لِنُتْلِهِ ، فَهَذِهِ سِلْمَةٌ قَدْ عَامَلْتَهُ بِهَا مَرَّةً سَاخِرًا ! وَمَرَّةً سَاخِرًا ،
وَمِنَ الْأَقْوَالِ السَّائِرَةِ أَنَّ الْفَرَّ تَجْمَعُهُ التَّجْرِبَةُ مَاهِرًا ، وَأَعْمَرَى إِنْ مُمَارَسَةَ
الْحُبِّ تَجَدُّدٌ لِمُصَاحِبِهِ عِلْمًا ، وَتَبْصُرُهُ وَإِنْ كَانَ كَمَا يُقَالُ أَعْمَى ، وَقَدْ
كَذَّبَ الْقَائِلُ :

عَرَّضَنَ لِلَّذِي يُحِبُّ بِحُبِّ ثُمَّ دَعَاهُ يَرُوضُهُ إِبْلِيسُ

« فَإِنَّ كَانَتِ الرَّيَاضَةُ كَمَا قِيلَ لِإِبْلِيسَ فَمَا أَرَاهُ صَنَعًا فِي الَّذِي صَنَعَ ،

وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح^(١) وأنت جذع^(٢). ولا شك أنك تهدم ما يشيده من البناء ؛ أو أنك مستثنى في جملة من دخل في حكم الاستثناء ، وأنا الآن له عائب ، وعليه عاتب ، فأين نفثاته التي هي أخدع من الحبائل ؟ وأين قوله لا تينهم عن الأيمان والشئائل ؟ وأين جنوده المستترقة ما في السماء التي تجرى من بنى آدم مجرى الدماء ؟ وكل هذا قد بطل عندى خبره ؛ كما بطل عندى أثره ؛ فإن أدركته النخوة باني أستهزى بتصديق أفعاله ، فليحل معقول حاجتي هذه ، حتى أعلم أنه قادر على حل عقاله ، وإلا فليخف رأسه ، وليخج وسواسه ؛ وإن كان له عرش على البحر فليقوض من عرشه ، وليعلم أن السجر ليس في عقده ونفثه ؛ ولكنه في الأصفر ونقشه .

« وها أنا قد بعثت منه ما يجعل العزم مخلولاً ، والودّ مبدولاً ؛ وما أقول إلا أنني بعثت معشوقاً إلى معشوق ، وكلاهما محمّله القلب ؛ بل القلب من حبهما مخلوق ، وما أكرمه وهو وسيلة إلى مثله ، وحسنه من حسنه ، وإن لم يكن شككته من شكله ، وما وصّقه واصف إلا كان ماراه منه فوق مارواه ، ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم ير ذو وجهين وجهياً ، سواه ، لاجرم أنه إذا أسفر في أمرٍ تلطّف في فتح أبوابه ، وتناول وعزمه فبدله بسمله ، وبعده فبدله باقترابه ، ولو بعثت غيره خلفت أن لا يكون في سفارته صادقاً ، أو أنه كان يمضى سفيراً ويعود عاشقاً ، فليس على الحسن

(١) القارح المسن . وقرح الحافر انتهت أسنانه ، وإنما ينتهى في خمس سنين . لأنه في السنة الأولى حولي ، ثم جذع ، ثم ثني ، ثم رابع ، ثم قارح . والمراد هنا الكبير صاحب التجربة .
(٢) الجذع الشاب الحدث .

امانة ، وفي مثله تُعذر الخيانة ، ولا لومَ عَلَى العقول إذا نسيتُ هناك عزيمةَ
 رشدِها ، ورأتُ ما لا يحتمله كاهلُ جُهدِها ، ومن الذى يقوى دِرْعُهُ عَلَى تلك
 السَّهامِ ، أو يرومُ النجاةَ منها ، وقد حيلَ بينه وبين المَرَامِ ؟ وهذا الذى منعى
 ان أرسلَ إلا كيساً وكتاباً ، فأحدُهُما يكون فى السفارةِ والآخِرُ على السَّرِّ
 حجاباً ، والسلام إن شاء الله تعالى » ا

وفى هذه الرُّقعة من المعانى الغربية ما أذكُره :

فالأوّل : ما ذكرته فى قسمِ الصَّدقاتِ ، وفكِّ الرِّقابِ .

والثانى : ما ذكرته فى وصفِ الدِّينارِ ، وهو أَنَّهُ توجيهُ ذو وجهَيْنِ .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : ذو الوجهَيْنِ لا يكون وجهياً .

وهذا معنى لم يسبقنى أحدٌ إليه .

وقد وَصَفَ الحَريرى الدِّينارَ فى مقامةٍ من مقاماته^(١) ، ولم يَظْفِرْ بهذا

المعنى ، ولا جاء من الأوصافِ التى ذكرها بِمثله .

والثالث : أنى بعثتُ معشوقاً إلى معشوقِ ا

* * *

(كتاب فى التعزية بوفاة زوجة بعض الملوك وولدها) :

ومن ذلك ما كتبتُهُ ، وكانَ تُوَقِّيتُ زوجةَ بعضِ الملوكِ ، وتوفى معها ولدٌ

لها ، وهو طفلٌ صغيرٌ ، وكانَ بينهما يومان ، وتلك المرأةُ بنتُ ملكٍ من الملوكِ

أيضاً ، فكتبَ إليهِ مَنْ [فى] الأطرافِ الجاورةِ يعزُّونه ، وحضَرَ عندى بعضُ

الأدباءِ مَعَنَ يجبُ أن يكونَ كاتباً ، وعرضَ عَلَى نُسْخَةِ ما كُوتِبَ به ذلك

(١) يشير إلى المقامة الثالثة ، وهى « المقامة الدينارية » - مقامات

الحريرى ٢٥ - وهى تتضمن مدح الدينار وذمه .

الملك في التعزية بزوجه وولدها ، فوجدتها كتباً باردة غثة ، لاتعربُ عن
الحادثة ، بل بينها وبينها بعدُ المشرقين . ومن شرط الكتابة أن يكون
الكتاب مضمناً فوض المعنى المقصود .

والتعازي مختلفة الأحاء ، فتعازي النساء غيرُ تعازي الرجال ، وهي من
مستصعبات فن الكتابة والشعر ، وتعازي الرجال أيضاً تختلف ، فلا يعزى
بالميت على فراشه ، كما يعزى بالميت قتيلاً ، ولا يعزى بالقتيل كما يعزى
بالفريق .

وهكذا يجري الحكم في المعاني جميعها ، وهذا شيء لا يتنبه له إلا
الراسخون في هذا الفن من أرباب النثر والنظم .

وسألتني ذلك الرجل عن هذه التعزية المشار إليها في المرأة وولدها الصغير ،
وقال : « أحبُّ أن أعلم كيف تكون » ؛ فأملت عليه ثلاثة كتب ، كل
كتاب يتضمن معنى لا يتضمنه الكتاب الآخر .

فمما جاء منها كتاب أنا ذكره ها هنا ، وهو :

« أشجى التعازي ما أتبع فيه المفقود بمفقود ، لاسيماً إذا جمع بين سعد
الإخيلية^(١) وسعد السعود^(٢) ، وكلُّ منهما يعظمُ حزننا كما يعظمُ مكاننا ؛

(١) من نجوم منازل القمر التي يتنقل فيها ؛ والناس مختلفون فيه .
فمنهم من يقول إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل
بطة . والكوكب هو السعد . والثلاثة الحباء . ومنهم من يجعل الكوكب
الذي في وسط الثلاثة عمود الحباء . وسمى « سعد الأخبية » لخروج
الخيثات فيه من الثمار والحشرات . وكانت العرب تبرك به لاختضار
العود فيه .

(٢) سعد السعود كذلك من نجوم منازل القمر . وعدته كوكبان .
وقيل هو ثلاثة كواكب : أحدها نير ؛ والآخران دونه في النور .

وهذا يحسِرُ عن الوجوه مُحرراً ، وهذا يُبقي عن الرؤوس تيجاناً ؛ ولم يوفِّهما
 حقَّهما من بكى ولا من ندب ، ولا من شعر ولا من كتب ، وليت فُدِّي أحدهما
 بصاحبه ، فعاش درهما المفدى بالذهب :
 ولو كان خطباً واحداً خفَّ كَلْمُهُ

ولكنه خَطْبٌ أُعِيدَ عَلَى خَطْبِ

« وقد أُصدِرَ الخادمُ كتابه هذا ، ومن حقِّه أن يُخرُجَ في ثوبٍ من الحداد ،
 وأن يتعترى أذيل كَلْمِهِ ، والكتابُ عنوانُ الفؤاد ، وغايةُ ما يقولُ : أحسنَ
 الله عزاءَ المجلسِ السَّامِي المَلِكِ الأجلِّ السَّيِّدِ ، على أن هذا الدعاء قد شهدت
 الحالُ بِدَاحِنِهِ ، وكيف يملك قلبه عزاءُ ، وقد أوثقه الهمُّ في سِجْنِهِ ، وصارَ له
 ولداً دونَ ولده ، وخديناً دونَ خدينه ، لكن يدعى له بامتداد البقاء ، وأن
 تعامله الحوادثُ بعد هذهِ معاملة الإبقاء .

« ثمَّ نَتَّبِعُ ذلكَ بطلبِ الجنةِ لمن نقلته المنيا عن أرائكِ الخُدُورِ ، وجعلته
 في بطونِ الثُّبورِ ، ولمنْ فاجأتِ الأيامُ غُصْنَهُ ففصفتُهُ ، ولم يبعشْ حتى عرفَ
 الدنيا ولا عرفته ، فواهاً لهما وقد نزلاً بمنزلِ عديمِ الإيناسِ ، وإن كانَ
 مأهولاً بأكثرِ الناسِ ، فهو القريبُ داراً ، البعيدُ مزاراً ، الذي حُجِبَ من
 اليأسِ بأمنعِ حجابِ ، وذهبَ عن الوجوه المنعمَّة نذلُّ الترابِ ، فمن كان مسعداً
 للمجلسِ فليأخذْ بولهِ الجزعِ لا بعزيمةِ الاضطبارِ ، وليقلْ : هذا حادثٌ بانَ
 فيه تحملُ الأقدارِ ، وجرتْ همومُه مجرى الخواطرِ من القلوبِ والرقادِ من
 الأبصارِ ، فالأسوةُ — إلا فيه — معدودة من الإحسانِ ، والسَّلوةُ — إلا
 عنه — داخلةٌ في حيزِ الإمكانِ .

« والخادمُ أولى من لقي المجلسَ فيه بالإسعادِ ، وقام بما يجبُ من قضاءِ
 حقِّ الودادِ ، وفعل ما يفعله القريبُ الحاضرُ ، وإن كان على شقِّهِ من البعادِ ،

وقد أرسل من ينوبُ عنه في التعزية ، وإن لم يكفِ فيها المناب ، وكما رخصَ العذرُ في قصرِ الصلاة ، فكذلك رخصَ في الاختصارِ على الرسولِ والكتاب ، وقد ودَّ لو حضرَ بنفسه فاستسنمى لذلك الضريحِ سحَابًا ، وعقرَ عنده ركابًا ، وسأل الله مغفرةً وثوابًا ، والسلام .

في هذا الكتابِ معنى غريبٌ ، وهو قولِي « سعدُ الأُخْبِيَّةِ » كناية عن المرأة ، « وسعدُ السُّعودِ » كناية عن ولدها ، لأن « سعدُ الأُخْبِيَّةِ » اسمُ مَنْزِلَةٍ من منازل القمر ، و « الأُخْبِيَّةِ » جمعُ « خَبَاءِ » ومن شأنِ المرأةِ أن تحتجبَ في الأُخْبِيَّةِ ، فهي سَعْدُهَا ، وهذا من المعاني الغريبةِ في مثل هذا المقصدِ ، وقد اتَّفَقَ « سعدُ الأُخْبِيَّةِ » و « سعدُ السُّعودِ » معًا ، وهذا أيضًا غريبٌ .

* * *

كتاب عن الملك الأفضل الى أخيه الملك الظاهر غازي :

ومن ذلك أني كتبتُ كتابا عن الملك الأفضل «علي بن يوسف» إلى أخيه الملك الظاهر «غازي بن يوسف» صاحبِ حَبِّ في أمرِ شخصٍ كان أبوه صاحبَ مَدِينَةِ «تَكَرِيْتِ»^(١) وهذه تَكَرِيْتُ كان يتولاها قديماً الأميرُ أَيُّوبُ^(٢) جدُّ الملك الأفضل والملك الظاهر ، وأولد بها ولده صلاح

(١) تَكَرِيْتِ بفتح التاء . والعامَّة بكسرهما . بلد مشهور بين بغداد والموصل . وبينها وبين بغداد ثلاثون فرسخا في غربي دجلة ولها قلعة حصينة أحد جوانبها إلى دجلة

(٢) هو نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان الملقب «الملك الأفضل» : وهو والد الملوك صلاح الدين وسيف الدين وشمس الدولة وسيف الإسلام وشاه شاه وتاج الملوك يورى وست الشام وربيعة خاتون ، وأخو الملك أسد الدين ، شب به فرسه عند باب النصر— أحد أبواب =

الَّذِينَ يُوسِفُ أَبَاهُمَا ، وَعَلَى عَقَبِ وِلَادَتِهِ انْتَقَلَ وَالِدُهُ عَنْ « تَكَرُّبِ » هُوَ وَعَشِيرَتِهِ ، لِأَمْرِ طَرَأَ لَهُمْ^(١) ، وَجَاءَ إِلَى الْمَوْصِلِ ، ثُمَّ إِلَى الشَّامِ ، وَهَنَّاكَ سَعِدُوا ، وَكَانَتِ السَّعَادَةُ عَلَى يَدِ صِلَاحِ الدِّينِ يُوسِفَ .

فَمَا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ هَذَا الْكِتَابَ عَلِمْتُ أَنَّهُ مِظَنَّةُ الْمَعَالِي الْمُبْتَدَعَةِ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ الْمَكْتُوبَ فِيهِ غَرِيبٌ لَمْ يَقَعْ مِثْلُهُ ، فَخِينِذِ كَتَبْتُ هَذَا الْكِتَابَ ، وَهُوَ :

« رَفَعَ اللَّهُ شَأْنَ مَوْلَانَا الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَلَا زَالَ الدَّهْرُ فَآخِرًا بِمَآثِرِ سُلْطَانِهِ ، نَازِمًا مَنَاقِبَهُ فِي جِيدِهِ ، وَمَحَامِدَهُ فِي لِسَانِهِ ، نَاسِخًا بِمَسَاعِي دَوْلَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَسَاعِي آلِ بُوِيهِ^(٢) .

= الْقَاهِرَةَ — فَأَلْقَاهُ فِي وَسْطِ الْمَحْجَةِ فَحَمَلَهُ إِلَى دَارِهِ وَكَانَتْ وَفَاتِهِ سَنَةَ

٥٥٦٨ هـ

(١) ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ أَخَاهُ أَسَدَ الدِّينِ كَانَ قَدْ قَتَلَ رِجَالًا ، فَأَمْسَكَهُ أَخُوهُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ ، وَاعْتَقَلَهُ ، وَكَتَبَ إِلَى بَهْرُوزَ وَعَرَفَهُ صُورَةَ الْحَالِ لِيَفْعَلَ بِهِ مَا يَرَاهُ ، فَوَصَلَ إِلَيْهِ جِرَابُهُ : لِأَيُّكُمَا عَلَى حَقِّ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ مُتَأَكَّدَةٌ ، فَمَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَكُفُّنِي عَنْ مَحَالَةِ سَيْثِقِ تَصَدَّرَ مِنِّي فِي حَقِّكُمَا ، وَلَكِنْ اشْتَهَى مِنْكُمَا أَنْ تَتْرَكَمَا خِدْمَتِي وَتَخْرُجَا مِنْ بَلَدِي وَتَطْلُبَا الرِّزْقَ حَيْثُ شِئْتُمَا . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمَا الْجَوَابَ مَا أَمَكْتُهُمَا الْمَقَامَ بِتَكَرُّبِ . فَخَرَجَا مِنْهَا ، وَوَصَلَا إِلَى الْمَوْصِلِ ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا الْأَتَابِكُ عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي .

(٢) آلِ بُوِيهِ مِنَ الْفَرَسِ ، وَجَدَّهُمُ الْأَقْرَبُ الَّذِي أُسِّسَ دَوْلَتُهُمْ أَسْمُهُ بُوِيهِ « وَلَقَبَهُ أَبُو شِجَاعٍ ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ : عَلِيٌّ ، وَيَلْقَبُ عِمَادَ الدَّوْلَةِ ، وَحَسَنٌ ، وَيَلْقَبُ رِكَنَ الدَّوْلَةِ ، وَاحْمَدٌ ، وَيَلْقَبُ مِعْزَ الدَّوْلَةِ ، جَاءُوا إِلَى بَغْدَادَ سَنَةَ ٣٣٤ هـ فَرَحِبَ بِهَا الْمُسْتَكْفَى ، وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ وَلَقَبَهُمْ بِتِلْكَ الْأَلْقَابِ ، =

وَأَلِ حَمْدَانَهُ^(١) ، كِتَابُ الْخَادِمِ هَذَا وَارْدٌ مِنْ يَدِ الْأَمِيرِ شَمْسِ
 الدِّينِ بْنِ صَاحِبِ تَسْكُرِيَتٍ ، وَهِيَ أَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدَ الْوَالِدِ
 تَرَابَهَا ، رَرَقَمَتْ بِهَا السَّعَادَةُ عَلَى جَبِينِهِ كِتَابَهَا ، وَمِنْهَا ظَهَرَ نُورُ
 الْجَيْتِ الْإِيُوبِيِّ مُشْرِقًا ، وَأَشَامَ إِذْ خَرَجَ مُعْرِقًا ، وَكَفَاهُ بِذَلِكَ وَسِيلَةً
 يَكْتَنِفُهَا الْإِحْسَانُ وَالْإِرْعَاءُ ، وَيَكْفِي صَاحِبَهَا أَنْ يَقُولَ : لَا أَسْتَقِي حَتَّى يُصْدِرَ
 الرَّعَاءُ . وَقَدْ قَرَنَهَا بِوَسِيلَةِ قَصْدِ الْخِدْمَةِ أَتَى تَوْجِبُ لِقَاصِدِهَا ذِمَامًا ، وَنَقُولُ
 لَهُ سَلَامًا إِذَا قَالَ سَلَامًا ، ثُمَّ ثَلَاثَ هَاتَيْنِ الْوَسِيلَتَيْنِ بِكِتَابِ الْخَادِمِ أَخْذًا بِالسَّنَةِ

= وجعل معز الدولة أمير الأمراء ، فاستبدوا في المملكة ، واستولوا
 على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولاهم ، فرفعوا منار الشيعة ، وأحيوا
 معالمها ، وأضيقوا نفوذ الأتراك ، وامتدت سلطة البويهيين على العراق
 وفارس والخراسان إلى سنة ٤٤٧ هـ وكانوا يحبون العلم والأدب ، ولا
 يستوزرون أو يستكتبون إلا العلماء والشعراء والكتاب ، فكان أشهر
 أدباء ذلك العصر من وزراءهم أو عمالهم أو قضاتهم أو كتابهم كابن
 العميد ، والصاحب بن عباد وسابور بن أردشير المهلبى ، فضلا عن
 الأدباء من العمال والقضاة وكتاب الدولة ، على أن ملوك بني بويه
 أنفسهم أشهر منهم غير واحد في الأدب والشعر .

(١) الدولة الحمدانية دولة عربية من قبيلة تغلب بجوار الموصل ،
 جدها حمدان كان له شأن في تلك الديار ، واستولى ابنه محمد بن حمدان
 على ماردين ، فأخرجه منها الخليفة المعتضد ، وتولى أخوه أبو الهيثم
 ابن حمدان أميراً على الموصل وما يابها سنة ٢٩٢ هـ واشتد ساعده ،
 وزادت قوة الحمدانيين في ذلك الحين « وصاروا دولة حكم منها أربعة
 أمراء في الموصل ، وخمسة في حلب ، حتى خرجت الموصل منهم
 إلى البويهيين سنة ٣٨٠ هـ ، واستولى الفاطميون على حلب سنة ٣٩٤ هـ ،
 وأشهر بني حمدان في نصرة العلم والأدب سيف الدولة - أبو الحسن
 على - صاحب حلب من سنة ٣٣٣ إلى سنة ٣٥٦ هـ .

النَّبوية في الدعاء وعدده ، وتفاوتًا بتثليث النجوم فيما يقصده المرء من سعادة مقصده ، ولا قدح في كرم الكرم إذا استكثر طالبه من الأسباب ، فإن الله على كرمه قد استكثر إليه من أعمال القواب .

« وكتاب الخادم على انفراده كافٍ لحامله ، ومكثر من حقوق وسائله وقد صدر مخاطبًا عن فحوى ضميره ، فأنما تحق السفارة إذا قعد بكل طالب سعى سفيره ، وهو مع ذلك خفيفة صفحة ، وجيزة لمحة ، وإذا وجد لدى مؤلانا مؤولًا ، فليس عليه أن يرد مطولًا ، إذ التعويل على نجاح مضره ، لا على كثرة أسطره » .

فانظر أيها التامل إلى هذا الكتاب ، وأعطه حقه من التأمل ، حتى ترى ما اشتمل عليه من المعاني ، وانظر كيف ذكرت الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث .

أما المعنى الأول : فإنه يختص بذكر سعادة البيت الأيوبي ، ومنشئها ، وأنها ولدت بتكرير ، وهذا الرجل ينبغي أن يرعى بسببها ؛ إذ كان أبوه صاحبها .

وأما المعنى الثاني : فإنه قصد الخدمة الظاهرية ، وهذا وسيلة ثانية ، توجب له ذملاً :

وأما المعنى الثالث فإنه حرمة الكتاب الصادر على يده .

ثم إنني مثلت ذلك بالدعاء النبوي ، وبتثليث النجوم ، فإن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان إذا دعا دعا ثلاثاً .

وإنما مثلت ذلك بالدعاء لأمرين :

أحدهما : أنه موضع سؤال وضراعة .

والآخر : أن الكتاب وسيلة ثالثة ، والدعاء ثلاث مرار .

وأما تثلِيثُ النجوم ، فإنَّ التثليثَ سَعَدُ ، والتربيعَ نَحْسُ .
وأحسنُ المعاني الثلاثةُ التي تَضَمَّنَهَا هذا الكتابُ هو الأوَّلُ والثالثُ ،
وأما الثاني فإنه متداولٌ .

فتأملْ ما أشرتُ إليه ، وإذا شئتَ أن تكتبَ كتاباً فافعلْ كما فعلتُ
في هذا الكتاب ، إن كان الأمرُ الذي تكتبُ فيه غريبَ الوقوعِ .

* * *

واعلمْ أنه قد يقعُ المعنى المبتدعُ في غيرِ أمرٍ غريبِ الوقوعِ ، وذلك يكونُ
قليلًا بالنسبةِ إلى الوقائعِ الغريبةِ التي هي مَطْنَةُ المعاني المبتدعةِ .

* * *

ومن هذا الباب ما أوردته في جملة رسالة طهرية في وصف قسي البنلق
وحاملها ، وهو :

« فإذا تناوَلوها في أيديهم قِيلَ أَهْلَةٌ طالَعَةٌ مِنْ أَكْفٍ أَقْمَارُ ، وَإِذَا
مُثِلَ غَنَاؤُهَا وَغَنَاؤُهُمْ قِيلَ : مَنَائِمًا مَسُوقَةٌ بِأَيْدِي أَقْدَارِ ، وَتِلْكَ قَيْسِيٌّ وَضَعَتْ
لِللِّبِّ لَا لِلنَّمْضَالِ ، وَلِرِدَى الْأَطْيَارِ لَا لِرِدَى الرَّجَالِ .

« وَإِذَا نَعَتْهَا نَاعَتْ قَالَ : إِنَّهَا جَمَعَتْ بَيْنَ وَصْفِي اللَّيْنِ وَالصَّلَابَةِ ،
وَصُنِعَتْ مِنْ نَوْعَيْنِ غَرَبَيْنِ ، فَحَازَتْ مَعْنَى الْغَرَابَةِ ، فَهِيَ مُرْكَبَةٌ مِنْ حَيَوَانٍ
وَنَبَاتٍ ، مَوْلُفَةٌ مِنْهُمَا عَلَى بُعْدِ الشَّتَاتِ ، فَهَذَا مِنْ سَكَّانِ الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ ،
وَهَذَا مِنْ سَكَّانِ الْبَرِّ وَمَجَاهِلِهِ .

« وَمِنْ صِفَاتِهَا أَنَّهَا لَا تَتِمَكَّنُ مِنَ الْبَطَاشِ إِلَّا حِينَ تُشَدُّ ، وَلَا تَنْطَاقُ
فِي شَأْنِهَا إِلَّا حِينَ تَعَطَّفَ وَتُرِدُّ ، وَلَهَا نِشَارٌ أَحْكَمُ تَصْوِيرِهَا ، وَصَحْحٌ تَدْوِيرِهَا ،
فِيهِ فِي لَوْنِهَا صَنْدَلِيَّةٌ ^(١) الْإِهَابِ ، وَكَأَنَّهَا صِيغَتْ لِقَوِّهَا مِنْ حَجَرٍ لَا مِنْ

(١) منسوبة إلى الصندل . خشب أجوده الأحمر أو الأبيض .

تُرَابٌ ، فَإِذَا قَذَفْتَهَا إِلَى الْأَطْيَارِ قِيلَ : وَيَصْعَدُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ، وَلَا يُرَى حِينَئِذٍ إِلَّا قَتِيلٌ ، وَلَكِنْ بِالْمَثَلِ الَّذِي لَا يَجِبُ فِي مِثْلِهِ قَوْلٌ (١) فَهِيَ كَافِلَةٌ مِنْ تِلْكَ الْأَطْيَارِ بِقَبْضِ نَفْسِهَا ، مُنْزَلَةٌ لَهَا مِنْ جَوْ السَّمَاءِ عَلَى أُمَّ رُءُوسِهَا .

هذا الفصلُ يشتملُ على معانٍ غريبةٍ :

منها قولى : « إنها لا تتمكنُ من البطشِ إلا حين تُشدُّ ، ولا تنطلقُ في شأنها إلا حين تُعطفُ وتردُّ » .

ومنها قولى : « ويصعدُ من الأرضِ من جبالٍ فيها من بردٍ » .

وكلُّ هذا من المعانى التى تُبتدعُ بالنظرِ إلى المقصدِ المكتوبِ فيه ، فإن الكاتب إذا فكر فيما لديه وتأمله ، وكان قادراً على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين مقصده جاء هكذا كما تراه ، إلا أن القادر على ذلك من أقداره الله عليه ، فما كلُّ خاطرٍ بحكيمٍ ، ولا كلُّ من أوحى إليه بكليمٍ ، وفي الأقلامِ هاشمٌ لمن ناوأه ، ومنها هشيمٌ !

* * *

وسأنبه في هذا الموضعِ على طريقٍ يُسلكُ إلى شىءٍ من المعانى المخترعة ، وهو ما استخرجته ، وافردتُ باستخراجه دونَ غيرى ، فإن المعانى المخترعة لم يتكلم فيها أحدٌ بالإشارة إلى طريقٍ يُسلكُ فيها ، لأن ذلك ممَّا لا يمكنُ . ومن هاهنا أُضربُ علماءَ البيانِ عنده ، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا فى غيره !

وكيف تنمى المعانى المخترعةُ بقيدٍ ، أو يفتحُ إليها طريقٌ تُسلكُ ، وهى

تأتى من فيضِ إلهىٍّ بغيرِ تعليمٍ ؟

(١) القود بفتحيتين القصاص .

ولهذا اقتص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ، والذي يختص
بها يكون فذاً واحداً يوجد في الزمن المتطاول .

* * *

ولما مرستُ أنا هذا الفنَّ — أعنى فنَّ الكتابة — وقابته ظهراً لبطن ،
وفششتُ عن دفاينه وخباياه ، وأكثرتُ من تحصيل موادّه والأسباب الموصلة
إلى الغاية منه ، سَنَح لي في شيء من المعاني المخترعة طريق سلكته ، وهو
يستخرج من كتاب الله تعالى ، وأحاديث نبيه صلواتُ الله عليه وسلامه ، وقد
تقدّم لي منه أمثلة في هذا الكتاب .

وذلك أنه تردُّ الآيةُ من كتاب الله أو الحديث النبوي ، والمرادُ بهما
معنى من المعاني ، فأخذُ أنا ذلك ، وأقلتهُ إلى معنى آخر ؛ فيصير مخترعاً لي .
وسأوردُ هاهنا منه نبذةً يسيرةً ، يُعَلِّمُ منها كيف فعلتُ ، حتى يُسلكَ إليها
في الطَّرِيقِ الذي سلكته .

فمن ذلكَ قصّةُ أصحاب الكهف والرقيم ^(١) ، فإنّي أخذتُ ذلك ، ونقلتهُ
إلى الإحسانِ والشُّكرِ .

ألا ترى أنَّ الإحسانَ يُستعار له كَهْفٌ وكَنْفٌ وظِلٌّ ، وأشباهُ ذلك .
والشُّكرُ كلماتٌ تُقال في التنويه بذكر المحسنِ وإحسانه .
والرَّقِيمُ هو الكتابُ المكتوبُ ، فهو والشُّكْرُ متماثلان .
والَّذي أتيتُ به قد أوردتهُ وهو :

(١) الرقيم قرية أصحاب الكهف ، أو جبلهم ، أو كلبهم ، أو الوادي ،
أو الصخرة أو لوح رصاص نقش فيه نسبهم وأسماؤهم ودينهم ومم
هربوا ، أو الدواة أو اللوح — أو القاموس ٤ — ١٢٢ .

« الخادمُ يشكر إحسانَ المولى الَّذی ظلَّ عنده مُقيماً ، وغداً بمطالِبِه زعيماً ،
وأصبحَ بتواليه إنيهِ مُفرماً ؛ كما أصبحَ له غريباً ؛ ولما تمَّثلَ في الاشتغالِ عليه
كهنأً صار شكره فيه رقيماً » .

فاظنرْ كيف فعلتُ في هذا الموضع ، لتعلمَ أنّي قد فتحتُ لك فيه طريقاً
تسلكه .

وأما الحديثُ النبويُّ فإنِّي أخذتُ قصّةَ قتلى بدر ، كأبي جهل ، وعُتْبَةَ ،
وشَيْبَةَ ، وغيرهم ، ونقلتها إل القلم .

وذلك أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وقف على القلبِ الَّذی ألقاهم فيه ،
وناداهم بأسمائهم فقال : يا عتبة ، يا شَيْبَةَ ، يا أبا جهل ، يا فلان ، يا فلان ، والحديثُ
مشهورٌ فلا حاجةَ إلى استقصائه .

والذي أتيت به في وصفِ القلم هو اني قلت :

« ولقد مَرَحَ القلمُ في يدي ، وحقَّ له أنْ يمزح ، وأبدعَ فيما أتى به ،
وكلُّ إناءٍ بالَّذي فيه يَبْضَحُ ، ومن شأنه أنْ يَسْتَقِلَّ عَلَى أعوادِ المنبرِ ، فلا يَنْتَهِي
من خُطْبَتِها إلى فصلِها ، ويقفُ على جانبِ القلبِ إلا أَنَّهُ لا ينادي من المعاني
أبا جهلها » .

فالدواةُ قلبُ ، والقلمُ يقفُ عليه ، والمعاني التي يَنْشُرُها من بابِ العلم ،
لا من بابِ الجهل .

فتأملْ هذه الكلماتِ الَّتِي ذكَّرتُها ، فإنَّها لطيفةٌ جدًّا ، وهي مخترعةٌ لي .

وهذا القدرُ كافٍ في طريقِ التعلُّمِ ، فليُحَذِّذْ حذوهُ — إنْ أمكن —
واللهُ الموفِّقُ للصوابِ .

* * *

وأما الضربُ الآخرُ من المعاني ، وهو الذي يَحْتَدَى فيه على مثالِ سابقٍ ،
ومنهجٍ مطروقٍ ، فذلك جُلُّ ما يستعمله أربابُ هذه الصناعة ، ولذلك
قالَ عَنَتْرَة :

* هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ ^(١) * .

إلا أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يَرَسَخَ هذا القولُ في الأذهانِ ، لثلاثِ يُوَيْسَ من
التَّرَقُّيِّ إلى درجةِ الاختراعِ ، بل يُعَوَّلُ على القولِ المُطْمَئِنِّ في ذلك ، وهو
قولُ أَبِي تَمَّامٍ ^(٢) :

لَا زَاتَ مِنْ شُكْرِي فِي حُلَّةٍ لَا يَسُهَا ذُو سَلْبٍ فَاخِرٍ
يَقُولُ مَنْ تَقَرَّعُ أَسْمَاءَهُ كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ
وَعَلَى الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ فِي زَوَايَا الْأَفْكَارِ خُبَايَا ، وَفِي أَبْكَارِ الْخَوَاطِرِ سَبَايَا .
لِكِنْ قَدْ تَقَاصَرَتِ الْهَمَمُ ، وَنَكَصَتِ الزَّمَامُ ، وَصَارَ قُصَارَى الْآخِرِ أَنْ يَتَّبِعَ
الْأَوَّلَ ، وَوَلِيَّتَهُ تَبِعَهُ وَلَمْ يُقْصِرْ عَنْهُ تَقْصِيرًا فَاخِشًا .

* * *

(١) هذا صدر مطلع معلقته ، وعجزه :

* أم هل عرفت الدار بعد توهم *

(٢) ديوان أبي تمام ١٤٣ من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن

يوسف الثغري أولها :

قل للأمير الأريحي الذي كفاه للبادي وللحاضر
لتجزك الأيام مندوحة ونضرة عن عودي الناضر

وَوَقَّفتُ عَلَى كِتَابِ يُقالُ لَهُ «مَقَدِّمَةُ ابْنِ أَفَلَحِ البَغْدادِيِّ» قَدْ قَصَرها
عَلَى تَفْصِيلِ أَقسامِ عِلْمِ الفِصاحَةِ والبِلاغَةِ ، ولِلعِراقِيِّينَ بِها عِنايةٌ وَهُمْ
واصفُونَ لها ، وَمُكَبِّونَ عَلَيْها .

ولِما تَأَمَّلْتُها وَجَدْتُها قِشوراً لا لُبَّ تَحْتِها ، لِأَنَّ غايَةَ ما عِنْدَ الرَّجُلِ أَنْ
يَقولَ : وَأَمَّا الفِصاحَةُ فَإنَّها كَقولِ النَّابِغَةِ مِثْلاً ، أوْ كَقولِ الأَعشى (١) ، أوْ
غَيرِها ، ثُمَّ يذْكَرُ بَيتاً مِنَ الشَّعْرِ ، أوْ أَبياتاً . وَما يَهْذأُ تُدْرِفُ حَقِيقَةَ الفِصاحَةِ
حَتَّى إِذا وَرَدَتْ فِي كِلامِ عَرَفْنا أَنَّهُ فَصيحٌ ، بِما عَرَفْنا مِنَ حَقِيقَتِها المَوْجودَةِ
فِيه ، وَكَذلكَ يَقولُ فِي غَيرِ الفِصاحَةِ .

وَمَنْ أَعْجَبَ ما وَجَدْتُهُ فِي كِتابِهِ أَنَّهُ قالَ : أَمَّا المَعانِي المَبْتَدِعةُ فَلِيسَ
لِلعَرَبِ مِنْها شَيْءٌ ، وَإِنما اِختَصَّ بِها المُحدِثُونَ ؛ ثُمَّ ذَكَرَ لِلْمُحدِثِينَ مَعانِي ،
وَقالَ : هَذا المَعنى أَمْلاَن ، وَهَذا غَريبٌ ، وَهَذا القَوْلُ لِفِلانٍ ، وَهُوَ غَريبٌ .

وَتلكَ الأَقوالُ الَّتِي خَصَّ قائلُها بِأنْهُم اِبْتَدَعُوها قَدْ سَبَقُوا إِلَيْها ، فِإِما
أَنْ يَكُونَ غَيرَ عارِفٍ بِالمَعنى الغَريبِ ، وَإِما أَنَّهُ لَمْ يَقِفْ عَلَى أَقوالِ النَّاظِمِينَ
وَالنَّائِرِينَ ، وَلا تَبَجَّرَ فِيها ، حَتَّى عَرَفَ ما قالَهُ المَتَقَدِّمُ ، ثُمَّ قالَهُ المَتَأَخِّرُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ إِنَّهُ لِيسَ لِلعَرَبِ مَعنى مَبْتَدِعةٌ ، وَإِنما هُوَ لِلْمُحدِثِينَ ، فِإِلايَتِ
شَعْرِي ! مَنْ السَّابِقُ إِلى المَعانِي ؟ مَنْ تَقَدَّمَ زَمانُهُ ، أَمْ مَنْ تَأَخَّرَ زَمانُهُ ؟

(١) أَعشى قَيسُ هُوَ مِيمونُ بنُ قَيسِ بنِ جَندَلِ مَن بَكَرَ بنُ
واثِلِ مَن رَبيعةٌ ، وَهُوَ أَحَدُ الأَعلامِ مَن شَعِراءُ الجاهِلِيَةِ وَفِحوْلُهُم ،
وَالبَعْضُ يَقَدِّمُونَهُ عَلَى سائِرِهِمْ ، وَيُحْتِجُّ الَّذِينَ يَقَدِّمُونَهُ بِكَثْرَةِ طَوالِهِ
[الجِياذِ ، وَتَصَرَّفَهُ فِي المَدِيحِ وَالهِجاءِ وَسائِرِ فِنونِ الشَّعْرِ مِمَّا لِيسَ لِسِواهِ ،
وَيَقالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَن سَأَلَ بِشَعْرِهِ ، وَأُنْتَجِعُ بِهِ أَقاصِي البِلاَدِ ، وَكانَ
يَعْنِي بِهِ ، فَسَمِيَ صِناجِعَةَ العَرَبِ . تَوَفَّى سَنَةَ ٦٢٩ م

وأنا أورد هاهنا ما يُستدلُّ به على بطلانِ ما ذكره .

وذلك أنه قد ورد من المعاني أن صور المنازلِ تمثَّلت في القلوب ، فإذا عفت آثارها لم تعفُ صورُها من القلوب ، وأوَّل من أتى بذلك العربُ ، فقال الحارثُ بنُ خالدٍ^(١) من أبيات الحماسة^(٢) :

إني وما نَحَرُوا غَدَاةَ مِثِّي عِنْدَ الْجَمَارِ يَمُودُهَا الْعُقْلُ^(٣)
لَوْ بَدَّلْتَ أَعْلَى مَسَاكِنِهَا سِفْلًا وَأَصْبَحَ سِفْلُهَا يَعْأُو
لَعَرَفْتُ مَعْنَاهَا بِمَا^(٤) ضَمِنْتُ مِثِّي الضُّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ

ثم جاء المحدثون من بعده ، فانسحبوا على ذنبه ، وحدَّوا حدَّوه ، فقال أبو تمام^(٥) :

(١) هو الحارث بن خالد المخزومي ، شاعر كثير الشعر ، وكان في عهد بني أمية ولي مكة من قبل يزيد بن معاوية ، فلم يمكنه ابن الزبير ، فلما ولي عبد الملك أقره عليها ، ثم عزله : ، فعتب عليه بأبيات من الشعر ، فأرضاه ووصله ، وهو أحد المعدودين من شعراء قريش ، ولا سيما في الغزل والنسيب ، وكان يذهب مذهبه عمر بن أبي ربيعة ، ولا يتجاوز الغزل إلى المديح والهجاء ، وأكثر شعره في عائشة بنت طلحة وكان يهواها ويشبب بها .

(٢) ديوان الحماسة ٨٦/٢ من أربعة أبيات ترك بن الأثير الثالث منها وهو قوله :

فيكاد يعرفها الخبير بها فيرده الإفواء والمحصل

(٣) في الأصل « وإن نحروا » ، والواو من « وما نحروا » القسم وآده أعياء ، والعقل واحده عقال ، ما يعقل به البعير عن السير أو للنحر ، وجواب القسم « لو بدلت » إلى آخر الأبيات .

(٤) في ديوان الحماسة « لما ضمنت »

(٥) ديوان أبي تمام ٢٢٩ من قصيدة يمدح فيها المعتصم بالله ، أولها :
أجل أيها الربع الذي خف آمله لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله

وقفت وأحشائي منازل للأسى به وهو قفر قد تعمت منازلُه
وقال البحرُ تَرَى (١) :

عَفَتِ الرُّسُومُ وما عَفَتِ أَحْشَاؤُهُ

مِنْ عَهْدِ شَوْقٍ مَا حُولُ (٢) فَتَذْهَبُ

وقال المتنبي (٣) :

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ

أَقْفَرْتَ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكَ أَوَاهِلُ

وهذا المعنى قد تداوله الشعراء ، حتى أنه ما من شاعر إلا ويأتي به

في شعره .

وكذلك ورد لبعضهم من شعراء الحماسة (٤) :

أَنَاخَ اللُّؤْمُ وَسَطَ بَنِي رِيَّاحٍ مَطِيئَتُهُ فَأَقْدَمَ لَا يَرِيمُ (٥)

كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يَقِيمُ (٦)

(١) ديوان البحرى ٣ - ١٨٨ من قصيدة يمدح بها إسحاق بن

إبراهيم ، ومطلعها :

عارضتنا أصلا فقلنا الربرب حتى أضاء الأقحوان الأشنب

(٢) فى الديران « مايجول » بالياء .

(٣) ديوان المتنبي ٣ - ٢٤٩ مطلع قصيدة فى مدح القاضى أبى الفضل

أحمد بن عبد الله الإنطاكى .

(٤) ديوان الحماسة ٢ ، ٢٢٧ .

(٥) فى الأصل « بنى رماح » و « وأقسم » والتصويب عن ديوان

الحماسة ومعنى لا يريم لا يبرح .

(٦) فى ديوان الحماسة « يقيم » بالميم موضع الياء .

وهذان البيتان من أبيات المعاني المبتدعة ، وعلى أثرهما مَشَى الشعراء .

وكذلك وَرَدَ لِبَعْضِهِمْ في شعر الحماسة (١) :

تَرَكَتُ ضَأْنِي تَوَدُّ الذَّنْبُ رَاعِيَهَا وَأَهَّهَا لَا تَرَانِي آخَرَ الْأَبَدِ
الذَّنْبُ يَطْرُقُهَا فِي الدَّهْرِ وَاحِدَةً وَكَلَّ يَوْمٍ تَرَانِي مُدْبِئَةً بِيَدِي
وكذلك ورد قول الآخر :

قَوْمٌ إِذَا مَا جَنَى جَانِبَهُمْ أَمِنُوا لِلزُّومِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدًا (٢)
وكم للعرب من هذه المعاني التي سَبَقُوا إليها .

ومن أدلِّ الدليل على فساد ما ذهب إليه (٣) من أنَّ المحدثين هم المختصون
بابتداع المعاني أنَّ أولَ من بكى على الدِّيار في شعره رجلٌ يُقالُ له ابنُ حذام
وكان هو المبتدئ ، لهذا المعنى أوَّلاً . وقد ذكره امرؤ القيس في شعره ،
فقال (٤) :

عَوَجًا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لَعَنَّا نَبِيَّ الدِّيَارِ . كما بكى ابنُ حذام (٥)
وقد أجمع نَقْلَةُ الأشعار إنَّ لامرئ القيس في صفات الفرس أشياء كثيرة لم
يُسَبَقِ إليها ، ولا قيلت من قبله .

(١) ديوان الحماسة ٢ — ٢٤٥ .

(٢) البيت في نقد الشعر ٤٧ وفي الصناعتين ١٠٥ وقبله :

الزُّومُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَوَالِدِهِ وَالزُّومُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَمَا وَلَدَا

(٣) يشير إلى ابن أفلح وكلامه في مقدمته .

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ٢١ .

(٥) قال ابن سلام : وابن حذام رجل من طيء لم يسمع شعره
الذي بكى فيه ولا شعر غير هذا البيت الذي نكره امرؤ القيس ، وفي الأصل
«ابن حرام» ، وفي الأصل (الطلل المخيل) بالخاء المعجمة ، ومعنى المحيل المتغير .

ويكفي من هذا كُله ما قدمتُ القولَ فيه . وهو أنَّ العربَ السابقون
بالشعر ، وزمانهم هو الأوَّل ، فكيفَ يقالُ أنَّ المتأخِّرين هم السابقون إلى
المعاني ؟ ! .

وفي هذه الأمثلة التي أوردتها كفايةً في نقضِ ما ذكره .

ولو قال (١) : إنَّ الحدِيثَ أكثرُ ابتداءً للمعاني ، وألطفُ مأخذاً ،
وأدقُّ نظراً ، لسكانِ قوله صواباً ، لأنَّ الحدِيثَ عظمُ الملكِ الإسلاميِّ في
زمانهم ، ورأوا ما لم يره المتقدمون ، وقد قيلَ « إنَّ اللهَ تفتحُ اللهَا (٢) » وهو
كذلك ، فإنَّ نفاقَ السُّوقِ جلاب .

* * *

وقد رأيتُ جماعةً من متخلِّفي هذه الصنعةِ يحملونَ همهمُ مقصوراً على
الألفاظِ التي لا حاصلَ وراهما ، ولا كبيرَ معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهمُ بلفظٍ
مسنجوعٍ على أيِّ وجهٍ كانَ من الغثائَةِ والبرذِ يعتقدُ أنه قد أتى بأمرٍ عظيمٍ ،
ولا يشكُّ في أنه صارَ كاتباً مغلفاً .

وإذا نظرَ إلى كُتَّابِ زمانِنَا وجدُّوا كذلك ، فقاتلَ اللهُ القلمَ الذي يمشى
في أيدي الجُهالِ الأغمارِ ، ولا يعلمُ أنه كجوادٍ يمشى تحتَ حمارٍ .

ولو أنه لا يتناولُ إليه إلاَّ أهله لبانِ الفاضلِ من النَّاقصِ ، على أنه
كالرُّمَحِ الذي إذا اعتَمَلَهُ حاملُه بينَ الصَّفَيْنِ بَانَ به المُقدمُ من الناكِصِ ، وقد

(١) الضمير عائد على ابن أفلح والكلام في مقدمته .

(٢) اللهَا بالضم جمع لهوة بالضم العطية دراهم كانت أو غيرها .
واللهَا بالفتح واللّهوات واللّهيات أيضا جمع لهاة بالفتح ، وهي الهنة
المطبقة في أقصى سقف الفم .

أصبح اليوم في يد قومٍ هم أحوجُّ من صبيان المكاتب إلى التعليم ، وقد قيل :
إنَّ الجهلَ بالجهلِ داءٌ لا ينتهي إليه سقمُ السقيم .

وهؤلاء لا ذنبَ لهم ، لأنهم لو لم يُستخدَموا في الدُّولِ ، وبُستكتبوا ،
وإلا ما ظهرت جهالتهم ، وفي أمثال العوامِّ « لا تُعرِ الأحمقَ شيئاً فيظنُّه له »
وكذلك يجرى الأمرُ مع هؤلاء ؛ فإنهم استكتبوا في الدُّولِ ، فظنُّوا أنَّ
الكتابة قد صارت لهم بأمرٍ حقٍّ واجب .

ومن أعجب الأشياءِ أنِّي لا أرى إلا طامعاً في هذا الفنِّ مدَّعيًا له ، على
خلوته عن تحصيل آياته وأسبابه ، ولا أرى أحداً يطمعُ في فنٍّ من الفنونِ
غيره ولا يدَّعيه ! .

هذا وهو يجرُّ لا ساحلَ له ، يحتاجُ صاحبه إلى تحصيل علومٍ كثيرة ؛
حتى يندتهي إليه ، ويحتوى عليه ، فسبحانَ الله ! هل يدَّعي بعضُ هؤلاء أنه
فقيهٌ ، أو طيبٌ ، أو حاسبٌ ، أو غيرُ ذلك ، من غير أن يحصلَ آلات
ذلك ، ويتقنَ معرفتها ؟

فإذا كانَ العلمُ الواحدُ من هذه العلومِ الذي يمكنُ تحصيله في سنةٍ
أو سنتين من الزمانِ ، لا يدَّعيه أحدٌ من هؤلاء ، فكيف يجيءُ إلى فنِّ
الكتابة ، وهو مالا تحضُلُ معرفتهُ إلا في سنينٍ كثيرةٍ ، يدَّعيه ، وهو
جاهلٌ به ؟

ومما رأيتُه من المدَّعين لهذا الفنِّ الذين حصلوا منه على القشور ، وقصروا
معرفةًهم على الألفاظِ المسجوعةِ المنةِ التي لا حاصلَ وراءها ، أنهم إذا أنكرت
هذه الحالُ عليهم ، وقيلَ لهم : إنَّ الكلامَ المسجوعَ ليس عبارةً عن تواطؤِ
النقيرِ على حرفٍ واحدٍ فقط ؛ إذ لو كن عبارةً عن هذا وحده لأمكن أن أكثر

الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو أمر وراه هذا ، وله شروطٌ متعددة
فإذا سمعوا ذلك أنكروه وخلوهم عن معرفته ؛ ثم لو عرفوه وأتوا به على الوجه
الحسن من اختيار الألفاظ المسجوعة لا حتاجوا إلى شرط آخر ، قد نبهت عليه
في باب (السجع) .

وإذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهدوا إلى طريق
المعاني يقولون: لنا أسوةٌ بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ، فإنهم إنما اعتنوا
بالألفاظ ، ولم يعتنوا بالمعاني اعتناءكم بها !!

فلم يكنهم جهلهم فيما ارتكبوه ، حتى ادعوا الأسوة بالعرب فيه ،
فصارت جهالتهم جهالتين .

ولنذكر هاهنا في الرد عليهم ما إذا تأملنا الناظر في كتابنا عرف منه
ما يؤتق ، ويذهب به الاستحسان كل مذهب ، فنقول :

اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها ، فإن
المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها ؛ فأول
ذلك عنايتها بألفاظها ، لأنها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقها إلى إظهار
أغراضها أصلحها وزينها ، وبالفوا في تحسينها ؛ ليكون ذلك أوقع لها في
النفوس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد .

ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لئلا سامعه ؛ فحفظه ؛ وإذا لم يكن
مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع ؟ .

فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم ، وحسنوها ، ورققوا حواشيها ؛
وصفوا أطرافها ؛ فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ؛ بل هي
خدمة منهم للمعاني ؛ ونظير ذلك إبراز صورة الحناء في الحلل الموسمية ؛

والأنوابِ المحبِّرة ؛ فإنَّا قد نجدُ من المعاني الفاخرةِ ما يشوهُ من حُسْنِهِ بِنَاذَةٍ
لفظه ، وسوءُ العبارةِ عنه .

فإن قيل : إننا نرى من ألفاظ العرب ما قد حسنوه وزخرفوه ، ولسنا
نرى تحته مع ذلك معنى شريفاً ، فمما جاء منه قول بعضهم (١) :

ولمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنِي كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْضِ كَانَ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْعَطِيِّ الْأَبَاطِحِ

ألا ترى إلى حُسن هذا اللفظ وصقلته ، وتديج أجزائه ؟ ومعناه مع
ذلك ليس مُدانيلاً ، ولا مقارباً ؛ فإنه إنما هو : لَمَّا فَرَّغْنَا مِنَ الْحَجِّ رَكَبْنَا
الطَّرِيقَ رَاجِعِينَ وَتَحَدَّثْنَا عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ . ولهذا نظائرُ كثيرةٌ ، شريفة
الألفاظ ، خسيصةُ المعاني (٢) ؟

(١) هذا الشعر ينسب إلى كثير عزة ، وإلى يزيد بن الطرية ؛ ونسبها
الشريف المرتضى في أماليه للمضرب ، وهو عقبه بن كعب بن زهير بن أبي
سلمى (٢ / ١١٠) وبين هذين البيتين بيت هو :
وشدت على حذب المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رايح
وفي بعض الروايات « دهم المهاري » والمهارة جمع مهرة ، وهي
الإبل المنسوبة إلى قبيلة « مهرة بن حيدان » .

(٢) صاحب هذا النقد هو ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) فإنه جعل الشعر أربعة
أضرب ثانيها ضرب حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة
في المعنى ، وتمثل بالأبيات الثلاثة المذكورة ، ثم عقب عليها بقوله :
هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، إن نظرت
إلى ماتحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ،
وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي للرائح ، أبتدأنا في
الحديث ، وسارت المطى في الأبطح » وهذا في الشعر كثير (الشعر والشعراء

فالجوابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَا نَقُولُ^(١) : هذا الموضوعُ قَدْ سَبَقَ إِلَى التَّثْبُتِ بِهِ مَنْ لَمْ يُنْعَمِ النَّظَرَ فِيهِ ، وَلَا رَأَى مَرَّآهُ الْقَوْمُ ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِحَفَاءِ طَبَعِ الْبَاطِنِ ، وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ ، وَهُوَ أَنَّ فِي قَوْلِ هَذَا الشَّاعِرِ « كُلِّ حَاجَةٍ » مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ ، أَهْلُ التَّنْسِيبِ وَالرَّقَّةِ [وَذَوُو]^(٢) الْأَهْوَاءِ وَالْمَقَامَةِ مَا لَا يَسْتَفِيدُهُ غَيْرُهُمْ ؛ وَلَا يَشَارِكُهُمْ فِيهِ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ .

أَلَا تَرَى أَنَّ حَوَائِجَ مَنِيْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ؟ فَفَنَهَا التَّلَاقُ ، وَمِنْهَا التَّشَاكِي ، وَمِنْهَا التَّخَلِّيُّ لِلْجَمَاعِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ تَالٍ لَهُ ؛ وَمَعْقُودُ الْكَوْنِ بِهِ ، فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ صَانِعَ عَنْ هَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْمَأَ لَهُ ، وَعَقَدَ غَرَضَهُ عَلَيْهِ ؛

= وتمثل بهذه الأبيات قدامة بن جعفر في نعت اللفظ بأن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها : عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ، مثل أشعار يوجد فيها ذلك . وأن خلت من سائر النعوت للشعر (نقد الشعر ١٢) .

وقال أبو هلال العسكري : إن الكلام الذي إذا كان لفظه حلواً عذبا ، وسلسا سهلا ، ومعناه وسطاً ، دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ، وذكر الأبيات الثلاثة ، ثم عقب عليها بمثل تعقيب ابن قتيبة (انظر الصنائع ٥٩) .

(١) قد يعتقد القارئ أن هذا الجواب من ثمار فطنة ابن الأثير واستواء ملكته النقدية ، ولكن الحقيقة أنه سطا عليه ، ونقله بمعانيه وأكثر حروفه من غير أن يرجعه إلى صاحبه ، وكثيرا ما رأينا منه مثل ذلك ، وهذا الجواب هو من تأليف أبي الفتح عثمان بن جني صاحب « الخصائص » الذي بسط القول فيه على هذا النحو (أنظر الخصائص ١ - ٢٢٥) وقد أخذ رأى ابن جني أيضا عبد القاهر الجرجاني وجعله دفاعاً عن الشعر عند من استقل معناه (أنظر أسرار البلاغة ١٥ - ١٨)

(٢) زيادة عن الخصائص .

بقوله في آخر البيت « ومسح بالأركان مَنْ هو مسحٌ » أى إنما كانت حوائجنا التى قضيناها ، وآرابنا^(١) التى بلمناها من هذا النَجْو الذى هو مسح الأركان ، وما هو لاحقٌ به ؛ وجارٍ فى القربةِ من الله جَراه ، أى لم تعدَ هذا القَدْر المذكورَ إلى ما يحتمله أولُ البيت من التَّعريض الجارى مجرى التصريح .

وأما البيت الثانى : فإن فيه « أخذنا بأطراف الأحاديث بيئنا » وفى هذا ما تذكرُهُ لتعجبِ به ؛ وبمن عجب منه ، ووضع من معناه ! .

وذلك أنه لو قالَ : « أخذنا فى أحاديثنا » ، أو نحو ذلك ، لكان فيه ما يكبره أهلُ النسيب ، فانه قد شاعَ عنهم ، واتسع فى مُحاوراتهم علوُ قدر الحديث بين الإلثمين ؛ والجذُل بجمع شمل المواصاين ، ألا ترى إلى قول بعضهم :

وحدثنى يأسدُ عنها فزدنى جنوناً فزدنى من حديثك يأسدُ

وقول الآخر :

وحديثها السحرُ الحلالُ لو أنه لم يحن قتل المسلم المتحرز^(٢)

فإذا كان قدرُ الحديث عندهم [مرسلاً] ^(٣) على ماترى ، فسكيف به إذا قيده به قوله « أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ » ؟ فإن فى ذلك وحياً خفياً ، ورمزاً حلواً . ألا ترى أنه قد يُريدُ بأطرافِها ، ما يتعاطاهُ المحبُّون ، وبتفأوضه

(١) فى الخصائص « وآدابنا » .

(٢) هذا البيت والذى قبله فى الخصائص ١ - ٢٢٧ .

(٣) زيادة عن الخصائص ١ - ٢٢٨ والكلام منقول عن ابن جنى

ذُو الصَّبَابَةِ مِنَ التَّعْرِيزِ وَالتَّلْوِيحِ وَالإِيْمَاءِ دُونَ التَّصْرِيحِ ؟ وَذَلِكَ أَحْلَى وَأَطْيَبُ ، وَأَغْزَلُ وَأَنْسَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَشْفًا وَمَصَارِحَةً وَجَهْرًا .

وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَعْنَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ أَعْلَى عِنْدَهُمْ ، وَأَشَدُّ تَقْدَمًا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ لَفْظِهِمَا ، وَإِنْ عَذِبَ وَلَذَّ مُسْتَمِعَهُ .
نَعَمْ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

* وَسَأَلْتُ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ *

مِنْ لَطَافَةِ الْمَعْنَى وَحُسْنِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ .

وَسَأَلْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَأَقُولُ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا تَحَدَّثُوا وَهُمْ سَائِرُونَ عَلَى الْمَطَايَا شَفَلَتْهُمْ لَذَّةُ الْحَدِيثِ عَنْ إِمْسَاكِ الْأَزِمَةِ ؛ فَاسْتَرْخَتْ عَنْ أَيْدِيهِمْ ، وَكَذَلِكَ شَأْنُ مَنْ يَشْرَهُ وَتَغْلِبُهُ الشَّهْوَةُ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَارْتَحَتْ الْأَزِمَةُ عَنِ الْأَيْدِي أَمْرَعَتِ الْمَطَايَا فِي الْمَسِيرِ ، فَشَبِّهَتْ أَعْنَاقَهَا بِمَرُورِ السَّيْلِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فِي سُرْعَتِهِ ، وَهَذَا مَوْضِعٌ كَرِيمٌ حَسَنٌ ، لَا مَزِيدَ عَلَى حُسْنِهِ .

وَالَّذِي لَا يُنْعِمُ نَظْرَهُ فِيهِ لَا يَعْلَمُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى ، فَالْعَرَبُ إِنَّمَا تَحْسُنُ أَلْفَافَهَا ، وَتَزُخْرِفُهَا ، عِنَايَةً مِنْهَا بِالْمَعَانِي الَّتِي تَحْتَهَا .

فَالْأَلْفَافُ إِذَا خَدِمَ الْمَعَانِي ، وَالْخُدُومُ لَا شَكَّ أَشْرَفُ مِنَ الْخَادِمِ ، فَاعْرِفْ ذَلِكَ ، وَقِسْ عَلَيْهِ .

النوع الأول

في الاستعارة

وَلْتَقَدِّمُ قَبْلَ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ قَوْلًا جَامِعًا ، فَتَقُولُ :

اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافاً خاصةً ، وأوصافاً عامةً .

فانلخّصةُ : كالتجنّيس فيما يرجعُ إلى اللفظ ، وكالمطابقة فيما يرجعُ

إلى المعنى .

وأما العامةُ : فكالتسجّع فيما يرجعُ إلى اللفظ ، وكالاستعارة فيما يرجعُ

إلى المعنى .

وهذا الموضوعُ الذي نحنُ بصددِ ذكره — وهو الاستعارةُ — كثيرُ

الإشكالِ ، غامضُ الخلقاء .

وسأوردُ في كتابي هذا ما استخرجتُه ، ولم أسمعُ فيه قولاً لغيري .

وكنتُ قدّمتُ القولَ في الفصلِ السابعِ منْ مقدّمةِ الكتابِ (١) فيما

يختصُّ باثباتِ المجازِ ، والرّدِّ على مَنْ ذَهَبَ إلى أنّ الكلامَ كنهٌ حقيقةً ،

لا مجازَ فيه ؛ وأقمتُ الدليلَ على ذلك ، ولا حاجةَ إلى إعادته هاهنا .

بل الذي أذكرُه هاهنا هو ما يختصُّ بالاستعارةِ التي هي جزءٌ من المجازِ ،

ولم تُسمِّتْ بهذا الإسمِ ، وكشفتُ عن حقيقتها ، وميّزتها عن التشبيهِ

المضمرِ الأداةِ .

(١) أنظر صفحة ١٠٥ من القسم الأول من هذا الكتاب .

والكلامُ في هذا يحتاجُ إلى إعادةِ ذكرِ المِجازِ ، وإِدخالِهِ فيه ، ليتقرَّرَ
وَيُتَبَيَّنَ .

أقسام المِجازِ :

والَّذي انكشفَ لي بالنظرِ الصَّحيحِ أنَّ المِجازَ يَنقسمُ قِسْمينِ :
توسُّعٌ في الكلامِ وتشبُّيه .

والتشبيهُ ضربانِ : تشبيهُ تام ، وتشبيهُ محذوف .

فالتشبيهُ التَّامُّ : أنْ يُذكَرَ المِشَبَّهُ والمِشَبَّهُ بِهِ .

والتشبيهُ المحذوفُ : أنْ يُذكَرَ المِشَبَّهُ دُونَ المِشَبَّهُ بِهِ ، ويسمى

(استعارة) .

وهذا الإِسْمُ وُضِعَ للفرقِ بينَهُ وبينَ التَّشبيهِ التَّامِّ ، وإِلا فكلاهما يَجُوزُ
أنْ يُطلقَ عليه إِسْمُ (التَّشبيهِ) ويجوزُ أنْ يُطلقَ عليه إِسْمُ (الاستعارة)
لاشترائِكهما في المعنى .

وأَمَّا التوسُّعُ فانه يُذكَرُ للتصرُّفِ في اللُّغة ، لا لفائدةٍ أُخرى .

وإن شئتَ قلت . إنَّ المِجازَ يَنقسمُ إلى توسُّعٍ في الكلامِ ، وتشبيهِ ،
واستعارةٍ ، ولا يَخْرُجُ عن أَحَدِ هذه الأقسامِ الثلاثةِ ، فأَيُّها وُجِدَ كان مِجازاً .

فان قيل : إنَّ التوسُّعَ شاملٌ لهذه الأقسامِ الثلاثةِ ، لأنَّ الخُرُوجَ من الحقيقةِ
إلى المِجازِ اتَّساعٌ في الاستعمالِ . . .

قلتُ في الجوابِ : إنَّ التوسُّعَ في التشبيهِ والاستعارةِ جاءَ ضِمناً وتبعاً ،
وإن لم يكنْ هو السببُ الموجبَ لاستعمالها .

وأَمَّا القسمُ الآخرُ — الذي هو لتشبيهِ ولا استعارةً — فإنَّ السببَ في
استعماله هو طلبُ التوسُّعِ لا غيرُ .

وبيان ذلك أنه قد ثبت أن المجاز فرعٌ عن الحقيقة ، وأن الحقيقة هي الأصل ، وإنما يُعدّل عن الأصل إلى الفرع لسبب اقتضاه .

وذلك السبب الذي يُعدل فيه عن الحقيقة إلى المجاز إما أن يكون لمشاركة بين المنقول والمنقول إليه في وصف من الأوصاف ، وإما أن يكون لغير مشاركة .

الفرق بين التشبيه والاستعارة :

فإن كان لمشاركة ؛ فإما أن يذكر المنقول والمنقول إليه معاً ، وإما أن يذكر المنقول إليه دون المنقول .

فإن ذكر المنقول والمنقول إليه معاً كان ذلك تشبيهاً .

والتشبيه تشبهان : تشبيه مظهر الأداة ، كقولنا : زيد كالأسد ، وتشبيه مضمرة الأداة كقولنا : زيد أسد .

وهذا التشبيه المضمرة الأداة قد خاطه قوم بالاستعارة^(١) ، ولم يفرّقوا بينهما ، وذلك خطأ محض .

(١) سبق القاضي الجرجاني صاحب الوساطة ابن الأثير إلى التمييز بينهما ، فقد ذكر أنه قد ورد ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، وأن بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس :
والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا
وليس هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل ، أو تشبيه شيء بشيء وإنما الاستعارة ما أكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ =

وَسَأَوْضَحَ وَجْهَ الْخَطَأِ فِيهِ ، وَأَحَقَّقَ الْقَوْلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا تَحْقِيقًا جَلِيًّا ؛
فَأَقُولُ :

أَمَّا التَّشْبِيهُ الْمُظْهِرُ الْأَدَاةَ فَلَا حَاجَةَ بِنَاءٍ إِلَى ذِكْرِهِ هَاهُنَا ، لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ
لَا خِلَافَ فِيهِ ، لَكِنْ نَذَكَّرُ (التَّشْبِيهِ الْمَضْمَرِ الْأَدَاةِ) الَّذِي وَقَعَ فِيهِ
الْخِلَافُ ، فَنَقُولُ :

إِذَا ذُكِرَ الْمَنْقُولُ وَالْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ تَشْبِيهُ مَضْمَرِ الْأَدَاةِ قِيلَ فِيهِ :
زَيْدٌ أَسَدٌ ؛ أَيْ كَالْأَسَدِ ؛ فَأَدَاةُ التَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ ؛ وَإِذَا أُظْهِرَتْ حَسُنَ
ظُهُورُهَا ؛ وَلَمْ تَقْدَحْ فِي الْكَلَامِ الَّذِي أُظْهِرَتْ فِيهِ ؛ وَلَا تُزِيلُ عَنْهُ فَصَاحَةَ
وَلَا بِلَاغَةَ .

وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه دون المنقول ؛ فإنه لا يحسن فيه
ظهور أداة التشبيه ومتى أظهرت أزلت عن ذلك الكلام ما كان متصفاً به
من جنس فصاحة و بلاغة ، وهذا هو (الاستعارة) .

ولنضرب لك مثالا نوضحه ؛ فنقول :

قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء ؛ وهو :

فَرَعَاءُ إِنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَا عَجَلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدَّعْصُ (١)

وهذا قد ذكر فيه المنقول إليه دون المنقول ؛ لأن تقديره « عَجَلَ قَدُّ
كَالْقَضِيبِ ؛ وَأَبْطَأَ رِدْفٌ كَالدَّعْصِ » وبين إirاده على هذا التقدير وبين
إيراده على هيئته في البيت بون بعيد في الحسن والملاحة .

= بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن
الآخر وانظر الوساطة بين المتنبي وخصومه ٤٠ .

(١) الفرعاء التامة الشعر ، والدعص قطعة من الرمل مستديرة أو

الكثيب .

والفرق إذاً أنَّ التَّشْبِيهَ الْمُضْمَرَ الْأَدَاةُ يَحْسُنُ إِظْهَارُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ ،
والاستعارة لا يَحْسُنُ ذَلِكَ فِيهَا .

وعلى هذا فإنَّ الاستعارة لا تكون إلا بحيثُ يُطَوَّى ذِكْرُ الْمُسْتَعَارِ لَهُ
الَّذِي هُوَ الْمَنْقُولُ إِلَيْهِ ؛ وَيُكْتَفَى بِذِكْرِ الْمُسْتَعَارِ الَّذِي هُوَ الْمَنْقُولُ .

فإن قيل : لَأَنْسَلِمُ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَبَيْنَ الْإِسْتِعَارَةِ مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ ،
بَلِ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ التَّشْبِيهَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَدَاتِهِ ، كَالْكَافِ ، وَكَانَ ، وَمَا جَرَى
مَجْرَاهُمَا ، فَمَا لَمْ يَظْهَرْ فِيهِ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ لَا يَكُونُ تَشْبِيهًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ إِسْتِعَارَةً ،
فَإِذَا قُلْنَا « زَيْدٌ أَسَدٌ » كَانَ ذَلِكَ (إِسْتِعَارَةً) وَإِذَا قُلْنَا « زَيْدٌ كَالْأَسَدِ »
كَانَ ذَلِكَ (تَشْبِيهًا) .

قلتُ في الجوابِ عن ذلك : إِذَا لَمْ نَجْعَلْ قَوْلَنَا « زَيْدٌ أَسَدٌ » تَشْبِيهًا مُضْمَرَ
الْأَدَاةِ اسْتِحْطَالَ الْمَعْنَى ، لِأَنَّ زَيْدًا لَيْسَ أَسَدًا ، وَإِنَّمَا هُوَ كَالْأَسَدِ فِي شَجَاعَتِهِ ،
فَأَدَاةُ التَّشْبِيهِ تَقْدَرُ هَاهُنَا ضَرُورَةً ؛ كَيْ لَا يَسْتَحِيلَ الْمَعْنَى .

فإن قيل : وَكَذَلِكَ أَيْضًا إِذَا لَمْ تَقْدَرْ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ فِي الْإِسْتِعَارَةِ اسْتِحْطَالَ
الْمَعْنَى ، لِأَنَّ إِذَا قُلْنَا « عَجَلُ التَّضْيِيبِ ، وَأَبْطَأُ الدَّعْصِ » فَمَا لَمْ نَقْدَرْ فِيهِ أَدَاةَ
التَّشْبِيهِ ؛ وَإِلَّا اسْتِحْطَالَ الْمَعْنَى !

قلتُ في الجوابِ عن ذلك : تَقْدِيرُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ لَا بَدَّ مِنْهُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ؛
لَكِنْ يَحْسُنُ إِظْهَارُهَا فِي التَّشْبِيهِ دُونَ الْإِسْتِعَارَةِ .

وجملة الأمر أننا نرى أداة التشبيه يحسن إظهارها في موضع دون موضع ،
فعلما أنَّ الموضع الذي يحسن إظهارها فيه غيرُ الموضع الذي لا يحسنُ إظهارها
فيه ، فسميْنَا الموضعَ الذي يحسنُ إظهارها فيه (تَشْبِيهًا مُضْمَرَ الْأَدَاةِ) وَالَّذِي
لَا يَحْسُنُ إِظْهَارُهَا فِيهِ (إِسْتِعَارَةً) .

وإنما فَعَلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ تَسْمِيَةَ مَا يَحْسُنُ إِظْهَارَ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ بِـ (التَّشْبِيهِ)
 أَلْتَقَى ، وَتَسْمِيَةَ مَا لَا يَحْسُنُ إِظْهَارَ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ بِـ (بِالاسْتِعَارَةِ) أَلْتَقَى ، فَإِذَا
 قُلْنَا « زَيْدٌ أَسَدٌ » حَسُنَ إِظْهَارُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ بِأَنْ نَقُولَ « زَيْدٌ كَالْأَسَدِ »
 . وَإِذَا قُلْنَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَرَعَاءُ إِن نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَا عَجَلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدَّعْصُ

لَا يَحْسُنُ إِظْهَارُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ ذَلِكَ أَوَّلًا .
 فَإِنْ قِيلَ . إِذَا أَجَزْتَ إِضْمَارَ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ ، وَقَدَّرْتَ إِظْهَارَهَا فِي قَوْلِكَ
 « زَيْدٌ أَسَدٌ » أَى كَالْأَسَدِ ، فَنَحْنُ نَضْمُرُ أَيْضًا الْمُسْتَعَارَ لَهُ وَتَقَدَّرَ إِظْهَارُهُ فَإِنَّهُ
 لَمَّا قَالَ الشَّاعِرُ « عَجَلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدَّعْصُ » أَضْمَرَ الْمُسْتَعَارَ لَهُ وَهُوَ الْقَدُّ
 وَالرِّدْفُ ، وَإِذَا أَظْهَرَ قِيلَ « عَجَلَ قَدٌّ كَالْقَضِيبِ ، وَأَبْطَأَ رِذْفٌ كَالدَّعْصِ »
 . وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْإِضْمَارَيْنِ ، فَكَمَا يَسْمَعُكَ إِضْمَارُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِكَ « زَيْدٌ
 أَسَدٌ » فَكَذَلِكَ يَسْمَعُنَا نَحْنُ إِضْمَارَ الْمُسْتَعَارِ لَهُ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ !

فَلْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنِي أَقُولُ : نَحْنُ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَاقِفُونَ مَعَ الْاسْتِحْسَانِ
 لِأَمْعِ الْجَوَازِ ، وَلَوْ تَأَمَّلْتَ مَا أوردتهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِي بِالْعَيْنِ الصَّحِيحَةِ لَمَّا
 أوردتَ عَلَيَّ هَذَا الْإِعْتِرَاضَ هَاهُنَا ، فَإِنِّي قُلْتُ : التَّشْبِيهِ الْمَضْمُرُ الْأَدَاةَ يُحْسِنُ
 إِظْهَارَ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ ، وَالْإِسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ إِظْهَارَ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهَا ، وَلَوْ
 قُلْتُ : يَجُوزُ أَوْ لَا يَجُوزُ لَوْرَدَ عَلَيَّ هَذَا الْإِعْتِرَاضُ الَّذِي ذَكَرْتَهُ ، وَقَدْ عَلِمَ
 وَتَحَقَّقَ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ فِي حُكْمِ النِّصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ أَلَّا يَظْهَرَ الْمُسْتَعَارُ لَهُ ، وَإِذَا
 أَظْهَرَ ذَهَبَ مَا عَلَيَّ الْكَلَامِ مِنَ الْحُسْنِ وَالرَّوْنُقِ .

أَلَا تَرَى أَنَا إِذَا أوردْنَا هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي هُوَ (١) :

(١) الْبَيْتُ لِلرَّأْوَاءِ الدِّهَشْتَقِيِّ .

فَأَمْطَرَتْ لَوْلُوًّا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ

وَرَدًّا وَعَعَضَتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

وُجِدَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالرَّوْنِقِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ .
فَإِذَا أَظْهَرْنَا الْمُسْتَعَارَ لَهُ صَبَرْنَا إِلَى كَلَامِ غَثٍّ ، وَذَلِكَ أَنَا نَقُولُ : « فَأَمْطَرَتْ
دَمْعًا كَاللُّوْلُوِّ مِنْ عَيْنٍ كَالنَّارِجِسِ ، وَسَقَتْ خَدًّا كَالْوَرْدِ ، وَعَعَضَتْ عَلَى
أَنَامِلٍ مَخْضُوبَةٍ كَالْعُنَابِ بِأَسْنَانٍ كَالْبَرْدِ » وَفَرَّقَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْكَلَامَيْنِ
لِلْمُتَأَمِّلِ وَاسِعٌ .

وَهَكَذَا يَجْرِي الْحُكْمُ فِي الْبَيْتِ الْمَتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ الَّذِي هُوَ :

فَرَعَاءُ إِنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَا حَجَلُ الْقَضِيبِ وَأَبْطَأَ الدَّعْصُ

فَإِنَّ هَذَا الْبَيْتَ لَا خَفَاءَ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الْحُسْنِ ، وَإِذَا ظَهَرَ فِيهِ الْمُسْتَعَارُ لَهُ
زَالَ ذَلِكَ الْحُسْنُ عَنْهُ ، لَا بَلَّ تَبَدَّلَ بِضَدِّهِ .

وَلَيْسَ كَذَلِكَ التَّشْبِيهُ الْمَضْمَرُ الْأَدَاةُ ، فَإِنَّا إِذَا أَظْهَرْنَا أَدَاةَ التَّشْبِيهِ
وَأَضْمَرْنَا هَا كَانَ ذَلِكَ سَوَاءً ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِنَا « زَيْدٌ أَسَدٌ » وَبَيْنَ
قَوْلِنَا « زَيْدٌ كَالْأَسَدِ » وَهَذَا لَا يَخْفَى عَلَى جَاهِلٍ يَعْلَمُ النِّصَاحَةَ وَالْبَلَاغَةَ فَضْلًا
عَنْ عَالِمٍ .

وَالْمَعْوَلُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مِنَ الْمَشُورِ وَالْمَنْظُومِ إِيمًا هُوَ حُسْنُهُ
وَطِلَاوَتُهُ ، فَإِذَا ذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ .

وَنَحْنُ فِي الَّذِي نَوْرِدُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَاقِفُونَ مَعَ الْحُسْنِ لَا مَعَ الْجَوَازِ .
ثُمَّ لَوْ تَنَزَّلْنَا مَعَكُمْ أَيُّهَا الْمَعْتَرِضُ عَنْ دَرَجَةِ الْحُسْنِ إِلَى دَرَجَةِ الْجَوَازِ لَمَّا
اسْتَقَامَ لَكَ مَا ذَكَرْتَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ إِضْمَارَ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِنَا « زَيْدٌ
أَسَدٌ » أَيْ كَالْأَسَدِ ، وَهُوَ مُضْمَرٌ وَاحِدٌ ، وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ « فَرَعَاءُ إِنْ نَهَضَتْ »

لحاجتها » فإنه لا يُضمر فيه أداة التشبيه إلا بعد أن يظهر المستعار له ، وحينئذٍ يكون فيه إضماران أحدهما : المستعار له ، والآخر : أداة التشبيه . وإضمار واحدٍ أيسر من إضمارين ؛ أحدهما معلق على الآخر .

وإذا كان الأمر كذلك فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ما قدمت القول فيه من أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطوى ذِكْرُ المستعار له . فتأمل ما أشرتُ إليه وتدبره ، حتى تعلم أنني ذكرتُ ما لم يذكره أحدٌ غيري على هذا الوجه .

وإنما سُمِّيَ هذا القسمُ من الكلام (استعارة) لأن الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذٌ من العارية الحقيقية التي هي ضربٌ من المعاملة ، وهي أن يستعيرَ بعضُ الناسِ من بعضِ شيئاً من الأشياء ، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سببٌ معرفة ما يقتضى استعارة أحدهما من الآخر شيئاً ، وإذا لم يكن بينهما سببٌ معرفة بوجهٍ من الوجوه فلا يستعيرُ أحدهما من الآخر شيئاً ؛ إذ لا يعرفه حتى يستعيرَ منه . وهذا الحكم جارٍ في استعارة الألفاظ بعضها من بعض ؛ فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر .

واعلم أنه قد ورد من الكلام ما يجوزُ حمله على الاستعارة ؛ وعلى التشبيه المضمرة الأداة معا ؛ باختلاف القرينة ؛ وذلك أن يرد الكلامُ محمولاً على ضمير من تقدم ذكره ؛ فينتقل عن ذلك إلى غيره ؛ ويرتجل ارتجالاً .
فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ الْبُحْتَرِيِّ (١) :

(١) ديوان البحتري ١-١٣٧ من قصيدة يمدح فيها أحمد وإبراهيم ابني المدبر ومطلعها :

عناني من صدودك ماعناني وعاوندي هواك كما بداني

إِذَا سَفَرَتْ أَضَاءُ شَمْسٍ دَجْنٍ وَمَالَتْ فِي التَّعَطُّفِ غُصْنِ بَانَ (١)
 فَلَمَّا قَالَ « أَضَاءُ شَمْسٍ دَجْنٍ » — بِنَصْبِ الشَّمْسِ — كَانَ ذَلِكَ
 مَحْمُولًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ « أَضَاءُ » كَأَنَّهُ قَالَ : أَضَاءَتْ هِيَ ؛ وَهَذَا تَشْبِيهُ
 لِأَنَّ الْمَشَبَّهُ مَذْكُورٌ ؛ وَهُوَ الضَّمِيرُ فِي « أَضَاءَتْ » الَّذِي نَابَتْ عَنْهُ التَّاءُ ؛ وَيَجُوزُ
 حَمْلُهُ عَلَى الِاسْتِعَارَةِ ؛ بِأَن يُقَالَ « أَضَاءَتْ شَمْسٌ دَجْنٍ » بَرَفِ الشَّمْسِ ؛ وَلَا
 يَمُودُ الضَّمِيرُ حِينَئِذٍ إِلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ .

وَإِنَّمَا يَكُونُ الْكَلَامُ مُرْتَجِلًا ؛ وَيَكُونُ الْبَيْتُ :
 إِذَا سَفَرَتْ أَضَاءُ شَمْسٍ دَجْنٍ وَمَالَ مِنَ التَّعَطُّفِ غُصْنُ بَانَ
 وَهَذَا الْمَوْضِعُ فِيهِ دَقَّةٌ غُوضٍ ؛ وَحَرْفُ التَّشْبِيهِ يَحْسُنُ فِي الْأَوَّلِ ؛
 دُونَ الثَّانِي .

التوسع في الكلام :

وَأَمَّا الْقِسْمُ الَّذِي يَكُونُ الْعَدُولُ فِيهِ عَنِ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْمَجَازِ لغيرِ مَشَارِكَةٍ
 بَيْنَ الْمُنْقُولِ وَالْمُنْقُولِ إِلَيْهِ فَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لطلبِ التَّوَسُّعِ فِي الْكَلَامِ ؛ وَهُوَ
 سَبَبٌ صَالِحٌ ؛ إِذِ التَّوَسُّعُ فِي الْكَلَامِ مَطْلُوبٌ .

ضربا التوسع :

وَهُوَ ضَرْبَانِ :

أحدهما : يَرِدُ عَلَى وَجْهِ الْإِضَافَةِ ؛ وَاسْتِعْمَالِهِ قَبِيحٌ ؛ لِإِمْدِ مَا بَيْنَ الْأَضَافِ
 وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَلْتَحِقُ بِالتَّشْبِيهِ الْمَضْمَرِ الْأَدَاةَ ؛ وَإِذَا وَرَدَ التَّشْبِيهُ
 وَلَا مَنَاسِبَةً بَيْنَ الْمَشَبَّهِ وَالْمَشَبَّ بِهِ كَانَ ذَلِكَ قَبِيحًا ؛ وَلَا يَسْتَعْمَلُ هَذَا الضَّرْبُ

١ — رِوَايَةُ الْدِيَوَانِ :

إِذَا انصرفت أضاءت شمس دجن ومال من التعطف غصن بان

من التوسّع إلا جاهلٌ بأسرارِ الفصاحةِ والبلاغةِ ؛ أو ساهٍ غافلٌ يذهبُ به
خاطرهُ إلى استعمالِ ما لا يجوزُ ولا يحسنُ ؛ كقولِ أبي نُوَاسٍ (١) :

بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

فقوله « بحَّ صوتُ المالِ » من الكلامِ النازلِ بالمرّةِ ، ومُرَادُهُ من
ذلك أَنَّ الْمَالَ يَتَضَلَّمُ من إهانتِك إِيَّاهُ بالتعزيقِ ، فالعنى حسنٌ ، والتعبيرُ
عنه قبيحٌ .

وما أحسنَ ما قالَ مُسْلِمُ بنُ الوليدِ (٢) في هذا المعنى :

تَضَلَّمَ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءُ ظُلَامًا
وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ أَيْضًا (٣) :

مَا لِرِجْلِ الْمَالِ أُمَسْتَ تَشْتَكِي مِنْكَ الْكَلَالَا

فإضافةُ « الرَّجْلِ » إلى « الْمَالِ » أَوْجَحُ من إضافةِ الصَّوْتِ .

ومن هذا الضربِ قولُ أبي تمامٍ (٤) :

(١) ديوان أبي نواس ٧٠ من قصيدة يمدح بها العباس بن عبد الله بن
أبي جعفر المنصور ، ومطلعها :

غرد الديك الصدوح فاسقنى طاب الصبوح

(٢) من قصيدة يمدح فيها يزيد بن يزيد الشيباني ومطلعها ،

طيف الخيال حمدنا منك إماما داويت سقما وقد هيجت أسقاما

(٣) ديوان أبي نواس ١١٩ من قصيدة في مدح إبراهيم بن عبد الله

الحجبي وأولها :

هل عرفت الدار أجلى أهله عنسه فزالا

(٤) ديوان أبي تمام ١٢٧ من قصيدة في مدح موسى بن إبراهيم

الرافعي والاعتذار إليه ومطلعها :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ومحت كما محت وشاع من برد

وَكَمْ أَخْرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قُدِّهَا

صُرُوفُ النَّوَى مِنْ مُرْهَفِ حَسَنِ الْقَدِّ (١)

فإضافة « القَدِّ » إلى « النَّوَى » من التشبيه البعید البعید ، وإنما أوقعه فيه المائلة بين القَدِّ والقَدِّ .

وهذا دأبُ الرَّجُلِ فِي تَتَبُّعِ (المائلة) تارةً . (والتجنيس) أخرى ، حتى أنه ليخرُجَ إلى بناء يُعَابُ به أقبح عيب وأخشيه .
وكذلك وردَ قَوْلُهُ (٢) :

بَلَوْنَاكَ أَمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فِي الْعُلَا

فَعَالٍ ، وَأَمَّا خَدُّ (٣) مَالِكٍ أَسْفَلُ

فقوله « كعبُ عِرْضِكَ » و « خدُّ مَالِكٍ » بما يُسْتَمْتَحُ وَيُسْتَنْكَرُ ، ومُرَادُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عِرْضَكَ مَصُونٌ وَمَالِكٌ مَبْتَدَلٌ ، إِلَّا أَنَّهُ عَبَّرَ عَنْهُ أَقْبَحَ تَعْبِيرٍ .

وَأَبُو تَمَّامٍ يَقَعُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرًا .

وَأَمَّا الضَّرْبُ الْآخَرُ مِنَ التَّوَشُّعِ : فَانَّهُ يَرِدُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْإِضَافَةِ ، وَهُوَ حَسَنٌ لِاعْتِبَابِهِ فِيهِ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ

(١) رواية الديوان « صروف الردى » موضع صروف النوى .
والقد القوام ، والمرهف الرقيق .

(٢) ديوان أبي تمام ٢٤٥ من قصيدة في مدح أبي المستهل محمد بن شقيق الطائي ، مطلعها :

تحمل عنه الصبر يوم تحماوا وعادت صباه في الصبا وهي شمال

(٣) رواية الديوان « جد » بالجيم المعجمة ، والجد الحظ .

إلى السماء وهى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ^(١)» فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع، لأنهما أجساد، والنطق
إنما هو للإنسان لا للجاد، ولا مشاركة هاهنا بين المنتقول والمنقول إليه .

وكذلك قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا
منظرين^(٢) » .

وعليه ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه نظر إلى أحد^(٣) يوماً
قال : « هذا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه » فإضافة الحبة إلى الجبل من باب التوسع ،
إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذى هو جاد .

(١) سورة فصلت : الآية ١١ قال ابن قتيبة : إن قوما قالوا فى
هذه الآية : لم يقل الله ولم تقولا ، وكيف يخاطب معدوماً ؟ وإنما هذا
عبارة لكوناهما فكانتا . ورد عليهم بقوله : وما فى نطق جهنم ونطق
السماء والأرض من العجب ؟ والله تبارك وتعالى ينطق الجلود والأيدى
والأرجل ، ويسخر الجبال والطير بالتسييح .
وأنظر تأويل مشكل القرآن ٧٨ و٨٣ .

(٢) سورة الدخان : الآية ٢٩ قال ابن قتيبة تعقيباً على هذه الآية
تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن ، رفيع المكانة ،
عام النفع ، كثير الصنائع : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده
وبكته الريح والبرق والسماء والأرض ، يريدون المبالغة فى وصف
المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمت ، وإيس ذلك بكذب لأنهم جميعاً
متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه - أنظر تأويل
مشكل القرآن ١٢٧ .

(٣) أحد - بضم أوله وثانيه معاً - اسم لجبل ظاهر المدينة ،
كانت عنده الغزوة المشهورة ، وهو جبل أحمر فى شمالى المدينة .

وعلى هذا وردَ مخاطبةُ الطُّولِ ، ومساءلةُ الأحجار ، كقولِ أبي تمامٍ (١) :

أَمِيدَانِ لَهْوِي مَنْ أُنَاحَ لَكَ الْبَيْلِي
فَأَصْبَحْتَ مَيْدَانَ الصَّبَا وَالْجَمَانِي

وكقولِ أبي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ (٢) :

إِنِّي لَسْتُ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبِيكِي وَتُرْزَمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ (٣)

فأبو تمامٍ ساءلُ رُبُوعًا عَافِيَةً ، وَأَحْجَارًا دَارِسَةً ، وَلَا وَجْهًا لَهَا هَاهُنَا
إِلَّا مَسَاءَلَةَ الْأَهْلِ ، كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ (٤) » أَي
أَهْلَ الْقَرْيَةِ .

وكلُّ هَذَا تَوْشَعٌ فِي الْعِبَارَةِ ، إِذْ لَا مَشَارَكَةَ بَيْنَ رُسُومِ الدِّيَارِ وَبَيْنَ فَهْمِ
السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ .

وكذلك قال أبو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيُّ فِي أَمْرِهِ الطَّلَلُ بَأَنَّ يَكُونُ ثَالِثًا لَهَا : أَي
الرَّكْبِ وَالْإِبِلِ ، وَهَذَا وَاضِحٌ لَا نِزَاعَ فِيهِ .

فَإِذْ وَدَّ تَبَيَّنَ وَتَحَقَّقَ مَا أُشْرْتُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ فَالْجَازُ لَا يَخْرُجُ عَنْ

(١) ديوانه ٤١ من قصيدة في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي ، ومطاعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب
(٢) ديوان المتنبي ٢٩٩/٣ وهو مطلع قصيدة في مدح عضد الدولة .

(٣) ثلاث الرجلين صرت ثالثتهما ، والإرزام حنين الإبل ، ومنه
الرزمة صوت السحاب ، والطلل ما أشرف من بقايا الديار .

(٤) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

هذه الأقسام الثلاثة : إما توسع ، أو تشبيه ؛ أو استعارة . وإذا حققنا النظر في الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمراً قياسيًّا في حمل فرع على أصل ، لمناسبة بينهما ، وإن كانا يفتقران بمحدّهما وحقيقتيهما .

حد الاستعارة :

فأما حدُّ الاستعارة فقيل : إنه نقلُ المعنى من لفظٍ إلى لفظٍ بسببِ مشاركةٍ بينهما .

وهذا الحدُّ فاسدٌ ، لأنَّ التشبيه يشاركُ الاستعارةَ فيه .

ألا ترى أننا إذا قلنا « زيد أسد » أي : كأنه أسد ، وهذا نقلُ المعنى من لفظٍ إلى لفظٍ بسببِ مشاركةٍ بينهما ؛ لأننا نقلنا حقيقةَ الأسدِ إلى زيدٍ ؛ فصار مجازاً ؛ وإنما نقلناه لمشاركةٍ بين زيدٍ وبين الأسدِ في وصفِ الشجاعة .

والذي عندي من ذلك أن يُقال : حدُّ الاستعارة نقلُ المعنى من لفظٍ إلى لفظٍ ، لمشاركةٍ بينهما ، مع طيِّ ذكرِ المنقولِ إليه ؛ لأنه إذا اختزَرَ فيه هذا الاخترازُ اختصَّ بالاستعارة ؛ وكان حدًّا لها دونَ التشبيه ؛ وطريقه أنك تُريد تشبيهَ الشيءِ بالشيءِ مظهرًا ومضمراً ؛ وتجيءُ إلى المشبه فتعيِّره اسمُ المشبه به ، وتُجْريه عليه . مثال ذلك أن تقول : رأيتُ أسداً ؛ وهذا كالبيتِ الشعرِ المقدم ذكره ؛ وهو :

فَرَعَاءُ إِن نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَا عَجَلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدَّعْصُ

فإنَّ هذا الشاعرَ أرادَ تشبيهَ القَدِّ بالقَضِيبِ والرِّدْفِ بالدَّعْصِ الذي هو كَثِيبُ الرَّمْلِ ؛ فتركَ ذكرَ التشبيهِ مُظْهِراً ومضمراً ؛ وجاءَ إلى المشبه — وهو القَدُّ [والرِدْفُ] — فأعارهُ المشبه به ؛ وهو القَضِيبُ والدَّعْصُ ؛ وأجراه عليه .

إلا أن هذا الموضع لا بدَّ له من قرينة تُفهم من نحوى اللفظ ؛ لأنه إذا قال القائل : رأيتُ أسداً ؛ وهو يريدُ رجلاً شجاعاً ؛ فإنَّ هذا القول لا يفهم منه ما أراد ؛ وإنما يفهم منه أنه أراد الحيوان المعروف بالأسد ؛ لكن إذا اقترن بقوله هذا قرينة تدل على أنه أراد رجلاً شجاعاً اختص الكلام بما أراد ، ألا ترى إلى قول الشاعر « عجل القضيْب وأبطأ الدعص » فإنه دل عليه من نفس البيت لأن قوله « فرعاه إن نهضت » دليلٌ على أن المراد هو القدُّ والرذْف ، لأنَّ القضيْب والدعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها . وكذلك كل ما يجيئ على هذا الأسلوب ، لأنَّ المستعار له — وهو المنقول إليه — مطوئ الذِّكر .

قول ابن جنى فى المجاز والرد عليه :

وكنْتُ تصفَّحتُ كتابَ (الخصائص) لأبى الفتح عُمان ابنِ جنى (١) ، فوجدته قد ذكر فى المجاز شيئاً يتطرقُ إليه النَّظر ، وذلك أنه قال : لا يُبدلُ

(١) كان من حذاق أهل الأدب ، وأعلمهم بالنحو والتصريف . صنّف فى النحو والتصريف كتباً أبدع فيها كالخصائص والمنصف وسر الصناعة ، وصنّف كتباً فى شرح القوافى ، وفى العروض ، وفى المذكر والمؤنث إلى غير ذلك ، ولم يصنّف أحد فى التصريف ، ولا تكلم فيه ، أحسن ولا أدق كلاماً منه وكان أبوه « جنى » مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد لأزدى الموصلى « وكان يقول الشعر ويجيده ، أخذ عن أبى على الفارسى وصحبه أربعين سنة ، ودرس النحو ببغداد بعده ، وتوفى ابن جنى فيما ذكر ابن الأنبارى يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة فى خلافة القادر — انظر نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٠٩ .

عن الحقيقة إلى المجاز إلا اعان ثلاثة : وهي الاتساع ، والتشبيه ، والتوكيد ، فإن
عدمت الثلاثة . كانت الحقيقة البتة .

فمن ذلك قوله تعالى : فأذخناهُ في رَحْمَتِنَا (١) « فهذا مجازٌ ، وفيه الثلاثة
المذكورة :

أما الاتساعُ : فهو أنه زاد في أسماء الجهاتِ والحالِ أسماءً ، وهو الرحمة .
وأما التشبيهُ : فإنه شبه الرحمةَ — وإن لم يصحَّ دخولها — بما يصحُّ
دُخُولُهُ .

وأما التوكيدُ : فهو أنه أخبرَ عمّا لا يدركُ بالحاسةِ بما يُدركُ بالحاسةِ ،
تعالياً بالمخبرِ عنه ، وتفخيماً له ، إذا صيّرَ ، بمنزلة ما يشاهدُ ويعاينُ .

هذا مجموعُ قولِ أبي الفتحِ — رحمه الله — من غير زيادةٍ ولا نقصٍ .
والنظرُ يتطرقُ إليه من ثلاثةِ أوجه :

الأوّلُ : أنه جعلَ وجودَ هذه المعاني الثلاثة سبباً لوجودِ المجازِ ، بل وجودَ
واحدٍ منها سبباً لوجودِهِ ، ألا ترى أنه إذا وُجدَ التشبيهُ وحدهَ كان ذلك مجازاً ،
وإذا وُجدَ الاتساعُ وحدهَ كان ذلك مجازاً ، ثمَّ إن كان وجودُ هذه المعاني
الثلاثة سبباً لوجودِ المجازِ كان عدمُ واحدٍ منها سبباً لعدمِهِ .

ألا ترى أنا إذا قلنا : لا يوجدُ الإنسانُ إلا بأن يكونَ حيواناً ناطقاً ؛
فالحيوانيةُ والنطقُ سببٌ لوجودِ الإنسانِ ؛ وإذا عُدِمَ واحدٌ منهما بطلَ أن
يكونَ إنساناً ؛ وكذلك كلُّ صفاتٍ تكونُ متقدمةً لوجودِ الشيء فإن
وجودها بوجوده ؛ وعدمُ واحدٍ منها يوجبُ عدمَهُ ؟

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧٥ .

وأما الوجه الثاني : فإنه ذكر التوكيد والتشبيه ؛ وكلاهما شيء واحد على الوجه الذي ذكره ؛ لأنه لما شُبِّهَت الرحمة ، وهي معنى لا يُدْرَكُ بالبصر ، بمكانٍ يُدْخَلُ ؛ وهو صورةٌ تُدْرَكُ بالبصر ؛ دخل تحت التوكيد الذي هو إخبارٌ عما لا يُدْرَكُ بالحاسة بما قد يُدْرَكُ بالحاسة .

على أن التوكيد هاهنا ؛ على وجه ما أوردته في تمثيله ؛ لا أعلم ما الذي أراد به ؛ لأنه لا يؤتى به في اللغة العربية إلا للمعنيين :

أحدهما : أنه يردُ أبدأً فيما استُقرِيَ بالفاظٍ محصورةٍ نحو : نفسه ؛ وعينه ؛ وكله ، وما أُضِيفَ إليها مما استُقرِيَ ؛ وهو مذكور في كتب النحاة ؛ وقد كُفِيتْ مَثَوْنَتَهُ .

الآخر : أنه يُرد على وجه التكرير ؛ نحو : قام زيد قام زيد ؛ كرر اللفظ في ذلك تحقيقاً للمعنى المقصود ؛ أي توكيداً .

والذي ذكره أبو الفتح — رحمه الله تعالى — لا يدلُّ على أن المراد به أحد هذين المعنيين المشار إليهما ؛ ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالة في إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة ، فمبّر عن ذلك بالتوكيد ؛ ولا مُشاحَّة له في تعبيره ، وإذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ؛ ولا حاجة إلى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه .

وأما الوجه الثالث : فإنه قال : « أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال كذا وكذا » .

وهذا القول مضطربٌ شديد الاضطراب ؛ لأنه ينبغي على قياسه أن يكون « جناح النل » في قوله تعالى « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ » (١) زيادةً

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٤

في أسماء الطيور ؛ وذلك أنه زاد في أسماء الطيور اسماً هو الذلّ. وهكذا يجرى الحكم في الأقوال الشعرية كقول أبي تمام (١) :

لَبِسْتُ سِوَاهُ أَقْوَامًا فَكَانُوا كَمَا أَغْنَى التَّيْمُمُ بِالصَّعِيدِ
فَزَادَ فِي أَسْمَاءِ اللَّبَاسِ اسْمًا ؛ هُوَ الْآدَمِيُّ ، وَهَذَا مِمَّا يُضْحَكُ مِنْهُ ؛ نَعُودُ
بِاللَّهِ مِنَ الْخَطَلِ !

والانساع في المجال لا يقال فيه كذا ؛ وإنما يقال : هو أن تُجرى صفة من الصفات على موصوفٍ ليس أهلاً لأن تُجرى عليه ؛ لبعده ما بينه وبينها ؛ كقول أبي الطيب المتنبي :

إِنِّي نَبِيٌّ فَإِنَّمَا أَهْلُهَا الظَّلُّ نَبِيٌّ وَتُرُزَمَ تَحْتَنَا الْإِبِلُ
فإنه أُجْرِيَ الكلام على ذلك ؛ وإنما يُستعمل طلباً للانساع في أساليب الكلام ؛ لا لمناسبة بين الصفة والموصوف ؛ إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك انساعاً ؛ وإنما كان ضرباً من القياس في حمل الشيء على ما يناسبه ويشاكله ؛ وحينئذ يكون ذلك تشبيهاً أو استعارة ؛ على ما أشرت إليه من قبل .

أقسام المجاز عند الغزالي واعتراضات ابن الأثير :

وكنْتُ أَطَّلَعْتُ فِي كِتَابٍ مِنْ مُصَنَّفَاتِ أَبِي حَامِدِ الْغَزَالِيِّ (٢) — رَحِمَهُ

(١) ديوان أبي تمام ١٠٧ من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي ومطلعها :

أظن دموعها سنن الفريد وهي سلكاد من نحر وجيد

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ، الفقيه الشافعي ، ولد في طوس ونشأ فيها « وتكاثر الفلاسفة في عصره ، وناهضوا رجال الدين ، فتصدى لهم ، وكان أحد المجتهدين ، قضى أحواماً وهو يطالع ويفكر =

الله — ألقه في أصول الفقه ؛ ووجدته قد ذكر « الحقيقة والجاز » وقسم الجاز إلى أربعة عشر قسماً ؛ وتلك الأربعة عشر ترجع إلى الثلاثة التي أشرت إليها ؛ وهى التوسع ؛ والتشبيه ؛ والاستعارة ، ولا تخرج عنها . والتقسيم لا يصح فى شىء من الأشياء إلا إذا اختص كل قسم من الأقسام بصفة لا يختص بها غيره ، وإلا كان التقسيم لغواً لا فائدة فيه .

وسأورد ما ذكره ، وأبين فساده .

فالقسم الأول من الأقسام التى ذكرها هو : ما جعل للشيء بسبب المشاركة فى خاصّة ؛ كقولهم للشجاع : أسد . والبليد : حمار . وهذا القسم داخل فى الاستعارة . إن ذكر المنقول وحده . مثل أن يقول القائل « رأيت أسداً » ومراده رجلاً شجاعاً . أو « رأيت حماراً » ومراده « رجلاً بليداً » . وداخل فى التشبيه المضمّر الأداة . إن ذكر المنقول والمنقول إليه معا . كقول القائل « زيدٌ أسدٌ » أى كالأسد . أو حمارٌ . أى كالحمار .

القسم الثانى : تسمية الشىء باسم ما يتول إليه :

كقوله تعالى : « إني أراني أعصرُ خمرًا ^(١) » وإنما كان يعصرُ عنبا .

وهذا القسم داخل فى القسم الأول . لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول

= ويدرس فى المدرسة النظامية . ثم انقطع عن التدريس وسلك طريق الزهد ، وقضى عشرة أعوام فى الأسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية ، وهو يطالع ويبحث وينظر ، فسمى حجة الإسلام ، وخلف ما يزيد على سبعين مؤلفاً - توفي سنة ٥٠٥ هـ .

(١) سورة يوسف : الآية ٣٦ .

إليه . وهو من باب (الاستعارة) لابلٍ أو غلٍ في المشابهة من ذلك . لأنَّ
الخمر من العنب . وليس الأسدُّ من الرجل . ولا الرجل من الأسد (١) .

القسم الثالث : تسمية الشيء باسم فرعه :

كقول الشاعر :

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا نَوْمَةٌ وَتَشْوِقٌ وَتَمْرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَمَا
فَسَى الرُّطْبِ تَمْرًا .

وهذا القسم والقسم الذي قبله سواء . لأنَّ هناك سُمِّي العنبُ خمرًا .
وهاهنا سُمِّي الرُّطْبُ تَمْرًا . فالعنبُ أصلٌ . والخمرُ فرعٌ . وكذلك الرُّطْبُ
أصلٌ . والتَمْرُ فرعٌ . وكلا هذين القسمين داخل في القسم الأول .

وهبَّ أنَّ النزائي لم يحقق أمرَ المجازِ وانقسامه إلى تلك الأقسام الثلاثة
التي أشرتُ إليها ، ألم ينظرْ إلى هذين القسمين اللذين هما العنبُ والخمرُ ،
والرُّطْبُ والتَمْرُ ، ويعلم أنهما شيء واحد لا فرقَ بينهما ؟

القسم الرابع : تسمية الشيء باسم أصله :

كقولهم للآدميَّ « مُضَغَّة » ، وهذا ضدُّ القسم الذي قبله ، لأنَّ ذلك جُعِلَ
الأصلُ فيه فرعًا ، وهذا جُعِلَ الفرعُ فيه أصلًا ، وهو داخلٌ في القسم
الأوَّل أيضًا .

(١) ليس صحيحا ما اعترض به ابن الاثير، لأن الخمر وإن كانت
من العنب لاوجه للشبه بينهما في الشكل أو في الهيئة أو في الأثر أو غير ذلك ،
وإنما الخمر منه ، فصح كلام الإمام الغزالي ، وبقى مثل كلامه في البلاغة
العربية حتى اليوم التي تجعل هذا المثل من باب المجاز المرسل والعلاقة
فيه ما ذكر أبو حامد ، والمجاز المرسل أحد قسمي المجاز اللغوي :
المجاز الاستعاري (الاستعارة) ، والمجاز المرسل ، ويختص الأول
بعلاقة المشابهة ، والآخر بكل علاقة سواها .

القسم الخامس : تسمية الشيء بدواعيه :

كتسميتهم الاعتقاد قولاً ، نحو قولهم : « هذا يقولُ بقولِ الشافعيِّ رحمه الله » أي : يعتقدُ اعتقاده .

وهذا القسمُ داخلٌ في القسمِ الأوَّل ، لأنَّ بينَ القولِ وبينَ الاعتقادِ مناسبةٌ كالمناسبةِ بينَ السَّببِ والمسبَّب . والباطنِ والظاهرِ .

القسم السادس : تسمية الشيء باسم مكانه :

كقولهم للمطر « سماء » . لأنه ينزلُ منها .

وهذا القسمُ داخلٌ في الأوَّل . لِصِفَةِ المناسَبَةِ بينَ المنقولِ والمنقولِ إليه ، وهو النزولُ من عالٍ . وكلُّ ما علاك فأظلك فهو « سماء » .

على أنَّ الأغلبَ على ظنيُّ أنَّ هذا القسمَ من الأسماءِ المشتركة . وتسميةُ المطرِ بـ « السماء » حقيقةٌ فيه ، وليسَ من المجازِ في شيءٍ .

القسم السابع : تسمية الشيء باسم مجاوره :

كنولهم للمزادة « رَاوِيَةٌ » وإنما الرَّاوِيَةُ الجملُ الذي يحملها^(١) .

وهذا القسمُ من بابِ التَّوَسُّعِ ؛ لا من بابِ التَّشْبِيهِ ، ولا من بابِ الاستعارة ، لأنَّ على قِياسِهِ ينبغي أن يُسمَى الجملُ « زامِلةً » لأنه يحملها^(٢) .

القسم الثامن : تسمية الشيء باسم جزئه :

كقولك لمن تُبغِضُهُ « أَبْعَدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِّي » وإنما تُريدُ سائرَ جُثَّتِهِ .

(١) في المختار : الرواية البعير أو البغل أو الحمار الذي يستقى عليه ، والعامية تسمى المزادة راوية ، وهو جائز استعارة ، والأصل ما ذكرناه .

(٢) في المختار : الزاملة بعير يستظهر به الرجل يحمل متاعه وطعامه

وهذا القسمُ داخلٌ في القسمِ الأوَّلِ ، وهو شبيهٌ بِتَسْمِيَةِ الشَّيْءِ
باسمِ فَرَعِهِ .

القسم التاسع : تسمية الشيء باسم ضده :

كقولهم لِلأَسْوَدِ وَالأَبْيَضِ « جَوْنٌ » .

وهذا القسمُ ليسَ من المجازِ في شيءٍ التَّبَتُّ ؛ وإنما هو حقيقةٌ في هذين
المسمَّيْنِ معاً ، لأنه من الأسماءِ المُشْتَرَكَةِ ، كقولهم : « شِمْتُ السَّيْفَ »
إِذَا سَلَّمْتَهُ ، و « شِمْتُهُ » إِذَا أَعْمَدْتَهُ ، فدلَّ الشِّمُّ عَلَى الضَّدِّينِ معاً
بِالْوَضْعِ الْحَقِيقِيِّ .

وفي اللَّغَةِ من هذا شيءٌ كثيرٌ . فكيفَ يُجْمَلُ هذا القسمُ من المجازِ ؟
ولا شكَّ أن الغزاليَّ نظرَ إلى أنَّ الضَّدِّينِ لا يجتمعانِ في محلٍّ واحدٍ ،
فَقاسَ الاسمَ على الذاتِ . وظنَّ أنَّ الذاتينِ لا يجتمعانِ في اسمٍ واحدٍ . كما
أنهما لا يجتمعانِ في محلٍّ واحدٍ .

فإن قيل : لا نُسَلِّمُ أنَّ اللَّفْظَ المُشْتَرَكَ حَقِيقَةٌ بِالْوَضْعِ فِي المَعْنِيَيْنِ معاً . لأنَّ
ذلك يُجْلَى بِفَأْيِدَةِ الوَضْعِ . الذي هو البيانُ . وإنما هو حقيقةٌ في أحدِ مَعْنِيَيْهِ .
مجازٌ في الآخَرِ !

فالجوابُ عن ذلك : أنَّ هذا الموضوعَ تقدَّمَ الكلامُ عَلَيْهِ في الفصلِ الثَّانِي
من مقدِّمة الكتابِ . وهذا الفصلُ الذي يشتملُ على آلياتِ عِلْمِ البَيَانِ
وَأَدْوَاتِهِ فَلْيُؤَخِّذْ من هناكِ . فَإِنَّي قد أَشْبَعْتُ القَوْلَ فِيهِ إِشْبَاعاً لا مَزِيدَ
عَلَيْهِ (١) .

(١) انظر صفحة ٤٠ وما بعدها من القسم الأول من هذا الكتاب .

القسم العاشر : تسمية الشيء بفعله :

كنسيميّة الخمر « مُسْكراً » .

وهذا القسمُ داخلٌ في القسمِ الأوّل . وأى مشاركةٍ أقرب من هذه المشاركة ؟ فإنّ الإسكارَ صفةٌ لازمةٌ للخمر . وليست الشجاعةُ صفةً لازمةً لزيدٍ . لأنه يُمكنُ أن يكونَ زيدٌ ولا شجاعةَ . ولا يمكنُ أن يكونَ خمرٌ ولا إسكاراً . ألا ترى أنّها لم تُسمَّ خمرًا إلا لإسكارها . فإنّها تخمّرُ العقلَ . أى تسترُهُ ؟

القسم الحادى عشر : تسمية الشيء بكلمة :

كقولك في جواب « ما فعل زيدٌ » ؟ القيام . والقيامُ : جنسٌ يتناولُ جميع أنواعه .

وهذا القسمُ لا ينبغي أن يُوصَلَ بأقسامِ المجاز . لأنّ القيامَ لزيدٍ حقيقة . فإن قيل : إنّ القيامَ يشملُ جميعَ أنواعِ القيامِ من الماضى والحاضر والمستقبل .

قلتُ : وهذا من أقربِ أقسامِ المجازِ مناسبةً . لأنه إقامةٌ للمصدرِ مقامَ الفعلِ الماضى . والمصدرُ أصلُ الفعلِ . وعلى هذا فإنّ هذا داخلٌ في القسمِ الأوّلِ .

القسم الثانى عشر : الزيادة فى الكلام لغير فائدة :

كقوله تعالى : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ »^(١) فد (ما) هاهنا زائدة لامتغنى لها . أى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

وهذا القولُ لا أراهُ صواباً . وفيه نظرٌ من وجهين :

أحدهما : أن هذا القسمَ ليسَ من المجازِ . لأن المجاز هو دلالةُ اللفظِ على غير ما وُضِعَ له في أصل اللُغة . وهذا غيرُ موجودٍ في الآية : وإِنَّمَا هِيَ دَالَةٌ عَلَى الْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ الْمَنْطُوقِ بِهِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ .

الوجهُ الآخرُ : أني لو سلمتُ أن ذلك من المجاز لأنكرتُ أن لفظَةَ (ما) زائدةٌ لا معنى لها . ولكنها وردتْ تَفْخِيماً لِأَمْرِ النُّعْمَةِ الَّتِي لَانَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ : وَهِيَ مُحْضُ الْفَصَاحَةِ : وَلَوْ عُرِّيَ الْكَلَامُ مِنْهَا لَمَا كَانَتْ لَهُ تِلْكَ التَّفْخَامَةُ .

وقد وردَ مثلها في كلامِ العرب . كالذي يُحكى عن الزَّبَاءِ . وذلك أن الواضح الذي هو جَذِيمَةُ الْأَبْرَشِ (١) تزوجها . والحكاية في ذلك مشهورة ، فلما دخل عليها كَشَفَتْ لَهُ عَنْ فَرْجِهَا . وقد ضفرت الشعرَ من فوقه صَفِيرَتَيْنِ . وَقَالَتْ : (أَدَاتَ عَرَسٍ تَرَى . أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ عَوَزِ الْمَوَاسِ . وَلَا مِنْ قِلَّةِ الْأَوَاسِ . وَلَكِنَّهُ شَيْمَةٌ مَا أَنَا) .

فمعنى الكلام : ولكنه شيمَةٌ أَنَا . وإِنَّمَا جَاءَتْ لَفْظَةُ (ما) هَاهُنَا تَفْخِيماً لِشَأْنِ صَاحِبِ تِلْكَ الشَّيْمَةِ . وَتَعْظِيماً لِأَمْرِهِ . وَلَوْ أُسْقِطَتْ لَمَا كَانَ لِلْكَلامِ هَاهُنَا هَذِهِ التَّفْخَامَةُ وَالْجِرَالَةُ . وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْفَصَاحَةِ وَالتَّبَلَاغَةِ .

(١) كان جذيمة الأبرش ملك ما على شاطئ الفرات ، وكانت الزباء ملكة الجزيرة ، وكان يقال جذيمة الأبرش وجذيمة الواضح ، وذلك أنه كان أبرص ، فهابت العرب أن تقول له ، فقالت « الأبرش » وكانت تقول للذي به البرص : به وضح ، تفاديا من البرص ، فقالوا جذيمة الواضح ، وهو جاهلي .

وَأَمَّا الْغَزَالِيُّ — رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى — فَإِنَّهُ مَعذُورٌ عِنْدِي فِي الْآءِ يَعْرِفُ ذَلِكَ . لِأَنَّهُ لَيْسَ فَتَاهُ .

وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ لَفْظًا زَائِدًا لِمَعْنَى لَهُ فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِهَذَا الْقَوْلِ . وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مُتَسَمِّحًا فِي دِينِهِ وَاعْتِقَادِهِ .

وَقَوْلُ النَّحَاةِ إِنْ (مَا) فِي هَذِهِ الْآيَةِ زَائِدَةٌ . فَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِهِنَّ أَنَّهُ لَا تَمْنَعُ مَا قَبْلَهَا عَنِ الْعَمَلِ ، كَمَا يَسْمُونَهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ كَقَوْلِكَ . أَيُّ : أَنَّهُ تَكْفُفُ الْحَرْفِ الْعَامِلِ عَنِ عَمَلِهِ . كَقَوْلِكَ : إِنَّمَا زَيْدٌ قَائِمٌ . فَمَا قَدْ كَفَّتْ (إِنْ) عَنِ الْعَمَلِ فِي زَيْدٍ ؛ وَفِي الْآيَةِ لَمْ تَمْنَعْ عَنِ الْعَمَلِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ تَمْنَعْ (الْبَاءَ) عَنِ الْعَمَلِ فِي خَفْضِ (الرَّحْمَةِ) .

القسم الثالث عشر : تسمية الشيء بحكمه :

كقوله تعالى : (وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا)^(١) فسمى النكاح (هبةً)

وهذا التسمي داخل في القسم الأول ، لأن النكاح هو تمكين الزوج من الوطاء على عوض على هيئة مخصوصة ، والهبة تمكينه من الشيء الموهوب على غير عوض ، فشاركت الهبة النكاح في نفس التمكين من الوطاء . وإن اختلفا في الصورة .

القسم الرابع عشر : النقصان الذي لا يبطل به المعنى :

كخذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه . قال الله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا)^(٢) أي : شخصاً بريئاً .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥٠

(٢) سورة النساء ، الآية ١١٢ .

وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . قال الله تعالى : (واسأل القرية)^(١) أى : أهل القرية .

وهذا القسم داخل في القسم الأول : أما حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه فلأن الصفة لازمة للموصوف ، وأما حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فلأنه دل بالمسكون على الساكن ؛ وتلك مقارنة قريبة .

فهذه أقسام المجاز التي ذكرها النزالي رحمه الله تعالى (وقد بينت فساد التقسيم فيها ، وأنها ترجع إلى ثلاثة أقسام هي : التوسيع ؛ والتشبيه ؛ والاستعارة .

* * *

وحيث انتهى بي الكلام إلى هاهنا ، وفرغت مما أردت تحقيقه ؛ وبينت ما أردت بيانه ، فإني أتبع ذلك بضرب الأمثلة للاستعارة التي يستفيد بها المتعلم ما لا يستفيده بذكر الحد والحقيقة .

فمما جاء ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى في أول سورة إبراهيم — صلوات الله عليه — : « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور »^(٢) .

فالظلمات والنور استعارة للكفر والإيمان ؛ أو للضلال والهدى ؛ والمستعار له مطوى الذكر ؛ كأنه قال : لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة إلى الإيمان الذي هو كالنور .

(١) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١ .

وكذلك ورد قوله تعالى في هذه السورة أيضاً (وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لَتَنزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ) (١) .

والقراءة برفع (لَتَنزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ) ليست من باب الاستعارة ، ولكنها في نصب (تنزول) واللام لام (كَيْ) والجبال هاهنا استعارة ، طوى فيها ذكر المستعار له ، وهو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من الآيات والمعجزات ، أى أنهم مكرؤا مكرهم لى تنزول منه هذه الآيات والمعجزات التى هى فى ثباتها واستقرارها كالجبال .

وعلى هذا ورد قوله تعالى « والشعراء يُتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالًا يَفْعَلُونَ » (٢) .

فاستعار الأودية للفنون والأغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها ، وإنما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعز الطرُق والمسالك أو ماجرى مجراها لأن معانى الشعر تُستخرج بالفكرة والروية ؛ والفكرة والروية فهما خفاء وغموض ، فكان استعارة الأودية لها أشبهه واليق .

والاستعارة فى القرآن قليلة ، لكن التشبيه المضمرة الأداة كثير ؛ وكذلك هى فى فصيح الكلام من الرسائل وألحظب والأشعار ، لأن طى المستعار له لا يتيسر فى كل كلام ، وأما التشبيه المضمرة الأداة فكثير سهل ، لى كان إظهار المشبه والمشبه به معاً .

* * *

ومما ورد من الاستعارة فى الأخبار النبوية قول النبى صلى الله عليه وسلم :

(١) سورة إبراهيم : الآية ٤٦ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

« لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ » فاستعارَ النَّارَ للرَّأْيِ والمَشُورَةِ ، أَيْ لاسْتِهْتَدَا
بِرَأْيِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا تَأْخُذُوا بِمَشُورَتِهِمْ .

وَرُوي عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ دَخَلَ يَوْمًا مُصَلًّا ، فَوَافَى أَناسًا
كَأَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ ، فَقَالَ : أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ
لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى) وَهَازِمُ اللَّذَاتِ أَرَادَ بِهِ المَوْتَ ، وَهُوَ مَطْوِيُّ الذِّكْرِ .

وَبَلَّغَنِي عَنِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْهلالِ (لَا مَرْحَبًا بِاللَّجِينِ
مُقَرَّبُ أَجْلِ وَنَحْلٍ) وَهَذَا مِنْ بَابِ الاسْتِعَارَةِ فِي طَيِّ ذِكْرِ الْمُسْتَعَارِ لَهُ .
وَكَذَلِكَ بَلَّغَنِي عَنِ الْحِجَّاجِ بْنِ يوسُفَ (١) أَنَّهُ خَطَبَ خُطْبَةً عِنْدَ قُدُومِهِ
العِرَاقَ فِي أوَّلِ وِلايَتِهِ إِياهُ ، وَالخُطْبَةُ مَشهُورَةٌ ، مِنْ جُمَلَتِهَا أَنَّهُ قَالَ : إِنْ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ نَثَلَ (٢) كِنانَتَهُ ، وَعَجَمَهَا (٣) عُوْدًا عُوْدًا ، فَرَأَى أَصْلَبَهَا نِجَارًا ،
وَأَقَوْمَهَا عُوْدًا ؛ وَأَنْفَذَهَا نَصَلًا) فَقَوْلُهُ (نَثَلَ كِنانَتَهُ ؛ وَعَجَمَهَا عُوْدًا عُوْدًا)
يُرِيدُ أَنَّهُ عَرَضَ رِجالَهُ ؛ وَاخْتَبَرَهُمْ واحِدًا واحِدًا جِدًّا اخْتِبارَهُ فَرَأَى
أَشَدَّهُمْ وَأَمْضَاهُمْ .

وَهَذَا مِنَ الاسْتِعَارَةِ الْحَسَنَةِ الْفائِقَةِ .

(١) هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحِجَّاجِ بْنِ يوسُفَ الثَّقَفِيُّ وَوُلِدَ سَنَةَ ٤١ هـ ، وَتَرَبَّى
فِي الإِسْلامِ مَعَ الإِحْتِفاظِ بِشَخْصِيَّةِ جَاهِلِيَّةِ عَنيفَةٍ ، ظَهَرَتْ آثارُها فِي أَعْمالِهِ
وَفي كِلامِهِ . وَقَدِ وُلِيَ عِدَّةَ مَناصِبَ لِبَنِي أُمِيَّةٍ ، وَاشْتَهَرَ بِالخُطابةِ القَوِيَّةِ
وَسياسةِ العَنفِ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٩٥ هـ .

(٢) نَثَلَ الكِنانَةَ : اسْتَخْرَجَ نَبِلَها فَنَثَرها .

(٣) الكِنانَةُ جَعْبَةُ السِّهامِ ، وَعَجَمَ عِيدانِها عَضَمَها لِيَنْظُرَ أَيها أَصْلَبُ ،
وَهَذَا وَمَا بَعْدَهُ كِنايَةٌ عَنِ أَنَّهُ اخْتَبَرَ أَعوانَهُ ، فَوَجَدَ الْحِجَّاجَ أَصْلَحَهُمْ لِلْحُكْمِ
العِرَاقِ .

وقد جاءني من الاستعارة في رسائلي ما أذكر شيئاً منه ؛ ولو مثلاً واحداً .
وذلك أنه سألت بعض الأصدقاء أن أصف له غلامين ترُكَّين كان
يهواهما ، وكان أحدهما يلبس قباءً أحمر ، والآخر قباءً أسود ؛ فقلت :

(إذا تشعبت أسبابُ الهوى كانت لِسِرِّه أظهرَ ، وأضحيتُ أمراضه
خطراً كلها ، ولا يقال في أحدها : هذا أخطر ، وقد هويت بدرين على
غضنين ، ولا طاقة للقباب بهوى واحدٍ ، فكيف إذا حمل هوى اثنين ؟
ومما شجاني أنهما يتلوانان في أصباغ الثياب ، كما يتلوانان في فنون التجزُّم
والعتاب ، وقد استجدَّ الآن زيباً لا مزيد على حُسْنهما في حُسْنه ، فهذا
يخرجُ في ثوب من حُمره خدّه ، وهذا في ثوبٍ من سوادٍ جفنه ، وما
أدرى من دلها على هذا العجيب غير أنه ليس عى فتنسة الحبَّ أهدي
من حبيب) .

وهذا الفصلُ بجملة ما توصفه الناسُ ، وأغرُّوا بحفظه .

* * *

وأمَّا ماورد من ذلك شعراً فكقول مسكين الدارمي ^(١) من شعراء
الحماسة :

(١) اسمه ربعة بن عامر يصل نسبه إلى دارم بن مالك ، وسمى
مسكينا لقوله :

أنا مسكين لمن أنكرني ولمن يعرفني جد نطق
وهو شاعر شريف إسلامي ، كان في عهد بني أمية ، وهو سيد من
سادات قومه ، هاجى الفرزدق ثم تكافئا ، فكان الفرزدق يعد ذلك من
الشذائد التي أفات منها . قال الفرزدق : نجوت من ثلاثة أشياء لا أخاف
بعدها شيئاً : نجوت من زياد حين طلبني . ونجوت من ابني رميلة =

لحافٍ لحافٍ الضَّميفُ والسَّيِّتُ بيتهُ

وَلَمْ يُلْهِني عَنْهُ غَزَالٌ مُقْنَعٌ

أُحَدِّثُهُ إِنْ حَدِيثَ مِنَ الْقَرَى

وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ (١)

فالغزالُ المقنَعُ هنا استعارةٌ للمرأةِ الحسناءِ .

وكذا ورد قولُ رجلٍ من بني يسَّارٍ في كتابِ الحماسةِ أيضاً (٢) :

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوَّدَ رَأُهَا رُوَيْدَكَ لَمَّا تُشْفِقِي حِينَ مُشْفِقِ

رُوَيْدَكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي عَمَّيَةَ هَذَا الْعَارِضِ الْمُتَأَلِّقِ

فالعارِضُ المتألِّقُ : استعارةٌ للحربِ أو الذي أُطْلَ بمكرُوهِهِ كالبارقِ

المتألِّقِ .

ويحكى أن امرأةً وقتت لعبد الملك بن مروان (٣) ، وهو سائرٌ إلى قتال

= وقد نذرا أدمى وما فاتهما أحد طلباه ، ونجوت من مهاجاة مسكين
الدارمى لأنى لو طاولت معه الهجاء لا ضطرني أن أدم شطر حسبي
وفخرى : لأنه من بحبوبة نسبي وأشرف عشيرتى ٥

(١) البيتان في ديوان الحماسة ٣١٤/٢ ومعناها كل ما أملكه فهو
للضيف ، وليس يلهمني عنه ما يلهمي الناس ، وإنى لا أقصر على إطعامه ،
بل لا أزال أحدثه وأونسه حتى ينام ، والغزال المقنع أراد به ذا الوجه
الجميل .

(٢) ديوان الحماسة ١٤٣/١ وقد نسب هذا الشعر لرجل من بني
أسد قاله في يوم اليمامة ، وقد سبق لإيراد البيتين وتصحيحهما في صفحة
٣٨١ من القسم الأول من هذا الكتاب عند الكلام في « اختلاف صيغ
الألفاظ واتفاقها » .

(٣) عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني أمية شب عاقلاً أدبياً =

مُصَعَّبُ بْنُ الزُّبَيْرِ^(١) ، قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ : رُوَيْدُكَ حَتَّى تَنْظُرِي
عَمَّ تَنْجَلِي . . . وَأَنْشُدَ الْبَيْتَ .

* * *

ومن هذا الباب قولُ عبد السلام بن رَغَبَانَ المعروف بِدِيكِ الْجَنِّ :
لَمَّا نَظَرْتِ إِلَىَّ عَنْ حَدَقِ الْمَهَا وَبَسَمْتِ عَنْ مُمْتَفِتِحِ الثُّوَارِ
وَعَقَدْتِ بَيْنَ قَضِيبِ بَانٍ أَهْيَفٍ وَكَشِيبِ رَمَلٍ عُمْدَةَ الزُّنَارِ
عَمَّرْتُ حُدَىي فِي الثَّرَى لَكَ طَائِعًا وَعَزَمْتُ فِيكَ عَلَى دُخُولِ النَّارِ
وهذه الأبياتُ لا تَجِدُ لها في الحِسنِ شريكًا ، ولأنَّ يَسَمَى فائِلُها شُحْرُورًا
أولى من أن يَسَمَى دِيكًا !
وكذلك وَرَدَ قَوْلُهُ :

لَا ، وَمَكَانِ الصَّلِيبِ فِي النَّحْرِ مِنْكَ وَجَرَى الزُّنَارِ فِي الْخَصْرِ
وَالْخَالِ فِي الْخَدِّ إِذَا شَبَّهَهُ وَرَدَّةً مِنْكَ عَلَى ثَرَى تَبْرِ
وَحَاجِبٍ مَدْ خَطَّهُ قَلَمُ الْحُسْنِ بِحَبْرِ الْبَهَاءِ لَا الْحَبْرِ
وَأَقْجُوانٍ بِفِيكَ مُنْتَظِمٍ عَلَى شَبِيهِ مِنْ رَائِقِ الْخَمْرِ
فالبيت الرابعُ هو المخصوصُ بالاستعارة ، والمستعارُ له هو الثغرُ والرَّيْقُ .

= حازما ، وخلف أباه على الملك ، فكان من أنبه حكام المسلمين ؛
استطاع قمع الثائرين على بني أمية ، وتقوية سلطانه في البلاد الإسلامية
وكانت وفاته سنة ٥٨٦ هـ .

(١) كان مصعب بن الزبير والياً على العراق من قبل أخيه عبد
الله بن الزبير حتى دهمته جيوش عبد الملك ؛ وقتلته سنة ٧٢ هـ .

ومما ورد لأبي تمام في هذا المعنى قوله (١) :

لما غدا مُظْلِمَ الأَخْشاءِ من أَشْرٍ أَسْكَنْتُ جانِحَتَيْهِ كَوْكَبًا يَقْدُ (٢)
فالكوكبُ استعارةٌ للرَّمحِ .

وكذلك وَرَدَ قَوْلُهُ في الاعتذار (٣) :

أَسْرَى طَرِيداً للحياءِ مِنَ التي زَعَمُوا وَلَيْسَ لِرَهْبَةٍ بِطَرِيدِ
وَغداً تَبَيَّنَ ما براءةِ سَاحَتِي لَوْ قَدْ نَقَضَتْ تَهَائِي وَبُجُودِي (٤)
والتهائمُ والنُّجُودُ هما استعارةٌ مِمَّا استعارَهُ من باطنِ أَمْرِهِ وظاهرِهِ .

وكذلك وَرَدَ قَوْلُهُ (٥) :

(١) ديوان أبي تمام ٩٩ من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد
ابن يوسف الطائي ، ومطاعها :

يابعد غاية دمع العين إن بعدوا هي الصباية طول الدهر والسهد

(٢) الأشر البطر وكفر النعمة و الجانحة الضالع .

(٣) ديوان أبي تمام ٨٤ من قصيدة يمدح فيها أحمد بن أبي دؤاد
ويعتذر إليه ، ويستشفع بخالد بن يزيد ومطاعها :

أرأيت أي سوا الف وخذود عنت لنا بين اللوى فزود

(٤) التهائم المنخفضات ، والنجود المرتفعات ، وبين هذا البيت والبيت

الذي قبله بيتان ، هما :

كنت الربيع أمامه ووراءه قمر القبائل خالد بن يزيد

فالغيث من زهر سحابة رافة والركن من شيبان طود حديد

(٥) ديوان أبي تمام ١١ من قصيدته في مدح المعتصم بالله أبي أسحاق

محمد بن هارون الرشيد ، ويذكر فتح عمورية ، ومطاعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الحد واللعب

كَمْ أُحْرَزَتْ قُضْبُ الْهِنْدِيِّ مُصَلَّتَةً

تَهْتَرُ مِنْ قَضْبٍ تَهْتَرُ فِي كُتْبِ (١)

فَالْقُضْبُ وَالْكُتْبُ اسْتِعَارَةٌ لِلْقُدُودِ وَالْأُرْدَافِ .

وكذلك ورد في هذه القصيدة أيضاً عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما

فُتِحَتْ مَدِينَةُ عَمُورِيَّةَ ، فقال :

إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدُوُّ الظَّلِيمِ فَقَدْ

أَوْسَعَتْ جَانِحَاهُمَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ (٢)

فَالْحَطَبُ اسْتِعَارَةٌ لِلْقَتْلِ .

وقبلَ هذا البيتِ ما يُدُلُّ عليه ، لأنَّه قال .

أَحْسَى قَرَأَيْدِنَهُ صِرْفَ الرَّدَى وَمَضَى

يَحْتُ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنْ الهَرَبِ (٣)

مُوكَلًّا بِبِقَاعِ الأَرْضِ بِشْرَفُهُ

مِنْ خِيفَةِ الخَوْفِ لِأَنَّ خِيفَةَ الطَّرَبِ (٤)

إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدُوُّ الظَّلِيمِ . . . البيت .

(١) قضب الهندي السيف ، مصلته مسلوقة .

(٢) الديوان ١١ ، والعدو الإسراع ، والظليم ذكر النعام ، والجاحم

شدة الحرارة .

(٣) في الأصل «أحذى» موضع «أحسى» و«يحتث» ، موضع «يحث»

والتصويب عن الديوان ومعنى أحسى سقى ، والحث السوق .

(٤) في الأصل «يشرفها» «موضع» «يشرفه» والتصويب عن

الديوان ، واليقاع العالي ، ويشرفه يعلوه .

وأحسنَ من هذا كله قوله^(١) :

تَطَلُّ الطَّلُوبُ الدَّمْعَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَتَمَثَّلُ بِالصَّبْرِ الدِّيَارُ المَوَائِلُ^(٢)
دَوَارِسُ لَمْ يَجْفُ الرُّبُوعُ رُبُوعَهَا وَلَا رَرٌّ فِي أَغْفَالِهَا وَهُوَ غَافِلٌ^(٣)
يُعْقِنَ مِنْ زَادِ العُقَاةِ إِذَا انْتَحَى عَلَى الحَىِّ صَرَفَ الأَزْمَةِ المَتَحَامِلُ^(٤)

فقوله : « زاد العُقَاة » استعارة ، طُوِيَّ فيها ذِكْرُ المُسْتَعَارِ له ، وهو
أهلُ الدِّيَارِ ، كأنه قال : يُعْقِنَ مِنْ قَوْمٍ هُمْ زَادُ العُقَاةِ

وله في الغزلِ من الاستعارةِ ما بلغَ به غايَةَ اللطافةِ والرِّقَّةِ ، وذلك في
قصيدته التي مطلعُها :

* إِنَّ عَهْدًا لَوْ تَعَلَّمَانِ ذَمِيمًا^(٥) *

فقال :

قَدْ مَرَرْنَا بِالدَّارِ وَهِيَ خَلَاءٌ فبَكَيْنَا طُلُوبَهَا والرُّسُ— وَمَا

(١) ديوان أبي تمام ٢٥٥ من قصيدة له في مدح محمد بن عبد الملك
الزيات ومطلعها :

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل وقلبك منها مدة الدهر أهل
(٢) تطل تسكب ، تمثّل به تقتله .

(٣) الأغفال القفار .

(٤) في الديوان تعفين بالتاء ، وفي الأصل « ضرب الأزمة » موضع
« صرف الأزمة » والتصويب عن الديوان ، وبين هذا البيت والبيت الذى
قبله بيت لم يذكره ابن الاثير ، وهو :

فقد سحبت فيه السحائب ذيلها وقد أحملت بالنور منها الخمائل
(٥) صلد بيت وعجزه :

* أن تناما عن ليلتى أو تنميا *

وهو مطلع قصيدة في مدح أبي سعيد، وقد قدم من مكة . الديوان ٢٩٠ .

وَسَأَلْنَا رُبُوعَهَا فَانصَرَفْنَا بِسِقَامٍ (١) وَمَا سَأَلْنَا حَكِيمًا
كُنْتُ أَرعى النُّجُومَ (٢) حَتَّى إِذَا مَا
فَارَقُونِي أَمَسَيْتُ أَرعى النُّجُومًا
والبيت الثالثُ هو المخصوصُ بالاستعارةِ .

* * *

وعلى هذا المنهاجِ ورد قولُ البحترى (٣) :
وَأغرَّ في الزَّمنِ البَهِيمِ مُحجَّلٍ قَدْ رُحِتُ مِنْهُ عَلَى أغرَّ مُحجَّلٍ
والأغرُّ المحجَّلُ الأولُ هو المدوح ؛ والأغرُّ المحجَّلُ الثاني هو الفرس
الذي أعطاه إِياء .

وكذلك وَرَدَ قَوْلُهُ (٤) :
وَصَاعِقَةٌ فِي كَفِّهِ تَنكُفِي بِهَا عَلَى أَرْؤُسِ الأَعْدَاءِ حَسَنُ سَحَابٍ (٥)
وهذا من النَّمطِ العالى الذى شغلت براءةُ معناه وحسُنُ سبكه عن النَّظرِ
إلى استعارته ، والمراد بالسَّحَابِ الحَسَنِ : الأصابع .

(١) فى الديوان « بشفاء » .

(٢) رواية الديوان « كنت أرى البدور » هذا البيت قبل البيتين السابقين
فى رواية الديوان .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ٢١٧ من قصيدة فى مدح محمد بن على
ابن عيسى القمى الكاتب ، ومطلعها :

أهلا بذكلم الخيال المقليل فعل الذى نهواه أولم ينعل

(٤) ديوان البحترى ٢ / ٢١١ من قصيدة مطلعها :

هيبه لمنهل الدموع السواكب وهبات شوق فى حشاه لواعب

(٥) رواية الديوان « من نصله » موضع « فى كفه » ، والأقران موضع «

الأعداء .

وكذلك وَرَدَ فِي آيَاتِ الْحَمَاسَةِ :

دَكَ طَوْدَ الْكُفْرِ دَكًا صَاعِقٌ مِنْ وَقَعِ سَيْفِكَ
أَرْسَلْتَهُ خَمْسُ سُحُبٍ نَشَأَتْ مِنْ بَجْرِ كَفِّكَ

وكذلك ورد قوله في آياتٍ يصف فيها السيف :

حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ الْقَدِيمَةَ بَقْلَةً مِنْ عَهْدِ عَادٍ غَضَّةً لَمْ تَذْبُلِ (١)

وهذا من الحُسنِ على ما يشهدُ لنفسه ، كأنه قال : حملتُ حوائله سيقاً
أخضَرَ الحديدِ كالبَقْلَةِ .

وعلى هذا الأسلوبِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ المَتَنَبِيِّ :

فِي الْخَلْدِ إِنْ عَزَمَ الْخَلَيْطُ رَجِيلاً مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الْخُدُودَ مُحُولاً (٢)
وكذلك ، وَرَدَ قَوْلُهُ (٣) :

* يَمُدُّ يَدَيْهِ فِي الْمَفَاضَةِ ضَيْغَمٍ (٤) *

(١) آخر بيت في قصيدة البحري التي مطلعها :

أهلاً بذلك الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل
وقد تقدم بيت من هذه القصيدة في الصفحة السابقة .

(٢) ديوان المتنبي ٢٣٢/٣ وهو مطلع قصيدة في مدح بدر بن عمار
وذكر الأسد ، وقد أعجله فضر به بسوطه .

(٣) ديوان المتنبي ٣٥٧/٣ من قصيدته التي أولها :

إذا كان مدح فالنسب المقدم أكل فصيح قال شعراً متم

(٤) صدر البيت ، وعجزه :

* وعينيه من تحت التريكة أرقم *

والمفازة الدرع الواسعة ، والضئغم الأسد ، والتريكة : البيضضة ،

تشبهاً بالتريكة وهي بيضة النعامة إذا إنفلقت وخرج الفرخ فتركت ،
والأرقم : ضرب من الحيات ، يقول : هؤلاء الفتيان الذين حوله كلهم =

وأحسنُ هذا قوله في قصيدته التي مطلعها (١) :

* عُنْبِي اليمِينِ عَلَى عُنْبِي الوَعْيِ نَدَمٌ (٢) *

وَأَصْبَحَتْ بِقُرْمِي هَنْزِيْطًا جَائِلَةً تَرَعَى الطُّبَابَ فِي خَصِيْبٍ نَبْتُهُ اللَّمْ (٣)
فَمَا تَرَكْنَ بِهَا خُلْدًا لَهُ بَصْرٌ تَحْتَ التُّرَابِ وَلَا بَازًا لَهُ قَدَمٌ (٤)
وَلَا هَزِيْرًا لَهُ مِنْ دِرْعِهِ لِبَدٌ وَلَا مَهَاءً لَهَا مِنْ شِبْهَيْهَا حَشْمٌ (٥)
وهذا من المליحِ القادر، فالخُلدُ استعارةٌ لمن اختفى تحت التُّرابِ خائفًا ،

= أسد في شدته ، وأرقم في بسائته ، يمد في درعه يدي أسد ، قوة وشدة ويفتح من تحت تريكته عيني أرقم إقداما وشجاعة .

(١) ديوان المتنبي ١٥/٤ وقد أنشدها في ستة خمسين وأربعين وثلاثمائة ؛ وهي آخر قصيدة قالها محضرة سيف الدولة .

(٢) صدر المطلع ، وعجزه :

ماذا يزيدك في إقدامك القسم

والمعنى : من حلف على الطفر يندم لا محالة ، لأنه ربما لم يظفر ، وهذا إشارة إلى تكذيب البطريق الذي حلف لملك الروم أنه لا بد أن يلقى سيف الدولة في بطارقه ، ففعل ، فخيّب الله ظنه .

(٣) هنزيط : من بلاد الروم والطبا : جمع ظبية ، ظبية السيف . والخصيب المكان الكثير النبات ، واللمم جمع لمة ، وهي ما ألم بالمتكبر من الشعر ، وجائلة تجول للغارة ، يقول : أصبحت الخيل بهذا المكان تجول للغارة والقتل ، والسيوف ترعى في مكان خصيب من رعوهم إلا أن نبتة الشعر .

(٤) الخلد : ضرب من الفأر ، ليست له عيون .

(٥) الهزير : الأسد واللبد جمع لبدة ، وهي ما على كتفي الأسد من شعره ، والمهاة بقرة الوحش ، والحشم الخدم ، وهي حاشية الإنسان العظيم .

والبازُ استعارةٌ لمن طارَ هارباً ، والهزْبُ والمهامةُ استعارتان للرجالِ المُقاتلةِ والنساءِ من السبائا .

ومن هذا الباب قوله (١) :

كلُّ جريحٍ تُرَجِي سَلامَتُهُ إلا جَريحاً دَهتُهُ عَيناهَا (٢)

تُبَلُّ خَدَيَّ كُلِّما ابْتَسَمْتُ من مَطَرٍ بَرَقَهُ ثَنائِها (٣)

والبيتُ الثاني من الأبياتِ الحِسانِ التي تُتَوَصَّفُ ؛ وقد حَسَّن الاستعارةَ التي فيه أَنَّهُ جاءَ ذِكرُ المَطَرِ مع البَرَقِ .

وبلغني عن أبي الفتح بن جني (٤) — رحمه الله — أَنَّهُ شرح ذلك في

(١) ديوان المتنبي ٤ / ٢٧١ من قصيدة يمدح فيها عضد الدولة أبا

شجاع فناخسرو سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، ومطلعها :

أوةٌ بديل من قوائٍ واهَا لمن ذَاتُ والبديل ذكراها

(٢) من دهته : أي أصابته بعينها ، لم ترج سلامته

(٣) قال الواحدى : قال ابن جني : دل هذا البيت على أنها كانت

متكئة عليه ، وعلى غاية القرب منه .

وقال ابن فورجة : أظنها وقعت عليه تبكى ، فوقع دمعها عليه :

ومعنى البيت : إن دموعي كالمطر ، تبل خدي ، كلما ابتسمت بكيت ،

فكان دموعي مطر برقه بريق ثنائها ، أي كان بكائي في حال ابتسامها

كقوله ظلت أبكى وتبتسم .

(٤) هو أبو الفتح عثمان بن جني ، كان من حذاق أهل الأدب

وأعلمهم بعلم النحو والتصريف ، صنف فيهما كتاباً أبداع فيها كالحصائص

والمنصف وسر الصناعة ، وصنف كتاباً في شرح القوائى وفي العروض

وفي المذكور والمؤنث إلى غير ذلك ، ولم يكن في شيء من علومه أكمل

منه في التصريف ، فإنه لم يصنف أحد في التصريف ولا تكلم فيه أحسن

ولا أدق كلاماً منه ، وكان أبو « جني » مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد =

كتابه الموسوم بِالْمَفَسَّرِ (١) الَّذِي أُلْفَهُ فِي شَرْحِ شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ ؛ فَقَالَ : « إِنَّهَا كَانَتْ تَبْزُقُ فِي وَجْهِهِ » فَظَنَّ أَنَّ أبا الطَّيِّبِ أَرَادَ أَنَّهَا كَانَتْ تَبْسُمُ ، فَيَخْرُجُ الرِّيقُ مِنْ فِيهَا ، وَيَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَشَبَّهَهُ بِالْمَطْرِ .

وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَذْهَبُ وَهْمُهُ وَخَاطِرُهُ حَيْثُ ذَهَبَ وَهْمُ هَذَا الرَّجُلِ وَخَاطِرُهُ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا الْقَوْلُ قَوْلَ إِمَامٍ مِنْ أُمَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تُشَدُّ إِلَيْهِ الرَّحَالُ ، فَمَا يُقَالُ فِي غَيْرِهِ ؟ لَكِنَّ فَنَّ النِّصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ غَيْرُ فَنِّ النَّجْوِ وَالإِعْرَابِ !!
وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ الشَّرِيفِ الرِّضِيِّ (٢) :

إِذَا أَنْتَ أَفْنَيْتَ الْعَرَانِينَ وَالذَّرَا
رَمَتِكَ اللَّيَالِي مِنْ يَدِ الْخَامِلِ الْغَمْرِ
وَهَبَكَ أَتَمَّيْتَ السَّهْمَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى

فَنَ لِيَدِ تَرْمِيكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَنْدَرِي (٣)
فَالْعَرَانِينُ وَالذَّرَاهَا عِظَاءُ النَّاسِ ، وَأَشْرَافُهُمْ ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا أَفْنَيْتَ
عِظَاءَ النَّاسِ رُمِيَتْ مِنْ يَدِ الْخَامِلِ .



= الأزدى ، وكان يقول الشعر ويجيده ، ودرس النحو ببغداد ، وتوفي ابن جنى يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة في خلافة القادر .

(١) لابن جنى كتاب كبير في تفسير ديوان المتنبي ، وهو ألف ورقة ونيف ، وكتاب آخر في تفسير معاني هذا الديوان وحجمه مائة ورقة وخمسون ورقة — وانظر معجم الأدباء لياقوت ١٢ / ١١٠ .

(٢) الشريف الرضي هو أبو الحسن محمد بن الحسين الرضي العلوي نقيب أشرف بغداد ، وأشعر بني هاشم ، توفي سنة ٤٠٦ هـ .

(٣) ديوان الشريف الرضي ١ / ٤٠٧ .

وإذ قد بينت أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له ؛ فإنها لا تحي إلا ملائمة مناسبة ، ولا يوجد فيها مبانة ولا تباعد ، لأنها لا تُذكر مطوية إلا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعمّر فهمها ، ولم يكن المراد منها .

* * *

ورأيتُ أبا مُحَمَّدٍ عبدَ الله بن سنان الخفاجي — رحمه الله تعالى — قد خَطَّ الاستعارة بالتشبيه المضمَرِ الأداة ، ولم يفرِّق ، بينهما وتأسى في ذلك بغيره من علماء البيان ، كأبي هلال العسكري^(١) ، والغامبي^(٢) ، وأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدى .

على أن أبا القاسم الحسن بن بشر الأمدى كان أثبت القوم قَدَمًا في فنِّ النصاحَةِ والبلاغة ، وكتابهُ المسمى بـ « الموازنة بين شعر الطائيين »

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران ، أبو هلال العسكري ، صاحب الصناعتين ، وكان مشهورا بالعلم والفقه ، والغالب عليه الأدب والشعر ، وله من التصانيف : التلخيص في اللغة ، جمهرة الأمثال ، شرح الحماسة ، لحن الخاصة ، الأوائل . . وغير ذلك ، قال ياقوت : ولم يبلغني شيء عن وفاته إلا أنه فرغ من إتمام كتابه « الأوائل » لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . وللدكتور بدوي طبانة أحد محققى هذا الكتاب دراسة مفصلة في أبي هلال وبلاغته ونقده ، طبع بالقاهرة سنة ١٩٥١ م وطبعة أخرى سنة ١٩٦٠ تحت عنوان « أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية » .

(٢) هو أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغامبي ، كان من فضلاء عصره ، وشعره مشهور ، وهو من شعراء نظام الملك .

يشهدُ له بذلك ، وما أعلمُ كيف خفيَ عليه الفرقُ بين الاستعارةِ والتشبيهِ
المضمرِ الأداةِ ؟!

ومما أوردهُ ابنُ سنانٍ في كتابه الموسومِ بـ «سرِّ الفصاحةِ» قولُ امرئِ
القيسِ في صِفَةِ اللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَكْلِكِ

وهذا البيتُ من التشبيهِ المضمرِ الأداةِ ، لأنَّ المستعارَ له مذكورٌ ، وهو
اللَّيْلِ ، وعلى الخطأِ في خلطِهِ بالاستعارةِ ، فإنَّ ابنَ سنانٍ أخطأَ في الرَّدِّ على
الآمديِّ ؛ ولم يُوفقِ للصوابِ .

وأنا أتكلّمُ على ما ذكره ، ولا أضايقه في الاستعارةِ والتشبيهِ ؛ بل أنزلُ
معهُ على مارآه من أنه استعارةٌ ، ثمَّ أُبينُ فسادَ ما ذهبَ إليه .

وذاك أنَّ الآمديَّ قالَ في كتابه «الموازنة» ، «إنَّ امرأَ القيسِ وصفَ
أحوالَ اللَّيْلِ الطويلِ ، فذكرَ امتدادَ وَسَطِهِ ! وتناقلَ صدره ، وترادفَ أَعْجَازِهِ
فمما جعلَ له وَسَطًا مُمتدًّا ، وصدرًا ثَقِيلًا ، وأَعْجَازًا رَادِفَةً لوسَطِهِ ، استعارَ له
اسمَ (الصُّلبِ) وجعله متمطياً من أجلِّ امتدادِهِ ؛ واسمَ (الككَلِكِ) وجعله
نائبياً لتناقلِهِ ، واسمَ (العجزِ) من أجلِّ نهوضِهِ (١) .»

(١) تصرف ابن الأثير في نقل كلام الآمدي ، وهذا نصه نقلا عن
الموازنة (٢١٤) : وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات
المعاني ولا المجازات ، وهو في غاية الحسن والجودة والصحة ، وهو
إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل ، فذكر امتداده وسطه ، وتناقل
صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا ،
وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما
يكون على من يراعيه ويتقرب تصرّمه ، فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازا =

فقال ابنُ سنان الخفاجيُّ معترضاً عليه : « إنَّ هذا الذي ذكره الأمدِيُّ ليسَ بِمَرَضِيٍّ غايةَ الرِّضا . وإنَّ بيتَ امرئِ القيسِ » ليسَ من الاستعارةِ الجيِّدةِ ولا الرديئةِ . بل هو وَسَطٌ . فإنَّ الأمدِيَّ قد أفصحَ بأنَّ امرأَ القيسِ لما جعلَ لليلِ وسطاً ممتداً استعارَ لهُ (الصُّلبُ) وجعله متمطياً من أجل امتداده . وحيثُ جعلَ له آخراً وأوَّلاً استعارَ له عَجْزاً وکَلْکَلًا . وهذا كله إنما يحسنُ بعضُهُ مع بعضٍ ؛ فذكرُ الصُّلبِ إنما يحسنُ من أجل العجزِ والوسطِ ؛ والتمطُّيُّ من أجلِ الصُّلبِ ؛ والکلکلُ لمجموع ذلك ؛ وهذه استعارةٌ مبنيةٌ على استعارةٍ أُخرى « (١) .

= رادفة للوسط ، وصدرا متناقلا في نهوضه ، حسن أن يستعير للوسط اسم الصاب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصلاح أن يستعير للصدر اسم الكلكل ، من أجل نهوضه ، وهذا أقرب الاستعارات من الحقيقة ، وأشد ملاءمة لما استعيرت له .

(١) تصرف ابن الأثير أيضا في نقل كلام الخفاجي ، وهذا نصه نقلا عن سرالفصاحة (١٢٩) : (وهذا الذي قاله أبو القاسم لأرضي به غاية الرضا ، ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل بقوله أبو القاسم ، لصحة فكره ، وسلامة نظره ، وصفاء ذهنه ، وسعة علمه ، لكنني أغلب الحق عليه ، ولا أتبع الهوى فيما يذهب إليه . وبيت امرئ القيس عندى ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها ، بل هو من الوسط بينهما . وإنما قلت ذلك لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصاب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وذكر الكلكل من أجل نهوضه ، فكل هذا إنما يحسن بعضه لأجل بعض ، فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز ، والوسط والتمطى لأجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك ، وهذه الاستعارة المبنية على غيرها ، فإذلك لم أر أن أجعلها من أباغ الاستعارات ، وأجدرها بالحمد والوصف .

هذا حكايةٌ كلامه في الاعتراضِ على الأمدى .

وفيه نظرٌ من وجهين :

الأول : أنه قالَ هذا بيتٌ من الاستعارةِ الوُسْطى التي ليستُ بجيدةٍ ولا رديئةٍ . ثم جعلها استعارةً مبنيةً على استعارةٍ أُخرى . وعنده أن الاستعارةَ المبنيةَ على الاستعارةِ من أبعادِ الاستعارات .

وذلكَ أنه قَسَمَ الاستعارةَ إلى قسمين : قريبٍ مختار . وبعيدٍ مُطْرَح .

فالقريبُ المختارُ : ما كانَ بينه وبينَ ما استُعيرَ له تناسبٌ قوياً .
وشبّه واضح .

والبعيدُ المُطْرَحُ . إما أن يكونَ لبعدهِ مما استُعيرَ له في الأصل . أو لأنه استعارةٌ مبنيةٌ على استعارةٍ أُخرى . فيضمُّفُ لذلك .

هذا ما ذكره ابن سنان الخفاجيُّ في تقسيمِ الاستعارةِ .

وإذا كانتِ الاستعارةُ المبنيةُ على استعارةٍ أُخرى عنده بعيدةً مُطْرَحةً . فكيفَ جعلها وَسْطاً ؟ هذا تناقضٌ في القول !

الوجهُ الثاني . أنه لم يأخذ على الأمدى في موضعِ الأخذ . لأنه لم يَحْتَزْ إلا ما حَسُنَ اختيارُهُ .

وذلكَ أن حَدَّ الاستعارةِ على ما رآه الأمدى وابنُ سنانٍ . هو نقلُ المعنى من لفظٍ إلى لفظٍ . بسببِ مشاركةٍ بينهما . وإن كانَ المذهبُ الصحيحُ في حَدِّ الاستعارةِ غيرَ ذلكَ على ما تقدّمَ الكلامُ عليه .

ولكنِّي في هذا الموضعِ أنزلُ معهما على ما رأياه . حتى يتوجّهَ الكلامُ على الحكمِ بينهما في بيتِ امرئ القيسِ .

وإذ حَدَدْنَا الاستعارةَ بهذا الحدِّ فيه يفرِّقُ على رأى ابن سنان بين

الاستعارة المرصية والاستعارة المطرحة . فإذا وجدنا استعارة في كلام ماعرَضناها على هذا الحد . فما وجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه حكمنا له بالجوودة . وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة .

وبيتُ امرئ القيس من الاستعارات المرصية . لأنه لو لم يكن للنيل صدرٌ . أعني أولاً . ولم يكن له وسطٌ وآخر لما حسنت هذه الاستعارة .

ولما كان الأمر كذلك استعار لوسطه صلباً . وجعله متمطياً . واستعار لصدره المتشاقل — أعني أوّله — كذلكاً ؛ وجعله نائماً ؛ واستعار لآخره عجزاً ؛ وجعله رادفاً لوسطه ؛ وكل ذلك من الاستعارات المناسبة .

وأما قولُ ابن سنان الخفاجي : « إن الاستعارة المبيّية على استعارة أخرى بعيدة مطرحة » فإن في هذا القول نظراً .

وذلك أنه قد ثبت لنا أصلُ نقيس عليه في الفرق بين الاستعارة المرصية والمطرحة ؛ كما أريناك ، ولا يمنع ذلك من أن تجيء استعارة مبيّية على استعارة أخرى ، وتوجد فيها المناسبة المطلوبة في الاستعارة المرصية ؛ فإنه قد ورد في القرآن الكريم ما هو من هذا الجنس ؛ وهو قوله تعالى . « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ » (١) .

فهذه ثلاث استعارات يبنى بعضها على بعض :

فالأولى : استعارة القرية للأهل .

والثانية : استعارة الذوق للباس .

(١) سورة النحل الآية ١١٢ .

والثالثة : استعارة اللباس للجوع والخوف .

وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على ما لا خفاء به .

فكيف يدّم ابن سنان الخفاجي الاستعارة المبنية على استعارة أخرى؟
وما أقول إن ذلك شدّ عنه ، إلا لأنه لم ينظر إلى الأصل المقيس عليه ؛ وهو
التناسب بين المنقول عنه والمنقول إليه ؛ بل نظر إلى التقسيم الذي هو قسمه
في القرب أو البعد ؛ ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تكون
بعيدة . فحكم عليها بالاطّراح .

وإذا كان الأصل إما هو التناسب فلا فرق بين أن يوجد في استعارة

واحدة : أو في استعارة مبنية على استعارة .

ولهذا أشباهه ونظائر في غير الاستعارة .

ألا ترى أن المنطقي يقول في المقدمة والنتيجة : كل إنسان حيوان ؛ وكل

حيوان نائم ؛ فكل إنسان نائم ؟

وكذلك يقول المهندس : في بعض الأشكال الهندسية : إذا كان خطّ

(ا ب) مثل خطّ (ب ج) وخطّ (ب ج) مثل خطّ (ج د) فخطّ (ا ب)

مثل خطّ (ج د) ؟

وهكذا أقول أنا في الاستعارة : إذا كانت الاستعارة الأولى مناسبة ؛

ثم بُني عليها استعارة ثانية ، وكانت أيضاً مناسبة ؛ فالجميع متناسب ؛ وهذا

أمر برهاني ؛ لا يتصور إنكاره .

وهذا الكلام الذي أوردته ها هنا هو اعتراض على ما ذكره ابن سنان

الخفاجي في الاستعارة ؛ فلا تظن أني موافقه في الأصل ؛ وإنما وافقته قهراً

لتبيين وجه الخطأ في كلامه ، وكيف يسوغ لي موافقته ، وقد ثبتت عندي

بالدليل أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له ؟

وفيما قدمته من الكلام كفاية .

النوع الثاني

في التشبيه

وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتشليل ، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ؛ ولهذا باباً مفرداً ؛ وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع ؛ يقال : شبهتُ هذا الشيء بهذا الشيء ؛ كما يقال : مثلتهُ به .

وما أعلمُ كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه ؟
وكنتُ قدّمتُ القول في باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه وبينها ، ولا حاجة إلى إعادته هاهنا مرة ثانية .

والتشبيه ينقسم قسمين : مظهرًا ومضمراً .
وفي المضمّر إشكالٌ في تقدير أداة التشبيه فيه في بعض المواضع .
وهو ينقسم أقسامًا خمسة :

فالأول : يقع موقع المبتدأ والخبر مفردين .
والثاني : يقع موقع المبتدأ المفرد وخبره جملة مركبة من مضاف ومضاف إليه .

والثالث : يقع موقع المبتدأ والخبر جملتين

والرابع : يرد على وجه الفعل والفاعل .

والخامس : يرد على وجه المثل المضروب .

وهذان القسمان الأخيران هما أشكال الأقسام الخمسة في تقدير أداة التشبيه .

أما الأول فمكتولنا: (زيدٌ أسدٌ) فهذا مبتدأٌ وخبرُهُ ، وإذا قدّرت أداة التشبيه فيه كان ذلك ببديهةِ النَّظَرِ على الفورِ ؛ فقيل : زيدٌ كالأسدِ .

وأما التسمُّ الثاني والثالثُ فإنهما متوسّطان في تقدير أداة التشبيه فيهما .

فإثني كقول النبي صلى الله عليه وسلم (الكمأةُ جُدريُّ الأرضِ) وهذا ينمّوع نوعين ؛ فإذا كان المضافُ إليه معرفةً كهذا الخبرِ النبويُّ لا يحتاجُ في تقدير أداة التشبيه إلى تقديم المضافِ إليه ؛ بل إن شئنا قدّمناه ، وإن شئنا أخرناه قلنا : الكمأةُ للأرضِ كالجدريِّ ؛ أو الكمأةُ كالجدريِّ للأرضِ ؛ وإذا كان المضافُ إليه نكرةً فلا بدَّ من تقديمه عندَ تقدير أداة التشبيه ؛ فمن ذلك قول البُحْتَرِيِّ^(١) :

غَمَامٌ سَمَاحٌ لَا يَغِيبُ لَهُ حَيًّا وَمِسْعَرٌ حَرَبٍ لَا يَضِيعُ لَهُ وَتَرٌ^(٢)
فإذا قدّرنا أداة التشبيه هاهنا قلنا . سَمَاحٌ كَالنَّهَامِ ؛ وَلَا يَقْدَرُ إِلَّا هَكَذَا ،
والمبتدأُ في هذا البيتِ محذوفٌ ؛ وهو الإشارةُ إلى الممدوح ؛ كأنه قال . هو
غَمَامٌ سَمَاحٌ .

ومن هذا النوع ما يشكّلُ تقديرُهُ أداة التشبيه فيه ؛ عل غيرِ العارفِ بهذا الفنِّ ؛ كقولِ أبي تمامٍ :

أَيُّ مَرَعَى عَيْنٍ وَوَادِي نَسِيبٍ كَلْبَتُهُ الْإِيَّامُ فِي مَا حُوبٍ^(٣)

(١) ديوان البُحْتَرِيِّ ١ / ٥٤ من قصيدة يمدح فيها المتوكل ، ومطامعها :

متى لاح برق أوبدا ظلل قفر جرى مستهل لا بكى ولا نزر

(٢) في الأصل يجب بالخاء المهملة ، وهو تحريف ، وفي الديوان

ما يغيب « وما يضيع » .

(٣) ديوان أبي تمام ٣٦ والبيت مطلع قصيدة له في مدح سليمان بن

وهب . قال الصولي : ويرويه قوم « أي مرعى عين » بكسر العين ، وهو =

ومرادُ أبي تمامٍ أن يصفَ هذا المكانَ بأنه كان حسناً ؛ ثم زالَ عنه
حُسْنُهُ ؛ فقالَ بأنَّ العينَ كانت تلتذُّ بالنظرِ إليه كالتذُّذِ السَّائمةِ بالمرعى ؛ فإنه
كان يشبَّبُ به في الأشعارِ لحُسْنِهِ وطِيبِهِ ؛

وإذا قَدَرنا أداةَ التشبيهِ ها هنا قلنا . كأنه كان للعَيْنِ مرعى ؛ وللتَّسْيِبِ
نزلاً ومألفاً .

وإذا جاءَ شيءٌ من الأبياتِ الشعريةِ على هذا الأسلوبِ ؛ أو ما يجري مجراهُ
فإنه يحتاجُ إلى عارفٍ بوضعِ أداةِ التشبيهِ فيه .

وأما الثالثُ فكقولُ النبي صلى الله عليه وسلم . « وهل يكبُّ الناسَ على
مناخِرِهِم في نارِ جهنَّمَ إلا حَصَّاءُ أَلْسِنَتِهِمْ » كأنه قال : كلامُ الألسنةِ
كحصائدِ المناجِلِ .

وهذا القسمُ لا يكونُ المشبَّه به مذكوراً فيه ؛ بل تُذكَرُ صِفَتُهُ ؛ ألا ترى
أنَّ المُنْجَلَ لم يذكَرْ ها هنا ؛ وإنما ذكَرَتْ صِفَتُهُ وهى الحَصْدُ . وكلُّ ما يجيءُ
من هذا القسمِ فإنه لا يردُّ إلا كذلك .

وأما القسمُ الرابعُ والخامسُ اللذانِ هما أشكالُ الأقسامِ المذكورةِ في تقديرِ
أداةِ التشبيهِ فيهما فإنهما ، لا يتفطنُ لهما أنهما تشبيه .

= تصحيف ، إنما يريد « مرعى عين » بفتح العين ، جعل نظرها إلى الحسان
رعيا لها ، ويروى من ملحوب ، ، وقوله « وادى نسيب » أى كان هذا الوادى
فيه أهلٌ يستحقون أن يقال فيهم النسيب ، وملحوب اسم موضع ،
وتردده في الشعر كثير ، واجبته من شدد الحاء فهو من قولهم « لحيبت
القتيل » إذا صرعته ، وقال قوم : لحيبه إذا قطعه بالسيف ، وقيل معنى
لحيبه أى ألقاه على الطريق الواضح ، وهو اللاحيب ، ومن روى لحيبته
بالتخفيف فهو من القشر ، يقال لحيب اللحم إذا فشره — وانظر ديوان
أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى ١/ ١٢٢ .

فَمَا جَاءَ مِنَ الْقِسْمِ الرَّابِعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ » (١) وَتَقْدِيرُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يُقَالَ: هُمْ فِي إِيمَانِهِمْ كَالْتَبَوَّءِ دَارًا؛ أَيْ أَهْمُ قَدْ اتَّخَذُوا الْإِيمَانَ مَسْكَنًا يَسْكُنُونَهُ؛ يَصِفُ بِذَلِكَ تَمَكَّنَهُمْ مِنْهُ .

وعلى هذا ورد قول أبي تمام .

نَطَقْتُ مُقَلَّةً الْفَتَى الْمَلْهُوفِ فَنَشَكَّتْ بِفَيْضِ دَمْعِ ذُرُوفِ (٢)

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقْدِّرَ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ هَاهُنَا قُلْنَا . دَمْعُ الْعَيْنِ كَنَطَقِ اللِّسَانِ ، أَوْ قُلْنَا: الْعَيْنُ الْبَاكِئَةُ كَأَنَّمَا تَنْطَقُ بِمَا فِي الضَّمِيرِ .

وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ فَكَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ (٣) يَهْجُو جَرِيرًا (٤) .

(١) سورة الحشر: الآية ٩ .

(٢) ديوان أبي تمام ٤٠٤ مطلع قصيدة له في ابن أبي سعيد يعاتبه .

(٣) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب التميمي الدارمي ، أحد فحول الشعراء الأمويين ، نشأ بالبصرة والبادية يروى الشعر ويعالجه حتى نبغ فيه ، واتصل بولاية العراق ، يمدحهم ويهجوهم ، ورحل إلى دمشق يمدح الخلفاء وينال جوائزهم وله مع جرير نقائص تعد وثيقة تاريخية لعصرهما ولكثير من أيام العرب وأحوالهم في الجاهلية والإسلام ، ويمتاز شعر الفرزدق بخشونه الألفاظ ، ووعورة المعاني ، والميل إلى الفخر في هجائه ، والفحش في غزله ، وقدمات سنة ١١٤ هـ .

(٤) ينتسب أبو حذرة جرير بن عطية بن الخطفي إلى يربوع من تميم ، كما ينتسب الفرزدق إلى دارم بن تميم كذلك ، وقد ولد باليمامة ، ونشأ في البادية يأخذ الشعر عن أسرته وغيرها ، ويتكسب به لدى الولاية والخلفاء ، حتى اشتبك مع الفرزدق في المهاجى والتساب ، لعوامل سياسية واجتماعية ، ومات بعد الفرزدق بقليل سنة ١١٤ هـ .

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهْجَوْتَهَا أَمْ بُلَّتْ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ (١)
 فَشَبَّهَ هِجَاءَ جَرِيرٍ تَغْلِبَ وَائِلٍ بِيَوَلِهِ فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ؛ فَكَمَا أَنَّ الْبَوَلِ
 فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ لَا يُوَثِّرُ شَيْئًا؛ فَكَذَلِكَ هِجَاؤُكَ هُوَ لَا يُوَثِّرُ شَيْئًا.
 وَهَذَا الْبَيْتُ مِنَ الْأَبْيَاتِ الَّتِي أَقْرَأَ لَهَا (٢) النَّاسُ بِالْحُسْنِ
 وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضًا (٣) :

قَوَارِصُ تَأْتِيَنِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ يَمْلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ
 فَإِنَّهُ شَبَّهَ الْقَوَارِصَ الَّتِي تَأْتِيهِ مُحْتَقِرَةً بِالْقَطْرِ الَّذِي يَمْلَأُ الْإِنَاءَ عَلَى صِفَرٍ
 مَقْدَارِهِ، يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ السَّكْرَةَ تَجْعَلُ الصَّغِيرَ مِنَ الْأَمْرِ كَبِيرًا.
 وَهَذَا الْمَوْضِعُ يُشْكَكُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ؛ وَيَخْلَطُونَهُ بِالِاسْتِعَارَةِ؛
 كَقَوْلِ الْبَحْرِيِّ فِي التَّعْزِيَةِ بَوْلِدٍ (٤) :

(١) ديوان الفرزدق ٢/ ٨٨٢ وهذا البيت ثاني أبيات قصيدته التي أولها :
 يا ابن المراغة والهجاء إذا التقت أعناقهم وتمسحت الخصال
 وفي هذه القصيدة يذكر الفرزدق تفضيل الأخطل إياه ، ويمدح بني
 تغلب ، ويهجو جريرا .

(٢) في الأصل « الذي أقرله .. » .

(٣) ديوان الفرزدق ٢/ ٧٥٦ ، وكان الفرزدق لما هرب من زياد
 ابن أبيه نزل بالروحاء على بكر بن وائل ، ثم انتقل عنهم إلى المدينة ، فقال
 الفرزدق :

تصرم عني ود بكر بن وائل وما كان عني ودهم يتصرم
 قوارص تأتيني فيحتقرونها وقد يملأ القطر الأتي فيفعم
 ومعنى الأتي الجدول .

(٤) ديوان البحري ٢/ ٥٢٤ والبيت من قصيدة له في رثاء ابن أبي الحسن
 ابن عبد الملك بن صالح الهاشمي ، ومطلعها :

لأية حال أعلن الوجـد كاتمه وأقصر عن داعي الصلابة لأئمة

تَمَزَّ فَإِنَّ السَّيْفَ يَمْضِي وَإِنْ وَهَتْ
حَمَائِلُهُ عَنْهُ وَخَلَّاهُ قَائِمُهُ

وهذا ليس من التشبيه ، وإنما هو استعارة ، لأنَّ المستعار له مطوىُّ
الذِّكْر ، وهو المَمْزَى ، كأنه قال : تمزَّ فَإِنَّكَ كَالسَّيْفِ الَّذِي يَمْضِي وَإِنْ
وَهَتْ حَمَائِلُهُ وَخَلَّاهُ قَائِمُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّكَ قَدَّمْتَ الْقَوْلَ فِي بَابِ الِاسْتِعَارَةِ بَأَنَّ التَّشْبِيهَ الْمَضْمَرَ
الْأَدَاةَ يَحْسُنُ تَقْدِيرُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ ، وَالِاسْتِعَارَةَ لَا يَحْسُنُ تَقْدِيرُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ
فِيهَا ، وَجَعَلْتَ ذَلِكَ هُوَ الْفَرْقَ بَيْنَ التَّشْبِيهِ الْمَضْمَرِ الْأَدَاةِ وَبَيْنَ الِاسْتِعَارَةِ ،
وَقَرَّرْتَ ذَلِكَ تَقْرِيراً طَوِيلاً عَرِيضاً ، ثُمَّ نَزَّكَ قَدْ نَقَضْتَهُ هَاهُنَا بِقَوْلِكَ :
إِنَّ مِنَ التَّشْبِيهِ الْمَضْمَرِ الْأَدَاةِ مَا يُشَكِّلُ تَقْدِيرُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ فِيهِ ، وَإِنِّه
يَحْتَاجُ فِي تَقْدِيرِهَا إِلَى نَظَرٍ كَهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ لِلْفَرَزْدَقِ ، وَمَا
يَجْرِي مَجْرَاهُمَا .

فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنِّي أَقُولُ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْتَهُ لَا يَنْقُضُ عَلَى شَيْئًا
مِمَّا قَدَّمْتَ الْقَوْلَ فِيهِ فِي بَابِ الِاسْتِعَارَةِ ، لِأَنِّي قُلْتُ : إِنَّ التَّشْبِيهَ الْمَضْمَرَ
الْأَدَاةَ يَحْسُنُ تَقْدِيرُ الْأَدَاةِ فِيهِ ، أَيْ لَا يَتَغَيَّرُ بِتَقْدِيرِهَا فِيهِ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي
اتَّصَفَ بِهَا مِنْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الِاسْتِعَارَةُ ؛ فَإِنَّهَا إِذَا
قَدَّرْتَ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ فِيهَا تَغَيَّرَتْ عَنْ صِفَتِهَا الَّتِي اتَّصَفَتْ بِهَا مِنْ فَصَاحَةٍ
وَبَلَاغَةٍ .

وَأَمَّا الَّذِي وَرَدَ هَاهُنَا مِنْ بَيْتِي الْفَرَزْدَقِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ التَّشْبِيهِ
الْمَضْمَرِ الْأَدَاةِ فَإِنَّ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ لَا تَتَقَدَّرُ فِيهِ ، وَهُوَ عَلَى حَالَتِهِ مِنَ اللَّغْظِ ؛
حَتَّى تَدْبِثِينَ هَلْ تَغَيَّرَتْ صِفَتُهُ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا مِنْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ أَمْ لَا ؟ وَإِنَّمَا

تتقدّر أداة التشبيه فيه على وجهٍ آخر ، وهذا لا ينتقض ما أشرتُ إليه في
باب الاستعارة .

* * *

وإذا ثبتت هذه الأقسام الأربعة فأقول : إن التشبيه المضمّر أبلغ من
التشبيه المظهر وأَوْجَز .

أما كونه أبلغَ فالجمل المشبه مشبهاً به من غير واسطة أداةٍ ، فيكونُ
هو إياه ، فإنك إذا قلتَ : « زَيْدٌ أَسَدٌ » كنتَ قد جعلته أسداً من غيرِ
إظهار أداة التشبيه .

وأما كونه أَوْجَز ، فلحذف أداة التشبيه منه .

وعلى هذا فإن التسمين من المظهر والمضمّر كليهما في فضيلة البيانِ
سواءً ، فإن الفرض المقصود من قولنا « زَيْدٌ أَسَدٌ » أن يتبين حالُ زيدٍ
في اتصافه بشهامةِ النفسِ ، وقُوّةِ البطشِ ، وجِراءةِ الإقدامِ ، وغير ذلك
مما يجزى مجراه ؛ إلا أننا لم نجد شيئاً ندكُّ به عليه سوى أن جعلناه شبيهاً
بالأسدِ ، حيثُ كانت هذه الصفاتُ مختصةً به ؛ فصار ما قصدناه من هذا
القولِ أكشَفَ وأبين من أن لو قلنا : زَيْدٌ شَهْمٌ ، شجاعٌ ، قوئُ البطشِ ،
جريُّ الجنانِ ، وأشبه ذلك ؛ لما قد عُرف وعُهد من اجتماع هذه الصفات في
المشبه به — أعنى الأسد — وأما زيد الذي هو المشبه فليس معروفاً بها ، وإن
كانت موجودة فيه .

وكلا هذين التسمين أيضاً يختصُّ بفضيلة الإيجاز ، وإن كان المضمّرُ
أَوْجَز من المظهر ؛ لأن قولنا « زَيْدٌ أَسَدٌ » أو « كالأسد » يسد مسدّ قولنا :
زيدٌ من حاله كَيْتٌ وكَيْتٌ ؛ وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا ؛ مما
يَطُولُ ذِكْرُهُ .

فالتشبيه إذاً يجمعُ صفاتٍ ثلاثة ؛ هي : المبالغة ؛ والبيان ؛ والإيجاز ؛ كما
أرى يتك ؛ إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعرُ المذهب ؛ وهو مَقْتَلٌ
من مَقَاتِلِ البلاغة .

وسببُ ذلك أن حَمَلَ الشيء على الشيء بالمائلة إما صورة ؛ وإما معنى
يعزُّ صوابه ؛ وتعسرُ الإجابة فيه ؛ وقَلَّمَا أكثرَ منه أحدٌ إلا عثر ؛ كما فعل
ابن المعتز^(١) من أدباء العراق ؛ وابنُ وكيع^(٢) من أدباء مصر ؛ فإيهما

(١) هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله الخليفة العباسي ولد سنة ٢٤٩ هـ ،
وقد نشأ وتربى تربية الخفاء ، وأخذ العلم والأدب عن علماء عصره ، وأولع
بالشعر ونبغ فيه ، ولما خلع المقتدر لعسف الأتراك من شيعته بويج عبد الله هذا
بالخلافة ، ولكن جند المقتدر والأتراك حملوا على دار ابن المعتز ، وقتلوا
أصحابه حتى هزموهم ؛ وقبضوا على الخليفة ، وقتلوه أول ليلة من حكمه
سنة ٢٩٦ هـ ، وقد برع في الشعر لاسيما الأوصاف ، ويمتاز شعره بطابع الترف ورقة
الأسلوب ، وهو صاحب كتاب البديع الذي يعد أول كتاب في البلاغة العربية وغيره .
(٢) هو أبو محمد الحسن بن علي ... الضبي المعروف بابن وكيع
التنيسي الشاعر المشهور .

أصله : من بغداد ، ومولده بتنيس ، ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة
الدهر ، وقال في حقه : شاعر بارع ، وعالم جامع ، قد برع في إبانة على أهل
زمانه ، فلم يتقدمه أحد في أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام . وتستعبد
الأفهام . وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي ،
سماه « المنصف » وكانت وفاته يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الأولى سنة
ثلاث وتسعين وثلثمائة بمدينة تنيس ، ودفن في المقبرة الكبرى في القبة التي
بنيت له بها ، ووكيع لقب جده أبي بكر محمد بن خلف ، وكان
فاضلا نبيلاً فصيحاً ، من أهل القرآن وانتمه والنحو والسير وأيام الناس
وأخبارهم . وله مصنفات كثيرة — انظر وفيات الأعيان ٤ / ٢٢٨
طبعة دار المأمون — (القاهرة) .

أكثرًا من ذلك لاسيما في وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار ؛
لاجرم أنهما أتيا بالفتى البارد الذي لا يثبت على محك الصواب .
فعليك أن تتوقى ما أشرت إليه .

* * *

فائدة التشبيه :

وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما
تقصده به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به ؛ أو بمعناه . وذلك أو كد
في طرفي الترغيب فيه ؛ أو التنفير عنه .

الأتري أنك إذا شبت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك
مُثَبِّتًا في النفس خيالًا حسنًا يدعو إلى الترغيب فيها .

وكذلك إذا شبتها بصورة شيء أقيح منها كان ذلك مُثَبِّتًا في النفس
خيالًا قبيحًا يدعو إلى التنفير عنها ؛ وهذا لا نزاع فيه .

ولنضرب له مثالًا بوضحه فنقول : قد ورد عن ابن الرومي^(١) في مدح
العسل وذمه بيت من الشعر ، وهو :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن تعبت قلت : ذا قى الزنابير^(٢)

(١) ولد أبو الحسن علي بن العباس الرومي ببغداد ، وعاش فيها متأثرًا
بمزاجه اليوناني ، وبالثقافة العربية كذلك ، فكان شعره صورة طريفة في
الأدب العربي من حيث الابتكار والتنسيق المنطقي والاستقصاء في أسلوب
جزل متين ، وقد أجاد فنون الشعر ، وخاصة الوصف والهجاء ، توفي ابن
الرومي سنة ٢٨٣ هـ .

(٢) هذا البيت ثاني أبيات ثلاثة ، وهذه هي مرتبة :

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتره سوء تعبير =

ألا ترى كيف مدح وذمّ الشيء الواحد بتصريف التشبيه المجازي
 المضمر الأداة الذي خيل به إلى السامع خيالاً يحسن الشيء عنده تارةً ويقبحه
 أخرى؟ ولولا التوصل بطريق التشبيه على الوجه لما أمكنه ذلك؟
 وهذا المثال كافي فيما أردناه .

واعلم أنّ من محاسن التشبيه أن يجيء مصدرياً ؛ كقولنا : أقدم إقدام
 الأسد ، وفاض فيض البحر . وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه كقول
 أبي نواس في وصف الخمر (١) :

ثمّ لما مزجوها وثبتت ونبّ الجراد (٢)
 ثمّ لما شربوها أخذت الرقاد (٣)

وقيل : إنّ من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر
 منه وأعظم .

= تقول دله مجاج النحل تمدحه وإن تدم فقل خرم الزنابير
 مدحا وذما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور
 والمجاج الربق ترميه من فيك ، والعسل وقد يقال نه مجاج
 النحل .

- (١) ديوان أبي نواس ٢٦٥ من قصيدة خميرية له أولها :
 استقنيها بسواد قبل تغريد المنادى
 (٢) في الأصل « وإذا ما مزجوها » موضع « ثم لما مزجوها والتصويب
 عن الديوان .
 (٣) في الأصل « وإذا ما شربوها » موضع « ثم لما شربوها » والتصويب
 عن الديوان .

وَمِنْ هَاهُنَا غَلَطَ بَعْضُ الْكُتَّابِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي ذِكْرِ حَصْنٍ مِنْ حِصُونِ الْجِبَالِ مُشَبَّهًا لَهُ . فَقَالَ . « هَامَةٌ . عَلَيْهَا مِنَ الْعِمَامَةِ عِمَامَةٌ . وَأَنْمَلَةٌ . خَضِبَهَا الْأَصِيلُ . فَكَانَ الْهَلَالُ مِنْهَا قَلَامَةٌ » .

وهذا الكاتبُ حَفِظَ شَيْئًا ، وَغَابَتْ عَنْهُ أَشْيَاءُ !!
فإنه أخطأ في قوله « أَنْمَلَةٌ » وأتى مقداراً للأنملة بالنسبة إلى تشبيهِ حَصْنٍ على رأسِ جَبَلٍ ؟
وأصاب في المناسِبة بين ذكر الأنملة والقلامة ، وتشبيهها بالهلال .

فان قيل :

إن هذا الكاتبُ تَأَسَّى فيما ذكره بكلامِ الله تعالى حيثُ قال : « اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ »^(١) فَثَلَّ نُورَهُ بِطَاقَةٍ فِيهَا ذُبَابَةٌ .

وقال الله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مِنْ أَنْزَلِ حَتَّى عَادَ كَالْمُرْجُونِ الْقَدِيمِ »^(٢)
فثَلَّ الهلالَ بِأَصْلِ عَذْقِ النَّخْلَةِ .

فالجواب عن ذلك اني اقول :

أَمَا تَمَثِيلُ نُورِ اللهِ تَعَالَى بِمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ فَإِنَّ هَذَا مِثَالٌ ضَرَبَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ » .

وإذا نظرت إلى هذا الموضع وجدته تشبيهاً لطيفاً عجيباً ، وذلك أنَّ قَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا أَتَى فِيهِ مِنَ النُّورِ ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَةِ الشَّفَافَةِ . كَالزَّجَاجَةِ الَّتِي كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ بِصَفَائِهَا وَإِضَاءَتِهَا .

(١) سورة النور : الآية ٣٥ .

(٢) سورة يس : الآية ٣٩ .

وأما الشجرة المباركة التي لاشرقية ولا غربية فإنها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه من أرض الحجاز التي لا تميل إلى الشرق ، ولا إلى الغرب .

وأما زيت هذه الزجاجة فإنه مضيء من غير أن تمسه نار ؛ والمراد بذلك أن فطرته فطرة صافية من الأكدار ، منيرة من قبل مصالحة الأنوار .
فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه الآية .

وأما الآية الأخرى فإنه شبه الهلال فيها بالعرجون القديم ، وذلك في هيئة محوله واستدارته ، لا في مقداره ؛ فإن مقدار الهلال عظيم ؛ ولا نسبة بالعرجون إليه ؛ لكنه في مرأى النظر كالعرجون هيئة لا مقداراً .

وأما هذا الكاتب فإن تشبيهه ليس على هذا النسق ، لأنه شبه فيه صورة الحصن بأنملة في المقدار ؛ لا في الهيئة والشكل .

وهذا غير حسن ولا مناسب ؛ وإنما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقلامة مع ذكر الأنملة . فأخطأ من جهة ، وأصاب من جهة ، لكن خطأه غطى على صوابه .

* * *

والقول السديد في بلاغة التشبيه هو ما أذكره ، وهو أن إطلاق من أطلق قوله في أن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غير سديد ، فإن هذا قول غير حاصر للغرض المقصود ؛ لأن التشبيه يأتي تارة في معرض المدح ، وتارة في معرض الذم ، وتارة في غير معرض مدح ولا ذم ، وإنما يأتي قصداً للإبانة والإيضاح ، ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر ؛ كما ذهب إليه من ذهب .

بل القولُ الجامعُ في ذلك أن يُقالَ : إن التشبيه لا يُعمدُ إليه إلا لضربٍ من المبالغة ، فإما أن يكونَ مدحاً ، أو ذمّاً ، أو إيضاحاً ؛ ولا يُخرجُ عن هذه المعاني الثلاثة .

وإذا كان الأمرُ كذلك فلا بدَّ فيه من تقديرٍ أفضة « أفعل » فإن لم تُقدَّر فيه لفظة « أفعل » فليس بتشبيهٍ بليغٍ ، ألا ترى أنا نقول في التشبيه المضمَّن الأداة « زيدٌ أسدٌ » فقد شبهنا زيدا بالأسدِ الذي هو أشجعُ منه ؛ فإن لم يكن المشبَّه به في هذا المقام أشجعَ من « زيد » الذي هو المشبَّه به ، وإلا كان التشبيه ناقصاً ؛ إذ لا مبالغةَ فيه .

* * *

وأما التشبيهُ المظهرُ الأداة فكقولُه تعالى «وله الجوارِ المنشآتُ في البحرِ كالأعلامِ»^(١) وهذا تشبيهٌ كبيرٌ بما هو أكبرُ منه ؛ لأنَّ خلقَ السفنِ البحريَّةِ كبيرٌ ، وخلقُ الجبالِ أكبرُ منه .

وكذلك إذا شبَّهَ شيءٌ حسنٌ بشيءٍ حسنٍ فإنه إذا لم يشبَّهَ بما هو أحسنُ منه فليس بواردٍ على طريقِ البلاغةِ .

وإن شبَّهَ قبيحٌ بقبيحٍ فهكذا ينبغي أن يكونَ المشبَّه به أقبَحُ .

وإن قُصدَ البيانُ والإيضاحُ فينبغي أن يكونَ المشبَّه به أبينَ وأوضحَ .

فتقديرُ لفظةِ « أفعل » لا بدَّ منه فيما يُقصدُ به بلاغةُ التشبيهِ ؛ وإلا كان التشبيهُ ناقصاً فاعلمْ ذلك ، وقسْ عليه .

أقسام التشبيه :

واعلمْ أنه لا يخلو تشبيهُ الشئينِ أحدهما بالآخر من أربعةِ أقسامٍ :

(١) سورة الرحمن ، الآية ٢٤ .

(١) إما تشبيهه معنى بمعنى . كالذى تقدم ذكره من قولنا « زيدٌ كالأسد » .

(٢) وإما تشبيهه صورةً بصورة . كقوله تعالى : « وعندهم قاصراتُ الطرفِ عينٌ * كأنهنَّ بيضٌ مكنونٌ »^(١) .

(٣) وإما تشبيهه معنى بصورة . كقوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ^(٢) » وهذا القسمُ أبلغُ الأقسامِ الأربعة . لتمثيله المعاني الموهومة بالصُّور المُشاهدَة .

(٤) وإما تشبيهه صورةً بمعنى ، كقولِ أبي تمام .

وَفَتَكَتَ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ وَالْعِدَا فَتَكَ الصَّبَابَةَ بِالْمَجِبِّ الْمَغْرَمِ^(٣)
فشبه فتكهُ بالمالِ والعدا — وذلك صورةٌ مرئيةٌ — بفتكِ الصَّبَابَةِ ،
وهو فتكٌ معنويٌّ . وهذا القسمُ أطفُ الأقسامِ الأربعة . لأنه نقلُ صورةٍ
إلى غيرِ صورةٍ .

وكلُّ واحدٍ من هذه الأقسامِ الأربعة المُشارِ إليها لا يخلو التشبيهُ فيه من
أربعةِ أقسامٍ أيضاً :

(١) إما تشبيهه مُفردٍ بمُفردٍ .

(١) سورة الصافات : الأيتان ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٩ .

(٣) لم أعر على هذا البيت في طبعة بيروت ، ويوحى معنى البيت
ووزنه بأنه من قصيدته التي قالها في مدح أبي الحسين محمد بن الهيثم بن
شبابة التي مطلعها :

نثرت فريد مدامع لم تنظم والدمع يحمل بعض شجو المغرم
وانظر ديوان أبي تمام ٣١٣ .

(٢) وإما تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّبٍ .

(٣) وإما تشبيهُ مفردٍ بمركَّبٍ .

(٤) وإما تشبيهُ مركَّبٍ بمفردٍ .

والمرادُ بقولنا مُفْرَدٌ ومركَّبٌ : أنَّ المفردَ يكونُ تشبيهَ شيءٍ واحدٍ بشيءٍ واحدٍ ، والمركَّبُ تشبيهَ شَيْئَيْنِ اثنَيْنِ بشَيْئَيْنِ اثنَيْنِ .

وكذلك المفردُ بالمركَّبِ ، والمركَّبُ بالمفردِ ، فإنَّ أحدهما يكونُ تشبيهَ شيءٍ واحدٍ بشَيْئَيْنِ ، والآخرُ يكونُ تشبيهَ شَيْئَيْنِ بشيءٍ واحدٍ .

ولستُ أعنى بقولي « تشبيهَ شَيْئَيْنِ » أنَّه لا يكونُ إلا كذلك ، بل أردتُ تشبيهَ شَيْئَيْنِ بشَيْئَيْنِ فما فوقهما ، كقولِ بعضهم في الخمرِ .

وكانها وكانَ حَامِلٌ كَأَمِهَا إِذْ قَامَ يَجْلُوهَا عَلَى النُّدْمَاءِ
شَمْسِ الضُّحَا رَقَصَتْ فَتَنَّقَطَ وَجْهَهَا

بَدْرُ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ الْجُوزَاءِ

فشيءه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء ، فإنه شبه الساقى بالبدْرِ ، وشبه الخمرَ بالشمسِ ، وشبهَ الحبيبَ الذي فوقها بالكواكِبِ .

* * *

وَإِذْ بَيَّنْتُ أَنَّ التَّشْبِيهَ يَنْقَسِمُ إِلَى تِلْكَ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ فَإِنِّي أَقُولُ : إِنَّ التَّشْبِيهَ الْمُضْمَرَ الْأَدَاةَ قَدْ قَدِّمْتُ الْقَوْلَ فِي أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ (١) .

فالقسمُ الأوَّلُ لا يَرُدُّ إِلَّا فِي تَشْبِيهِ مُفْرَدٍ بِمُفْرَدٍ .

والقسمُ الثاني لا يَرُدُّ إِلَّا فِي تَشْبِيهِ مُفْرَدٍ بِمُركَّبٍ .

(١) أنظر تفصيل هذه الأقسام الخمسة في صفحة (١١٥) من

هذا القسم الثاني .

والقسم الثالث لا يرد إلا في تشبيه مركب بمركب .
 والقسم الرابع والخامس لا يردان إلا في تشبيه مركب بمركب .
 ألا ترى أننا إذا قلنا في القسم الأول « زيدٌ أسدٌ » كان ذلك تشبيه
 مفردٍ بمفردٍ .

وإذا قلنا في القسم الثاني ما مثلناه به من الخبر النبوي وهو « الكمأة
 جذري الأرض » كان ذلك تشبيه مفردٍ بمركب ، وكذلك بيت البحري^(١)
 وبيت أبي تمام^(٢) المشار إليهما فيما تقدم .

وإذا قلنا في القسم الثالث ما أشرنا إليه من الخبر النبوي أيضاً الذي هو
 « وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم » كان
 ذلك تشبيه مركبٍ بمركب .

وإذا قلنا في القسم الرابع والخامس ما مثلناه به من بيتي الفرزدق^(٣)
 والبخري^(٤) كان ذلك تشبيه مركبٍ بمركب .

-
- (١) البيت الذي يعنيه هو قول البحري :
 غمام سماح لا يغب له حياً ومسعر حرب لا يضيع له وتر
 (٢) بيت أبي تمام المقصود هو قوله :
 أي مرعى عين ووادي نسيب لحبته الأيام في ملجوب
 (٣) يقصد قول الفرزدق في هجاء جرير :
 ماضر تغلب وائل أهجوتها أم بلت حين تناطح البحران
 وكذلك قوله ،
 قوارص تأتيني وتحتقرونها وقد يملأ القطر الإناء فيفعم
 (٤) يعني قول البحري في التعزية بولد ،
 تعز فإن السيف يمضي وإن وهت حمائله عنه وخلاه قائمه

وإذا كان الأمر كذلك وجاءك شيء من التشبيه المضمّر الأداة ، وهو من القسم الأول ، فاعلم أنه تشبيه مفرد بمفرد ، وإذا جاءك شيء من القسم الثاني فاعلم أنه تشبيه مفرد بمركب ، وإذا جاءك شيء من القسم الثالث فاعلم أنه تشبيه مركب بمركب ، وكذلك إذا جاءك شيء من القسم الرابع والقسم الخامس فإنهما من باب تشبيه المركب بالمركب .

وانرجع إلى ذكر ما أشرنا إليه أولاً في تقسيم التشبيه إلى الأربعة الأقسام الأخرى التي هي : تشبيه مفرد بمفرد ، وتشبيه مركب بمركب وتشبيه مفرد بمركب ، وتشبيه مركب بمفرد .

فالقسم الأول منها كقوله تعالى في المضمّر الأداة « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ^(١) » فشبه الليل باللباس ، وذلك أنه يستتر الناس بعضهم عن بعض من أراد هرباً من عدوٍّ ، أو تبتاً لعدوٍّ ، أو إخفاءً مالا يحبُّ الاطلاع عليه من أمره .

وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها إلا القرآن الكريم ، فإن تشبيه الليل باللباس مما اختفى به دون غيره من الكلام المنثور والمنظوم .

وكذلك قوله تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِهِنَّ ^(٢) » فشبه المرأة باللباس للرجل ، وشبه الرجل باللباس للمرأة .

ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ^(٣) » وهذا

(١) سورة النبأ : الآية ١٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٣ .

يكاد ينقله تناسُّبه عن درجة المجاز إلى الحقيقة ، والحِثُّ هو الأرض التي
تُحْرَثُ للزَّرْعِ . وكذلك الرَّحِمُ يُزْدَرَعُ فيه الولدُ اذ ذراعاً كما يُزْرَعُ البَدْرُ
في الأرض .

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : « وآيةٌ لهم الليلُ نَسَلَخُ منه النهارَ ^(١) »
فشبهه بَرَأَ الليلِ من النهارِ بانسِلَاحِ الجِلْدِ عن الجسمِ المسنُوخِ ، وذلك أنه لما
كانت هَوادِي الصُّبْحِ عند طُلُوعِهِ مُلتَحِمَةً بأعجازِ الليلِ أُجْرِيَ عليهما اسمُ
السَّلَخِ ، وكان ذلك أولى من أن لو قيل . « يَخْرُجُ » لأن السَّلَخَ أدلُّ على
الانفصالِ من الإخراجِ ، وهذا تشبيهٌ في غاية المناسَبة .

وكذلك ورد في قوله تعالى : « واشتعلَ الرأسُ شَيْباً ^(٢) » فشبّه انتشارَ

(١) سورة يس : الآية ٣٧ والذي في الآية من قبيل الاستعارة ، فقد
طوى ذكر المستعار له ، قال أبو هلال العسكري في هذه الآية : إن هذا
الوصف إنما هو على ما يتلوح للعين لاعلى حقيقة المعنى ، لأن الليل
والنهار اسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه لغروب الشمس ،
وإضاءته لطلوعها ، وليس على الحقيقة شيئين يسليخ أحدهما من الآخر
إلا أنهما في رأى العين كأنهما ذلك ، والسليخ يكون في الشيء الملتحم
بعضه ببعض ، فلما كانت هودى الصبح عند طلوعه كالملتحمة بأعجاز
الليل أجرى عليها اسم السليخ ، فكان أفصح من قوله : « يخرج » لأن
السليخ أدل على الانفصال المتوهم فيهما من الإخراج (الصناعتين ٢٧٣)
وقد نقل ابن الأثير هذا الكلام بمعانيه وأكثر أنفاظه كما ترى .

(٢) سورة مريم : الآية ٤ وهذه الآية أيضاً من قبيل الاستعارة
قال أبو هلال : قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » حقيقة كثر الشيب
في الرأس وظهر ، والاستعارة أبلغ ، لفضل ضياء النار على ضياء الشيب ، فهو إخراج
الظاهر إلى ما هو أظهر منه ، ولأنه لا يتلاقى انتشاره في الرأس ، كما لا
يتلاقى اشتعال النار (الصناعتين ٢٧٢) .

الشَّيْبُ بِاشْتِعَالِ النَّارِ ، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْبُ يُأْخِذُ فِي الرَّأْسِ ، وَيَسْعَى فِيهِ شَيْئًا
فَشَيْئًا ، حَتَّى يُحْيِلُهُ إِلَى غَيْرِ لَوْ نَهَ الْأَوَّلُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ الَّتِي تَشْتَعَلُ فِي الْجِسْمِ ؛
وَتَسْرَى فِيهِ ، حَتَّى يُحْيِلُهُ إِلَى غَيْرِ حَالِهِ الْأَوَّلَى

وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ شَبَّهُ اتِّشَارَ الشَّيْبِ بِاشْتِعَالِ النَّارِ فِي سُرْعَةِ
النَّهَابِ ، وَتَعَدُّرِ تَلَاوُفِهِ ، وَفِي عَظْمِ الْأَلْمِ فِي الْقَلْبِ بِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَعْدَهُ
إِلَّا الْجُودُ .

فهذه أوصافٌ أربعةٌ جامعةٌ بينَ المشبِّه والمشبَّه به ، وذلك في الغاية
القَصْوَى مِنَ التَّنَاسُبِ وَالتَّلَاوُمِ .

وقد وردَ في الأمثال « اللَّيْلُ جُنَّةُ الْهَارِبِ » وهو تشبيهٌ حَسَنٌ .

وكلُّ ذلك من التشبيه المضمَر الأداة .

ومما ورد منه شعراً قولُ أبي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ (١) .

وَإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَتْ بِحَجْرًا وَإِذَا اهْتَزَّ لِلْوَعَى كَانَتْ نَصَلًا

وَإِذَا الْأَرْضُ أُظْلِمَتْ كَانَتْ شَمْسًا وَإِذَا الْأَرْضُ أُتَحَلَّتْ كَانَتْ وَبَلًا

سُخِّرَ فِي التَّشْبِيهِ هَاهُنَا مَضْمَرٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : كَانَتْ كَأَنَّهُ بَحْرٌ ، وَكَانَ كَأَنَّهُ
نَصْلٌ ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : كَانَتْ كَأَنَّهُ شَمْسٌ ، وَكَانَ كَأَنَّهُ وَبَلٌ .
وهذا تشبيهٌ صُورَةٌ بِصُورَةٍ . وهو حَسَنٌ فِي مَعْنَاهُ .

وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ ؛ وَهُوَ فِي تَشْبِيهِ الْحَبِّبِ (٢) :

(١) ديوان المتنبي ٣ - ١٣٢ . من قصيدة يعزى فيها سيف الدولة
بأخته الصغرى ، ومطلعها :

إِنْ يَكُنْ صَبْرٌ ذِي الرِّزْيَةِ فَضَلًا فَكُنِ الْأَفْضَلَ الْأَعَزَّ الْأَجْلَا

(٢) ديوان أبي نواس ٢٧٥ من قصيدة له أولها :

فَإِذَا مَا اعْتَرَضَتْهُ الْعَيْنُ مِنْ حَيْثُ اسْتَدَارَا
 خِلْتَهُ فِي جَنَبَاتِ الْكَأْسِ وَأَوَاتِ صِفَارَا
 وَهَذَا تَشْبِيهُ صُورَةَ بِصُورَةٍ أَيْضًا . وَقَدْ أُبْرِزَ هَذَا الْمَعْنَى فِي لِبَاسٍ آخَرَ .
 فقال (١) :

وَإِذَا (٢) عَلَاهَا الْمَاءُ أَلْبَسَهَا حَبِيبًا شَبِيهَ جَلَاغِلِ الْحَجَلِ
 حَتَّى إِذَا سَكَنَتْ جَوَاحِظُهَا كَتَبَتْ بِمِثْلِ أَكْرَاعِ النَّمْلِ
 وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْبُحْتَرِيِّ (٣) .

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ فِي نَدَى وَوَعَى
 كَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ تَحْتَ الْعَارِضِ الْبَرْدِ (٤)

وهذا من أحسن التشبيه وأقربه ، إلا أن فيه إخلالا من جهة الصنعة .
 وهي ترتيب التفسير ، فإن الأولى إن كان قدّم تفسير التبسّم على تفسير
 القطوب . بأن كان قال : « كالبرق والرعد (٥) » .

= دَع لِبَاكِهَا الدِّيَارَا وَأَنْفَ بِالْخَمْرِ الْخَمَارَا

وَأَشْرَبْنَهَا مِنْ كَيْتِ تَدَعِ اللَّيْلِ نَهَارَا

(١) ديوان أبي نواس ٣١١ من قصيدة مطلعها :

كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ وَمَحْسَنَ الضَّحِكَاتِ وَالْهَزْلِ

(٢) رواية الديوان « فإذا » .

(٣) ديوان البحتري ٢-١٦ من قصيدة له في مدح أبي نهشل

محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسي ، ومطلعها :

إِنِّي تَرَكْتُ الصَّبِيَّ عَمْدَا وَلَمْ أَكُذِّبْ مِنْ غَيْرِ شَيْبٍ وَلَا عَذْلٍ وَلَا فَنَدٍ

(٤) رواية الديوان .

* وسط العارض البرد *

(٥) والعجب أن ما اقترحه ابن الأثير هو نص رواية الديوان :

* كالبرق والرعد وسط العارض البرد *

فانظر أيها المنتمى إلى الفن . كيف ذهبَ على البحترى مثلُ هذا الموضع
على قُرْبِهِ . معَ تقدُّمِهِ في صناعةِ الشعرِ؟ وليسَ في ذلكَ كبيرُ أمرٍ ، سِوَى أَنْ
كانَ قدَّمَ ما أحرَّ لاغْيَرُ .

وإنَّما يُعذِّرُ الشاعِرُ في مثلِ هذا المقامِ إذا حَكَمَ عليه الوزنُ والقافيةُ ،
وَاضطُرَّ إلى تركِ ما يَجبُ عليه ، وَأما إذا كانتِ الحالُ كالتي ذَكَرَها البحترى
فحينئذٍ لا عُذْرَ له .

وسَيأتى لذلكَ بابٌ مفردٌ في موضعه من هذا الكتاب ، إن شاء اللهُ تعالى ؛
وهو بابُ (ترتيبِ التقسيمِ) .

وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ الْبَحْتَرِيِّ (١) .

فِي مَعْرَكِ ضَنْكِ تَحَالٍ بِهِ الْقَنَا

بَيْنَ الضُّلُوعِ إِذَا انْحَنَيْنَ ضُلُوعًا

وَمَنْ تَشْبِيهِ الْمَفْرَدِ بِالْمَفْرُودِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُنْتَبِيِّ (٢) .

خَرَجْنَ مِنَ النَّعْقِ فِي عَارِضٍ وَمِنْ عَرَقِ الرَّكْضِ فِي وَابِلٍ (٣)

فَلَمَّا نَشَفْنَ لِقَيْنَ السَّيَاطِ بِمِثْلِ صَفَا الْبَلَدِ الْمَاحِلِ (٤)

(١) ديوان البحترى ١/ ١٦٨ من قصيدة في مدح محمد بن يوسف
ومطلعها :

فِيمَ ابْتِدَارِكُمُ الْمَلَامِ وَأَوْعَا أَبْكِيَتْ إِلَّا دَمْتَهُ وَرَبُوعَا
(٢) ديوان المنتبي ٣ - ٢٤ من قصيدة له في مدح سيف الدولة ،
ويذكر فيها استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر ، ومطلعها :

إِلَامَ طَمَاعِيَةِ الْعَاذِلِ وَلَا رَأَى فِي الْحَبِّ لِلْعَاقِلِ
(٣) النقع الغبار ، والعارض السحاب ، والوابل المطر الكثير .
(٤) الصفا الصخر ، والسياط جمع سوط ، والماحل الذي لم يمطر .

وقد حوى هذان البيتان قُرْبَ التَّشْبِيهِ مع بَرَاعَةِ النِّظْمِ ، وَجَزَا لَةِ اللَّفْظِ .

* * *

وأما القسم الثاني : وهو تشبيه المركب بالمركب فما جاء منه مُضْمَرُ الأداة ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث يرويه معاذ بن جبل — رضى الله عنه — وهو حديثٌ طویلٌ (يشتمل على فضائل أعمال متعددة ، ولا حاجة إلى إيراده ها هنا على نصّه ، بل نذكرُ الغرضَ منه ، وهو أنه قال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أُمْسِكْ عَلَيْكَ هَذَا » وأشارَ إلى لسانه ، فقال معاذ « أَوْ نَحْنُ مُؤَاخَذُونَ بِمَا تَكَلَّمُ بِهِ » ؟ فقال : « ثَكَلْتِكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ! وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » .

فقوله : « حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » من تشبيه المركب بالمركب ، فإنه شبه الألسنة وما تمضى فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصدُ النبات من الأرض .

ومما ورد منه شعراً قولُ أبي تمام^(١) :

مَعَشَرَ أَصْبَحُوا حُصُونَ المَعَالِي وَدُرُوعَ الأَحْسَابِ والأَغْرَاضِ

فقوله « حصون المعالي » من التشبيه المركب . وذلك أنه شبههم في منعهم المعالي أن ينالها أحدٌ سواهم بالحصون في منعها من بها وحمايتها ، وكذلك قوله « دُرُوعَ الأَحْسَابِ » .

وأما المظهر الأداة فما جاء منه قوله تعالى « إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ

(١) ديوان أبي تمام ١٨٨ من قصيدة له في مدح أحمد بن أبي دواد

ومطلعها :

بدلت عبرة من الإيماض يوم شدوا الرحال بالأغراض

حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيدت وظن أهلها أنهم قادرون عليها
أناها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس (١) .

فُشِبِّهَتْ حَالُ الدُّنْيَا فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا وَانْقِرَاضِ نَعِيمِهَا بَعْدَ الإِقْبَالِ
بِحَالِ نَبَاتِ الأَرْضِ فِي جَفَافِهِ وَذَهَابِهِ حُطَاماً بَعْدَ مَا التَّفَّ وَتَكَافَفَ
وَزَيْنَ الأَرْضَ .

وَذَلِكَ تَشْبِيهُ صُورَةٍ بِصُورَةٍ . وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ مَا يَجِيءُ فِي بَابِهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِّبِّ
الَّذِي اسْتَوَقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرََّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ
لَا يُبْصِرُونَ (٢) » .

تَقْدِيرُهُ إِنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ بِمَفَازَةٍ ،
فَاسْتَضَاءَ بِهَا مَا حَوْلَهُ ، فَانْتَقَى مَا يَخَافُ وَأَمِينَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ طَفِئَتْ
نَارُهُ بَقِيَ مُظْلِماً خَائِئِماً ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ إِذَا أَظْهَرَ كَلِمَةَ الإِيمَانِ اسْتَتَارَ بِهَا ،
وَاعْتَرَّ بِعِزِّهَا ، وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ ، فَإِذَا مَاتَ عَادَ إِلَى الْخُلُوفِ ، وَبَقِيَ
فِي الْعَذَابِ وَالنَّقْمَةِ .

وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ فِي الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَثَلُ
الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمِثْلِ الأَثْرِجَةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَمِثْلُ
الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمِثْلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَلَا رِيحَ لَهَا ، وَمِثْلُ
الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمِثْلِ الحُنْظَلَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا مُرٌّ » .

وَهَذَا مِنْ بَابِ تَشْبِيهِهِ العَرَكَبِ بِالْمَرَكَبِ . أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) سورة يونس : الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧ .

وسلم شبه المؤمن القارىء ، وهو متَّصِفٌ بصفتين هما الإيمان والقراءة بالانترجة
وهي ذاتُ وصفين ، هما الطَّعمُ والرَّيحُ ، وكذلك يجرى الحكمُ في المؤمنِ غيرِ
القارىءِ ، وفي المنافقِ القارىءِ ، والمنافقِ غيرِ القارىءِ .

وقد جاءني شيءٌ من ذلك أوردتهُ في فصل من كتاب أُصِفُ فيه البرَّ
والمسيرَ ، قُلْتُ : « ولم أزل أُصِلُ الذَّمِيلَ بالذَّمِيلِ ، وألْفُ الضُّحَابِ بالأصِيلِ
والأرضُ كالبَحْرِ في سَعَةِ صدرِهِ ، والمطايا كالجوارى راكِدةً على ظهْرِهِ ،
فكان الرَّكْبُ منها كماكانهم من الأكوار ، ومسيرهم فيها على كُرَّةٍ
لاستقرُّ بها حركةُ الأدوار » .

وأما ماوردَ من ذلك شعراً فكقولِ البُحْتَرِيِّ (١) :
خُلِقَ مِنْهُمْ تَرَدَّدٌ فِيهِمْ وَلِيَّتُهُ عِصَابُهُ عَنْ عِصَابِهِ
كالحَسَامِ الجُرَازِ (٢) يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ وَيُقَى فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابَهُ
وكذلك ورد قولُ ابنِ الرومِيِّ (٣) :

أذْرِكُ ثِقَاتِكَ إِيَّاهُمْ وَقَعُوا فِي نَرْجِسٍ مَعَهُ ابْنَةُ الْعِنَبِ
فَهُمْ بِحَالٍ لَوْ بَصُرَتْ بِهَا سَبَّحَتْ مَنْ عُجِبَ وَمَنْ عَجَبَ
رَيْنِحَانُهُمْ ذَهَبٌ عَلَى دُرِّهِ وَشَرَابُهُمْ دُرٌّ عَلَى ذَهَبِ

(١) ديوان البُحْتَرِيِّ ١ - ١٢٠ من قصيدة في مدح ابن ثوابه ،

ومطلعها :

ان دعاه داعي الهوى فأجابه ورمى قلبه الصبى فأصابه

(٢) الجزار السيف القاطع .

(٣) ديوان ابن الرومى ١٧٦ من قصيدة له في علي بن عبد الله ،

وأول ما في الديوان منها :

يابن المسيب عشت في نغم وسلمت من هلك ومن عطب

وهذا تشبيهٌ صَدِيعٌ . إلا أن تشبيهَ البحرى أضعف ، وذلك أن هذا التشبيهَ صدرَ عن صورةٍ مشاهدةٍ ، وذلك إنما استنبطه استنباطاً من خاطره .

وإذا شئتَ أن تفرِّقَ بين صناعة التشبيه فانظر إلى ما أشرتَ إليه ها هنا فإن كان أحدَ التشبيهين عن صورةٍ مشاهدةٍ والآخر عن صورةٍ غير مشاهدةٍ فاعلم أن الذى هو عن صورةٍ غير مشاهدةٍ أضعف .

ولعمري إن التشبيهين كليهما لا بدّ فيهما من صورةٍ تحكى لكن أحداً منهما شوهدت الصورة فيه فحكيت . والآخر استنبطت له صورة لم تشهد في ذلك الحال . وإنما الفكر استنبطها .

ألا ترى أن ابن الرُّومى نظر إلى النرجس وإلى الخمر فشبهه . وأمّا البحرى فإنه مدح قومًا بأن خلق السباح باقٍ فيهم يثقل عن الأوّل إلى الآخر . ثم استنبطه لذلك تشبيهاً . فأذاه فكره إلى السيفِ وقربه التى تفتى فى كل حين . وهو باق لا يفتى بفنائها . ومن أجل ذلك كان البحرى أضعف . وسأورد هاهنا من كلامى نبذة بسيرة .

فمن ذلك ما كتبتُه من جملة كتاب إلى ديوان الخلافة . أذكر فيه نزول العدو الكافر على ثغر « عكا »^(١) فى سنة خمسٍ وثمانين وخمسمائة . قلتُ :

(١) بلد على ساحل بحر الشام ، كانت قديماً فى غاية الحصانة وقد اختلفت أيدي المتغلبين عليها ، وصارت بيد الفرنج واستنقذها منهم صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم استعادها الفرنج بعد ذلك ، وفى سنة تسعين وستمائة فتحها الملك الأشرف بن الملك المنصور قلاوون ، ونقض بيوتها وأبراجها ، وقتل من بها من الفرنج ، وكان ذلك من فتوح المسلمين العظيمة .

« وأحاطَ بها العدوُّ إحاطةَ الشَّاهِ بِالْمَغُورِ ، ونزلَ عليه نزولَ الظَّلماءِ على النُّورِ » .

وهذا من التشبيهاتِ المناسبةِ .

ثمَّ لما جئتُ إلى ذكر قتالِ المسلمينِ إيَّاهِ وإزالتهِ عن جانبِ الشَّعْرِ قُلْتُ :

« وقد اصطدمَ من الإسلامِ والكفرِ ابناً شَمَامٍ ^(١) والتقى من عَجَاجتِهما ظلامِ ، وعند ذلك أخذَ العدوُّ في التحيُّزِ إلى جانبِ . وكان كحاجبٍ على عينِ . فصارَ كعينٍ في حاجبِ . وإذا تَزَعَزَعَ البناءُ فقد هَوَى . وإذا قُبِضَ منْ طَرَفِ البِساطِ فقد انطوى » وهذا التشبيهُ في مناسبتِهِ كالأولِ . بل أحسنِ .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان . فقلتُ :

« وما شبهتُ كتابه في وُرُودِهِ وانقباضِهِ • إلا بنظر الحبيبِ في إقبالِهِ وأعراضِهِ • وكلا الأمرينِ كالسهمِ في ألمِ وقَعِهِ وألمِ تَزَعَعِهِ . والمَشُوقُ من استوتَ صِبايته في حالَتِي وَصَلَهُ وَقَطَعِهِ . وما أزالُ على وَجَلٍ من إرسالِ كتبه وإجمامِها . واشتباهَ لهما بأمامها » .

وممَّا جاء من هذا القسمِ في الشَّعْرِ قولُ بَكْرِ بنِ الفُطَّاحِ ^(٢) :

(١) ابنا شمام ، هما هضبتان في أصل جبل يقال له شمام ، يضرب بهما المثل في الاقتران والاصطحاب ، قال لبيد :

فهل نبئت عن أخوين داما على الأيام غير ابني شمام

(٢) كان شاعرا حسن الشعر ، كثير التصرف فيه ، وكان صعلوكا يقطع الطريق ، ثم اقتصر عن ذلك ، وكان كثيرا ما يصف نفسه بالشجاعة والإقدام وهو القائل :

تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَالِي كَمَا نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْبِ الْمَلِاحِ
يَحْدُوثُ الْعُيُونُ إِلَى شَذْرًا كَأَنَّ فِي عُيُونِهِمُ السَّمَاحُ
وهذا بديعٌ في حُسْنِهِ ، بليغٌ في تشبيهه .

وعلى هذا التمهيج ورد قول أبي تمام (١) :

خَلَطَ الشَّجَاعَةَ بِالْحَيَاءِ فَأَصْبَحَا كَالْحُسْنِ شَيْبَ لِعُفْرِيمَ بِدَلَالٍ
وهذا من غريب ما يأتي في هذا الباب ، وقد تغالت شبيعةُ أبي تمام في وصف هذا البيت . وهو لعفري كذا .

ومن هذا القسم أيضاً قوله (٢) :

= هنيئاً لإخواني ببغداد عيدهم وعيدي بحلوان قراع الكتائب
وأشدها أبادلف ، فقال له إنك لتصف نفسك بالشجاعة وما رأيت
عندك ذلك أثراً ، فقال : أيها الأمير ، وما ترى عند رجل حاسر
أعزل ؟ فقال : أعطوه سيفاً ورمحاً ودرعاً ، فأعطوه ذلك أجمع ،
فأخذه وركب الفرس وخرج على وجهه فلقيه مال لأبي دلف يحمل
إليه من بعض ضياعه ، فأخذه وجرح جماعة من غلماناه ، فهربوا
وسار بالمال ، فلم ينزل إلا على عشرين فرسخاً ، فلما اتصل خبره
بأبي دلف قال : نحن جنينا على أنفسنا وكنا أغنياء عن إهاجته ، لو كتب
إليه بالأمان ، وسوغه المال ، وأمره بالقدوم ، فرجع ، ولم يزل يمدحه حتى
مات .

(١) ديوان أبي تمام ٢٦٩ من قصيدة له في مدح المعتصم ، ويذكر
أخذ بابك ، ومطلعها :

ألت أمور الشرك شر مال وأقر بعد تخمط وصيال

(٢) ديوانه ١٥١ من قصيدة يمدح فيها المعتصم . ويذكر لإحراق
الأفشين ، ومطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

كَمْ نِعْمَةٍ لِّلهِ كَانَتْ عِنْدَهُ
فَكَانَهَا فِي غُرْبَةٍ وَإِسَارٍ
كَسَيْتَ سِبَائِبَ لَوْثِهِ فَتَضَاهَلَّتْ
كَتَضَاوِلَ الْحَسَنَاءِ فِي الْأَطْمَارِ (١)

وكذلك قوله (٢) :

صَدَقْتَ عَنْهُ وَلَمْ تَصْدِرْ مُوَاهِبِيهِ عَنِّي وَعَاوَدَهُ ظَنِي فَلَمْ يَجِبِ
كَالْفَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَأَفَاكُ رَيْقِهِ وَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لِحٍّ فِي الطَّلَبِ
وعلى هذا الأسلوب ورد قول علي بن جبلة :

إِذَا مَا تَرَدَّى لِأَمَّةِ الْحَرْبِ أُرْعِدَتْ
حَسَا الْأَرْضِ وَاسْتَدَمَى الرِّمَاحُ الشَّوَارِعَ
وَأَسْفَرَ تَحْتَ النَّعْمِ حَتَّى كَانَهُ
صَبَاحٌ مَشَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ طَالِعُ

وقد أحسن علي بن جبلة في تشبيهه هذا كل الإحسان . وكمثله في الحسن
قوله أيضاً في تشبيهه الحبيب فوق الحجر :

تَرَى فَوْقَهَا نَمَشًا لِلْمَزَاجِ تَبَاذِيرَ لَا يَتَّصِلْنَ اتِّصَالًا
كَوَجْهِ الْعَرُومِ إِذَا خَطَّطَتْ عَلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهُ حَالًا

(١) السبائب جمع سببية ، وهي شقة رقيقة ، تضاعلت أخفت
شخصها وتصاغرت ، والأطمار الثياب البالية .

(٢) ديوانه ١٦ من قصيدة له في مدح الحسن بن سهل ، وأولها :
أبدت أسى أن رأيتي مخلص القصب وآل ما كان من عجب إلى عجب
ومخلص القصب ، أى في قصب شعره — وهي خصلة — سواد وبياض

ومن هذا القسم قولُ مُسلم بن الوليد .

تلقى المنية في أمثال عذتها كالسَّيلِ بقذفِ جُمُوراً بجمود^(١)
وعلى هذا الأسلوب وردَ قول العباس بن الأحنف^(٢) .

لأجزى الله دمعَ عيني خيراً وجزى الله كُلاًّ خيرَ لسانِي
نمّ دمي فليس يكتم شيئاً ووجدتُ اللسانَ ذا كتمانِ
كنتُ مثلَ الكتابِ أخفاهُ طيًّا فاستدلُّوا عليه بالغووانِ

وهذا من اللطيف البديع

ويُروى أنَّ أبا نُوَاسٍ لما دخلَ مضرَ مادِحاً للخصيبِ جالسٍ يوماً في رهطٍ
من الأدباء ، وتذكروا منارةَ بغداد ، فأنشدَ مرتجلاً .

ذكَرَ الكَرخَ نازِحُ الأوطانِ فصبا صبوةً ولاتَ أوَان^(٣)

(١) من قصيدة له في مدح دواد بن حاتم بن خالد المهلب ، ومطلعها :
لاتدع بي الشوق إني غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعايد
(٢) هذه الأبيات منسوبة في الأمالي (٢٠٩/١) لأبي نواس ، قال القالي :
وكان أبو بكر بن دريد يستحسن قول أبي نواس في هذا المعنى «لاجزى الله دمع
عيني ... الأبيات» وكتب بهامش أصله «هذه الأبيات للعباس بن الأحنف .
وفي كتاب «التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه» ٦٦ مانصه «قال أبو علي :
وكان ابن دريد يستحسن قول أبي نواس : «لاجزى الله دمع عيني خيراً ..»
وهذا الشعر للعباس بن الأحنف بلا اختلاف ، وهو ثابت في ديوان ابن الأحنف
(٣) ديوان أبي نواس ٩٧ وهو مطلع قصيدة له في مدح الخصيب بن
عبد الحميد العجمي ثم المرادي ، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء ،
وأيس بابن صاحب نهر أبي الخصيب ، ذلك عبد للمنصور يقال له
«مرزوق» . وكان هذا رئيساً في أرضه ، فانتقل إلى بغداد ، وصار كاتب
مهرويه الرازي ، ثم انتقل إلى الإمارة . وفي الأصل «الكرج» بالميم موضع
«الكرخ» وهو تصحيف .

ثم أتم ذلك قصيداً مدح به الخصب ، فلما عاد إلى بغداد دخل عليه
العباس بن الأحنف ، وقال : أنشدني شيئاً من شعرك بمصر ، فأنشده :

* ذكر الكرخ نازح الأوطان *

فلما استتم الأبيات قال له . لقد ظلمك من ناواك ، وتخلف عنك من
جاراك ، وحرام على أحد يتفوه بقول الشعر بعدك !

فقال له أبو نواس . وأنت أيضاً يا أبا الفضل تقول هذا ؟ أأنت القائل .

* لاجزى الله دمع عيني خيراً *

وأنشد الأبيات ، ثم قال . ومن الذي يُحسِن أن يقول مثل هذا ؟

* * *

ومن تشبيه المركب بالمركب قول البحرى (١) .

جدة يذود البخل عن أطرافها كالبحر يمنع مدحه عن مائه

وهذا من محاسن التشبيهات .

وكذلك ورد قوله (٢) .

وتراه في ظلم الوغى فتخأله

قراً يكره على الرجال بكونه

(١) ديوان البحرى ٢ - ٤٠ من قصيدة له في مدح يوسف بن

محمد ، أولها :

ياغاديا والشعر خلف مسائه يصل السرى بأصيله وضحائه

(٢) ديوانه ٢ / ١٣٤ من قصيدة يمدح فيها مالك بن طوق ، وطلعها :

رحلوا فأية عبرة لم تسكب أسفاً ؟ وأى عزيمة لم تغاب ؟

ورواية الديوان « قمرًا يشد على الرجال »

وفي هذا البيت تشبيه بثلاثة أشياء بثلاثة أشياء . فإنه شبه العجاج بالظلمة ،
والمذوح بالقمر ، والسنان بالكوكب ، وهذا من الحسن النادر .

وكذلك ورد قوله (١) .

يَمْشُونَ فِي زَغَفٍ كَانَ مَتُونَهَا فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ مُتُونِهَا (٢)
بِيضٌ تَسِيلُ عَلَى الْكِمَاةِ نُصُولَهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بِيْدَاءِ (٣)
فَإِذَا الْأُسْنَةُ خَالَطَهَا خِلَاتُهَا فِيهَا خِيَالٌ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ

فالبيتان الاخيران هما اللذان تضمننا تشبيه المركب بالمركب . وإنما جئنا
بالبيت الأول سياقةً إلى معنأهما . وهو من التشبيه الذي أحسن فيه البحترى
وأغرب .

ومن هذا الباب ماورد لبعض الشعراء في وصفِ الحرِّ . فقال :

كَانَتْ سِرَاجُ أَنْاسٍ يَهْتَدُونَ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ قَبْلَ النَّارِ وَالنُّورِ
تَهْتَرُ فِي الْكَأْسِ مِنْ ضَعْفٍ وَمِنْ هَرَمٍ
كَأَنَّهَا قَبَسٌ فِي كَفِّ مَقْرُورٍ

وقد يندر للناظم أو الناثر شيء من كلامه يبلغ الغاية التي لا أمد فوقها .
وهذان البيتان من هذا القبيل .

(١) ديوانه ٢٢٧/٢ من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد يوسف ،

ومطلعها :

زعم الغراب منبئ الأنباء أن الأحبسة آذنوا بتناء
(٢) الزغف اسم جنس جمعي واحدة زغفة ، وهي الدرع ، والنهاء جمع
نهي بكسر فسكون ، وهو الغدير .

(٣) رواية الديوان « بيض تسيل على الكمأة فضوؤها ، وهي أجود .

ومن أغرب ماسمعه في هذا الباب قولُ الحسين بن مطير^(١) يرثي معن ابن زائدة .

فَتَى عَيْشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ جَرَاهُ مَرْتَعًا^(٢)

* * *

القسم الثالث : في تشبيه المفرد بالمركب :

فَمَا وَرَدَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ^(٣) » .

وكذلك قوله تعالى : « مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ^(٤) » .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمنُ استنجاداً فقلتُ :

« وَهُوَ إِذَا اسْتَصْرَخَ أَصْرَخَ بَعْزَمٍ كَالشُّهَابِ فِي رَجْمِهِ . وَهَمَّ كَالْقَوْسِ الْمَمْتَلِئِ بِنَزْعِ سَهْمِهِ . وَبَرَى أَنْ صَرِيحَهُ لَمْ يُخْبِ . وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُجِبْهُ بِالسَّيْفِ

(١) سماه في الأغاني الحسين بن مطير بن مكمل وأنه مولى لبنى أسد بن خزيمة ثم لبنى سعد بن مالك بن ثعلبة ، وهو شاعر إسلامي فصيح متقدم الزجر والقصيد ، يعد من فحول المحدثين ، وكلامه يشبه كلام الأعراب وأهل البادية ، ويمائل مذهبهم ، أدرك بنى أمية وبنى العباس ، ووفد على معن بن زائدة الشيباني لما ولي اليمن مادحاً فأجزل صلته .

(٢) ديوان الحماسة ١ / ٣٩٥ من أبيات أولها :

ألماع على معن وقولا لقبه سقتك الغواذي مربعاً ثم مربعا

(٣) سورة النور : الآية ٣٥

(٤) سورة إبراهيم : الآية ١٨

فكانه لم يُحِب . فهو مُغرَى جواده وحُسامه . ومُسَمَّع العدو صرير رُمحه
قبل قفَعَةِ لجامه .

وكذلك أيضاً ما كتبتُه في كتابٍ إلى بعض الإخوان أذمُّ الفِراقَ .

قلت :

« والفِراقُ شئٌ لا كالأشياء . وصاحبُه ميتٌ لا كالأموات . وحيٌّ
لا كالأحياء . وما أراه إلا كمنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة .
وما يجعلُ صاحبها في ضَحَضاحِ منها إلا تواتر الكتب التي تقيه بعض الوفاء .
وتقومُ له — وإن لم يُسَقَ — مقامَ الإِسْتِقاء . »

وأما ماورد منه في الشعر فقول أبي نواس (١) .

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت

له عن عدوِّ في ثياب صديق

وكذلك قول أبي تمام يصف قصيداً له (٢) .

خذها مثقفة القوافي ربها لسوابغ النعماء غير كنود (٣)

(١) ديوان أبي نواس ١٩٢ من أبيات خمسة أولها :

أيارب وجه في التراب عتيق ويارب حسن في التراب رقيق

(٢) ديوان أبي تمام ٨٥ من قصيدة له في مدح عبد الله أحمد بن أبي داود .

مطلعها :

أرأيت أي سوائف وخذود غنت لنايين اللوى فزود

(٣) بين هذا البيت والبيت الذي بعده بيتان هما :

حذاء تملأ كل أذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد

كالطعنة النجلاء من يد نائر بأخيه أو كالضربة الأخدود

كالدُرِّ والمرجانِ ألفَ نظمُهُ بالشذْرِ في عنقِ الفتاةِ الرُّودِ (١)
وكذلك ورد قول البُحْتَرِيِّ وهو من جملة قصيدته المشهورة التي وصف
فيها الفرسَ والسيفَ : وأولها .

* أهلاً بذليكم الخيالِ المقبِلِ (٢) *

فقال فيها من أبياتٍ تَضَمَّتْ وصفَ السيفِ بيتاً أجادَ في تشبيهه :
وكانما سُودُ النِّمالِ وحُمُرُها دَبَّتْ بأيدي في قواه (٣) وأرجلِ
فشبه فرِندَ السيفِ بديبب النمل سودها وحُمُرُها ، وذلك من التشبيه
الحسن .

وأما ما ورد منه مضمراً الأداة ، فكقول النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد
سُئِلَ عن العزْلِ ، فقال : « هو الوأدُ الخفيُّ » وهذا تشبيهٌ بليغٌ « والوَأدُ » هو
ما كانت العربُ تفعله في دفنِ البناتِ أحياءَ ، فجعل العزْلَ في الجِماعِ كالوَأدِ ،
إلا أنه خفيٌّ ، وذلك أنهم كانوا يفعلون بالبناتِ ذلك هرباً منهنَّ ، وهكذا من
يعزّل في الجِماعِ ، فإنما يفعلُ ذلك هرباً من الولدِ .

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « هو الوأدةُ الصُّغرى » وهذا من
الحُسْنِ إلى غايةٍ تفضُّ لها العيونُ طرفَها ، ولا ينتهي الوصفُ إليها فيكون
تركٌ وصفها كوصفها .

(١) رواية الديوان « في عنق الكعاب » والشذر قطع الذهب ، والرود
الجارية الناعمة .

(٢) ديوان البُحْتَرِيِّ ٢/٢١٧ صدر مطلع قصيدة له في مدح محمد بن عيسى
القمي ، وعجز البيت :

* فعل الذي نهواه أولم يفعل *

(٣) رواية الديوان ٢/٢١٩ « في قراه » بالراء ، والقرا الظهر .

ومما جاءني من ذلك فصل من جملة كتابِ ضمنتُهُ وصفِ القلم ، قلت :
 « جُدِعَ أنْفُهُ فصارَ في الكَيْدِ قصيراً ، وأرْهِفَ صدرُهُ فصارَ في المضاءِ
 عضباً شهيراً ، وقُمَصَ لبَّاسَ السَّوادِ ، وهو شعارُ الخطباءِ ، فنطقَ بفصلِ
 الخطابِ ، ونكَّسَ رأسَهُ . وهي صورةُ الإذلالِ . فاختالَ في مشيهِ من
 الإعجابِ . وأوحى إليه بنجوى الخواطرِ . وهو الأصمُّ . فأفضى بما سمِعَهُ
 إلى الكتابِ » .

وهذه الأوصافُ غريبةٌ جداً . ومن أغربها ذكرُ « قصيرِ » عندِ
 جُدِعِ الأنفِ .

* * *

وأما القسم الرابع وهو تشبيه المركب بالمفرد :

فإنَّه قليلُ الاستعمالِ بالنسبةِ إلى الأقسامِ الثلاثةِ . وليسَ ذلك إلا لعدمِ
 النظيرِ بين المشبَّه والمشبَّه به .

وعلى كثرةِ محافظتِهِ من الأشعارِ لم أجد ما أمثل به هذا القسمِ إلا مثلاً
 واحداً . وهو قولُ أبي تمامٍ في وصفِ الربيعِ (١) :

يا صاحبيَّ تَقَصِّيا نظريكما تَرياً ووجوهَ الأرضِ كيفَ تُصوِّرُ
 تَرياً نهراً مُشمِساً قد شابَهُ زهرُ الرُّبَا فكأنما هو مُقَمَّرُ
 فسبَّه النهارَ المشمسِ مع الزهرِ الأبيضِ بضوءِ القمرِ . وهو تشبيهٌ حسنٌ
 واقعٌ في موقعه مع ما فيه من لُطفِ الصنعةِ .

ولربما اعترضَ في هذا الموضعِ معترضٌ . وقال : إنَّك أوردتَ هذا

(١) ديوان أبي تمام ١٥٧ من قصيدة له في مدح المعتصم ، ومطلعها :
 رقت حواشي الدهرِ فهي تمرمرٌ وغدا الثرى في حليه يتكسر

القسم من التشبيه . وذكرت أنه قليل . وليس كذلك !؟ فإن تشبيه شَيْئَيْن
بشيء واحدٍ كثيرٌ . كقول أبي الطيب المتنبي (١) .

تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُمْ كَأَنَّهَا فِي نُفُوسِهِمْ شَيْمٌ
فَشَبَّهَ إِشْرَاقَ الْأَعْرَاضِ وَالْوَجُوهِ بِإِشْرَاقِ الشَّيْمِ .

الجواب عن ذلك أنني أقولُ . هذا البيت المعترض به على ما ذكرته
ليس كالذي ذكرته . فإني أردتُ أن يشبّه شيطانَهما كشيء واحدٍ في الاشتراك
بشيء واحد .

ألا ترى أن نور الشمس مع بياض الزهر — وهما شيطان مُشتركان —
قد شُبَّها بضوء القمر . وأما هذا البيت الذي لأبي الطيب المتنبي فإنه تشبيهُ
شيطانين كلُّ واحدٍ منهما مفردٌ برأسه شيء واحد . لأنه شبّه إشراقَ الأعراضِ
وإشراقَ الوجوه بإشراقِ الشَّيْمِ . وهذا غير ما أردته أنا .

لكن ينبغي أن تعلم أن تشبيه المركب بالمفرد ينقسم قسمين .

أحدهما . تشبيه شيطانين مشتركين بشيء واحدٍ ، كالذي أوردته لأبي تمام .
وهو قليلُ الاستعمال .

(١) ديوان المتنبي ٥٨/٤ من قصيدته في مدح علي بن إبراهيم التنوخي ،

مطلعها :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم
قال أبو الفتح بن جني : سألته — المتنبي — عن معنى هذا البيت ، فقال :
أحق ما صرفت إليه بكاءك همم الناس ، لأنها قد عفت ودرست ، فصار
أحدثها عهداً قديماً . وقال الخطيب : أحق عاف بأن يبكي عليه همم
الكرام ، لأنها عفت كما تعفو الربوع فهي أحق بدمعك من كل الدارسات ،
وجعل القدم أحدث الأشياء عهداً بالهمم ، أي دروسها قديم ، فلا همم في الأرض .

والآخر . تشبيهُ شيئين منفردين بشيء واحد . كالَّذِي ذَكَرْتَهُ أَنْتَ
لَأَبِي الطَّيِّبِ التَّنَظِّي . وهو كثيرُ الاستعمال .

من معيب التشبيه :

وإذ ذكرنا أقسامَ التشبيه . وبيننا الحمودَ منها الذي ينبغي اقتفاء أثره .
وأتباع مذهبه . فلتنبه بوضعه . مما ينبغي اجتنابه . والإضرابُ عنه .

على أنه قد قدمنا القولَ بأنَّ أحدَ التشبيه هو « أن يثبتَ للمشبه حكمٌ
من أحكام المشبه به » . فإذا لم يكن بهذه الصفة ؛ أو كان بين المشبه والمشبه
به بعدُ فذلك الذي يطرحُ ولا يُستعمل ؛ والذي يرد منه مضمرة الأداة
لا يكونُ إلا في القسم الواحد من أقسام المجازي ؛ وهو التوسع ؛ وقد قدِّمت
القولَ في ذلك في أول باب (الاستعارة) وضربتُ له أمثلةً منها قولُ
أبي نواس .

مَا رَجَلَ الْمَالِ أَمَسَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ الْكَلَالَا

فجعل للمال رجلاً ؛ وذلك تشبيهٌ بعيدٌ ؛ ولا حاجة إلى إعادة ذلك الكلام
ههنا بجملته (١) ؛ لكن قد أشرت إليه إشارةً خفيفةً .

ومن أقبح ما سمعته من ذلك قول أبي تمام (٢) .

وَتَقَاسَمُ (٣) النَّاسُ السَّخَاءَ مَجْزَأً وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَمَامِهِ
وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ الْإِهَابَ وَمَا بَقِيَ مِنْ فَرَثِهِ (٤) وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

(١) أنظر كلامه بجملته في صفحة ٧٩ وما بعدها من هذا القسم .

(٢) ديوان أبي تمام ٢٩٨ من قصيدة له في مدح أبي سعيد ، وأولها :

قل للأمير أبي سعيد ذى الندى والمجد زاد الله في إكرامه

(٣) رواية الديوان « وتقسم »

(٤) الإهاب الجلد ، والفَرث السرجين في الكرش .

والتبجح الفاحشُ في البيتِ الثاني .

وكلُّ هذا التعسفُ في التشبيهِ البعيدِ دندنةٌ حول معنى ليسَ بِباطلٍ ؛
فإنَّ غرضه أن يقول . ذَهَبَ بالأعلى ؛ وترك للناس الأذنى ؛ أو ذَهَبَتْ بِالْجَيْدِ ؛
وَتَرَكْتَ للناس الرَّدَى .

وقد عيب عليه قوله (١) :

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنِّي صَبَّ قَدْ اسْتَعَذَبْتُ مَاءَ بَكَائِي

وقيل : إنَّه جعل للملام ماء ، وذلك تشبيهٌ بعيدٌ ، وما بهذا التشبيه عندي
من بأسٍ ، بل هو من التشبيهاتِ المتوسطة التي لا تُحمد ولا تذمُّ ، وهو قريبٌ
من وجه ، بعيدٌ من وجه .

أما سببُ قرْبِهِ فهو أنَّ الملامَ هو النولُ الذي يعْتَف به المولوم لأمرٍ
جناه ؛ وذلك مختصٌّ بالسمع ، فنقله أبو تمام إلى السُّقْيَا التي هي مختصةٌ
بالخلق ؛ كأنه قال : لاندقني الملام ، ولو تهيتاً له ذلك مع وزن الشعر لكان
تشبيهاً حسناً ، لكنه جاء بذكر الماء ؛ فخط من درجته شيئاً ؛ ولما كانَ
السمعُ يتجرع الملامَ أولاً أولاً كتجرع الحلقِ الماءَ صار كأنه شبيهٌ به ؛
وهو تشبيهه معنى بصورة .

وأما سببُ بعدِ هذا التشبيه فهو أنَّ الماءَ مُستلذٌّ ؛ والملامَ مستكرةٌ ؛
فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه .

(١) ديوان أبي تمام ٣ والبيت ثانی أبيات قصيدة له في مدح يحيى بن ثابت ،

ومطلعها :

فدك انتب أربيت في الغلواء كم تعدلون وأنتم سجراني

فهذا التشبيه إنْ بَعْدَ من وجهٍ فقد قُرِبَ من وجهٍ ؛ فيُنْفَرُ هذا لهذا ؛
ولذلك جماعته من التشبيهات المتوسّطة التي لا تُحمد ولا تذمُّ .

وقد رُوِيَ — وهو روايةٌ ضعيفةٌ — أَنَّ بعضَ أهلِ الجبانةِ أرسلَ إلى
أبي تمامٍ فارورةً ؛ وقال : إبعثْ في هذه شيئاً من ماءِ الملام ! فأرسلَ إليه
أبو تمامٍ ؛ وقال : إذا بعثتُ إلى ريشةٍ من « جناحِ الذلِّ » بعثتُ إليك شيئاً
من ماءِ الملام !

وما كان أبو تمامٍ ليذهب عليه الفرقُ بينَ هذينَ التشبيهِينَ ؛ فإنه ليس
جعلَ الجناحَ للذِّلِّ كجعلِ الماءِ للملام ، فإنَّ الجناحَ للذِّلِّ مناسبٌ ؛ وذلكَ أنَّ
الطائرَ إذا وَهَنَ أو تَعِبَ بَسَطَ جناحه وخَفَضَهُ ، وألْقَى نَفْسَهُ على الأرضِ ،
وللإنسانِ أيضاً جناحٌ ؛ فإنَّ يديهَ جناحاه ، وإذا خضعَ واستكانَ طأطأ من
رأسِهِ وخفضَ من يديه . فحسُنَ عند ذلكَ جعلُ الجناحِ للذلِّ ، وصارَ تشبيهاً
مناسباً ، وأما الماءُ للملام فليسَ كذلكَ في مُناسبةِ التشبيهِ .

وأما التشبيهُ المضمَرُ الأداةُ من هذا البابِ فقد أوردتُ له أمثلةً يستدلُّ بها
على أشباهِهِ وأمثاله ، فإنَّ لذكرِ المثالِ فائدةً لانتكونَ لذكرِ الحدِّ وحده .
فمن ذلكَ قولُ بعضهم :

ملا حاجبيك الشيبُ حتى كأنه ظبَاءُ جرتَ منها سنيحٌ وبارحُ

وكذلكَ قولُ الآخرِ يصفُ السهمَ :

كسَاهَا رطيبَ الرِّيشِ فاعتدلتْ له قِداحٌ كأعناقِ الظبَاءِ القوارقِ

فإنَّه شَبَّهَ السهمَ بأعناقِ الظبَاءِ ، وذلكَ من أبعَدِ التشبيهِاتِ .

وعلى نحوِ منه قولُ الفرزدقِ (١) :

(١) ديوان الفرزدق ٢ / ٧١٥ من قصيدته التي أولها :

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتسا دعائمه أعز وأطول

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ

جُرْبُ الْجَمَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمَشْعَلُ (١)

فشيبه الرجال في دروع الزرّاد بالجمال الجرب ، وهذا من التشبيه البعيد ؛
لأنّه إن أراد السواد فلا مقارنة بينهما في اللون ، لأن لون الحديد أبيض ،
ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ، ومع كون هذا التشبيه بعيداً فإنّه
تشبيه سخيف .

ومن التشبيهات الباردة قول أبي الطيب المتنبي (٢) :

وجرى على الورق النجيعُ القاني (٣)

فكأنه النارنجُ في الأغصانِ

وهذا تشبيه ينكره أهل التجسيم ، وإذا قُسمت التشبيهات بين البعد
والبرد حاز طرفي ذلك التقسيم .

وأشبع من هذا قول أبي نواس (٤) في الخمر :

(١) الكحيل القطران ، وحلق الحديد الدروع ، والمشعل الحديدية
التي يحرق بها الجلد ، ويروى « كأنهم » موضع « كما مشت »
(٢) ديوان المتنبي ٤ / ١٨٤ من قصيدة له في مدح سيف الدولة ،
أولها :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثاني

(٣) النجيع الدم ، والقاني الأحمر الشديد الحمرة .

(٤) لم أجد هذا البيت والبيت الذي بعده في ديوان أبو نواس ، ولعلهما

من جملة الأبيات التي وردت في ديوانه (٣٤٩) وهى :

أأدميت بالماء القراح جبينها يسمع في صحن الزجاج أنينها

فتمت سمعت أذنك عند مزاجها أنينا وألحانا تجيب دنينها =

كَانَ بَوَاسِرًا^(١) رَوَاكِدُ حَوْلَهَا وَزُرْقَ سَنَانِيرٍ تُدِيرُ عُيُونَهَا
والعجبُ أنه يقولُ مثل هذا الفث الذي لاملامة بينه وبين ماشبه به ،
ويقرنه بالبديع الذي أحسن فيه وأبدع ، وهو :

كَانًا حُلُولٌ بَيْنَ أَكْنَافِ رَوْضَةٍ

إِذَا مَا سَلَبْنَاهَا مَعَ اللَّيْلِ طِينَهَا

فانظر كيف قرن بين وردة وسعدانة ، لا بل بين بقرعة ومرجانة .
وقد أكثر في تشبيه الخمر ، فأحسن في موضع وأساء في موضع ، ومن
إساءته قوله أيضاً في أبيات لامية^(٢) :

وَإِذَا مَا الْمَاءُ وَقَعَهَا أَظْهَرَتْ شَكْلًا مَنِ الْقَزَلِ

لُؤْلُؤَاتٍ يَنْحَدِرْنَ بِهَا كَانْحِدَارِ الذَّرِّ مِنْ جَيْلٍ^(٣)

= فصنها عن الماء القراح وهاتها
بأنية مخروطة من زبرجد
بكف تكاد الكأس تدمى بنانها
كان رجال الهند حول إنانها
فانك إن لم تسقى مت دونها
تخير كسرى خرطها ليصونها
إذا أزعج التحريك منها سكونها
عكوف على خيل تدبير متونها
(١) هكذا في الأصل ، ولم أف هذه الكلمة على معنى ، ولكني رأيت
في القاموس (١/٣٨٢) أن البياسرة جيل بالسند تستأجرهم النواخذة لمحاربة
العدو الواحد بيسرى . والنواخذة هم أهل السفن ، فلعل البواسار منها ، ويرجح
هذا ذكره « رجال الهند » في آخر أبيات الديوان المذكورة في الهامش السابق :

(٢) ديوان أبي نواس ٣١٧ من قصيدة أولها :

يَا مَبِيحَ الدَّمْعِ فِي الظَّلْلِ رَاكِبًا مِنْهُ إِلَى أَمَلِ

(٣) رواية الديوان في الشطر الثاني هكذا :

* كَانْحِدَارِ الدَّمْعِ فِي عَجَلِ *

ولامعنى لاعتراض المؤلف على هذه الرواية .

فشبهه الحَبَبَ في انحداره بَنَمْلٍ صغارٍ يَنجدر من جَبَلٍ ، وهذا من البُعْدِ
على غايةٍ لا يحتاجُ إلى بيانٍ وإيضاحٍ .

* * *

وأعلم أنَّ من التشبيه ضرباً يسمَّى « الطرد والعكس » وهو أن يُجَعَلَ
المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به وبعضهم يسمِّيه « غلبة الفروع على الأصول ^(١) »
ولا تجد ^(٢) شيئاً من ذلك إلا والغرضُ به المبالغةُ ، فمَّا جاء من ذلك قولُ
ذِي الرِّمَّةِ ^(٣) :

ورمَلِ كَأردافِ العَدَارِي قطعُهُ إِذَا أَلِيسَتُهُ المَظلماتُ الحَنادِسُ ^(٤)
أَلاترى إِلى ذى الرِّمَّةِ ^(٥) كيف جَعَلَ الأَصَلَ فرعاً والفرعَ أَصلاً ، وذلك

(١) أنظر الخصائص لابن جني ٣٠٨/١ وقد نقل ابن الأثير كلامه
كما ترى .

(٢) في الخصائص « ولا تكاد تجد » قال ابن جني : هذا فصل من
فصول العربية ظريف تجده في معاني العرب كما تجده في معاني الأعراب ،
ولا تكاد تجد . الخ .

(٣) هو غيلان بن عقبة بن نهيس ، من مضر ، ومن الشعراء المتيمين
وصاحبه ميم بنت مقاتل المنقرى ، كان كثير المدح لبلال بن أبي بردة بن
أبي موسى الأشعري وقيل إنه استسقى مرة فخرجت له « مية » وكانت بارعة
الجمال ، وكان على كتفه رمة — قطعة جبل بالية — فقالت له :
شرب ياذا الرمة ، فلزمته هذه الكنية منذ ذلك ، وازمه حب مية
من هذه النظرة .

(٤) من قصيدة لذي الرمة مطلعها :

ألم تسأل اليوم الرسوم السوارس بجزوى ؟ وهل تدرى القفار البسابس ؟

(٥) في الخصائص « أفلاترى ذا الرمة . » وقد تصرف ابن الأثير

في كثير من المواضع في هذا النص .

أن العادة والعرف في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكُشبان الأَنْقاء (١) ، وهو مطرد في بابيه ، فعكس ذو الرمة القصة في ذلك ، فشبه كُشبان الأَنْقاء بأعجاز النساء ، وإنما فعل ذلك مبالغة ؛ أي قد ثبت هذا الموضوع وهذا المعنى لأعجاز النساء ، وصار كأنه الأصل ، حتى شُبّهت به كُشبان الأَنْقاء ، وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى (٢) :

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تمنّيها (٣)
وكذلك ورد قول عبد الله بن المعتز في قصيدته المشهورة التي أولها :

* سقى المطيرة ذات الطل والشجر (٤) *

قال في تشبيه الهلال :

ولاح ضوء قميرٍ كاد يفضحنا مثل القلام قد قُدت من الظفر
ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار كأنه هو الأصل ، وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ .
وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب « الخصاص » وأورده هكذا مهملاً .

(١) الأَنْقاء جمع نقا ، وهو من الرمل القطعة تنقاد محدودة ، وهما نقوان ونقيان ، والجمع أَنْقاء ونقي « بضم فكسر » .

(٢) ديوان البحترى (٢٣/١) من قصيدة له في مدح المتوكل مطلعها :

أنافعى عند ليلي فرط حبيها واوعة لى أبلديها وأخفيها

(٣) روى صدر البيت في الديوان هكذا :

* في حمرة الورد شكل من تلبهها *

(٤) هذا صدر البيت وعجزه .

* ودير عبدون هطال من المطر *

ولما نظرتُ أنا في ذلك ، وأنعمتُ نظري فيه تبين لي ما أذكره ، وهو أنه قد تقرر في أصل الفائدةِ المُستنتجة من التشبيه أن يشبه الشيء بما يطلقُ عليه لفظةُ « أفعل » أي يشبهه بما هو أبين وأوضح ، وبما هو أحسن منه أو أفتح ، وكذلك يشبه الأقلُّ بالأكثر ، والأدنى بالأعلى .

وهذا الموضع لا ينقضُ هذه القاعدة ، لأنّ الذي قدّمنا ذكره مطرّدٌ في بابه ، وعليه مدار الاستعمال . وهذا غير مطرّد . وإنما يحسن في عكس المعنى المتعارف . وذلك أنّ تجملَ المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به . ولا يحسن في غير ذلك مما ليسَ بمتعارفٍ .

ألا ترى أنّ من العادة والعرف أن تشبه الإعجازُ بالكتبان . فلما عكسَ ذو الرّمة هذه القضية في شعره جاء حسناً لايقاً ؟ وكذلك فعلَ البحرى . فإنّ من العادة والعرف أن يشبه الوجهُ الحسنُ بالبدر . والقُدُّ الحسنُ بالقضيب . فلما عكسَ البحرى القضية في ذلك جاء أيضاً حسناً لايقاً ؟

ولو شبه ذو الرّمة الكتبانَ بما هو أصغرُ منها غير الإعجاز لما حسُن ذلك .

وهكذا لو شبه البحرى طلعةَ البدرِ بغير طلعةِ الحسناء . والقضيبَ بغير قُدّها لما حسُن ذلك أيضاً .

وهكذا القولُ في تشبيه عبد الله بن المعتزِّ صورة الهلالِ بالقلامه . لأنّ من العادة أن تشبه القلامه بالهلال ، فلما صار ذلك مشهوراً متعارفاً حسنَ عكسِ القضيّة فيه (١) .

(١) هذا نهاية الجزء الأول من النسخة الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية بخط أبي المكارم بن منصور الباشا وشنای الموصلى ، فرغ من كتابة هذا الجزء في يوم السبت الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة =

النوع الثالث

في التجريد

وهذا اسمٌ كنتُ سمعته . فقال القائل : التجريد في الكلام حسنٌ . ثم سكت فسألته عن حقيقته . فقال : كذا سمعت ! ولم يزد شيئاً . فأنعمتُ حينئذٍ نظري في هذا النوع من الكلام . فألقي في روعي أنه ينبغي أن يكون كذا وكذا . وكان الذي وقع لي صواباً . ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ووصل إليّ ما ذكره أبو عليّ الفارسي^(١) رحمه الله تعالى ، وقد أوردته هاهنا . وذكرتُ ما أتيت به من ذاتِ خاطري من زيادةٍ لم يذكروها . وستقف أيها المتأمل على كلامه وكلامي .

فأما حدُّ (التجريد) فانه : إخلاص الخطاب لغيرك . وأنت تريد به نفسك . لا المخاطب نفسه . لأن أصله في وضع اللمعة من « جرّدتُ السيف » إذا نزعته من غمده . و « جرّدتُ فلاناً » إذا نزعته ثيابه . ومن هاهنا قال صلى

= اثنتين وعشرين وستمائة من الهجرة ، وفي أول هذا الجزء إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل في شهر شعبان من السنة نفسها ، أجاز بها الشيخ أبا محمد المظفر عضد الدين بن محمد بن علي بن جعفر بن زهير الدمشقي . (١) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار محمد بن أبان الفارسي النحوي ، ولد بمدينة فساد واشتغل ببغداد ، ودخل إليها سنة ٣٠٧ ، وكان إمام وقته في علم النحو ، ودار البلاد ، وأقام بحلب عند سيفي الدولة بن حمدان مدة ، وكان قدومه إليها سنة ٣٤١ ، وجرت بينه وبين أبي الطيب المتنبي مجالس ، ثم انتقل إلى بلاد فارس ، وصحب عضد الدولة بن بويه ، وتقدم عنده ، وعلت منزلته ، حتى قال عضد الدولة : أنا غلام أبي علي في النحو . وكان مولده سنة ٢٨٨ هـ ووفاته ببغداد سنة ٣٧٧ هـ

الله عليه وسلم : « لَامَدَّ وَلَا تُجْرِدُ » وذلك في النهي عند إقامة الحدِّ أن يُمدَّ صاحبه على الأرض ، وأن تُجرَّد عنه ثيابه : وقد نُقلَ هذا المعنى إلى نوعٍ من أنواع علم البيان .

وقد تأملتُه ، فوجدتُ له فائدتين إحداهما أبلغُ من الأخرى .

فالأولى : طلبُ التوسُّع في الكلام ، فإنه إذا كان ظاهرُه خطاباً لغيرك ، وباطنه خطاباً لنفسك ، فإنَّ ذلك من باب التوسُّع وأظنُّ أنه شيءٌ اختصَّت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

والفائدةُ الثانية : وهي الأبلغُ ، وذلك أنه يتمكنُ المخاطبُ من إجراء الأوصافِ المقصودة من مدحٍ أو غيره على نفسه ، إذ يكونُ مخاطباً بها غيره ، ليكونَ أعذرَ وأبرأ من العهدة فيما يقوله غيرَ محجورٍ عليه .

وعلى هذا فإنَّ التجريدَ ينقسمُ قسمين :

أحدهما : تجريدُ محضٍ .

والآخرُ : تجريدُ غيرِ محضٍ .

^{التجريد}
التجربة المحض :

فالأوَّل — وهو المحضُ — أن تأتيَ بكلامٍ هو خطابٌ لغيرك ، وأنت تريدُ به نفسك ، وذلك كقولِ بعضِ المتأخِّرين وهو الشاعر المعروفُ بالخيصَ بيصَ^(١) في مطلعِ قصيدته له :

(١) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صهيمى التميمي ، الملقب بشهاب الدين ، المعروف بـخيص بيص ، الشاعر المشهور ، كان فقيهاً شافعي المذهب ، تفقه بالرِّي : ثم غلب عليه الأدب ونظم الشعر ، فأجاده مع جزالة اللفظ ، وله رسائل بليغة ، وكان أخبر الناس بأشعار العرب واختلاف لغتهم ، وكان فيه تيه وتعظيم ، ولا يخاطب أحداً إلا بالكلام =

إِلَامَ يِرَاكُ الْمَجْدُ فِي زِيِّ شَاعِرٍ وَقَدْ نَحَلَتْ شَوْقًا فِرْوَعُ الْمُنَابِرِ
 كَتَمْتَ بَعِيْبَ الشُّعْرِ حُلْمًا وَحِكْمَةً بِيَعِضْهُمَا يَنْقَادُ صَعْبُ الْمَفَاخِرِ
 أَمَا وَأَيُّكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ فَارِسُ السَّمَقَالِ وَمُحِي الدَّارِسَاتِ الْغَوَابِرِ
 وَإِنَّكَ أُعْيِيْتُ الْمَسَامِعَ وَالنُّهَى بِقَوْلِكَ عَمَّا فِي بَطُونِ الدَّفَاتِرِ

فهذا من محاسن التجريد ، ألا ترى أنه أُجْرِي الخُطَابَ على غيره ، وهو يريد نفسه ، كى يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفارقة ، وعدّ ماعدّه من الفضائل التامة .

وكل مايجيء من هذا القبيل فهو التجريدُ المَحْضُ .

وأما ما قصد به التوسع خاصة ، فكقول الصّمة بن عبد الله من شعراء الحماسة (١) :

خَنَنْتَ إِلَى رَبِّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارِكَ مِنْ رَبِّا وَشَعْبًا كَمَا مَعَا
 فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعًا وَتَجْزَعُ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع

لأنه قال :

= العربي . وكان يلبس زى الأعراب ، ويتقلد سيفاً . وقيل له الحيص بيص لأنه رأى الناس مرة فى حركة مزعجة وأمر شديد ، فقال : ما للناس فى حيص بيص ؟ أى فى شدة واختلاط ، فبقى عليه هذا اللقب توفى سنة ٥٧٤ هـ ببغداد ، ودفن فى الجانب الغربى فى مقابر قريش .

(١) كان شريفًا ناسكًا عابدا غزلا شاعرا مقلا من شعراء الدولة

الأموية ، والأبيات فى ديوان الحماسة (٢-٥٤) .

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحُمَى نَمَّ أَثْنِي عَلَى كَبْدِي مِنْ خَشْيَةِ أَنْ تَصَدَّعَا (١)
بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضَ مَا أَطْيَبَ الرَّبَّاءَ
وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَفَا وَالْمُتَرْبَّاءَا

فانتقل من الخطابِ التجريديِّ إلى خطابِ النفسِ ، ولو استمرَّ على الحالةِ الأولى لما قُضِيَ عليه بالتوسُّعِ ، وإنما كان يُقضى عليه بالتجريدِ البليغِ الذي هو الطرفُ الآخرُ ، ويتأوَّلُ له بأن غرضه من خطابِ غيره أن يَنفِي عن نفسه سُمعةَ الهوى ومعرفةَ العشقِ ، لما في ذلك من الشهرةِ والفضاضةِ . لكن قد زال هذا التأويلُ بانتقاله عن التجريدِ أوَّلاً إلى خطابِ النفسِ .
وعلى هذا الأسلوبِ ورد قول أبي الطيبِ المتنبي (٢) :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ فليُسْعِدِ النَّطْقُ إِن لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
وَاجزِ الْأَمِيرَ الَّذِي نَعْمَاهُ فَاجِتَةٌ بِغَيْرِ قَوْلٍ وَنَعْمَى الْقَوْمِ أَقْوَالُ
وهذان البيتانِ من مطلعِ قصيدةٍ يمدحُ بها فاتكاً الإخشيديَّ بمصرَ ، وكان وصله بصلَّةٍ سنِّيَّةٍ من نفقةٍ وكسوةٍ قبل أن يمدحه ، ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدةِ ، وهي من غررِ شعره ، وقد بنى مطلعها على المعنى المشارِ إليه من ابتداءِ فاتكٍ إيَّاه بالصلَّةِ قبل المديحِ .

وليسَ في التجريدِ المذكورِ في هذين البيتينِ ما يدلُّ على وصفِ النفسِ ،

(١) رواية ديوان الحماسة تجعل هذا البيت آخر الأبيات التي اختارها أبوتمام جميعاً « وتورد البيت الذي بعده قبل هذا البيت بخمسة أبيات (٢) ديوان المتنبي ٣- ٢٧٦ مطلع قصيدة له في مدح أبي شجاع فاتك سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة .

ولا على تزكيتها بالمديح كما ورد في الآيات الرائية المتقدم ذكرها ، وإنما هو توسعٌ لا غيرٌ .

التجريد غير المحض :

وأما القسم الثاني : وهو غير المحض ، فإنه خطابٌ لنفسك لا لغيرك ، ولئن كان بين النفس والبدن فرقٌ إلا أنهما كأنهما شيءٌ واحد ، لملاقة أحدهما بالآخر .

وبين هذا القسم والذي قبله فرقٌ ظاهر ، وذلك أوّلى بأن يسمى تجريداً ، لأن التجريد لا تقُّ به ، وهذا هو نصفُ تجريدٍ . لأنك لم تجرّد به عن نفسك شيئاً . وإنما خاطبتَ نفسك بنفسك . كأنك فصلتها عنك . وهي منك .

فما جاء منه قول عمرو بن الإطنابة (١) :

أقولُ لها وقد جشأت وجاشتُ رُوَيْدَكَ مُحَمَّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي (٢)

وكذلك قول الآخر (٣) :

(١) هو عمرو بن الإطنابة أحد بني الخرزج ، ومعنى الإطنابة المظلة ، واسم أم عمرو هذا ، وهو أحد من ملك الحجاز في الجاهلية ، وكان شاعراً مجيداً .

(٢) انظر شرح التبريزي ديوان الحماسة ٢ - ٢٧٣ ، وقد رواه « مكانك » موضع « رويدك » وقد تمثل بالبيت معاوية في إحدى وقعاته مع الإمام علي ، وكاد ينهزم ، فما لبث أن ثبت مكانه .

(٣) أحد بيتين اختارهما أبو تمام في ديوان الحماسة ١/٧٣ ونسبهما لأعرابي قتل أخوه ابناً له ، والبيت الآخر :

كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً إحدى يدي أصابتنى ولم ترد^(١)
وليس في هذا ما يصلح أن يكون خطاباً لغيرك كالأول . وإنما المخاطب
هو المخاطب بعينه . وليس ثم شيء خارج عنه .

وأما الذي ذكره أبو علي الفارسي — رحمه الله — فإنه قال : إن العرب
تعتقد أن في الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقة ومحصوله . فتخرج ذلك المعنى
إلى ألفاظها مجرداً من الإنسان كأنه غيره . وهو هو بعينه . نحو قولهم « لئن
لقيت فلاناً لتلقين به الأسد . ولئن سألته لتسألن منه البحر » وهو عينه الأسد
والبحر . لا أن هناك شيئاً منفصلاً عنه . أو متميزاً منه .

ثم قال : وعلى هذا التمثيل كون الإنسان يخاطب نفسه . حتى كأنه يقول
غيره . كما قال الأعشى :

* وهل تطيق وداعاً أيها الرجل^(٢) *

وهو الرجل نفسه لا غيره .

هذا خلاصة ما ذكره أبو علي رحمه الله .

والذي عندي فيه أنه أصاب في الثاني ولم يصب في الأول . لأن الثاني هو
التجريد . ألا ترى أن الأعشى جرّد الخطاب عن نفسه وهو يريد بها .

(١) التأساء هي ما يؤتسى به من الحزن والتعزية حسن الصبر
وقوله : « إحدى يدي أصابتنى » أجراه على المثل والمجاز « والمعنى :
أناجى النفس بهذا القول طلباً للتأسي وحسن الصبر .

(٢) هذا عجز مطلع قصيدته المشهورة ، وصدر البيت :

* ودع هريرة إن الركب مرتحل *

ويعلها بعض الرواة إحدى المعلقات .

وأما الأول . وهو قوله : « لئن لقيتَ فلاناً لتلقينَّ به الأسد . ولئن سألتَهُ
لتسألنَّ منه البحر » فإنَّ هذا تشبيهٌ مضمرةُ الأداة . إذ يحسنُ تقديرُ أداةِ
التشبيهِ فيه .

وبيانُ ذلكَ أنكَ تقول : « لئن لقيتَ فلاناً لتلقينَّ منه كالأسد . ولئن
سألتَهُ لتسألنَّ منه كالبحر » وليس هذا بتجريدٍ . لأنَّ حقيقةَ التجريدِ غيرُ
موجودةٍ فيه . وإنما هو تشبيهٌ مضمرةُ الأداة . ألا ترى أن المذكورَ هو
كالأسد . وهو كالبحر . وليسَ ممَّ شئٌ مجردٌ عنه . كما تقدم في الأبياتِ
الشعرية .

ويبطلُ على أبي عليٍّ قوله أيضاً من وجهٍ آخر . وذلكَ أنَّه قال . « إنَّ
العربَ تعتقدُ أنَّ في الإنسانِ معنىً كامناً فيه كأنه حقيقتهُ ومحصولُهُ . فتُخرجُ
ذلكَ المعنى إلى ألفاظها مجرداً من الإنسانِ كأنه غيره وهو هو » كالمثالِ الذي
مثله في تشبيهه بالأسد وتشبيهه بالبحر . وهذا ينتقضُ بقولنا . « لئن رأيتَ
الأسدَ لترينَّ منه هضبةً . ولئن لقيتَهُ لتلقينَّ منه الموت » فإنَّ الصورةَ التي
أوردناها في الإنسانِ ، وزعمُ أن العربَ تعتقدُ أنَّ ذلكَ معنىً كامناً فيه قد أوردنا
مثلاً في الأسد ، فتخصيصه ذلكَ بالإنسانِ باطل .

وكلا الصورتينِ ليسَ بتجريدٍ ، وإنما هو تشبيهٌ مضمرةُ الأداة :

وقد سبق القولُ بأنَّ التجريدُ هو أن تُطلقَ الخطابَ على غيرك ، ولا يكونُ
هو المراد ؛ وإنما المرادُ نفسك ؛ وهذا لا يوجدُ في هذا المثالِ المضمرةُ الأداة ، بل
المخاطبُ هو هو لا غيره ، فلا يطلقُ عليه إذاً اسمُ التجريد ، لأنه خارجٌ عن
حقيقته ، ومُنافٍ لموضوعه .

فإذا قال القائلُ : « لئن لقيتَهُ لتلقينَّ به كالأسد ، ولئن سألتَهُ لتسألنَّ منه

كالبجر» لم يجرّد عن المقول عنه شيئاً ، وإنما شبهه تارةً بالأسد في شجاعته ،
وتارةً بالبحر في سخائه .

وما أعلمُ كيف ذهبَ هذا على مثل أبي عليّ — رحمه الله — حتى خلطه
بالتجريد ، وأجراه مجراه ؟

وأما قوله : إنّ العربَ تعتقدُ أنّ في الإنسانِ معنَى كامنًا فيه كأنه حقيقةُ
ومحصولُهُ « فأقولُ : وغيرُ العربِ أيضًا تعتقدُ ذلك !

فإنّ عَنَى بالمعنى الكامن معنى الأنسانيّة الذي هو الاستعدادُ للعلوم والصناعات ،
فما هذا من الشيء الغريب الخفيّ الذي علمته العربُ خاصّةً وانفرد باستخراجه
أبو عليّ رحمه الله !

وإنّ عَنَى بالمعنى الكامن ما فيه من الأخلاقِ كالشجاعةِ والسَّخَاءِ في
المثالِ الذي ذكره ، حتّى يشبّه بالأسد تارةً ، وبالبحرِ أُخرى ، فليسَ
الإنسانُ مختصًا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات ، بل الأسدُ
فيه من معنى الشجاعة ما ليس في الإنسانِ ، ولهذا إذا بُولغ في وصفِ الإنسانِ
بالشجاعةِ شبّه بالأسد ، وكذلك في بعض الحيوانات من السَّخَاءِ ما ليس في
الإنسانِ ، ومن الأمثالِ « أكرمُ من ديكٍ » لآله إذا ظفرَ بحبّةٍ من الحنطة
أخذها في منقاره ، وطافَ بها على الدجاجِ ، حتّى يضعها في منقار
واحدةٍ منهن .

فالأخلاقُ إذاً مشتركةٌ بين الإنسانِ وغيره من الحيوانات . غير أنّ
الإنسانَ يجتمعُ فيه ما تفرّق في كثير منها .

وما أعلمُ ما أراد أبو عليّ — رحمه الله — بقوله : « إنّ في الإنسانِ معنَى

كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله « إلا أن يكون أحد هذين القسمين الذين
أشرت إليهما .

على أن القسم الواحد الذي هو خلق الشجاعة والسخاء وغيره من الأخلاق
ليس عبارة عن حقيقة الإنسان ، إذ لا يقال في حده : « حيوان شجاع ، ولا
سخي » بل يقال : « حيوان ناطق » فالناطق الذي هو الاستعداد للعلوم
والصنائع هو حقيقة الإنسان .

فبطل إذا قول أبي علي رحمه الله في تمثيله حقيقة الإنسان بالشجاعة
والسخاء .

فالخطأ توجه في كلامه من وجهين :

أحدهما : أنه جعل حقيقة الإنسان عبارة عن خلقه .

والآخر : أنه أدخل في التجريد ما ليس منه .

وهذا القدر كافٍ في هذا الموضع فليتأمل .

النوع الرابع

في الالتفات

وهذا النوع وما يليه^(١) هو خلاصة علم البيان التي حوّلها يد ندن ، وإليها
تستند البلاغة ، وعنها يُمتنع .

وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه
نارة كذا ، وتارة كذا .

وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه يُنتقل فيه عن

(١) هو النوع الخامس « توكيد الضميرين » وسيأتي .

صِيغَةً إِلَى صِيغَةٍ ، كانتقال من خطابٍ حَاضِرٍ إِلَى غَائِبٍ ، أَوْ من خطابٍ غَائِبٍ إِلَى حَاضِرٍ ، أَوْ من فِعْلِ ماضٍ إِلَى مُسْتَقْبَلٍ ، أَوْ من مُسْتَقْبَلٍ إِلَى ماضٍ ، أَوْ غير ذلكِ مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ مُفَصَّلًا .

ويُسَمَّى أَيْضًا « شِجَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ » وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الشِّجَاعَةَ هِيَ الْإِقْدَامُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ الشِّجَاعَ يَرْكَبُ مَا لَا يَسْتَطِيعُهُ غَيْرُهُ ، وَيَتَوَرَّدُ مَا لَا يَتَوَرَّدُ سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ هَذَا الْإِتِّفَاتُ فِي الْكَلَامِ ، فَإِنَّ الْلُغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَخْتَصُّ بِهِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْلُغَاتِ .

وهو ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة :

اعلم أن عامة المنتميين إلى هذا الفن إذا سُئِلُوا عَنِ الْإِتِّفَاتِ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ ، وَعَنِ الْخُطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ ، قَالُوا : كَذَلِكَ كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي أُسَالِبِ كَلَامِهَا . وَهَذَا التَّوَلُّهُ هُوَ عُكَّازُ الْعَمِيَانِ ، كَمَا يُقَالُ . وَنَحْنُ إِنَّمَا نَسْأَلُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي قَصَدَتْ الْعَرَبُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِهِ .

وقال الزُّنْحَشَرِيُّ (١) رَحِمَهُ اللَّهُ : إِنْ الرَّجُوعَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ إِنَّمَا يَسْتَعْمَلُ لِلتَّفَنُّنِ فِي الْكَلَامِ وَالْإِتِّفَاتِ مِنَ أُسْلُوبٍ إِلَى أُسْلُوبٍ ، تَطْوِيئًا لِنَشَاطِ السَّمَاعِ ، وَإِقْبَاطًا لِلْإِصْفَاءِ إِلَيْهِ .

(١) هو جابر الله أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزُّنْحَشَرِيُّ ، كَانَ إِمَامًا فِي التَّفْسِيرِ وَالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالْأَدَبِ « وَاسِعَ الْعِلْمِ كَبِيرَ الْفَضْلِ ، مُتَفَنَّيًّا فِي عُلُومِ شَتَّى ، مَعْتَرِي الْمَذْهَبَ مُتَّجَاهِرًا بِذَلِكَ ، وَوُلِدَ بِزَنْجَشَرٍ مِنْ أَعْمَالِ خَوَارِزْمِ سَنَةَ ٤٦٧ وَتَوَفَّى بِقَصْبَةِ خَوَارِزْمِ لِيَاةٍ عَرَفَةَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةَ .

وليس الأمر كما ذكره ، لأنّ الانتقال في الكلام من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ إذا لم يكن إلا تطريةً لنشاطِ السّامع ، وإيقاظاً للأصغاء إليه ، فإنّ ذلك دليلٌ على أنّ السّامعَ يميلُ من أسلوبٍ واحدٍ . فينتقلُ إلى غيره ، ليجدَ نشاطاً للاستماع . وهذا قدحٌ في الكلام ، لا وصفٌ له ، لأنّه لو كان حسناً لما ملّ .

ولو سلّمنا إلى الزمخشريّ ما ذهبَ إليه لكان إنّما يوجدُ ذلك في الكلام المطوّل ، ونحن نرى الأمرَ بخلافِ ذلك ، لأنّه قد ورد الانتقالُ من الغيبةِ إلى الخطابِ ، ومن الخطابِ إلى الغيبةِ في مواضعٍ كثيرةٍ من القرآنِ الكريمِ ، ويكونُ مجموعُ الجانبينِ معاً يبلغُ عشرةَ ألفاظٍ أو أقلّ من ذلك .

ومفهومُ قولِ الزمخشريّ في الانتقالِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ إنّما يُستعملُ قصداً للمخالفةِ بينَ المنتقلِ عنه والمنتقلِ إليه ، لا قصداً لاستعمالِ الأحسنِ : وعلى هذا فإذا وجدنا كلاماً قد استعملَ في جميعه الإيجازُ ، ولم يُنتقلِ عنه ، أو استعملَ فيه جميعه الإطنابُ ، ولم ينتقلِ عنه ؛ وكان كلا الطرفين واقعاً في موقعه قلنا : هذا ليس بحسنٍ ، إذ لم ينتقلِ فيه من أسلوبٍ . وهذا قولٌ فيه ما فيه .

وما أعلمُ كيفَ ذهبَ على مثلِ الزمخشريّ مع معرفته بفنِّ النصاحةِ والبلاغةِ ؟ .

والذي عندي في ذلك أنّ الانتقالَ من الخطابِ إلى الغيبةِ أو من الغيبةِ إلى الخطابِ لا يكونُ إلا لفائدةٍ اقتضته . وتلك الفائدةُ أمرٌ وراءَ الانتقالِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ ، غير أنّها لا تُحدُّ بِحدِّ ، ولا تُضبطُ بِضابطٍ ، لكنّ يشارُ إلى مواضعٍ منها ، يُقاسَ عليها غيرها ، فإنّا قد رأينا الانتقالَ من الغيبةِ إلى الخطابِ قد استعملَ لتعظيمِ شأنِ المخاطبِ ؛ ثم رأينا ذلك بعينه — وهو ضدُّ

الأول — قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلنا جيفئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على ونيرة واحدة ، وإنما هو مقصورٌ على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لا تنحصر ، وإنما يؤتى بها على حسب الموضوع الذي ترد فيه .
وسأوضح ذلك في ضرب من الأمثلة الآتى ذكرها :

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى في سورة الفاتحة « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » .

هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب ، وإنما يختص به هذا الكلام من القوائد قوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » بعد قوله « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب ، لأن الحمد دون العبادة ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبدُه ؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ « الحمد » لتوسطه مع الغيبة في الخبر ، فقال : « الحمد لله » ولم يقل : الحمد لك ، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » فخاطب بالعبادة إصراً حابها ، وتقرُّباً منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها .

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة ، فقال : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : « غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ » عطفًا على الأول ، لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب ، فأسند النعمة إليه لفظاً وروى عنه لفظ الغضب تحمناً ولفظاً .

فانظر إلى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لاتكاد تطوها ، والأفهام مع قريها صاحفة عنها .

وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب . لتعظيم شأن الخطاب ، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة ، لتلك العلة بعينها ، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضاً ، لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه .

فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها .

ومن هذا الضرب قوله تعالى « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » (١)

وإنما قيل : « لَقَدْ جِئْتُمْ » وهو خطاب للحاضر بعد قوله : « وَقَالُوا » وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة ، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى ، والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظيم ما قالوه ، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم ، وموبخاً لهم .

وما جاء من الالتفات مراراً على قصر متنه ، وتقارب طرفيه ، قوله تعالى أول سورة بني اسرائيل : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

فقال أولاً : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى » بلفظ الواحد ، ثم قال : « الَّذِي

(١) سورة مريم الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

بَارَ كُنَّا» بلفظ الجمع ، ثم قال : « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » وهو خطاب غائب ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان : سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته إِنَّهُ هو السميع البصير . وهذا جميعه يكون معطوفاً « على أسرى » ، فلما خولفَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الانتقالِ من صيغةٍ إلى صيغةٍ كانَ ذلك اتساعاً وتفصيلاً في أساليبِ الكلامِ ، ولقصدِ آخرَ معنى هو أعلى وأبلغُ .

وسأذكرُ ما سنح لي فيه ، فأقول :

لما بدأ الكلامَ بسُبْحَانَ رَدَفَهُ بقوله : « الذى أسرى » إذ لا يجوزُ أن يقالَ : الذى أسرىنا ، فلما جاء بلفظِ الواحدِ ، واللهُ تعالى أعظمُ العظاءِ ، وهو أوثى بخطابِ العظيمِ في نفسه الذى هو بلفظِ الجمعِ استدركَ الأولُ بالثانى ، فقالَ : « بَارَ كُنَّا » ثم قالَ : « ليريهُ من آياتنا » فجاءَ بذلك على نسقِ « بَارَ كُنَّا » ثم قالَ : « إِنَّهُ هُوَ » عطفاً على « أسرى » وذلك موضعٌ متوسطُ الصفةِ ، لأن السمعَ والبصرَ صفتانِ يشارِكُهُ فيهما غيرهُ ؛ وتلك حالٌ متوسطةٌ ؛ فخرجَ بهما عن خطابِ العظيمِ في نفسه إلى خطابِ غائبٍ .

فانظر إلى هذه الالتفاتاتِ المترادفةِ في هذه الآيةِ الواحدةِ التى جاءت لمعانٍ اختصت بها ؛ يعرفها من يعرفها ؛ ويجهلها من يجهلها .

ومما يَنخَرطُ في هذا السلكِ الرجوعُ من خطابِ الغيبةِ إلى خطابِ النفسِ كقوله تعالى : « ثم استوى إلى السماءِ وهى دُخانٌ فقالَ لها وللأرضِ ائسبوا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعينَ * فقضاهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومينِ

وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها وزينا السماءَ الدنيا بمصابيحٍ وحفظًا ذلكَ تقدِيرُ
العزیز العليم (١) .

وهذا رجوعٌ من الغيبة إلى خطاب النفس ، فإنه قال : « وزينا » بعد
قوله : « ثم استوى » وقوله : « فقضاهن » . و « أوحى » والفائدة في ذلك
أن طائفةً من الناس غير المتشرِّعين يمتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا .
وأنها ليست حفظًا ولا رجومًا . فلما صار الكلامُ إلى هاهنا عدلَ به عن
خطابِ الغائبِ إلى خطابِ النفس . لأنه مهمٌّ من مهماتِ الاعتقاد . وفيه
تكذيبٌ للفرقةِ المكذِّبةِ الممتدة بطلانه . وفي خلافِ هذا الرجوعُ من
خطابِ النفسِ إلى خطابِ الغيبة .

ومما ينخرطُ في هذا السلكِ أيضاً الرجوعُ من خطابِ النفسِ إلى خطابِ
الجماعة ، كقوله تعالى : « وما لي لا أعبدُ الذي فطرني وإليه تُرجعون (٢) » .

وإنما صرفَ الكلامَ عن خطابِ نفسه إلى خطابهم لأنه أبرزَ الكلامَ لهم
في معرضِ المناصحة . وهو يريدُ مناصحتهم ليتلطفَ بهم ويدارِيهم ، لأن ذلكَ
أدخلُ في إحاضِ النصيح حيثُ لا يريدُ لهم إلا ما يريدُ لنفسه ، وقد وضعَ قوله
« وما لي لا أعبدُ الذي فطرني » مكانَ قوله : وما لكم لا تعبدون الذي
فطرکم ؟ ألا ترى إلى قوله « وإليه تُرجعون » ولولا أنه قصدَ ذلكَ لقال :
الذي فطرني وإليه أرجع ، وقد ساقهُ ذلكَ المساق إلى أن قال : « إني آمنْتُ
بربِّكم فاسمعون (٣) » .

(١) سورة فصلت : الآيتان ١١ و١٢ .

(٢) سورة يس : الآية ٢٢ .

(٣) سورة يس . الآية ٢٥ .

فانظر أيها المتأملُ إلى هذه النكتِ الدقيقة التي تترُّ عليها في آياتِ القرآنِ
الكريمِ ، وأنت تظنُّ أنك فهمتَ فحواها ؛ واستنبطتَ رموزَها .

وعلى هذا الأسلوبِ يجري الحكمُ في الرجوعِ من خطابِ النفسِ إلى
خطابِ الواحدِ كقوله تعالى : « حم * والكتابِ المبين * إنا أنزلناه في ليلةٍ
مباركةٍ إنا كنا مُنذرينَ * فيها يُفرقُ كلُّ أمرٍ حكيم * أمراً من عندنا إنا
كنا مُرسلينَ * رحمةً من ربِّك إنه هو السميعُ العليمُ ^(١) » .

والفائدةُ هاهنا في الرجوعِ من خطابِ النفسِ إلى خطابِ الواحدِ تخصيصُ
النبي صلى الله عليه وسلم بالذكرِ والإشارةُ بأنَّ إنزالَ الكتابِ إنما هو إليه .
وإن لم يكن ذلك صريحاً ، لكن مفهومَ الكلامِ يدلُّ عليه .

وإذا تأملتَ مطاوى القرآنِ الكريمِ وجدتَ فيه من هذا وأمثاله أشياء
كثيرة ، وإنما اقتصرنا على هذه الأمثلةِ المختصرة ليقاسَ عليها ما يجري
على أسلوبها .

وقد وردَ في فصيحِ الشُّعرِ شيءٌ من ذلك ، كقول أبي تمامٍ (٢) :

وركبٍ يساقون الرُّكابَ زُجاجةً

من السيرِ لم تقصِدِ لها كفُّ قاطبٍ (٣)

(١) سورة الدخان الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦

(٢) ديوان أبي تمام ٤١ من قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم

ابن عيسى العجلي ومطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

(٣) قاطب مازج الخمر بالماء .

فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى

(١) وصارت لهم أشباحهم كالغوارب

يُصْرَفُ مَسْرَاهَا جُدَيْلُ مَشَارِقِ

(٢) إِذَا آبَهُ هُمُّ عَزِيقُ مَغَارِبِ

يَرَى بِالكَعَابِ الرُّودِ طَلْعَةَ نَائِرِ

(٣) وَبِالْعَرْمِسِ الْوَجْنَاءِ غُرَّةَ آئِبِ

كَأَنَّ بِهَا ضِعْفًا عَلَى كُلِّ جَانِبِ

(٤) مِنَ الْأَرْضِ أَوْ شَوْقًا إِلَى كُلِّ جَانِبِ

إِذَا الْعَيْسُ لَاقَتْ بِي أَبَا دُلْفٍ قَدَّ

(٥) تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَائِبِ

هُنَالِكَ تَلْقَى الْجُودَ مِنْ حَيْثُ قُطِّعَتْ

(٦) تَمَائِمُهُ وَالْمَجْدَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ

(١) رواية الديوان « لها » موضع « لهم » ، والغوارب الكواهل .

(٢) الجُدَيْلُ تصغير جَدَل ، وهو عود ينصب للجربى لتحتك به ،

ومنه « أنا جديليها المحكك وعذيقها المرجب » على سبيل الافتخار ،

آبُهُ أُنَاهُ لَيْلًا ، والعزيق تصغير عذق ، وهو الفرع من النخلة .

(٣) الكعاب بارزة النهد ، الرود اللينة ، النَّائِرُ طالب الذَّر ،

العرمس الناقة الشديدة ، الوجناء عظيمة الوجنتين .

(٤) رواية الديوان « كأن به » موضع « كأن بها » .

(٥) العبس : الإبل البيض بشقرة .

(٦) رواية الديوان :

هنالك تلقى المجد حيث تقطعت تمائمهُ والجود مرخى الذوائب

والتمايم خرزات تعلق في عتق الصبي لدفع العين عنه ، والمفرد تميمة .

ألا ترى أنه قال في الأول « يصرّف مسراها » مخاطبةً للغائب ، ثمّ قال بعد ذلك : « إذا العيسُ لاقَتْ بي » مخاطباً نفسه ؟ وفي هذا من الفائدة أنه لما صار إلى مشافهة المدوح والتصريح باسمه خاطبَ عند ذلك نفسه مبشراً لها بالبعد عن المكروه ، والقرب من المحبوب ، ثمّ جاء بالبيت الذي يليه معدولاً به عن خطابِ نفسه إلى خطابِ غيره ، وهو أيضاً خطابٌ لحاضرٍ فقال : « هُنالكِ نلتِ الجودَ » والفائدةُ بذلك أنه يخبر غيره بما شاهدَه ، كأنه يصفُ له جُودَ المدوحِ ، وما لاقاهُ منه ، إشادةً بذكره ، وتوبيهاً باسمه ، وحملاً لغيره على قصده . وفي صفتهِ جودَ المدوحِ بتلك الصفة الغريبة البليغة ، وهي قوله : « حيثِ قطعْتَ تمامه » ما يقتضي له الرجوعَ إلى خطابِ الحاضر ، والمرادُ بذلك أن محلَّ المدوحِ هو مآلفُ الجودِ ومنشؤه ووطنه ، وقد يُرادُ به معنى آخر ، وهو أن هذا الجودَ قد أُنعمَ عليه الآفات العارضة لغيره من المنِّ والمطلِّ والاعتذار ، وغير ذلك ، إذ التمامُ لا تقطعُ إلا عن أمنّت عليه المخاوف .

وعلى هذا التهجُّج ورد قولُ أبي الطَّيِّبِ المتنبي في قصيدٍ يمدحُ به ابن العميد في النوروز^(١) ومن عادة الفرس في ذلك اليوم حملُ الهدايا إلى ملوكهم فقال في آخر القصيدة :

كثُرَ الفِكرُ كيفَ تُهدى كما أهدتْ إلى ربِّها المليكُ عِبَادُهُ^(٢)

(١) ديوان المتنبي ٢ - ٤٧ والقصيدة في مدح أبي الفضل محمد ابن الحسين بن العميد « وتهنئته بعيد النيروز ، وأولها :
جاء نيروزنا وأنت مراده وورت بالذي أراد زناده
(٢) رواية الديوان « الرئيس » موضع « المليك » .

والذى عندنا من المال والخيلِ فنه هبانه وقباده
 فبعثنا بأربعين مهارة كل مهز ميدانه إنشاده (١)
 عدد عشته يرى الجسم فيه أربا لا يراه فيما زيادة (٢)
 فارتبطها فإن قلبا نماها مربط تسبق الجياد جياده

وهذا من إحسان أبي الطيب المعروف ، وهو رجوع عن خطاب الغائب
 إلى الحاضر ، واحتج أبو الطيب عن تخصيص أبياته بالأربعين دون غيرها من
 العدد بحجة غريبة ، وهى أنه جعلها كعدد السنين التى يرى الإنسان فيها من
 القوة والشباب وقضاء الأوطار ما لا يراه فى الزيادة عليها ، فاعتذر بالطف اعتذار
 فى أنه لم يزد التصيد على هذه العدة ، وهذا حسن غريب .

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فكقوله تعالى : « هو الذى يسيركم
 فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجريتم بهم برمج طيبة وفرحوا بها
 جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط

(١) يروى « بأربعين مهارة » بالجر ، على أنه بدل أو صفة على
 التأويل ، وبالنصب صفة على الموضع ، تقديره بعثنا أربعين « والبدل
 أيضا على الموضع ، وليس نصبه على التمييز ، لأن تمييز « الأربعين »
 مفرد ، والمهارة جمع مهارة ، وهو الفتى من أولاد الخيل .

(٢) أى : الأربعون عدد عشته ، دعاء له بأن يعيش هذا العدد
 من السنين على ما عاش ، وكان ابن العميد قد جاوز السبعين ، وناهز
 الثمانين فى هذا الوقت . والمعنى : زاد الله فى عمرك هذا العدد ، والجسم
 لا يرى من أرب العيش فيما زاد على الأربعين ما كان يراه فيما دونه ، فلهذا
 اختار هذا العدد ، فجعل القصيدة أربعين بيتا . قال أبو الفتح : الأربعون
 إذا تجاوزها الإنسان نقص عما يعهد من أحواله فى جسمه وتصرفه .

بهم دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لئنْ أُعْجِزْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١) :

فإنه إنما صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم، ليعجزهم منها كالخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو قال: حتى إذا كنتم في الفلك وجريتم بكم بريح طيبة وفرحتم بها، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أتت بها خطاب الغيبة، وليس ذلك بخافٍ عن نقدة الكلام.

وما ينخرط في هذا السلك قوله تعالى: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» وتقطعوا أمرهم بينهم كلٌ إلينا راجعون (٢).

الأصل في «تقطعوا» تقطعتم، عطفاً على الأول، إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة «الالتفات» كأنه ينمى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا ترؤن إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى. فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً؟ وذلك تمثيل لاختلافهم فيه، وتباينهم، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو مجازيهم على ما فعلوا.

وما يجري هذه الجري قوله تعالى: «يَأْيُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً، الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (٣).

(١) سورة يونس: الآية ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٩٢ و٩٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

فإنه إنما قال « فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ولم يقل : فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَبِي ، عطفاً على قوله : « إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ » لكي تجرى عليه الصفات التي أُجريت عليه ، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوفُ بأنه النبيُّ الأميُّ الذي يؤمنُ بالله وبكلماته كأننا من كان ، أنا أو غيري ، إظهاراً للنصفية ، وبعداً من التعصّب لنفسه ، فقرر أولاً في صدر الآية أنه رسولُ الله إلى الناس ، ثم أخرج كلامه من الخطابِ إلى معرض القيبة لفرضين .

الأول منهما : إجراء تلك الصفات عليه .
والثاني : الخروجُ من شهمة التعصّب لنفسه .

* * *

القسم الثاني : في الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضي الى فعل الأمر :

وهذا القسمُ كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغةٍ إلى صيغةٍ طلباً للتوسّع في أساليب الكلام فقط ، بل الأمر وراء ذلك ، وإنما يقصد إليه تعظيماً لحال من أُجريت عليه الفعلُ المستقبلُ ، وتفخيماً لأمره ، وبالضد من ذلك فيمن أُجريت عليه فعل الأمر .

فمما جاء منه قوله تعالى : « يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١) » .

فإنه إنما قال : « أَشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا » ولم يقل : وَأَشْهِدُكُمْ لِيَكُونَ

(٢) سورة هود : الآيتان ٥٣ و ٥٤ .

موازناً له وبمعناه ، لأن إظهاره الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إظهارهم فما هو إلا تهاون بهم ، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وحيء به على لفظ الأمر ؛ كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : « أشهد على أنى أحبك » تهكماً به ، واستهانة بحاله .

وكذلك يرجع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر ، إلا أنه ليس كالأول ، بل إنما يفعل ذلك توكيداً لما أجرى عليه فعل الأمر ، لمكان العناية بتحقيقته ، كقوله تعالى : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. » الآية (١)

وكان تقدير الكلام : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر ، للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب ، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنيات » .

واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية ، اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطّلع على أسرارها ، وفتش عن دقائقها . ولا تجد ذلك في كل كلام ، فإنه من أشكال ضروب علم البيان ، وأدقها فهماً ، وأغمضها طريقاً .

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٩ .

القسم الثالث : فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، وعن المستقبل
بالماضى :

فالأوّل : الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضى :

اعلم أن الفعلَ المستقبلَ إذا أُتى به فى حالة الإخبارِ عن وجودِ الفعلِ
كان ذلك أبْلغَ من الإخبارِ بالفعلِ الماضى ، وذلك لأنَّ الفعلَ المستقبلَ
يوضِّحُ الحالَ التى يتبعُ فيها ، ويستحضرُ تلكَ الصورةَ ، حتى كأنَّ السامعَ
يشاهدُها ، وليسَ كذلكَ الفعلُ الماضى ، وربّما أُدخلَ فى هذا الموضعِ ما ليسَ
منه جهلاً بمكانه ، فإنه ليسَ كلُّ فعلٍ مستقبلٍ يُعطفُ على ماضٍ يجارى
هذا الجرى :

وسأبين ذلك فأقول : عطفُ المستقبلِ على الماضى ينقسمُ إلى ضربين :

أحدهما بلاغىٌّ : وهو إخبار عن ماضٍ بمستقبل ، وهو الذى أنا بصدد
ذكره فى كتابى هذا الذى هو موضوعٌ لتفصيلِ ضروبِ الفصاحةِ والبلاغةِ .
والآخرُ : غيرُ بلاغىٌّ : وليس إخباراً بمستقبل عن ماضٍ ، وإنما هو
مستقبلٌ دلَّ على معنى مستقبلٍ غيرِ ماضٍ ، ويرادُ به أن ذلكَ الفعلَ مستمرُّ
الوجودِ لم يمضِ .

فالضربُ الأوّلُ كقوله تعالى : « والله الذى أرسلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا
فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » (١) .

فإنه إنما قال « فتثير » مستقبلاً ، وما قبله وما بعده ماضٍ ، لذلك المعنى
الذى أشرنا إليه ، وهو حكايةُ الحالِ التى يقعُ فيها إثارةُ الريحِ السحابِ
واستحضار تلكَ الصورةِ البديعةِ الدالّةِ على القدرةِ الباهرةِ .

(١) سورة فاطر : الآية ٩ .

وهكذا يُفعل بكلِّ فعلٍ فيه نوع تمييزٍ وخصوصية كحالِ تستغرب ،
أو تُهمُّ المخاطب ، أو غير ذلك .

وعلى هذا الأسلوب ماورد من حديث الزُّبَيْر بن العَوَّام —رضى الله عنه —
في غزوة بدر ، فانه قال : لقيتُ عبيدة بن سعيد بن العاص ، وهو على فرسٍ ،
وعليه لأمةٌ^(١) كاملة لا يرى منه إلا عَيْنَاه ، وهو يقول : « أنا أبوذاتِ
الكنوسِ ، وفي يدي عَنزَةٌ^(٢) فأطعنُ بها في عينه ، فوقع ، وأطأُ برجلي على
خده ، حتى خرجت العنزَةُ متعمِّقة^(٣) » .

فقوله « فأطعنُ بها في عينه ، وأطأُ برجلي » معدولٌ به عن لفظ الماضي
إلى المستقبل ، ليمثِّل للسامع الصورة التي فعل فيها ما فعل من الإقدام والجرأة
على قتل ذلك الفارس المُستلِّم .

ألا ترى أنه قال أولاً : « لقيتُ عبيدة » بلفظ الماضي ، ثم قال بعد
ذلك : « فأطعنُ بها في عينه » ولو عطفَ كلامه على أوله لقال : فطمنتُ
بها في عينه !

وعلى هذا ورد قول تأبَّطُ شراً^(٤) .

(١) الأمانة ، وقد تخفف ، الدرع « أو السلاح ، أو أداة الحرب .
(٢) العنزَةُ — بفتحين — مثل نصف الرمح أو أكبر ، وفيها سنان
كسنان الرمح .
(٣) متعمِّقة ملوية .

(٤) اسمه ثابت ، وكنيته أبو زهير ، وهو من بني فهم « وفهم
وعدوان أخوان . وكان أحد العدائين ، وإنما لقب بـ تأبَّطُ شراً » لأنه
تأبَّطُ سكيना ذات يوم وخرج ، فسئلت عنه أمه ، فقالت : لأدرى
إنه تأبَّطُ شراً وخرج ! والبيتان في الأغاني (١٨ — ٢١٠) من جملة
أبيات أولها :

بَأْنِي قَدْ لَقِيتُ الْعُؤْلَ تَهْوِي سَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ مَحْضَحَانٍ (١)

فَأَضْرِبُهَا بِأَلَا دَهْشٍ نَفَرْتِ صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَالْجِرَانِ (٢)

فإنه قصد أن بصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب العؤل، كأنه يبصرهم إياها مشاهدة، للتعجب من جرائته على ذلك أهول، ولو قال : « فضربتها » عطفًا على الأول، لزالته هذه الفائدة المذكورة .

فإن قيل : إن الفعل الماضي أيضًا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل !

قلت في الجواب : إن التخيل يقع في الفعلين معًا ، لكنه في أحدهما وهو المستقبل أو كذا وأشدُّ تخيلاً ؛ لأنه يستحضر صورة الفعل ، حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه .

ألا ترى أنه لما قال تَابَطَ شَرًّا « فَأَضْرِبُهَا » تخيل للسامع أنه مباشر للفعل ، وأنه قائم بأزاء العؤل ، وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي ، لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه ، وهذا لاخلاف فيه .

وهكذا يجزى الحكم في جميع الآيات المذكورة ، وفي الأثر عن الزبير رضي الله عنه ، وفي الأبيات الشعرية .

وعليه ورد قوله تعالى أيضاً وهو : « ذَلِكَ وَهَنٌ يُعْظَمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهَوً

= ألا من مبلغ فتیان فهم بملاقيت عند رحي بطان
(١) في الأصل « بشهب » وهو تصحيف ، والسهب الأرض المستوية والصصححان والصصحح الأرض المستوية الواسعة .

(٢) الجران ، جران البعير ، وكذا الفرس : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ « (١) .

فقال أولاً : « خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ » بلفظ الماضي ، ثم عطفَ عليه المستقبل الذي
هو « فَتَخَطَفُهُ » و « تَهْوَى » وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل لاستحضار
صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به . والفائدة في ذلك ما أشرت إليه فيما
تقدم ، وكثيراً ما يراعى أمثالُ هذا في القرآن .

* * *

وأما الضربُ الثاني — الذي هو مستقبل — فكقوله تعالى : « إِنْ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » (٢) .

فإنه إنما عطفَ المستقبل على الماضي ، لأن كفرهم كان ووجد ، ولم
يستجدوا بعده كفرًا ثانيًا ، وصدّهم متجددٌ على الأيام لم يمضِ كونه ، وإنما
هو مستمرٌّ ، يستأنف في كل حين .

وكذلك ورد قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (٣) .

ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي هاهنا إلى المستقبل ، فقال : « فَتَصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً » ولم يقل : فأصبحت ، عطفًا على « أَنْزَلَ » وذلك لإفادة

(١) سورة الحج : الآيتان ٣٠ و ٣١ .

(٢) سورة الحج : الآية ٢٥ .

(٣) سورة الحج : الآية ٦٣ .

بماء أثرِ المطر زماناً بعد زمان ، فإنزال الماء مغنى وجوده ، واخضرارُ الأرضِ باقٍ لم يمضِ ، وهذا كما تقولُ « أنعم على فلان فأروحُ وأغدوا شاكرآ له » ، ولو قلتَ : فرحتُ وغدوتُ شاكرآ له ، لم يقع ذلك الموقع ، لأنه يدلُّ على ماضٍ قد كان وانقضى .

وهذا موضعٌ حسنٌ ينبغي أن يتأمل .

* * *

وأما الإخبارُ بالفعلِ الماضى عن المستقبل فهو عكسُ ما تقدّم ذكره ، وفائدته أن الفعلَ الماضى إذا أخبر به عن الفعلِ المستقبل الذى لم يوجد بعدُ كان ذلك أبلغَ وأوكدَ فى تحقيقِ الفعلِ وإيجاده ، لأنَّ الفعلَ الماضى يعطى من المعنى أنه قد كانَ ووُجِدَ ، وإنما يُفعل ذلك إذا كان الفعلُ للمستقبل من الأشياءِ العظيمة التى يُستعظم وجودها .

والفرقُ بينه وبين الأخبارِ بالفعلِ المستقبل عن الماضى أن الغرضَ بذلكَ تبيينِ هيئةِ الفعلِ : واستحضارِ صورته ، ليكونَ السامعُ كأنه يشاهدها ، والغرضُ بهذا هو الدلالةُ على إيجادِ الفعلِ الذى لم يوجدَ بعدُ .

فمن أمثلة الأخبارِ بالفعلِ الماضى عن المستقبل قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فى الأَرْضِ » (١) .

فإنه إنما قال « ففزِع » بلفظِ الماضى بعد قوله « يُنْفَخُ » — وهو مستقبل — للإشعار بتحقيقِ الفزع ، وأنه كائن لا محالة ، لأنَّ الفعلَ الماضى يدلُّ على وجودِ الفعلِ ، وكونه مقطوعاً به .

(١) سورة النمل الآية ٨٧ .

وكذلك جاء قوله تعالى : « ويوم نَسِيرُ الجبال وتَرَى الأرضَ بارِزَةً وحَشْرَناهم فلم نَعُدِ منهم أحداً » (١) .

وإنما قيل : « وحشروناهم » ماضياً بعد « نسير » و « ترى » — وهما مستقبليان — للدلالة على أن حشروهم قبل التسيير والبروز ، ليشاهدوا تلك الأحوال كأنه قال : وحشروناهم قبل ذلك ، لأن الحشر هو المهيم ، لأن من الناس من ينكروه كالفلاسنة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي .

ومما يجرى هذا المجرى الإخبارُ باسم المفعول عن الفعل المستقبل ، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي ، وقد سبق الكلامُ عليه .

فمن ذلك قوله تعالى : « إنَّ في ذلك لآيةً لمن خافَ عذابَ الآخرةِ ذلكَ يومَ مَجْمُوعٍ » اه النَّاسُ وذلكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » (٢) .

فإنه إنما آثر اسم المفعول الذي هو « مجموع » على الفعل المستقبل الذي هو « يجمع » لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوفُ بهذه الصفة ، وأن شئتَ فوازنُ بينه وبين قوله تعالى « يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ » (٣) فإنك تعثرُ على صحة ما قلتُ .

النوع الخامس

في توكيد الضميرين

إن قيل في هذا : الموضع إن الضمائر مذكورة في كتب النحو ، فأى حاجة إلى ذكرها هاهنا ، ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته ؟

(١) سورة الكهف : الآية ٤٧ .

(٢) سورة هود الآية ١٠٣ .

(٣) سورة التغابن : الآية ٩ .

قلتُ : إن هذا يختصُّ بفصاحةٍ وبلاغةٍ ، وأولئك لا يتعرضون إليه .
وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأن المنفصل منه كذا ، والمتصل كذا ، ولا
يتجاوزون ذلك ، وأما أنا فإني أوردت في هذا الذريع أمراً خارجاً عن
الأمر النحوي .

وأعني بقولي « توكيد الضميرين » أن يؤكد المتصل بالمنفصل ، كقولك :
« إِنَّكَ أَنْتَ » أو يؤكد المنفصلُ بمنفصلٍ مثله كقولك « أَنْتَ أَنْتَ » ، أو
يؤكد المتصل بمتصلٍ مثله ، كقولك : « إِنَّكَ إِنَّكَ لعالم » أو « إِنَّكَ إِنَّكَ
لجواد » .

وإنما يؤتى بمثل هذه الأقوال في معرض المبالغة ، وهو من أسرار
علم البيان .

ولنتقدم في ذلك قولاً يحصره ، ويجمع أطرافه ، فنقول :

إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً في النفوس فانت بالخيار في توكيد أحد
الضميرين فيه بالآخر ، وإذا كان غير معلوم ، وهو مما يشك فيه ، فالأولى
حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه ، لتقرّره وتثبته .

فما جاء من ذلك قوله تعالى : « قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ تُنْقِى وَإِنَّمَا أَنْ
نَكُونُ نَحْنُ الْمُتَّقِينَ » (١) .

فإن إرادة السحرة الإلتناء قبل موسى لم تكن معلومة عنده ، لأنهم لم
يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك : لَكَنَّهُمْ لَمَّا عَدَلُوا عَنْ مَقَابَلَةِ خَطَايَاهُمْ
مُوسَى بِمِثْلِهِ إِلَى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما « نَكُونُ » و « نَحْنُ »
دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه ، والإلتقاء قبله . لأن من شأن مقابلة

(١) سورة الأعراف : الآية ١١٥ .

خطابهم موسى بمثله أن كانوا قالوا : إِمَّا أَنْ تُتْلَىٰ وَإِمَّا أَنْ تُتْلَىٰ ، لتكون
الجلتان متقابلتين ، فحيثُ قالوا عن أَنفُسِهِمْ : « وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُتْلِينَ »
استدلَّ بهذا القول على رغبتهم في الإلقاء قبله .

توكيد المتصل بالمتصل :

وأما توكيد المتصل بالمتصل فكقوله تعالى في سورة الكهف : « فَأَنْطَلَقَا
حَتَّىٰ إِذَا تَقَيَّأْنَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ^(١) » .

وهذا بخلاف قصة السفينة ، فإنه قال فيها : « أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ^(٢) » .

والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى ^(٣) ، فقال
في الأولى « أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ . . . » وقال في الثانية : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ » .

وإنما جيء بذلك للزيادة في مكابحة العتاب على رفض الوصية مرّة على
مرّة ، والوسم بعدم الصبر .

وهذا كما لو أتى الإنسان ما نهىته عنه ، فلمتّه وعنفته ، ثم أتى ذلك مرّة
ثانية ، أليس أنك تزيد في لومه وتعنيفه ؟

وكذلك فعل هاهنا ، فإنه قيل في اللامة أولاً : « أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ » ثم قيل
ثانياً : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ » وهذا موضع يدقُّ عن العثور عليه ببادرة النظر ،
مالم يُعْطَ التأمُّلُ فيه حقّه .

(١) سورة الكهف : الآيتان ٧٤ و٧٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٧٢ .

(٣) أي أكد الضمير في قصة الغلام ولم يؤكد في قصة السفينة التي

هي الأولى في الترتيب القرآني .

توكيد المتصل بالمنفصل :

وأما توكيد المتصل بالمنفصل فنحو قوله تعالى : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قَلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (١) » فتوكيد الضميرين هاشمنا في قوله « إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » أنفي للخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه للغلبة والقهر ، ولو قال : « لَا تَخَفْ إِنَّكَ الْأَعْلَى » أو « فَأَنْتَ الْأَعْلَى » لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي الخوف ما لقوله : « إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

وفي هذه الكلمات الثلاث ، وهي قوله : إِنَّكَ ، أَنْتَ ، الْأَعْلَى ، ستُّ فوائد :

الأولى : « إِنْ » المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها ، كقولك « زيد قائم » ، ثم تقول : « إِنْ زَيْدًا قَائِمٌ » ففي قولك : « إِنْ زَيْدًا قَائِمٌ » من الإثبات لقيام زيد ما ليس في قولك : « زيد قائم » .

الثانية : تكرير الضمير في قوله « إِنَّكَ أَنْتَ » ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المسكاة في التقرير لغاية موسى والإثبات لقهره .

الثالثة : لام التعريف في قوله « الْأَعْلَى » ولم يقل : « أَعْلَى » ولا « عَالٍ » لأنه لو قال ذلك لكان قد نكَّره ، وكان صالحاً لكل واحدٍ من جنسه ، كقولك : « رجل » فإنه يصلح أن يقع على كل واحدٍ من الرجال ، وإذا قلت « الرجل » فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف ، وجعلته عالماً فيهم وكذلك جاء قوله تعالى : « إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » أي : دُونَ غَيْرِكَ .

الرابعة : لفظ « أَفْعَل » الذي من شأنه التفضيل ، ولم يقل « العالی » .

الخامسة . إثبات الغلبة له من العلو ، لأن الغرض من قوله : « الْأَعْلَى »

(١) سورة طه : الآيتان ٦٧ و٦٨ .

أى : الأغلب ، إلا أن في الأعلى زيادةً ، وهي الغلبة من عالي .

السادسة : الاستئناف ، وهو قوله تعالى : « لا تخف إنك أنت الأعلى » ولم يقل : « لأنك أنت الأعلى » لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونهً عاليًا ، وإنما نفي الخوف عنه أولاً بقوله : « لا تخف » ، ثم استأنف الكلام ، فقال : « إنك أنت الأعلى » فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء ، وأثبت لذلك في نفسه .

وربما وقع لبعض الأغمار أن يعترض على ما ذكرناه في توكيد أحدِ الضميرين بالآخر ، فيقول : لو كان توكيدُهما أبلغ من الاقتصارِ على أحدهما لوردَ ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه حيث هو أولى بما هو أبلغ وأوكد من القول ، وقد رأينا في القرآن الكريم مواضع تختصُّ بذكر الله تعالى ، وقد وردَ فيها أحد الضميرين دون الآخر كتوله عز اسمه . « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملكَ من تشاء وتنزعُ الملكَ ممن تشاء وتوزعُ من تشاء وتُدليُّ من تشاء بيديك الخبيرُ إنك على كلِّ شيءٍ قديرٌ ^(١) » ولم يقل : « إنك أنت على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، فما الموجب لذلك إن كان توكيدُ أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصارِ على أحدهما ! ؟

الجوابُ على ذلك أننا نقول : قدَّّمنا القولَ في أوّل هذا النوع أنه إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً فصاحبُ الكلام مُخَيَّرٌ في توكيدِ أحدِ الضميرين بالآخر ، فإن أكَّد فقد أتى بفضل بيانٍ ، وإن لم يؤكِّد فلأنَّ ذلك المعنى ثابتٌ لا يفتقرُ في تقريره إلى زيادةٍ تأكيدية كهذه الآية المشار إليها ، وهي قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك ، فإنَّ العلمَ بأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ لا يفتقرُ إلى تأكيدٍ يقرِّره .

(١) سورة ال عمران : الآية ٢٦ .

وقد ورد ما يجرى مجرى هذه الآية مؤكداً كقوله تعالى : « وإذ قال الله
 يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأئمتي إلهين من دون الله قال
 سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته
 فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام
 الغيوب (١) » .

فأكد في هذه الآية ولم يؤكّد في الأخرى ، وقد عرفتك الطريق
 في ذلك .

وأما إذا كان المعنى المقصود غير معلوم ، وهو مما يشك فيه ، فالأولى أن
 يؤكد بالضميرين في الدلالة عليه ، كقوله تعالى : « قلنا لا تخف إنك أنت
 الأعلى » فإن موسى لم يكن متيقناً أنه غالب للسحرة ، فلذلك أكد خطابه
 بالضميرين ، ليكون أبلغ في تقرير ذلك في نفسه .

توكيد المنفصل بمنفصل :

وأما توكيد المنفصل بمنفصل مثله ؛ فكقول أبي تمام (٢) :

لا أنت أنت ولا الديار ديار خفّ الهوى وتوالت الأوطار

فقوله : « لا أنت أنت ولا الديار ديار » من الملبح النَّادر في هذا الموضع ،
 لأنه هو هو والديار الديار ، وإنما البواعث التي كانت تبعث على قضاء الأوطار
 زالت فبقي ذلك الرجل وليس هو هو على الحقيقة ، ولا الديار في عينه من
 الحسن تلك الديار .

(١) سورة المائدة : الآية ١١٦ .

(٢) ديوان أبي تمام ١٤٤ وهذا البيت مطلع قصيدة في مدح أبي سعيد

الشعري .

وعلى هذا ورد قول ابن الطيب المتنبي^(١) :

قَبِيلٌ أَنْتَ أَنْتَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَجَدَّكَ بِشْرُ الْعَلِكِ الْهَامِ

فقوله « أنت أنت » من توكيد الضميرين المشار إليهما ، وفائدته المبالغة في مدحه ، ولو مدحه بما شاء الله لما سدد مسدّ قوله : « أنت أنت » أى : أنك المشار إليه بالفضل دون غيرك .

وأما قوله « وأنت منهم » فمخرج عن هذا الباب ، وهو كلام مستأنف لا يتعلّق بتوكيد الضميرين ، كأنه قال : أنت الموصوفُ بكذا وكذا ، وأنت من هذا القبيل ، يريد بذلك مدح قبيله به .

وهذا البيت لم أمثل به اختياراً له واستجادةً ، وإنما مثلت به ليعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل ، وإلا فالبيت ليس من المرضى ، لأن سبكه سبك عارٍ من الحسن ، وفيه تقديم وتأخير .

وقرأت في كتاب (الأغانى) لأبى الفرج أن عمرو بن ربيعة قال لزياد ابن الهبولة^(٢) : « يا خير الفتيان ، اردد على ما أخذته من إبلى » فردّها عليه ، وفيها فحلّها ، فنازعه الفحل إلى الإبل ، فصرّعه عمرو ، فقال له زياد : « لو صرّعتم يابنى شيبان الرّجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم أنتم » فقال عمرو له : « لقد أعطيت قليلاً ، وسمت جليلاً ، وجررت على نفسك وبيلاً طويلاً » فقوله له : « لكنتم أنتم أنتم » أى : أنتم الأشداء ، أو الشجعان ،

(١) ديوان المتنبي ٤ - ٧٩ من قصيدة يمدح فيها المغيث بن على

العجلى ، مطلعها :

فؤاد ماتسليه المدام وعمر مثل ماتهب اللثام

(٢) فى القاموس المحيط (٤ - ٦٧) أن ابن هبولة ، أو الهبولة ،

أوالهبول : ملك من ملوكهم .

أَوْ ذَوُو النَجْدَةِ وَالْبَأْسِ ، أَوْ مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى ؛ إِلَّا أَنْ فِي « أَنْتُمْ » الثَّانِيَةَ تَخْصِيصًا لَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ ، كَأَنَّهُ قَالَ : لَكُنْتُمْ أَنْتُمْ الشُّجْعَانُ دُونَ غَيْرِكُمْ ، وَلَوْ مَدَحَهُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ مَدَحَهُمْ مِنْ وَصْفِ الْبَأْسِ وَالشَّدَةِ وَالشَّجَاعَةِ لَمَا بَلَغَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، أَعْنَى « أَنْتُمْ » الثَّانِيَةَ .

وهذا موضعٌ من علم البيانِ تتسكَّأُ بحاسِنِهِ ، فَأَعْرِفُهُ .

النوع السادس

في عطف المظهر على ضميره والافصاح به بعده

وهذا إنما يُعَمَدُ إِلَيْهِ لِنَائِدَةٍ ، وَهِيَ تَعْظِيمُ شَأْنِ الْأَمْرِ الَّذِي أَظْهَرَ عِنْدَهُ الْإِسْمَ الْمَضْمَرُ أَوَّلًا .

ومثال ذلك قولُ القائل : « وَلَمَّا تَلَّاقَيْنَا وَبَنُو تَمِيمٍ أَقْبَلُوا نَحْوَنَا يَرْكُضُونَ ، فَرَأَيْنَا مِنْهُمْ أَسْوَدًا تُكَلِّمُ السَّابِقُ الْأَسْتِمَةَ إِلَى الْوُرُودِ ، وَلَا تَرْتَدُّ عَلَى أَعْقَابِهَا إِذَا ارْتَدَّتْ أَمْثَالُهَا مِنَ الْأَسْوَدِ ، وَتَنَاجَدَ بَنُو تَمِيمٍ عَلَيْنَا بِجَمَلَةٍ ، فَلَدْنَا بِالْفِرَارِ ، وَاسْتَبَقْنَا إِلَى تَوَلِيَةِ الْأَدْبَارِ » فَإِنَّهُ إِذَا قِيلَ : « وَتَنَاجَدَ بَنُو تَمِيمٍ » مَصْرَحًا بِاسْمِهِمْ ، وَلَمْ يَقُلْ « وَتَنَاجَدُوا » كَمَا قِيلَ « أَقْبَلُوا » لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّعَجُّبِ مِنْ إِقْدَامِهِمْ عِنْدَ الْحَمَلَةِ ، وَثِبَاتِهِمْ عِنْدَ الصَّدْمَةِ ، لِاسْتِثْنَاءِ وَقَدْ أَرَدَفَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ « لَدْنَا بِالْفِرَارِ ، وَاسْتَبَقْنَا إِلَى تَوَلِيَةِ الْأَدْبَارِ » كَأَنَّهُ قَالَ : وَتَنَاجَدَ أَوْلَاكَ الْفِرْسَانُ الْمَشَاهِيرَ ، وَالْكُمَاةُ الْمُنَاكِرَ ، وَحَمَلُوا عَلَيْنَا حَمَلَةً وَاحِدَةً ، فَوَلَّيْنَا مُدْبِرِينَ مِنْهُمْ مَهْزَمِينَ .

ومما جاء من ذلك قوله تعالى : « أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ

الخالق ثم الله يُبْدِيهِ النشأة الآخرة^(١) ، ألا ترى كيف صرّح باسمه تعالى في قوله : « ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » مع إيقاعه مبتدأ في قوله : « كيف يبدي الله الخلق » وقد كان القياس أن يقول : كيف يبدي الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة .

والفائدة في ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة ، وكان صدر الكلام واقعا معهم في الإبداء ، وقرّره أن ذلك من الله ، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، وإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء ، فوجب أن لا تعجزه الإعادة ، فلذلك لالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة أبرز اسمه تعالى ، وأوقعه مبتدأ ثانياً .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءَ الْكَافِرِينَ^(٢) » .

ألا ترى أنه قال أولاً : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ » فذكر مضمراً تقدّم الكلام فيه ، ثم عطف المظهر الذي هو له ، وهو قوله « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » وكان العطف لو أضمر كما أضمر الأول لقليل : ثم أنزل الله سكينته عليكم وأنزل جنوداً لم تروها ؟

وفائدة الإظهار هاهنا للمطوف بعد إضماره أولاً التنويه بذكر رسول الله

(١) سورة العنكبوت : الآيتان ١٩ و ٢٠ .

(٢) سورة التوبة : الآيتان ٢٥ و ٢٦ .

صلى الله عليه وسلم ، وذكر المؤمنين ، أو لأنَّ الأمر عظيم ، وهو الانتصارُ بعد الفرار ، فأى الأمرين قدر كان لإظهارِ المعطوفِ مناسباً .

وهكذا يكون عطفُ المظهرِ على ضميره ، فإنه يستندُ إلى فائدةٍ بهم ذكرها فإن يكنْ هناك ^(١) مثلُ هذه الفائدةِ وإلا فلا يحسنُ الإظهارُ بعدَ الإضمارِ .

وكذلك جاء قوله تعالى : « إذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قالوا ما هذا إلا رجلٌ يريدُ أن يصدِّدَكم عما كان يعبدُ أبؤكم وقالوا ما هذا إلا إفكٌ مفترىٌ وقال الذين كفروا للحقِّ لمَّا جاءهم إن هذا إلا سحرٌ مبين ^(٢) » فإنه إنما قال : « وقال الذين كفروا » ولم يقل : وقالوا كالذى قبله للدلالة على صدور ذلك عن إنكارٍ عظيم ، وغضبٍ شديد ، وتعجبٍ من كفرهم بليغ ؛ لاسيما وقد انضاف إليه قوله : « وقال الذين كفروا للحقِّ لمَّا جاءهم » وما فيه من الإشارة إلى القائلين والمتقول فيه ، وما فى ذلك من المبادهة ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجرائتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحقِّ المبين قبل أن يتدبروه : إن هذا إلا سحرٌ مبين .

وعلى نحوٍ من ذلك وردَ قوله تعالى : « ص * وَالْقُرْآنِ ذى الذِّكْرِ بل الذين كفروا فى عزّةٍ وشقاقٍ * كم أهلكنّا من قبلهم من قرنٍ فنأدوا ولات حين مناصٍ » وعجبوا أن جاءهم مُنذرٌ منهم وقال الكافرونَ هذا ساحرٌ كذاب ^(٣) .

(١) فى الأصل « فإن لم يكن هناك » وسياق المعنى يقتضى حذف « لم » والتقدير : إن يكن هناك مثل هذه الفائدة حسن الإظهار ، وإلا فلا يحسن الإظهار .

(٢) سورة سبأ الآية ٤٣ .

(٣) سورة ص : الآيات ١ و٢ و٣ و٤ .

وكان القياسُ أن يُقال : وقالوا هذا ساحر كذاب ، عطفًا على «عَجِبُوا»
 وإنما أتى باسم الكافرين -- مظهرًا بعد إضمار -- للأشعار بتعظيم
 ما اجترأوا عليه من القول في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، أو لأن هذا القول
 كان أهمَّ عندهم وأرْسَخَ في نفوسهم ، فصرَّح باسم قائله ، دلالةً على ما كان
 في أنفسهم منه .

النوع السابع

في التفسير بعد الإبهام

اعلم أن هذا النوع لا يعتمدُ إلى استعماله إلا لَصْرَبٍ من المبالغة ، فإذا جيء
 به في كلامٍ فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم وإعظامه ، لأنه هو الذى يطرقُ
 السَّمْعَ أولًا . فيذهبُ بالسَّامِعِ كُلِّ مذهب ، كقوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ
 الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ^(١) » .

ففسر ذلك الأمر بقوله « أن دابر هؤلاء مقطوع » وفي إبهامه أولًا
 وتفسيره بعد ذلك تفخيمٌ للأمر ، وتعظيمٌ لشأنه ، فإنه لو قال : وقضينا إليه
 أن دابر هؤلاء مقطوع ، لما كان بهذه المكانة من الفخامة ، فإن الإبهامَ
 أولًا يوقع السَّامِعَ في حيرةٍ وتفكيرٍ ، واستعظامٍ لما قرع سمعه ، وتشوُّفٍ إلى
 معرفته ، والاطلاع على كنهه .

وعلى نحوٍ من هذا جاء قوله تعالى : « قال قد أتيت سؤالك يا موسى *
 ولقد مننَّا عليك مرَّةً أُخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي . أن اقدفيه في
 التابوتِ فاقدفيه في اليمِّ ^(٢) » .

(١) سورة الحجر الآية ٦٦ .

(٢) سورة طه : الآيات ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ .

فسّر « ما يوحى » بقوله « أن اقدفيه » وهذا كالأول في إبهامه أولاً
وتفسيره ثانياً .

ومثلُ هذا وَرَدَ قوله تعالى في سورة أم الكتاب : « اهدنا الصراط
المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » فإنه إنما قال ذلك ولم يقل : اهدنا
صراط الذين أنعمت عليهم لما في الأول من التنبيه والإشعار بأن الصراط
المستقيم هو صراط المؤمنين ، فدلّ عليه بأبلغ وجه ، كما تقول : هل أدلك
على أكرم الناس وأفضلهم ؟ ثم تقول : فلان ، فيكون ذلك أبلغ في وصفه
بالكرم والفضل من قولك : هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل ؟ لأنك
ثبت ذكره مُجْمَلًا ومفصلاً ، فجعلته علمًا في الكرم والفضل ، كأنك قلت :
من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين جميعاً فعليه فلان !

فإن قيل : فما الفرق بين عطف المظهر على ضميره وبين التفسير بعد
الإبهام فإن المضمّر كالإبهام ؟

فالجوابُ عن ذلك أنى أقول :

إن كان سؤالك عن فائدتيهما فإنهما في الفائدة سواء ، وذلك أنهما إنما
يرادان لتمظيم الحال ، والإعلام بفخامة شأنها .

وإن كان سؤالك عن الفرق بينهما في العبارة ، فإنى أقول .

المضمّر يأتى بعد مظهرٍ تقدّم ذكره أولاً ، ثم يُعطف المظهر على ضميره ،
أى ضمير نفسه ، كالمثال الذى ضربناه فى بنى تميم .

وأما التفسيرُ بعد الإبهام فإن المبهّم يقدّم أولاً ، وهو أن يذكر شيئاً يقع
عليه إبهامٌ محتملاتٌ كثيرة ، ثم يفسّر بايقاعه على واحدٍ منها ، وليس كذلك
عطف المظهر على ضميره .

ومَّا جَاءَ مِنَ التَّفْسِيرِ بَعْدَ الإِبْهَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١) » .

الأترى كيفَ قال : « أهدكم سبيلَ الرِّشَادِ » فأيهمَ سبيلَ الرِّشَادِ ، ولم يبيِّنْ أَىَّ سبيلٍ هو ، ثم فسَّرَ ذلكَ فافتتحَ كلامهُ بدمِّ الدنيا ، وتصغيرِ شأنها ، ثم نثى ذلكَ بتعظيمِ الآخرةِ والأطِّلاعِ على حقيقتها ، ثم ثلثَ بذكرِ الأعمالِ سيِّئها وحسنها ، وعاقبةِ كلِّ منهما ، ليُدبِّطَ عما يُتلفُ ، ويندبِّطُ لما يُزُلفُ ، كأنه قال : سبيلُ الرِّشَادِ هو الإِعْرَاضُ عَنِ الدُّنْيَا ، والرَّغْبَةُ فِي الآخِرَةِ ، والامْتِنَاعُ عَنِ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ، خَوْفُ المَقَابِلَةِ عَلَيْهَا ، والمَسَارَعَةُ إِلَى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، رَجَاءُ المَجَازَاةِ عَلَيْهَا .

وكذلكَ وردَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَاذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ^(٢) » .

فإنه إنما قال « القواعد من البيت » ولم يقل « قواعد البيت » لما في إبهام القواعد أولاً وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حال المبيِّن ما ليس في الإضافة .

ومَّا يَجْرِي هَذَا المَجْرَى قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ^(٣) » .

(١) سورة المؤمن : الآيات ٣٨ ، ٣٩ و ٤٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٧ .

(٣) سورة المؤمن : الآيتان ٣٦ و ٣٧ .

فإنه لما أراد تفخيم ما أمّل فرعون من بلوغه أسباب السموات أبهمها أولاً ، ثم فسرها ثانياً ، ولأنه لما كان بوعها أمراً عجيبيّاً أراد أن يورده على نفس متشوّقة إليه ، يعطيه السامع حقه من التعجّب ، فأبهمه ليشوّف إليه نفس هامان ، ثم أوضحه بعد ذلك .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (١) .

فإنه قال أولاً : « أعظكم بواحدة » فأبهم الواحدة ، ثم فسرها بقوله : « أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تفكروا » (٢) .

وهذا في القرآن الكريم كثير الاستعمال :

وأما الإبهام من غير تفسير فكثير شائع في القرآن الكريم أيضاً ، كقوله تعالى : « وفعلت فعلتك التي فعلت » (٣) .

وكذلك ورد قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » (٤) أي للطريقة ، أو الحالة ، أو الملة التي هي أقومها وأسدّها ، وأي ذلك قدرت لم تجد له مع الإفصاح ذوق البلاغة الذي تجده مع الإبهام ، وذلك لذهاب الوهم فيه كلّ مذهب ، وإيقاعه على احتمالات كثيرة .

وهذا كقول القائل : (لو رأيت عليّاً بين الصّفين) فإنه لو وصفه مهما

(١) سورة سبأ : الآية ٤٦ .

(٢) في الأصل « وأن » موضع « ثم » .

(٣) سورة الشعراء : الآية ١٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٩ .

وصَف من نَجْدَةٍ وشجاعةٍ وثباتٍ وإقدامٍ وأطال القولَ في ذلكَ لم يكن بمثابة ما يترامى إليه الوهمُ مع الإبهام ، وهذا للعارف برُموز هذه الصنّاعة وأسرارها .

وعلى هذا الأسلوبِ ورد قوله تعالى : (ففَشِيهِمْ من اليمِّ ما غَشِيَهُمْ) (١) وأبلغُ من ذلك قوله تعالى : (والْمَوْتِفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا ما غَشَّى) (٢) فإنه قال في تلك الآية : (ففَشِيهِمْ من اليمِّ ما غَشِيَهُمْ) فذكر (اليم) وهو البحر ، فصار الذي غَشِيَهُمْ إنما هو منه خاصّة ، وقال في هذه الآية : (فغَشَّاهَا ما غَشَّى) فأبهم الأمر الذي غَشَّاهَا به ، وجعله عامّاً ، وذلك أبلغ ؛ لأنّ السامع يذهبُ وهمه فيهِ كلَّ مذهب .

وأما ما جاء من ذلك شعراً فكقول البحترى (٣) :

بَعِيدٌ مَقِيلِ الصَّدْرِ لا يَقْبَلُ التِي يُحَاوِلُها مِنْهُ الأَرِيبُ المُخَادِعُ (٤)

فقوله (التي يحاولها) من الإبهام المقدم ذكره في الآية .

ومّا ينتظمُ بذلك قولُ الشاعرُ في أبياتِ الحماسة (٥) :

(١) سورة طه : الآية ٧٨ .

(٢) سورة النجم : الآيتان ٥٣ و ٥٤ .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ٤٦ من قصيدة له في مدح الفتح بن خاقان ،

مطلعها :

ألت وهل إلمامها لك نافع وزارت خيالا والعيون هواجع

(٤) رواية الديوان لصدر البيت هكذا

* مبيد مقيل السر لا يدرك الذي *

(٥) هو دريد بن الصمة ، من قصيدة قالها في رثاء أخيه عبد

الله بن الصمة « وأول المذكور منها في ديوان الحماسة ١ — ٣٤٢ :

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السوداء والقوم شهدي

صَبَاً مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ

فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ اِبْعُدِ (١)

قوله : (صَبَاً مَا صَبَا) من الإبهام الذي لو قَدَّرْتَ مَا قَدَّرْتَ فِي تفسيره لم تجدْ له من فضيلة البيان ما تجدُّ له مع الإبهام .

وعليه ورد قولُ أبي نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْفُؤَادِ بَدَلِيهِمْ

وَأَسَمْتُ سَرَحَ اللَّحْظِ حِينَ أُسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ أَمْرُو بِشَبَابِهِ إِذَا عَصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أُنَامُ

قوله : (وبلغتُ ما بلغَ امرؤُ بشبابه) من هذا النمط المشار إليه ، وهو من

المليح النادر .

ومما يجرى على هذا النهج قولُ الآخر في وصف الخمر :

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا

وَفِي الزُّجَاجَةِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي

وَالكَلَامُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ كَالكَلَامِ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ .

ومثله ورد قولُ بعض المتأخرين : (فؤاد فيه ما فيه) .

وعلى هذا وردَ قولِي فِي فَصْلِ مِنْ تَقْلِيدِ لِبَعْضِ الْوَزَرَاءِ ، قُلْتُ :

(وَأَنْتَ مُوَهَّلٌ لِوَاحِدَةٍ مَتَخَلِّقٌ لَهَا غُرْرَ الْجِيَادِ ، وَتَنَادِيهَا الْعَالِيَاءُ بِلِسَانِ

(١) صبا الأول من الميل ، والثاني من الصباء ، وهو حادثة السن .

والمعنى أنه مال إلى اللهو مدة صغرسنه ، فلما شاب ترك الملاهي . هكذا

شرحه التبريزي (١ / ٣٤٥) من ديوان الحماسة .

الإجماع، وتَفَخَّرُ بِهَا سُمِّرُ الأَقْلَامِ عَلَى سُمِّرِ الصَّعْدِ ، فَابْسُطْ يَدَكَ لِأَخْذِ كِتَابِهَا ،
 وَاسْمِعْ لَطِيبٌ ذَكَرَهَا بَعْدَ سَعْيِكَ فِي طَلَابِهَا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الخُطَّابَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ
 لَكِنَّهَا صَدَّتْ بِكَ عَنِ خُطَّابِهَا ، وَلَقَدْ مَضَى عَلَيْهَا زَمَنٌ وَهِيَ نَفُورٌ ، حَتَّى اسْتَقْدَاهَا
 الْآنَ تَأْنِسُكَ ، وَلَمْ تَسْبِقِ الأَقْدَارُ بِاسْمِكَ إِلَّا لَتَكُونَ سُلَيْمَانَهَا وَهِيَ بَلْقَيْسُكَ .
 وَهَذَا الوَازِرُ كَانَ اسْمُهُ (سَلِيمَانَ) . فَسُقَّتْ المَعْنَى إِلَيْهِ فِجَاءً كَمَا تَرَاهُ مِنْ
 الحَسَنِ وَاللَّطَافَةِ .

وَأَمَّا قَوْلِي (وَأَنْتَ مُؤَهَّلٌ لِوَأَحِدَةٍ) فَانَّهُ مِنَ الإِبْهَامِ مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ ،
 وَذَلِكَ بِخِلَافِ مَا وَرَدَ فِي الآيَةِ المَقْدَمِ ذَكَرَهَا ؛ لِأَنَّ تِلْكَ مِنَ التَّفْسِيرِ
 بَعْدَ الإِبْهَامِ .

وَمَا يَنْتَظَمُ فِي هَذَا السَّلَاكِ (الأَسْتِثْنَاءُ العَدَدِيّ) وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ المَبَالَغَةِ ،
 لَطِيفُ المَأْخُذِ ، وَفَائِدَتُهُ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَطْرُقُ سَمْعَ المَخَاطَبِ ذِكْرُ العَقْدِ مِنَ العَدَدِ
 فَيَكْثُرُ مَوْجِعُ ذَلِكَ عِنْدَهُ ، وَهُوَ شَبِيهُهُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِبْهَامِ أَوَّلًا ، ثُمَّ التَّفْسِيرِ
 بَعْدَهُ ثَانِيًا ، وَذَلِكَ كَقَوْلِ القَائِلِ : أُعْطِيْتَهُ مِائَةً إِلَّا عَشْرَةً ، أَوْ أُعْطِيْتَهُ أَلْفًا
 إِلَّا مِائَةً ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ لَوْ قَالَ : أُعْطِيْتَهُ تِسْعِينَ ، أَوْ تِسْعِمِائَةً .

وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَمَّتْ فِيهِمْ أَلْفَ
 سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) (١) وَلَمْ يَقُلْ : تِسْعِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ عَامًا ، لِفَائِدَةِ حَسَنَةٍ ،
 وَهِيَ ذِكْرُ مَا ابْتَدَأَ بِهِ نُوحٌ مِنْ أُمَّتِهِ ، وَمَا كَابَدَهُ مِنْ طَوْلِ المَصَابِرَةِ ، لِيَكُونَ
 ذَلِكَ تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَلْقَاهُ مِنْ أُمَّتِهِ وَتَثْبِيْتًا لَهُ ، فَإِنَّ
 ذِكْرَ رَأْسِ العَدَدِ الَّذِي هُوَ مَنْتَهَى العُقُودِ وَأَعْظَمُهَا أَوْقَعُ وَأَوْصَلُ إِلَى الغَرَضِ
 مِنْ اسْتِطْلَاقِ السَّمْعِ مَدَّةَ صَبْرِهِ ، وَمَا لِقَاةَ مِنْ قَوْمِهِ .

(١) سورة العنكبوت : الآية ١٤

النوع الثامن

في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات
أعلم أنه إذا كان الشيطان أحدهما خاصاً والآخر عاماً فإن استعمال العام
في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالة الإثبات ، وكذلك استعمال الخاص
في حالة الإثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي .

ومثال ذلك الإنسانية والحيوانية ، فإن إثبات الإنسانية يوجب إثبات
الحيوانية ، ولا يوجب نفيها نفي الحيوانية ، وكذلك نفي الحيوانية يوجب نفي
الإنسانية ، ولا يوجب إثباتها إثبات الإنسانية .

ومما ينتظم بذلك الأسماء المفردة الواقعة على الجنس التي يكون بينها وبين
واحداهتا التأنيث ، فإنه متى أريد النفي كان استعمال واحدها أبلغ ، ومتى
أريد الإثبات كان استعمالها أبلغ .

وكذلك يتصل بهذا النوع الصفتان الواردتان على شيء واحد ، فإنه إذا
لزم من وجود إحداهما وجود الأخرى اكتفي بها في الذكر ، ولم يحتاج إلى
ذكر الأخرى ، لأنها تبيء ضمناً وتبعاً ، أو أن يبدأ بها في الذكر أولاً ، ثم
تبيء الأخرى بعدها .

وأما الصفات المتعددة فإنه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالأدنى مرتبةً ، ثم
بعدها بما هو أعلى منها ، إلى أن ينتهي إلى آخرها .

هذا في مقام المدح ، فإن كان في مقام الذم عكست القضية .

فالأول — وهو الخاص والعام — نحو قوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
اسْتَوْفَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) (١) ولم يقل : ذهب

(١) سورة البقرة : الآية ١٧ .

بضوئهم ، موازناً لقوله (فلما أضاءت) لأن ذكر النور في حالة النفي أبلغ ، من حيث أن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة ، فلو قال : ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطى ذهب تلك الزيادة ، وبقاء ما يسمى نوراً ، لأن الإضاءة هي فرطُ الإنارة ، قال الله تعالى (هُوَ الَّذِي جَمَعَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) (١) فكلُّ ضوءٍ نور ، وليس كلُّ نورٍ ضوءاً .

فالفرض من قوله تعالى (ذهب الله بنورهم) إنما هو إزالة النور عنهم أصلاً ، فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء .

وكذلك أيضاً قوله تعالى (ذهب الله بنورهم) ولم يقل (أذهب نورهم) لأن كلَّ من ذهب بشيء فقد أذهب ، وليس كلُّ من أذهب شيئاً فقد ذهب به ، لأنَّ الذهابَ بالشيء هو استصحابُ له ومُضِيٌّ به ، وفي ذلك نوعٌ اختِجَارٍ بالذهوب به ، وإمساكٌ له عن الرجوع إلى حالته ، والعود إلى مكانه ، وليس كذلك الإذهب للشيء لزوال معنَى الاختِجَارِ عنه .

ومما يُحْمَلُ على ذلك الأوصافُ الخاصَّةُ إذا وقعت على شَيْئَيْنِ ، وكان يَلْزَمُ من وصفٍ أحدهما وَصْفُ الآخر ، ولا يَلْزَمُ عَكْسُ ذلك . ومثالُ قوله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ » (٢) . فإنه إنما خصَّ العَرْضَ بالذِّكْرِ ، دون الطُّول ، اللهمني الذي أشرنا إليه ، والمرادُ بذلك أنه إذا كانَ هذا عَرْضُهَا فكيف يكون طولها ؟

وهذا في حالة الإثبات ، ولو أريد النفي لكان له أسلوبٌ غير ما ذكرناه ؛ وهو أنه كان يخصُّ به الطولَ دون العَرْضِ .

* * *

(١) سورة يونس : الآية ٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

وأما الأسماء المفردة الواقعة على الجنس فنحو قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام : (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا أَنزَلْنَاكَ فِي ضَلَالٍ مّبِينٍ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (١) :

فإنه إنما قال (ليس بي ضلالة) ولم يقل : ليس بي ضلال ، كما قالوا ، لأن نفي الضلالة أبلغ من نفي الضلال عنه ، كما لو قيل : ألك تمر ؟ فقلت في الجواب : مالي تمر ، وذلك أنفي للتمر ، ولو قلت (مالي تمر) لما كان يؤدي من المعنى ما أداه القول الأول .

وفي هذا الموضوع دقة تحتاج إلى فضل تام ، فينبغي لصاحب هذه الصناعة مراعاته ، والعناية به .

فإن قيل : لافرق بين الضلالة والضلال ، وكلاهما مصدر قولنا ضلّ يضلّ ضللاً ، وضلّ يضلّ ضلالةً ، كما يقال : لذّ يلدّ لذاداً ولذاذةً !

فالجواب عن ذلك : أن الضلالة تكون مصدراً كما قلت ، وتكون عبارة عن المرة الواحدة ، تقول ضلّ يضلّ ضلالةً ، أي مرة واحدة ، كما تقول ضرب يضرب ضربةً ، وقام يقوم قومةً ، وأكل يأكل أكلةً :

والمراد بالضلالة في هذه الآية إنما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال ، فقد نفي ما فوقها من المرّتين والمرار الكثيرة .

* * *

وأما الصفتان الواردتان على شيء واحد فكقول الأشرّ النخعي (٢) :

-
- (١) سورة الأعراف : الآيتان ٦٠ و ٦١ .
(٢) هو مالك بن الحارث ، أحد بني النخع ، والأشتر لقب له ، كان شاعراً يمنيّاً من شعراء الصحابة ، شهد حرب القادسية أيام عمر بن الخطاب التي كانت بين المسلمين والفرس ، وكان لعل في حروبه مثل ما كان =

بَقِيْتُ وَفَرِيْ وَانْحَرَفْتُ عَلَى الْعُلَا

وَلَقِيْتُ أُضْيَانِي بوجه عُبُوسٍ (١)

إِنْ لَمْ أَشْنُ عَلَى ابْنِ حَرْبٍ غَارَةً

لَمْ تَخْلُ يَوْمًا مِنْ نِهَابِ نَفُوسٍ (٢)

خَيْلًا كَأَمْثَالِ السَّعَالِي شُرْبًا

تَعْدُو بِيضٍ فِي الْكَرْبِيَّةِ شُوسٍ (٣)

حَمِيَّ الْحَدِيدِ عَلَيْهِمْ فَكَانَهُ

لِعَمَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسٍ (٤)

= على رسول الله صلى الله عليه وسلم . كتب له على بولاية مصر ، فخرج يريد بها ، وبلغ ذلك معاوية ، فعظم عليه الأمر ، فبعث إلى المقدم على الحراج بالقلزم بعده وبميينه إن كفاه شرمالك فلما انتهى الأشتر إلى القلزم استقبله ذلك الرجل ، وعرض عليه النزول عنده فنزل فأتاه بطعام فأكل ، ثم جاءه بعسل وضع فيه سما فشربه فمات ، وذلك سنة ثلاث وثلاثين للهجرة ، فقال معاوية لما بلغه ذلك : إن لله جنوداً منها العسل .

(١) في الأصل «حلققت وفدى» موضع «بقيت وفري» والوفر المال ،

يقول : بقيت مالى ، ولم أنفقه فيما يكسبني الذكر الجميل .

(٢) يدعو على نفسه بما يكسبه السوء إن لم يشن أى يفرق الغارة على

ابن حرب يعنى معاوية بن أبى سفيان .

(٣) في الأصل «شرما» موضع «شربا» والتصويب عن الحماسة

٤٩/١ والسعالى الغيلان ، وقيل هى بنات الغيلان ، والشرب الضمر .

والبييض من البياض كناية عن الكرم ونقاء العرض ، والشوس جمع

أشوس ، وهو الغضببان أو المتكبر ، ونصب «خيلا» على أنه بدل من غارة

في البيت قبله .

(٤) في ديوان الحماسة (١/٤٩) - «مضان برق» موضع «لعان برق»

ألا ترى أنه رقى في التشبيه من الأدنى إلى الأعلى فقال « لمانُ برق أو شعاعُ شمس » لأن لمانَ البرق دون شعاعِ الشمس ؟ !

ومما وردَ من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : « ما لهذا الكتابِ لا يُقادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها »^(١) فإن وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة .

وعلى القياس المشار إليه أولاً فينبغي أن يكون لا يفادر كبيرةً ولا صغيرةً لأنه إذا لم يفادر صغيرةً ، فمن الأولى ألا يفادر كبيرةً .
وأما إذا لم يفادرِ كبيرةً ، فإنه يجوز أن يفادرِ صغيرةً ، لأنه إذا لم يعفُ عن الصغيرة فيقضى القياسُ أنه لا يعفُوا عن الكبيرة ، وإذا لم يعفُ عن الكبيرة فيجوز أن يعفُوا عن الصغيرة .

غير أن القرآن الكريم أحقُّ أن يتبع ، وأجدر بأن يقاس عليه لا على غيره والذي ورد فيه من هذه الآية ناقضٌ لما تقدم ذكره .
وكذلك ورد قوله تعالى : (فَلَا تَقُلْ لَهَا أُفٌّ وَلَا تَنْهَرْهَا)^(٢) لأن التأنيفِ أدنى درجة .

وقد تقدم قولِي في أول هذا النوع أنه إذا جاءت صفتان يلزم من وجود إحداهما وجود الأخرى أن يكتبي بذكرها دون الأخرى لأن الأخرى تجيء ضمناً وتبعاً ، وأن يبدأ بها في الذكر ، ثم تجيء الأخرى بعدها ، وعلى هذا فيقال : أولاً : فلا تنهَرهما ولا تقل لهما أُفٌّ ، لكن إذا لم يقل لهما (أُفٌّ) امتنع أن ينهَرهما .

(١) سورة الكهف : الآية ٤٩

(٢) سورة الإسراء : الآية ٢٣

وقد كان هذا هو المذهب عندي ، حتى وجدت كتاب الله تعالى قد وردَ
بمخلافه . وحينئذٍ عدتُ عما كنتُ أراهُ وأقول به .

* * *

وأما الصفاتُ المتعددةُ الواردةُ على شيءٍ واحدٍ فكقول أبي عبادة
البحترى في وصف نُحُولِ الرَّكَّابِ (١) :

يَتَرَقَّرِقْنَ كَالسَّرَابِ وَقَدْ خُضْنَ غَمَاراً مِنَ السَّرَابِ الْجَارِي
كَالْقِسِيِّ الْمُعْطَفَاتِ بَلِ الْأَسْهُمِ مَبْرِيَةً بَلِ الْأُوتَارِ
الآتري أنه رقى في تشبيه نُحُولِهَا من الأدنى إلى الأعلى ، فشبَّهها أولاً
بالقسي ، ثم بالأسهم المبرية ، وتلك أبلغُ في النُّحُولِ ، ثم بالأوتار ، وهي أبلغُ
في النُّحُولِ من الأسهم .

وكذلك ينبغي أن يكون الاستعمالُ في مثل هذا الباب .

وقد أغفل كثيرٌ من الشعراء ذلك فن جماتهم أبو الطيب المتنبي في
قوله (٢) :

يَابَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةً يَا لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلُ
ويُنْبَغِي أن يبدأ فيه بالأدنى فالأدنى ، فإنه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع

(١) ديوان البحترى ٢ / ٣٠ من قصيدة له في مدح أبي جعفر بن حميد ،
ومطلعها :

أبكاء في الدار بعد الدار وسلوا بزئب عن نوار
(٢) ديوان المتنبي ٣ / ٢١٥ من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار ، وقد
فصد لعلة مطلعها :

أبعد نأى المليحة البيخل في البعد مالا تكلف الإبل

من محلٍّ إلى محلٍّ أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمخفض من محلٍّ إلى محلٍّ أدنى منه .

فأما قوله (يا بدر) فإنه اسم الممدوح ، والابتداء به أولى ، ثم بعده فيجب أن يقول : يارجل ، ياليت ، ياغامة ، يا بحر ، يا حام ، لأن الليث أعظم من الرجل . والبحر أعظم من الغامة ، والحمام أعظم من البحر ، وهذا مقام مدح ، فيجب أن يرتقي فيه من منزلة إلى منزلة ، حتى ينتهي إلى المنزلة العليا آخرًا ، ولو كان مقام ذم لعكس القضية .

وعلى مثله ورد قول أبي تمام يفتخر^(١) :

سَمَا بِي أَوْسٌ فِي الْفَخَّارِ وَحَاتِمٌ وَزَيْدٌ الْقَمْنَا وَالْأَثْرَمَانِ وَرَافِعٌ^(٢)
نَجُومٌ طَوَالِيعُ جِبَالٍ فَوَارِعٌ غِيُوثٌ هَوَامِيعٌ سُبُولٌ دَوَافِعٌ^(٣)
فإن السُّبُولَ دُونَ الْغِيُوثِ ، وَالْجِبَالَ دُونَ النَّجُومِ ، وَلَوْ قَدَّمَ مَا آخَرَ لَمَا
أَخْتَلَّ النَّظْمُ بِأَنْ قَالَ :

سُبُولٌ دَوَافِعٌ غِيُوثٌ هَوَامِيعٌ جِبَالٌ فَوَارِعٌ نَجُومٌ طَوَالِيعٌ^(٤)
وهذا عندي أشدُّ ملامةً من المتنبي ، لأنَّ المتنبي لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته

(١) ديوان أبي تمام ٤٧٩ من قصيدة له يصف فيها قومه ، ويفتخر بهم ، ومطلعها :

ألا صنع البين الذي هو صنوع فإن تك مجزاعاً فما البين جازع
(٢) بين هذا البيت والبيت الذي يليه :

وكان إياس ما إياس وعارف وحرثة أو في الوري والأصابع
(٣) رواية الديوان « طواليع » موضع « طوالع » و « هواميع » موضع « هوامع » .

(٤) هذا على رواية ابن الأثير ، أما على رواية الديوان فإن النظم يختل بالتقديم والتأخير على النحو الذي افترضه ابن الأثير .

وتأخيرها ، وأبو تمام متمكّن من ذلك ، وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع
مع معرفته بالمعاني !!

النوع التاسع

في التقديم والتأخير

وهذا بابٌ طويلٌ عريض ، يشتمل على أسرارٍ دقيقةٍ ، منها ما استخرجته
أنا ، ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان ، وسأورد ذلك مبيّناً .
وهو ضربان :

الأول : يختصُّ بدلالة الألفاظ على المعاني ، ولو أُخِّرَ المقدم أو قدّم
المؤخر لتغير المعنى .

والثاني : يختصُّ بدرجة التقديم في الذكر ؛ لاختصاصه بما يوجب له ذلك ،
ولو أُخِّرَ لما تغيّر المعنى .

فأما الضربُ الأول فإنه ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : يكون التقديمُ فيه هو الأبلغ .

والآخر : يكون التأخير فيه هو الأبلغ .

فأما القسمُ الذي يكون التقديمُ فيه هو الأبلغ فكنتقديم المفعول على
الفعل ، وتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء
على العامل .

فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل كقولك : زيداً ضربتُ ، وضربتُ
زيداً ، فإن في قولك « زيداً ضربتُ » تخصيصاً له بالضربِ دون غيره ،
وذلك بخلاف قولك : « ضربتُ زيداً » لأنك إذا قدّمتَ الفعل كنتَ

بالخيارِ في إيقاعه على أى مفعولٍ شئت ، بأن تقول : ضربتُ خالدًا ، أو بكرًا
أو غيرهما ، وإذا أخرتهُ كَرِمَ الاختصاصُ للمفعول .

وكذلك تقديمُ خبر المبتدأ عليه ، كقولك : « زيد قائم » ، و « قائم
زيد » فقولك « قائم زيد » قد أثبت له القيامَ دونَ غيره ، وقولك « زيد
قائم » أنت بالخيارِ في إثبات القيام له ، وفيه عنه ، بأن تقول : ضاربٌ ،
أو جالسٌ ، أو غير ذلك .

وهكذا يجزى الحكم في تقديم الظرف ، كقولك : إن إلى مصير هذا
الأمر ، وقولك : إن مصيرَ هذا الأمر إلى ، فإنَّ تقديمَ الظرف دلَّ على أن
مصير الأمر ليس إلا إليك ، وذلك بخلاف قولك : إن مصيرَ هذا الأمر إلى ،
إذ يَحْتَمِلُ إيقاعَ الكلام بعد الظرف على غيرك ، فيقال : إلى زيد ، أو عمرو ،
أو غيرهما .

وكذلك يجزى الأمرُ في الحال والاستثناء .

وقال علماء البيان ، ومنهم الزَّخَشَرِيُّ — رحمه الله — : إنَّ تقديمَ هذه
الصُّورة المذكورة إنما هو للاختصاص ، وليس كذلك .

والذى عندى فيه أنه يُستعمل على وجهين :

أحدهما : الاختصاصُ .

والآخر : مراعاةَ نَظْمِ الكلام ؛ وذلك أن يكونَ نظمه لا يُحسن إلا
بالتقديم ، وإذا أُخِرَ المقدم ذهبَ ذلك الحُسن ، وهذا الوجه أبلغُ وأؤكدُ
من الاختصاص .

فأما الأوَّل — الذى هو الاختصاصُ — فنحو قوله تعالى : (قلْ أَفَغَيْرِ
اللهِ تَأْمُرُونِى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ

لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فاعْبُدْ
وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١).

فإنه إنما قال : « بل الله فاعبد » ولم يقل : بل اعبد الله ، لأنه إذا تقدم
وجب اختصاصُ العبادة به دون غيره ، ولو قال : بل اعبد لجاز ايقاع الفعل على
أى مفعولٍ شاء .

وأما الوجهُ الثاني — الذى يختصُّ بنظمِ الكلامِ — فنحو قوله تعالى :
(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

وقد ذكر الزمخشريُّ في تفسيره أنَّ التقديم في هذا الموضع قصد به
الاختصاص ، وليس كذلك ، فإنه لم يتقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص ،
وإنما قدَّم لِمَكَانِ نَظْمِ الْكَلَامِ ، لأنه لو قال : نعبدك ونستعينك ، لم يكن له
من الحسن ما لقوله « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ألا ترى أنه تقدّم قوله
تعالى : (الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين) فجاء
بعد ذلك قوله « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، وذلك لمرعاةِ حُسْنِ النَّظْمِ السَّجْمِيِّ
الذى هو على حرف النون ، ولو قال : نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة ،
وزال ذلك الحسن .

وهذا غير خافٍ على أحدٍ من الناس ، فضلاً عن أرباب علم البيان .
وعلى نحو منه وردَّ قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قَلْنَا
لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٢)) وتقدير الكلام : فأوجس موسى في نفسه خيفةً ،
وإنما قدَّم المفعول على الفاعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر
قصداً لتحسين النظم .

(١) سورة الزمر . الآيات ٦٤ و٦٥ و٦٦

(٢) سورة طه : الآيتان ٦٧ و٦٨

وعلى هذا فليس كلُّ تقديمٍ لما مكانه التأخير من باب الاختصاص ، فبطل
إذا ما ذهب إليه الزمخشري وغيره .

ومما وردَ من هذا البابِ قوله تعالى : (خُذُوهُ فَعُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمِ
صَلُّوهُ ^(١)) فإنَّ تقديمَ الجحيمِ على التَّصْلِيَةِ ، وإنَّ كانَ فيه تقديمُ المفعولِ على
الفعلِ ، إلَّا أنه لم يكنْ هاهنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السَّجَّعِيَّة ، ولا
مِرَاءَ في أنَّ هذا النظم على هذه الصُّورَةِ أَحْسَنُ من أنْ لو قيل : خُذُوهُ فَعُلُّوهُ ثُمَّ
صَلُّوهُ الْجَحِيمِ .

فإن قيل : إنما قُدِّمَت الجحيمُ للاختصاص ، لأنها نارٌ عظيمة ، ولو أُخِّرَت
لجَزَّ وَقُوعِ الفعلِ على غيرها ، كما يُقال : ضربتُ زيداً ، وزيداً ضربتُ ،
وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك .

فالجوابُ عن ذلك : أن الدركَ الأسفلَ أعظمُ من الجحيمِ ، فكانَ ينبغي
أنْ يُحْصَّ بالذِّكْرِ دونَ الجحيمِ ، على ما ذهبَ إليه ، لأنَّه أعظمُ .

وهذا لا يذهبُ إليه إلا من هو بِنَجْوَةٍ عن رُمُوزِ الفصاحةِ والبلاغةِ ،
ولفظة « الجحيمِ » ههنا في هذه الآيةِ أولى بالاستعمالِ من غيرها ، لأنها جاءتْ
ملائمةً لنظمِ الكلامِ ، ألا ترى أنَّ من أسماءِ النارِ السَّمِيرُ ، وَلَطَى ، وَجَهَنَّمَ ؛
ولو وضعَ بعضُ هذه الأسماءِ مكانَ الجحيمِ لما كانَ له من الطَّلَاوَةِ وَالْحُسْنِ
ما للجحيمِ ، والمقصودُ بِذِكْرِ الجحيمِ إنما هو النارُ ، أي صَلُّوهُ النارَ ، وهكذا
يُقَالُ في (ثم في سِلْسِلَةِ ذَرْعِهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْتَلْسَكُوهُ) ^(٢) .

(١) سورة الحاقة : الآيتان ٣٠ و ٣١

(٢) سورة الحاقة : الآية ٣٢

فإنه لم يقدم السلسلة على السالك للاختصاص ؛ وإنما قدمت لمكان نظم الكلام .

ولا شك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل : ثم اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ؛ والكلام على هذا كالكلام على الذي قبل .

وله في القرآن نظائر كثيرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (١) .

فقوله « والقمر قدرناه منازل » ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص ، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام ، فإنه قال : « الليل نسلخ منه النهار » ثم قال « والشمس تجري » فافتضى حسن النظم أن يقول « والقمر قدرناه » ليكون الجميع على نسق واحد في النظم ، ولو قال : وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة في الحسن .

وعليه ورد قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر » (٢) .

وإنما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعي .

وأما تقديم خبر المبتدأ عليه فقد تقدمت صورته كقولك : « زيد قائم » « وقائم زيد » .

(١) سورة يس : الآيات ٣٧ و ٣٨ و ٣٩

(٢) سورة الضحى : الآيات ٩ و ١٠

فِيمَا وَرَدَ مِنْهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتَهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ » (١) .

فإنه إنما قال ذلك ولم يقل : وظنوا أن حصونهم تمنعهم ، أو مانعتهم ،
لأن في تقديم الخبر الذي هو « مانعتهم » على المبتدأ الذي هو « حصونهم »
دليلاً على فرط اعتقادهم في حصانتها ، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم .
وفي تصويب ضميرهم إسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم
في أنفسهم أنهم في عزّة وامتناع لا يبالي معها بقصد قاصد ، ولا تعرّض
مترعّض ، وليس شيء من ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم مانعتهم
من الله .

ومن تقديم خبر المبتدأ قوله تعالى : « قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي
يَا إِبْرَاهِيمَ » (٢) .

فإنه إنما قدّم خبر المبتدأ عليه في قولك « أَرَأَيْتُ أَنْتَ » ولم يقل :
أَنْتَ رَأَيْتُ ، لأنه كان أهمّ عنده ، وهو به شديد العناية (٣) .
وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته ،

(١) سورة الحشر : الآية ٢

(٢) سورة مريم . الآية ٤٦

(٣) وهكذا في «مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل » للنسفي (٢٩/٣)

قال : إنه قدّم الخبر على المبتدأ ، لأنه كان أهمّ عنده .

ورأى جمهور النحاة أن «أنت» فاعل للمبتدأ «راغت» المعتمد

على استفهام ، وليس مبتدأ مؤخر كما ذكر ، وذلك للفصل بين «راغب»

والمعمول «عن آلهتي» بأجنبي وهو «أنت» وانظر حاشية الصبان على شرح

الأشمونى ٨/٢

وَأَنَّ آلِهَتَهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْغَبَ عَنْهَا ، وَهَذَا بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ : أَأَنْتَ رَاغِبٌ
عَنْ آلِهَتِي ؟ .

وَمِنْ غَامِضِ هَذَا الْمَوْضِعِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا
هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » (١) .

فإنه إنما قال ذلك ، ولم يقل : فإذا أبصارُ الذين كفروا شاخِصَةٌ لأمرين :
أحدهما : تخصيصُ الأبصارِ بالشُّخُوصِ دونَ غيرها ، أمَّا الأوَّلُ فلو قال :
فإذا أبصارُ الذين كفروا شاخِصَةٌ لجاز أن يضعَ موضعَ « شاخِصَةٌ » غيره ،
فيقول ، « حائرة » أو « مطموسة » أو غير ذلك ، فلما قدم الضمير اختصَّ
الشُّخُوصُ بالأبصارِ دونَ غيرها .

وَأَمَّا الثَّانِي فَإِنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ الشُّخُوصَ خَاصَّةً بِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ دَلَّ عَلَيْهِ
بِتَقْدِيمِ الضَّمِيرِ أَوَّلًا ، ثُمَّ بِصَاحِبِهِ ثَانِيًا ، كَأَنَّهُ قَالَ : فَإِذَا هُمْ شَاخِصُونَ دُونَ
غَيْرِهِمْ ، وَلَوْ لَا أَنَّهُ أَرَادَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْمَشَارَ إِلَيْهِمَا لَقَالَ : فَإِذَا أَبْصَارُ الَّذِينَ
كَفَرُوا شَاخِصَةٌ ، لِأَنَّهُ أَخْصَرَ بِحَذْفِ الضَّمِيرِ مِنَ الْكَلَامِ .

وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ ،
فَقَالَ : « هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ ، الْجِلُّ مَيْتَتُهُ » وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : هُوَ الَّذِي
مَاؤُهُ طَهُّورٌ ، وَمَيْتَتُهُ جِلٌّ ، لِأَنَّ الْأَلْفَ وَاللَّامَ هَاهُنَا بِمَعْنَى الَّذِي .

وَأَمَّا تَقْدِيمُ الظَّرْفِ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مَقْصُودًا بِهِ الْإِثْبَاتُ فَإِنَّ
تَقْدِيمَهُ أَوْلَى مِنْ تَأْخِيرِهِ ، وَفَائِدَتُهُ إِسْنَادُ الْكَلَامِ الْوَاقِعِ بِهِدَهُ إِلَى صَاحِبِ
الظَّرْفِ دُونَ غَيْرِهِ .

(١) سورة الأنبياء : الآية ٩٧

فإذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيرُه ، وكلا هذين الأمرين له موضعٌ يختصُّ به .

فأمَّا تقديمه في النفي فإنه يقصد به تفضيلُ المنفى عنه على غيره ، وأمَّا تأخيره فإنه يُقصد به النفي أصلاً من غير تفضيل .

فأمَّا الأول — وهو تقديم الظرف في الإثبات — فكقولك في الصورة المقدمة : **إِنَّ إِلَىٰ مَصِيرِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَوْ أَخَّرْتَ الظَّرْفَ ، قُلْتَ : إِنْ مَصِيرِ هَذَا الْأَمْرِ إِلَىٰ ، لَمْ يَعْطِ مِنَ الْمَعْنَى مَا أَعْطَاهُ الْأَوَّلُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوَّلَ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مَصِيرَ الْأَمْرِ لَيْسَ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَذَلِكَ بِخِلَافِ الثَّانِي إِذْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَوَقَّعَ السَّكَّامَ بَعْدَ الظَّرْفِ عَلَىٰ غَيْرِكَ ، فَيَقَالُ : إِلَىٰ زَيْدٍ ، أَوْ عَمْرٍو ، أَوْ غَيْرَهُمَا .**

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : **« إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »** (١) .

وكذا جاء قوله تعالى : **« يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ »** (٢) .

فإنه إنمَّا قدَّم الظرفين هاهنا في قوله **« لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ »** ليدلَّ بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره .

وقد استعمل تقديمُ الظرف في القرآن كثيراً كقوله تعالى : **(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَازِرَةٌ)** (٣) أي تنظر إلى ربها دون غيره ، فتقديمُ

(١) سورة الغاشية : الآيتان ٢٥ و ٢٦

(٢) سورة التغابن : الآية ١

(٣) سورة القيامة : الآيتان ٢٣ و ٢٤

الظرف هاهنا ليس للاختصاص^(١) ، وإنما هو كالذي أشرتُ إليه في تقديم المفعول ، وأنه لم يقدم للاختصاص ، وإنما قُدِّم من أجل نظم الكلام ، لأنَّ قوله تعالى :

« وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » أحسنُ من أن لو قيل : وجوه يومئذٍ ناضرة ناظرة إلى ربها ، والفرقُ بينَ النظمين ظاهر .

وكذا قوله تعالى : (وَالتَّمَّتِ السَّمَاوَاتُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ)^(٢) فإنَّ هذا رُوِيَ فيه حُسْنُ النَّظْمِ ، لا الاختصاصُ في تقديم الظرف .

وفي القرآن مواضعٌ كثيرةٌ من هذا القبيل يقيسُها غيرُ العارف بأسرار الفصاحة على مواضعٍ أخرى وردت للاختصاص ، ولبستَ كذلك .

فمنها قوله تعالى : (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرَّةُ)^(٣) .

وقوله تعالى : (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)^(٤) . و « لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »^(٥) . و (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)^(٦) .

فإنَّ هذه جميعها لم تقدم الظروفُ فيها للاختصاص ، وإنما قدمت للمراعاة الحسن في نظم الكلام ، فاعرف ذلك .

(١) ناقض المؤلف نفسه بقوله إن تقديم الظرف هاهنا ليس للاختصاص بعد تفسيره الآية بقوله « تنظر إلى ربها دون غيره » .

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٢٩ و ٣٠ .

(٣) سورة القيامة : الآية ١١ .

(٤) سورة الشورى : الآية ٥٣ .

(٥) سورة القصص : الآية ٨٨ .

(٦) سورة هود : الآية ٨٨ .

وأما الثاني — وهو تأخير الظرف وتقديمه في النفي — فنحو قوله تعالى :
 (الْمَ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) ^(١) وقوله تعالى : (لا فيها غَوْلٌ ولاهُمْ
 عَنْهَا يُنْزَفُونَ) ^(٢) . فإنه إنما أحرَّ الظرف في الأوَّل لأنَّ القصدَ في إِبلاءِ حرفِ
 النفي الرِّيبَ نَفَى الرِّيبَ عنه ، وإثبات أنه حقٌّ وصدقٌ ، لا باطلٌ وكذبٌ ، كما
 كانَ المشركونَ يدَّعونَه ، ولو قدَّم الظرفَ لقصد أن كتاباً آخرَ فيه الرِّيبَ
 لا فيه ، كما قصد في قوله تعالى : « لا فيها غَوْلٌ » فتأخَّرَ الظرفُ يقتضى النفيَ
 أصلاً من غير تفضيلٍ ، وتقديمه يقتضى تفضيلَ المنفى عنه ، وهو خمر الجنة على
 غيرها من سُحُور الدنيا ، أى ليسَ فيها ما في غيرها من العوَل . وهذا مثل قولنا :
 لا عيبَ في الدار ، وقولنا : لا فيها عيبٌ ، فالأوَّل نفيُ العيب عن الدَّار قطعاً ،
 والثَّاني تفضيلٌ لها على غيرها ، أى ليسَ فيها ما في غيرها من العيب ، فأعرفُ
 ذلك فإنه من دقائق هذا الباب .

وأما تقديمُ الحالِ فكقولك : « جاءَ راكباً زيدٌ » ، وهذا بخلاف
 قولك : « جاءَ زيدٌ راكباً » ، إذ يُحتمِلُ أن يكونَ ضاحكاً ، أو ماشياً ،
 أو غير ذلك .

وأما الاستثناءُ فجاءَ هذا الجَرى ، نحو قولك : « ما قامَ إلاً زيداً أحدٌ » ،
 أو « ما قامَ أحدٌ إلاً زيداً » ، والكلامُ على ذلك كالكلامِ على ما سبق .

المعاطلة المعنوية :

وأما القسم الثاني فهو أن يقدِّم ما الأوَّلِي به التأخير ، لأنَّ المعنى يمتلئ
 بذلك ويضطرب ، وهذا هو (المعاطلة المعنوية) وقد قدَّمتنا القول في المقالة

(١) سورة البقرة : الآيتان ١ و ٢

(٢) سورة الصافات : الآية ٤٧

الأولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظة تنقسم قسمين : أحدهما لفظي ،
والآخر معنوي .

أما اللفظي فقد كرناه في بابهِ (١) .

وأما المعنوي فهذا بابُهُ وموضعهُ ، وهو كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على
الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ، وغير ذلك مما يردُّ بيانه .

فمن هذا القسم قول بعضهم :

فَقَدْ وَالشَّكُّ بَيْنَ لِي عَنَاءٍ بِيُوشِكُ فِرَاقِهِمْ صُرْدٌ يَصِيحُ (٢)

فإنه قدَّم قوله « بوشك فراقهم » وهو معمول « يصيح » و « يصيح »
صفة لـ « صرد » ، وذلك قبيح .

ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال : هذا من موضع كذا رجلٌ وردَ اليومَ ،
وإنما يجوز وقوع الممولِّ بحيثُ يجوز وقوع العاملِ ! فكما لا يجوز تقديم
الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها .

ومن هذا النحو قول الآخر :

فَأَصْبَحْتُ بَعْدَ خَطِّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمًا

فإنه قدَّم خبر كأن عليها ، وهو قوله (خط) .

وهذا وأمثاله مما لا يجوز قياسٌ عليه ، والأصلُ في هذا البيت : فَأَصْبَحْتُ

(١) انظر (النوع السابع - في المعاظة اللفظية) وقد سبق في صفحة ٣٩٦

وما بعدها من انقسام الأول من هذا الكتاب .

(٢) الصرد - بضم الصاد وفتح الراء - طائر ضخم الرأس يصيد

العصافير

بعد بهجتها قفراً ، كأنَّ قلماً خطَّ رسومها ، إلا أنه على تلك الحالة الأولى في الشعر
مختلٌّ مضطرب .

والمعاظلة في هذا الباب تتفاوت درجتها في التبحر ، وهذا البيت المشار
إليه من أقبحها ، لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضاً .

ومما يجرى هذا المجرى قولُ الفرزدق :

إلى مَلِكٍ ما أمه من مُحاربٍ أبوه ولا كانت كَلَيْبٍ تُصَاهِرُهُ (١)

وهو يريد إلى ملكٍ أبوه ما أمه من مُحاربٍ وهذا أقبحُ من الأوَّل ،
وأكثرُ اختلالاً .

وكذلك جاء قوله أيضاً :

ولَيْسَتْ خُرَاسَانُ التي كانَ خَالِدٌ بها أَسَدٌ إِذْ كانَ سَيِّفًا أَمِيرُها

وحديثُ هذا البيت ظريف ، وذلك أنه فيما ذكر يمدحُ خَالِدَ بنَ عبدِ الله
القَسْرِيَّ ؛ ويهجو أَسَدًا (٢) ، وكانَ أَسَدٌ وليها بعدَ خَالِدٍ ؛ وكأنه قال : ولَيْسَتْ
خُرَاسَانُ بالبلدِ التي كانَ خَالِدٌ بها سَيِّفًا إِذْ كانَ أَسَدٌ أَمِيرُها .

وعلى هذا التقدير ففي (كان) الثانية ضميرُ الشأنِ والحديثُ ، والجملةُ
بعدها خبرٌ عنها ، وقدمَ بعضُ ما (إِذْ) مضافةً إليه ، وهو (أَسَدٌ) عليها وفي
تقديمِ المضافِ إليه أوشىء منه على المضافِ من القبحِ ما لا يخفاء به .

(١) ديوان الفرزدق ٣١٢/١ من قصيدة له في مدح الوليد بن عبد الملك

بن مروان ، ومطلعها :

كَمْ من منادٍ والشريفانِ دونه إلى الله تشكياً والوليد مفاقره

ورواية الديوان « أبوها » موضع « أبوه »

(٢) هو أَسَدُ بنِ عبدِ الله القَسْرِي .

وأيضاً فإنَّ أَسْداً أَحَدُ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ الْمَفْسُورَةِ لِلضَّمِيرِ ، وَالضَّمِيرُ لَا يَكُونُ تَفْسِيرُهُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، وَلَوْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ قَبْلَهُ لَمَا احتاجَ إِلَى تَفْسِيرٍ ، وَلِما سَمَّاهُ الْكُوفِيُّونَ (الضَّمِيرُ الْمَجْهُولُ) .

وعلى هذا النحو ورد قولُ الفرزدق أيضاً :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مَمْلُكًا أَبُو أُمِّهِ حَتَّى أَبُوهُ يُقَارِبُهُ (١)
ومعنى هذا البيتِ : وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا مملكاً
أبو أمه أبوه .

وعلى هذا المثالُ المصوغُ في الشعرِ قد جاء مُشَوَّهاً كما تراه .

وقد استعملَ الفرزدق من التعاضل كثيراً ، كأنه كان يقصدُ ذلك ويتعمده ، لأنَّ مثله لا يجيء إلا متكلفاً مقصوداً .

وإلا فإذا تركَ مؤلِّفُ الكلامِ نفسه تجرَى على سَجِيَّتِها وطَبْعِها في الاسترسال لم يعرض له شيءٌ من هذا التعقيد ، ألا ترى أن المقصودَ من الكلامِ معدومٌ في هذا الضربِ المشارِ إليه ، إذ المقصودُ من الكلامِ إنما هو الإيضاحُ والإبانةُ وإفهامُ المعنى ، فإذا ذهبَ هذا الوصفُ المقصودُ من الكلامِ ذهبَ المرادُ به .

(١) ديوان الفرزدق ١٠٨/١ وقال جابح الديوان إن هذا البيت لم يرد في أصوله ، ولكنه ورد في عدة مراجع موثوق بها شاهداً للتعقيد المعنوي ، وقد قالوا فيه أنهم من قصيدة له من الطويل يمدح بها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزومي خال هشام بن عبد الملك ، ولكنني لم أجده في قصيدة ما ، فلعلها ضاعت ، أولعل البيت أهمل من بين أبيات القصيدة على فرض وجودها ، على أن رواية الديوان لم يذكرها قصيدة بائنة نصوا على أنه مدح بها إبراهيم بن هشام هذا - انظر شرح ديوان الفرزدق - مطبعة الصاوي - القاهرة ١٩٣٦ م .

ولافرقَ عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسيَّة والروميَّة
وغيرهما .

واعلم أن هذا الضربَ من الكلام هو ضدُّ الفصاحةِ ، لأنَّ الفصاحة هي
الظهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف .

وأما الضرب الثاني^(١) الذي يختصُّ بدرجة التقدُّم في الذِّكر لاختصاصه
بما يوجب له ذلك فإنه ما لا يحصرُه حدٌّ ، ولا ينتهي إليه شرح ، وقد أشرنا
إلى نبذةٍ منه في هذا الكتاب ، ليستدلَّ بها على أشباهها ونظائرها .

فمن ذلك تقديم السَّببِ على المسبَّبِ ، كقوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ) فإنه إِمَّا قَدَّمَ العبادةَ على الاستعانةِ لأنَّ تقديم القُرْبَةِ والوسيلةِ قبل
طلب الحاجةِ أنجحُ لحصولِ الطَّلَبِ ، وأسرعُ لوقوعِ الإجابةِ ، ولو قال : إِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ، وإِيَّاكَ نَعْبُدُ ، لكان جائزاً ؛ إلا أنه لا يسدُّ ذلك المسدُّ ، ولا يقعُ
ذلك الموقعُ .

وهذا لا يخفى على المنصِّفِ من أربابِ هذه الصَّناعةِ .

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ
بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَ كَثِيراً)^(٢) .

(١) سبق للمؤلف في هذا الفصل أن جعل التقديم والنأخير ضربين .
الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني ولو أخرج المقدم أو قدم المؤخر لتغير
المعنى ، والثاني يختص بدرجة التقدُّم في الذِّكر ، لاختصاصه بما يوجب له
ذلك ، ولو أخرلما تغير المعنى .

(٢) سورة الفرقان : الآيتان ٤٨ و٤٩

فقدّم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس ، وإن كانوا أشرفَ محلاً لأنّ حياة الأرض هي سببُ حياة الأنعام والناس ، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مُقدّمة في الذكر ، ولما كانت الأنعام من أسباب التعميش والحياة للناس قدّمها في الذكر على الناس ، لأنّ حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم ، فقدّم سقى ما هو سببُ نَمائهم ومعاشهم على سقيهم .

ومن هذا الضربِ تقديم الأكثر على الأقل ، كقوله تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا السِّكِّتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمَنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) (١) .

وإنما قدّم الظالم لنفسه للإيدان بكثرة ، وأنّ معظم الخلق عليه ، ثم أتى بعده بالمقتصدين ، لأنهم قليلٌ بالإضافة إليه ، ثم أتى بالسابقين ، وهم أقلّ من القليل — أغنى من المقتصدين — قدّم الأكثر ، وبعده الأوسط ، ثم ذكر الأقلّ آخرًا .

ولو عكست القضية لكان المعنى أيضاً واقعاً في موقعه ، لأنّه يكون قد رُوِيَ فيه تقديمُ الأفضل فالأفضل .

ولنوضّح لك في هذا وأمثاله طريقاً تفتّقيه ، فنقول :

اعلم أنه إذا كان الشئان كل واحدٍ منهما مختصاً بصفةٍ فانت بالخيار في تقديم أيهما شئت في الذكر ، كهذه الآية ، فإنّ السابق بالخيرات مختصٌ بصفةِ الفضل ، والظالم لنفسه مختصٌ بصفة الكثرة ، فقس على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ

يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ (١).
 فإنه إنما قدّم الماشي على بطنه ، لأنه أدلّ على القدرة من الماشي على رجلين
 إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي ، ثم ذكر الماشي على رجلين ، وقدمه
 على الماشي على أربع ، لأنه أدلّ على القدرة أيضاً حيث كثرت آلات المشي
 في الأربع .

وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب .

فإن قيل : قد ورد في القرآن الكريم في مواضع منه ما يخالف هذا الذي
 ذكرته كقوله تعالى في سورة هود : (وما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ * يومَ
 يَأْتِي لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فأما الذين شَقُّوا
 فِي النَّارِ (٢)) ثم قال : (وأما الذين سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ (٣)) فقدّم أهل
 النار في الذّكر على أهل الجنة ، وهذا مخالف للأصل الذي أصلته في هذا
 الموضوع !

فالجواب عن ذلك : أن هذا الذي أشرت إليه في سورة هود وما أشبهه
 له أسرار تحتاج إلى فضل تأمل ، وإيمان نظر ، حتّى تفهم .

أما هذا الموضوع فإنه لما كان الكلام مسوقاً في ذكر التخويف والتحذير
 وجاء على عقب قصص الأولين ، وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير ، كان
 الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه في المعنى ، وهو ذكر أهل النار ، فمن
 أجل ذلك قدّموا في الذّكر على أهل الجنة .

(١) سورة النور : الآية ٤٥

(٢) سورة هود : الآيات ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦

(٣) سورة هود : الآية ١٠٨

وإذا رأيتَ في القرآن شيئاً من هذا القبيل وما يجزى مجراه فتأمله ، وأؤمن
نظرك فيه ، حتى يتبين لك مكانُ الصواب منه .

واعلم أنه إذا كان مطلعُ الكلام في معنى من المعاني ، ثم يجيء
بعده ذكر شيئين أحدهما أفضلُ من الآخر ، وكان المعنى المفضول مناسباً
لمطلع الكلام ، فانت بالخيار في تقديم أيهما شئت ، لأنك إن قدمت
الأفضل فهو في موضعه من التقديم ، وإن قدمت المفضول فلأن مطلع
الكلام يناسبه .

وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضاً وارِدٌ في موضعه ، فمن ذلك قوله تعالى :
(وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَّ بِهَا وَإِن تَصِبَّهُمْ سَيْبَةً بِمَا قَدَّمْتَ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
يَهْبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّمَا وَيَهْبُ لِمَن يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ * أَوْ يَزُوجَهُمْ ذُرَّيًّا وَإِنَّمَا
وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)^(١) .

فإنه إنما قدّم الإناث على الذكور مع تقدّمهم عليهن ، لأنه ذكر البلاء
في آخر الآية الأولى ، وكفران الإنسان بنسيانهِ للرحمة السابقة عنده ، ثم عقب
ذلك بذكره ملكه ومشيئته ، وذكر قسمة الأولاد ، فقدّم الإناث ، لأن سياق
الكلام أنه فاعلٌ ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي
هُنَّ من جُملة مالا يشاؤه الإنسان ولا يختاره أهم ، والأهم واجبُ التقديم ، وليلى
الجنس الذي كانت العربُ تعدّه بلاءً ذكر البلاء .

ولما أخرج ذكر الذكور ، وهم أحقّاء بالتقديم ، تدارك ذلك بتعريفه إبتاهم ،
لأن التعريفَ تنويهُ بالذکر ، كأنه قال : ويَهْبُ لِمَن يَشَاءُ الفرسان الأعلام

(١) سورة الشورى : الآيات ٤٨ و٤٩ و٥٠ .

المذكورين الذين لا يَخْفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حَقَّة من التقديم والتأخير ، وعرفَ أن تقديمَ الإنث لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتَضِ آخر ، فقال : (ذَكَرْنَا وَإِنَّا) وهذه دَقَائِقُ لطيفة قلَّ من يتَذَبَّه لها ، أو يعثر على رُموها .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (١) .

فإنه إنما قدَّم الأرضَ في الذِّكر على السماء ، ومن حقها التأخير ، لأنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم ، ووصل ذلك بقوله : (وما يَعْزُبُ) لأم بينهما ، ليلي المعنى المعنى .

فإن قيل : قد جاء تقديمُ الأرض على السماء في الذِّكر في مواضع كثيرة من القرآن ! !

قلنا : إذا جاءت مقدِّمة في الذِّكر فلا بدَّ لتقدمها من سببٍ اقتضاه ، وإن خفي ذلك السبب ، وقد يستنبطه بعضُ العلماء دون بعضٍ !

النوع العاشر

في الحروف العاطفة والجارّة

وهذا موضع لطيف المأخذ ، دقيق المغزى ، وما رأيتُ أحداً من علماء هذه الصناعة تعرّضَ إليه ، ولا ذكره . وما أقولُ إنهم لم يعرفوه ، فإن هذا النوع من الكلام أشهرُ من أن يخفى ، لأنه مذکورٌ في كتبِ العربيّة جميعها .

(١) سورة يونس : الآية ٦١

ولستُ أعني بإيراده هاهنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة
تتبع [المعطوف] المعطوف عليه في الإعراب ، ولا أن الحروف الجارّة
تجرُّ ما تدخل عليه . بل أمراً وراء ذلك ، وإن كان المرجح فيه إلى الأصل
النحويّ .

فأقول : إن أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها ،
فيجعلون ما ينبغي أن يجرَّ بعلى [مجروراً]^(١) بنى ، وفي هذه الأشياء دقائق
أذكرها لك .

حروف العطف :

أما حروف العطف فنحو قوله تعالى : (والذى هو يطعمنى ويسقئنى *
وإذا مرضتُ فهو يشفينى * والذى يُميتنى ثمَّ يُحيينى)^(٢) .

فالأول عطفه بالواو التي هي للجمع ، وتقديم الإطعام على الإسقاء ،
والإسقاء على الإطعام ، جائز ، لولا مراعاة حسن النظم ، ثم عطف الثاني بالفاء
لأن الشفاء يعقب المرضَ بلا زمانٍ خالٍ من أحدهما ، ثم عطف الثالث بـ ثمَّ ،
لأن الإحياء يكونُ بعدَ الموتِ بزمانٍ ، ولهذا جيء في عطفه بـ ثمَّ التي
هي للتراخي .

ولو قال قائل في موضع هذه الآية : الذى يطعمنى ويسقئنى ، ويمرضنى
ويشفينى ويُميتنى ويُحيينى ، لكان للكلام معنى تامّ ، إلا أنه لا يكون كعنى
الآية ، إذ كلُّ شيءٍ منها قد عطف بما يناسبه ، ويقع موقع السداد منه .

ومما جاء من هذا الباب قوله تعالى (قتل الإنسانُ ما أكَفَرَهُ * من أىِّ

(١) في الأصل « فيجعلون ما ينبغي أن يجر بعلى بنى في حروف الجر »

وهي عبارة مختلطة لاتين عن المراد .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ٧٩ و ٨٠ و ٨١

شَيْءٌ خَلَقَهُ * مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ *
ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (١) .

ألا ترى أنه لما قال : (من نظفة خلقه) كيف قال (قدّره) ، ولم يقل ثمّ قدره ، لأنّ التقدير لما كان تابعاً للخلاقة وملازماً لها عطفه عليها بالفاء ؟ وذلك بخلاف قوله (ثمّ السبيل يسره) لأنّ بين خلقته وتقديره في بطن أمه وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزماناً ، فلذلك عطفه بـ **ثُمَّ** .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : (ثمّ أمانه فأقبره * ثمّ إذا شاء أنشره) لأنّ بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخياً وفسحة ، وكذلك بين موته ونشوره أيضاً ، ولذلك عطفهما بـ **ثُمَّ** ، ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخي ولا مهلة عطفه بالفاء .

وهذا موضع من علم البيان شريف ، وقلّما يتفطن لاستعماله كما ينبغي .

ومما جاء من ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة مريم وعيسى عليهما السلام :
(حَمَلَتْهُ فَانْتَبَهِتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ قَالَتْ
يَالَيْتِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا) (٢) .

وفي هذه الآية دليل على أن حملها به ، ووضعها إياه كانا متقاربين ، لأنّه عطف الحمل والانتبأذ إلى المكان الذي مضت إليه ، والمخاض الذي هو الطلق بالفاء ، وهى للفور ، ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بـ **ثُمَّ** التي هي للتراخي والمهلة .

ألا ترى أنه قد جاء في الأخرى (قتل الإنسان ما أكرهه * من أيّ

(١) سورة عبس : الآيات ١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢

(٢) سورة مريم : الآيتان ٢٢ و٢٣

شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدّره * ثم السبيل يسره) فلما كان بين تقديره في البطن ، وإخراجه منه مدة متراخية ، عطف ذلك بـ **ثم** ، وهذا بخلاف قصة مريم — عليها السلام — فإنها عطفت بالفاء . وقد اختلف الناس في مدة حملها فقيل إنه كان كحمل غيرها من النساء ، وقيل : لا ، بل كان مدة ثلاثة أيام ، وقيل : أقل ، وقيل : أكثر .

وهذه الآية مزيلة للخلاف ، لأنها دلّت صريحاً على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على النور من غير مهلة ، وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل ، أخذاً بما دلّت عليه الآية .

ومما ورد من هذا الأسلوب قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَرَازٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَاقَةً نَخْلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً نَخْلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)^(١) .

ففي الآية المقدم ذكرها قال : (من نطفة خلقه فقدّره) فعطف التقدير على الخلق بالفاء ، لأنه تابع له ، ولم يذكر تفاصيل حال الخلق ، وفي هذه الآية ذكر تفاصيل حاله في تنقله ، فبدأ بالخلق الأول ، وهو خلق آدم من طين ، ولما عطف عليه الخلق الثاني — الذي هو خلق النسل — عطفه بـ **ثم** ، لما بينهما من التراخي ، وحيث صار إلى التقدير الذي يتبع بعضه بعضاً من غير تراخ عطفه بالفاء ، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى — وهو آخر الخلق عطفه بـ **ثم** .

فإن قيل : إنه قد عطف المضغ على العلق في هذه الآية بالفاء ؛ وفي

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ و ١٣ و ١٤

أخرى بهم ، وهي قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ
فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ ^(١)) .
فالجواب عن ذلك ^(٢) ..

* * *

واعلم أن في حروف العطف موضعًا تلتبس فيه الفاء بالواو ، وهو موضع
يحتاج فيه إلى فضل تأمل .

وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطفُ عليه إلا بالفاء دون الواو ، وقد يجيء
من الأفعال ما يلتبسُ بفعل المطاوعة ، ويعطى ظاهره أنه كذلك إلا أن معناه
يكون مُخالفًا لمعنى فعل المطاوعة ، فيعطفُ حينئذ بالواو ، لا بالفاء ، كقوله
تعالى : (وَلَا تَطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ^(٣)) .

فقوله (أغفلنا قلبه) ههنا بمعنى صادفناه غافلًا ، وليس منقولاً عن (غفل)
حتى يكون معناه صدّدناه ، لأنه لو كان كذلك لكان معطوفاً عليه بالفاء ،
وقيل : فاتّبع هواه ، وذلك أنه يكون مطاوعاً ، وفعل المطاوعة لا يعطفُ إلا
بالفاء ، كقولك : أعطيتُه فأخذ ، ودعوته فأجاب ، ولا تقول : أعطيتُه وأخذ ؛
ولا دعوته وأجاب ، كما لا يقال : كسرتُه وانكسر ، وكذلك لو كان معنى
(أغفلنا) في الآية صدّدنا ومنعنا لكان معطوفاً عليه بالفاء ، وكان يقال : ولا
تطيع من أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنَا فاتّبع هواه ، فلما لم يكن كذلك ، وكان العطف
عليه بالواو ، فطريقه أنه لما قال : (أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنَا ؛ واتّبع هواه) أن

(١) سورة الحج : الآية ٥

(٢) لم يذكر هذا الجواب في أصول الكتاب التي بين أيدينا ولا فيما

طبع منه .

(٣) سورة الكهف : الآية ٢٨ .

يكون معناه وجدناه غافلاً ، فقد غفل لا محالة ، فكأنه قال : ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، أى لا تطع من فعل كذا وكذا ، يعدد أفعاله التى توجب ترك طاعته ، فاعرف ذلك .

حروف الجر :

وأما حروف الجرِّ فإن الصَّواب يشدُّ عن وضعها فى مواضعها ، وقد علم أن (فى) للوعاء ، و (على) للاستعلاء ، كقولهم : زيد فى الدار ، وعمرو على الفرس ، لكن إذا أريد استعمال ذلك فى غير هذين الموضعين ما يشكّل استعماله عدل فيه عن الأولى .

فيمّا ورد منه قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١) .

ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لخالفه حرّ فى الجرِّ ها هنا ، فإنه إنما خولف بينهما فى الدخول على الحقِّ والباطل لأن صاحب الحقّ كأنه مستعلٍ على فرس جوادٍ يركض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه مُنغمسٌ فى ظلامٍ منخفضٍ فيه : لا يدرى أين يتوجّه ، وهذا معنى دقيق ، قلما يراعى مثله فى الكلام .

وكثيراً ما سمعتُ إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتبُ صديقه على أمرٍ من الأمور ، فيقول له : أنت على ضلالك القديم كما أعهدك ، فيأتى بعلى فى موضع « فى » وإن كان هذا جائزاً ، إلا أن استعمال « فى » ههنا أولى ، لما أشرنا إليه .

ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة يوسف : (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ
الْقَدِيمِ ^(١)) .

ومن هذا النوع قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ
وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَىٰ قُلُوبُهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَابْنِ السَّبِيلِ ^(٢)) .

فإنه إنما عدلَ عن اللام إلى [في] في الثلاثة الأخيرة للإيدان بأنهم
أُرسخُ في استحقاق الصدق عليهم من سبق ذكره باللام ، لأن [في] للوعاء
فنبه على أنهم أحقَّ بأن توضع فيهم الصدقات ، كما يوضع الشيء في الوعاء ،
وأن يُجعلوا مظنةً لها ، وذلك لما في فكِّ الرقابِ وفي الغرم من التخلص ، وتكرير
[في] قوله [وفي سبيل الله] دليل على ترجيحه على الرقابِ وعلى الغارمين ،
وسياق الكلام أن يقال : وفي الرقابِ والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ،
فلما جرى في مرة ثانية ، وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله ، علم أن
سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه .

وهذه لطائف ودقائق لا توجد إلا في هذا الكلام الشريف ، فاعرفها ،
وقس عليها .

(١) سورة يوسف : الآية ٩٥

(٢) سورة التوبة : الآية ٦٠

النوع الحادى عشر

فى الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية

والفرق بينهما

ولم اذكر هذا الموضع لأن يجرى الأمرُ فيه على ما يجرى مجراه فقط ، بل لأن يقاسَ عليه مواضع أخرى مما تماثله وتُشابهه ، ولو كان شَبهاً بعيداً .

وإنما يُعدّلُ عن أحدِ الخطّابين إلى الآخر لضربٍ من التأكيد والمبالغة . فمن ذلك قولنا : قام زيدٌ ، وإنَّ زيدا قائمٌ ، فقولنا : [قام زيد] [معناه الإخبار عن زيد بالقيام ، وقولنا : [إن زيدا قائمٌ] [معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضاً ، إلا أن فى الثانى زيادةً ليست فى الأول ، وهى توكيدهُ بآنِ المُشدّدة التى من شأنها الإثبات لما يأتى بعدها ، وإذا زيدَ فى خبرها اللامُ ، فقليل : إن زيدا قائمٌ ، كان ذلك أكثر توكيداً فى الإخبار بقيامه ، وهذا مثالٌ ينبئ على أمثلة كثيرةٍ من غير هذا النوع .

فَمَا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِذَا قَرَأَ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ)^(١) فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا خَاطَبُوا الْمُؤْمِنِينَ بِالْجُمْلَةِ الْفَعْلِيَّةِ ، وَشَيَاطِينُهُمْ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ الْمَحْتَقَّةِ بِإِنِّ الْمَشْدُودَةِ ، لِأَنَّهُمْ فِي مَخَاطَبَةِ إِخْوَانِهِمْ بِمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ أَنفُسِهِمْ مِنَ الْقَبَاتِ عَلَىٰ اعْتِقَادِ الْكُفْرِ ، وَالْبَعْدُ مِنْ أَنْ يَزُولُوا عَنْهُ عَلَىٰ صَدَقِ وَرَغْبَةٍ وَوُفُورِ نَشَاطٍ ، فَكَانَ ذَلِكَ مُتَقَبَّلًا مِنْهُمْ ، وَرَأْيًا عِنْدَ إِخْوَانِهِمْ .

وأما الذى خاطبوا به المؤمنینَ فإنما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان

(١) سورة البقرة : الآية ١٤

(١) سورة البقرة : الآية ١٤

خوفاً ومداجاةً ، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظٍ وأسده لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطنياً ، ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعثٌ قوى على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين : [آمنا] وفي خطاب إخوانهم : [إننا معكم] .

وهذه نُكَّتْ تخفى على من ليس له قَدَمٌ راسخةٌ في علم الفصاحة والبلاغة .

وما يجرى هذا الجرى وُرُودُ لَامِ التوكيد في الكلام ، ولا يجرى ذلك إلا لضربٍ من المبالغة .

وفائدته أنه إذا عبر عن أمرٍ يعزُّ وجوده ، أو فعلٍ يكثر وقوعه ، جرى باللام ، تحقيقاً لذلك .

فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ^(١)) .

فانظر إلى هذه اللامات الثلاثة الواردة في خبر إن ، والأولى وردت في قول المنافقين ، وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهرُوا من أنفسهم التصديق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتملقوا له ، وبالغوا في التملق ، وفي باطنهم خلافه ، وأما ما ورد في الثانية والثالثة فصحيحٌ لا ريب فيه ، واللام في الثانية لتصديق رسالته ، وفي الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه .

(١) سورة المنافقون : الآية ١

وكذلك وردَ قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (١) .

فإنه إنما جىء باللام ههنا لزيادة التوكيد في إظهار الحبة ليوسف عليه السلام والإشفاق عليه ، ليلغوا الغرض من أيهم في السحابة بإرساله معهم .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) (٢) . ثم قال : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) (٣) .

ألا ترى كيف أدخلت اللام في آية الطعام ، دون آية المشروب ؟ وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحاً أمهل إمكاناً في العرف والعادة ، والموجود من الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة الثربة أحوالها إلى الملوحة . فلم يحتاج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيدي المفيدة لزيادة التحقيق ، وأما الطعام فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيدي زيادة في تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده .

ومما يتصل بذلك قوله تعالى : (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ

(١) سورة يوسف : الآيتان ١١ و١٢

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٦٣ و٦٤ و٦٥

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٦٨ و٦٩ و٧٠

الأوارثون) ^(١) فاللام في « لَنَحْنُ » هي اللامُ المُشارُ إليها .

وكذلك وردَ قوله تعالى : (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) ^(٢) فإن هذه اللام في قوله
(لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) و (لَيُمَكِّنَنَّ) و (لَيُبَدِّلَنَّهُمْ) إنما جاءت لتحقيق الأمر ،
وإثباته في نفوس المؤمنين ، وأنه كائن لا محالة .

ومما يجرى هذا الجرى في التوكيد لام الابتداء المحققة لما يأتي بعدها ،
كقوله تعالى : (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا) ^(٣) فاللام
في [لِيُوسُفُ] لامُ الابتداء ، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها
أى أن زيادة حبه إياها أمر ثابت لا مرأ فيه .

ومن هذا النوع قولُ بعضهم :

وَالشَّيْبُ إِن يَظْهَرُ فَإِنَّ وِرَاءَهُ عُمَرَاً يَكُونُ خِلَالَهُ مُتَنَفِّسًا
لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّي الْمَشِيبُ قِلَامَةً وَلَمَّا بَقِيَ مِنِّي أَلْبٌ وَأُكَيْسٌ

فمؤله : [ولما بقي مني] تقديره : وما بقي مني ، وإنما أدخل على [ما]
هذه اللام قصداً لنا كيد المعنى لأنه موضع يحتاج إلى التأكيد ، ألا ترى أن
قوة العمر في الشباب ؟ ولما أراد هذا الشاعر أن يصف المشيب — وليس مما
يوصف ، وإنما يذم — أتى باللام لتؤكد ما قصده من الصفة .

(١) سورة الحجر : الآية ٢٣

(٢) سورة النور : الآية ٥٥

(٣) سورة يوسف : الآية ٨

وكذلك ورد قول الشاعر^(١) من أبيات الحماسة :

إِنَّا لَنَصْفَحُ عَنْ مَجَاهِلُ قَوْمِنَا وَنُقِيمُ سَالِفَةَ الْعَدُوِّ الْأَضْيَدِ^(٢)
وَمَتَى نَجِدُ يَوْمًا فَسَادَ عَشِيرَةٍ نُصْلِحُ وَإِنْ نَرَّ صَالِحًا لَانْفُسِدِ^(٣)

وهذا كثيرٌ سائغٌ في الكلام ، إلا أنه لا يتأتى لمكان العناية بما يعبر

به عنه .

ألا ترى إلى قول الشاعر : [إِنَّا لَنَصْفَحُ عَنْ مَجَاهِلِ قَوْمِنَا] فإنه لما كان
الصفح مما يشقُّ على النفس فعله ، لأنه مقابلةُ الشرِّ بالخير ، والإساءة بالإحسان ،
أكدَه باللام ، وتحقيقاً له .

فإن عرى الموضوع الذي يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار إليها
وما يجرى مجراها فإن ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه .

وأكثرُ ما تستعملُ هذه اللام في جوابِ القسم ، لتحقيقِ الأمرِ المقسمِ
عليه ، وذلك في الإيجابِ دونَ النفي ، لأنها لا تستعملُ في النفي .

ألا ترى أنه لا يقال : واللهِ للأقمت ، وإنما يقال : واللهِ قمت ، لكن في
الإيجابِ تستعمل ، ويكون استعمالها حسناً ، كقولك : والله لأقوم^(٤) فإن

(١) هو مضرس بن ربيعي ، أحد بني أسد ، شاعر جاهلي محسن ، وانظر

البيتين وما بعدهما في حماسة أبي تمام (٣٦ / ٢)

(٢) المجاهل جمع مجهولة ، وهي ما يحمل على الجهل ، والسالفة صفة

العتق ، والأصيد الذي يرفع رأسه كبراً .

(٣) رواية ديوان الحماسة «ومتى نخف» موضع «ومتى نجد» .

(٤) التوكيد بالنون هنا واجب ، لأن الفعل مضارع مثبت وقع جواباً

للقسم ، ولا اختيار حينئذ للمتكلم ، وإن كان التأكيد يحقق الغاية التي بينها
ابن الأثير ، ولكن النون شرط في الصحة أيضاً .

أُضِيفَ إِلَيْهَا التُّونَانُ الْخَفِيفَةُ وَالثَّقِيلَةُ كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي التَّأْكِيدِ ، كَقَوْلِكَ .
[وَاللَّهُ لَأَقْوَمَنَّ] .

وعلى ذلك وردت الآية المتقدم ذكرها ، وهي قوله تعالى : (وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَوَابًا لِقَسْمٍ ؛ فَالْتُّونُ الْوَارِدَةُ بَعْدَ اللَّامِ زِيَادَةٌ فِي التَّأْكِيدِ وَهِيَ تَأْكِيدَانِ أَحَدُهُمَا مُرَدَّفٌ بِالْآخَرِ :

وكذلك فاعلم أن التُّونَ الثَّقِيلَةَ مُتَّصِلَةٌ بِهَذَا الْبَابِ ، فَإِذَا اسْتَعْمَلْتَ فِي مَوْضِعٍ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ بِهَا التَّأْكِيدَ .

فَمَّا جَاءَ مِنْهَا قَوْلُ الْبَحْتَرِيِّ ^(١) فِي مَعَابَةِ الْفَتْحِ بْنِ خَافَانَ ^(٢) :

هَلْ يَجْدِبِينَ ^(٣) إِلَى عَطْفِكَ مَوْقِفٌ ثَبَتُ لَدَيْكَ أَقُولُ فِيهِ وَتَسْمَعُ

(١) ديوان البحتري ٢١/١ من قصيدة له مطلعها :

شوق إليك تفيض منه الأدمع وجوى عليك تضيق عنه الأضلع
(٢) الذي في الديوان أنه قال هذه القصيدة في مدح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وفي القصيدة ما يؤكد أنها في مدح الخليفة المتوكل ، لاوزيره الفتح بن خاقان ومن ذلك قوله :

شرفا بنى العباس إن أباكم	عم النبي وعيصره المتفرع
إن الفضيلة للذي استسقى به	عمر وشفع إذ غدا يستشفع
وأرى الخلافة وهي أعظم رتبة	حقاً لكم ووراثه ما تنزع
أعطاكموها الله عن علم بكم	والله يعطي من يشاء ويمنع
من ذا يساجلكم وحوض محمد	بسقاية العباس فيكم يشفع
ملك رضاه رضا الملوك وسخطه	حتف العدا ورداهم المتوقع
متكرم متورع من كل ما	يتجنب الممتلك المتورع
يا أيها الملك الذي سقت الورى	من راحتيه غمامة ما تقلع

(٣) في الأصل « تحملان » وهو تصحيف ، والتصويب عن الديوان .

ما زال لي من حُسن رأيك مؤثلاً
 فعلام أنكرت الصديق وأقبلت
 آوى إليّ من الخطوب ومفرّج
 نحوي ركاباً^(١) الكاشحين تطلع
 وأقام يطعم في تهضم جانبي
 من لم يكن من قبل فيه يطعم
 إلا يكن ذنبٌ فعدلك واسع
 أو كان لي ذنبٌ فعفوك أوسع

وهذه أبيات حسنة [مليحة] في بابها، يمحي بها حرّ الصدود، ويستمال
 بها صعر الخدود، وإنما ذكرتها بجملتها لكان حُسنها .

والبيت الأول هو المراد ألا ترى أنه قال : [هل يجابن إلى عطفك
 موقف] فالتون جاءت قصداً للتأكيد، وهو في هذا المقام مُتمنٍّ، فأحب أن
 يؤكد هذه الأمنية .

وكل ما يمحي من هذا الباب فإنه واقعٌ هذا الموقع، وإذا استعمل عبثاً
 لغير فائدة تقتضيه فإنه لا يكون استعماله إلا من جاهل بالأسرار المعنوية .

وأما ما يمثل به النجاة من قول القائل : والله لأقومنّ، فإنه مثالٌ نحوي
 يضرب للجواز، وإلا فإذا قال القائل : والله لأقومنّ، وأكده، كان ذلك
 لغواً، لأنه ليس في قيامه من الأمر التعزيز، ولا من الأمر العسير، ما يحتاج
 معه إلى التأكيد، بل لو قال : والله لأقومنّ إليك، مهدداً له، لكان ذلك
 واقعاً في موقعه .

فافهم هذا، وقس عليه .

(١) في الأصل « جناب » موضع « ركاب » والتصويب عن الديوان .

النوع الثاني عشر

في قوة اللفظ نقوة المعنى

هذا النوع قد ذكره أبو التتح بن جني في كتاب [الخصائص] إلا أنه لم يورده كما أوردته أنا، ولا نبته على ما نبهت عليه من النكته التي تضمنته وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه .

فأقول: اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا النزاع فيه لبيانه .

وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة .

فن ذلك قولهم: حَشْنٌ ، وأخْشَوْشَنَ ، فعنى [حَشْنٌ] دون معنى [أخْشَوْشَنَ] لما فيه من تكرير العين، وزيادة الواو، نحو فَعَلَ ، وأفَعَوَعَلَ . وكذلك قولهم: أعْشَبَ المكانُ ، فإذا رأوا كثرة العُشْبِ قالوا: [أعْشَوْشَبَ] .

ومما ينتظم بهذا السلك: قَدَرَ ، واقتَدَرَ ، فعنى [اقتدر] أقوى من معنى [قدر] قال الله تعالى: (فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ أَخْذًا عَزِيزًا مُّقْتَدِرًا)^(١) فمقتدر هاهنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على التنخيم للأمر، وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب، أو للدلالة على بسطة القدرة، فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر، وذلك أن [مقتدر] اسم فاعلٍ من [اقتدر] و [قادر] اسم فاعلٍ من [قَدَرَ] ولا شك أن [افتعل] [أبلغ] من [فعل] .

(١) سورة القمر: الآية ٤٢ .

وعلى هذا ورد قولُ أبي نُواسٍ (١) :

فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوًا مُقْتَدِرًا حَلَّتْ لَهُ نَقِمٌ فَأَلْفَاها

أى عفوت عنى عفوًا قادرٍ متمكِّن القدرة لا يردُّه شىءٌ عن إمضاء قدرته .
وأمثالُ هذا كثيرة .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة نُوحٍ عليه السَّلام : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) (٢) فَإِنَّ [غَفَّارًا] أبلغُ فى المغفرة من [غَافِرًا] ، لأنَّ [فَعَّالًا] يدلُّ على كثرة صدور الفعل ، و [فاعِلًا] لا يدلُّ على الكثرة .

وعليه وردَ قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (٣)
فالتَّوَّابُ هو الذى تتكرَّر منه التوبة مرَّةً على مرَّة ، وهو [فَعَّال] ، وذلك أبلغُ من التائب الذى هو [فاعِل] ، فالتائبُ اسمُ فاعلٍ من تَابَ يَتَوَّبُ ، فهو تائب ، أى صدرتُ منه التوبةُ مرَّةً واحدةً ، فإذا قيل [تَوَّاب] كان صدورُ التوبة منه مرارًا كثيرة .

وهذا وما يجرى مجراه إنَّما يعتمدُ إليه لضربٍ من التوكيد ، ولا يوجدُ ذلك إلا فيما فيه معنى الفعليَّة ، كاسمِ الفاعلِ ، والمفعولِ ، وكالفعلِ نفسه ، نحو قوله

(١) ديوان أبي نواس ١٠٩ من أبيات أربعة كتب بها إلى الفضل بن الربيع بعد إطلاقه من السجن ، والأبيات الثلاثة التى قبل هذا البيت :

ما من يد فى الناس واحدة كيد أبو العباس أولاهما
نام التقاة على مضاجعهم وسرى إلى نفسى وأحياها
قد كنت خفتك ثم أمنى من أن أخافك خوفك الله

(٢) سورة نوح : الآية ١٠

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٢

نعالى : (فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْفَاوُونَ)^(١) فَإِنَّ مَعْنَى [كُتِبِكُوا] من الكَبِّ ، وهو القلب ، إلا أنه مكرّر المعنى ، وإنما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب ؛ لأنه مرضع يقتضى ذلك .

ولربما نظرَ بعض الجهال في هذا ، فحَسَّ عليه زيادة التصغير ، وقال : إنها زيادة ؛ ولكنها زيادةٌ نقص ، لأنه يُزَادُ في اللفظ حرفٌ ، كقولهم في الثلاثي في رَجَلٍ : « رُجَيْلٌ » ، وفي الرباعي في قنديل : [قَنَيْدِيلٌ] فالزيادة وردت ههنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين .

وهذا ليس من الباب الذي نحنُ بصدد ذكره ، لأنه عارٍ عن معنى الفعلية ، والزيادة في الألفاظ لا توجبُ زيادةً في المعاني إلا إذا تضمنت معنى الفعلية ، لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحالَ معناها .

ألا ترى أننا لو قلنا لفظة [عذب] — وهي ثلاثيةٌ — إلى الرباعي ، قلنا [عَذِيبٌ] على وزن [جَعْفَرٌ] لاستحالَ معناها ، ولم يكن لها معنى .

وكذلك لو قلنا لفظة [عَسَجِدٌ] وهي رباعيةٌ إلى الخماسي ، قلنا : [عَسَجِدِدٌ] على وزن [جَعْمَرُشٌ] لاستحالَ معناها .

وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية كقادر ومقتدر ، فإن [قادر] اسمٌ فاعل [قدر] وهو ثلاثي ، و [مقتدر] اسمٌ فاعل [اقتدر] وهو رباعي ، فذلك كان معنى القدرة في اقتدر أشدَّ من معنى القدرة في قدر ، وهذا لا نزاع فيه .

وهذا البابُ بجملة لا يقصدُ به إلا المبالغة في إيراد المعاني ، وقد يستعملُ

في مقام المبالغة ، فينعكسُ المعنى فيه إلى ضده ، كما جاء لأبي كرام التميمي^(١)
من شعراء الحماسة ، وهو قوله :

لِلَّهِ تَيْمٌ أَيْ رُمَحٌ طِرَادٍ لَأَقَى الْحَمَامَ وَأَيْ نَصْلٍ جِلَادٍ^(٢)
وَمِحْشٌ حَرْبٍ مُتَعَرِّضٍ لِلْمَوْتِ غَيْرٌ مُكَذِّبٍ حَيَّادٍ^(٣)

فلفظة [حَيَّاد] قد وردت ههنا ، وإنما أوردتها هذا الشاعر ، وقصد بها المبالغة في وصف شجاعة هذا الرجل ؛ فانعكسَ عليه المقصد الذي قصدَه ، لأن [حَيَّاداً] من [حَيِّد] فهو [حَيَّاد] أي وجد منه الحيدودة مراراً ، كما يُقال : [قَتَلَ] فهو [قَتَّلَ] أي وجد منه القتل مراراً ، وإذا كان هذا الرجل غير حَيَّاد كان حائداً ، أي وجدت منه الحيدودة مرةً واحدةً ، وإذا وجدت منه مرةً كان ذلك جُبْنًا ، ولم يكن شجاعاً ، والأولى أن كان قال : غير مكذِّب حائد .

(١) اسمه زاهر -- كما في شرح التبريزي ٢٨٠/١ - وكان بارز رجلاً يقال له « تيم » وكان أحد الفرسان ، فقتله زاهر ، وأخذ يفخم أمره ، لأن ثنائه عليه وإكباره له راجع إليه ، إذ صار قتيله .

(٢) رواية الحماسة للشطر الثاني

* لَأَقَى الْحَمَامَ بِهِ وَنَصْلٍ جِلَادٍ *

واللام في « لله تيم » للتخصيص والتعجب ، مثل قولهم « لله درة » وقوله « أي رمح طرد » تعجب أيضاً .

(٣) في الأصل جِيَادٍ موضع « حَيَّاد » والتصويب عن الحماسة ، وقوله محش حرب معطوف على رمح ، جعله آلة للحش ، وهو إيقاد النار ، وفي الحماسة غير معرود موضع « غير مكذِّب » والتعريف ترك المقصد وسرعة الانهزام ، والحَيَّاد المائل

وينبغي أن يُعلّم أنه إذا وردت لفظة من الألفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذي هو طريق المبالغة ، وحملها على غيره ، أن يُنظر فيها ، فإن اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه .

فن ذلك قولُ البحترى في قصيدته التي مطلعها :

* مَيَّ النَّفْسِ فِي أَسْمَاءٍ لَوْ تَسْتَطِيعُهَا (١) *

وهي قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل — رحمه الله — وذكر فيها حديث الصّلىح بين بنى تغلب ، فمّا جاء فيها قوله :

رَفَعَتْ بِضَبْعِي تَغْلِبَ ابْنَةَ وَاثِلٍ وَقَدْ بَلَّسَتْ أَنْ يُسْتَقِلَّ صَرِيْعَهَا
فَكُنْتُ أَمِينَ اللَّهِ مَوْلَى حَيَاتِهَا وَمَوْلَاكَ فَتَحُ يَوْمَ ذَلِكَ شَفِيْعَهَا
تَأَلَّفْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا شَرَدَتْ بِهِمْ حَفَائِظَ أَخْلَاقٍ بَطِيءٍ رُجُوعَهَا
فَأَبْصَرَ غَاوِيَهَا الْحِجَّةُ فَاهْتَدَى وَأَقْصَرَ غَالِيَهَا وَدَانِي شَسُوعَهَا

فقوله [تألّفتم من بعد ما شردت بهم] يجوز أن تحذف لفظة [شردت] ويجوز أن تثقل ، والتثميل هو الوجه ، لأنه في مقام الإصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا ، وتباينت قلوبهم وآراؤهم .

وكل ما يجيء من الألفاظ على هذا النحو فينبغي أن يجزى هذا الجرى . وهاهنا نكتة لا بد من التنبيه عليها ، وذلك أن قوّة اللفظ لقوة المعنى لا نستقيم إلا في نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها ، كتنقل الثلاثي إلى الرباعي ؛

(١) عجز هذا المطلع هو :

* بها وجدها من غادة وولوعها *

وهي أولى قصائد الديوان ٢/١ وقد قالها البحترى في مدح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، ويذكر صالح بنى تغلب .

وإلاّ فإذا كانت صيغة الرباعي مثلاً موضوعة لمعنى فإنه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثى إلى مثل تلك الصيغة .

ألا ترى أنه إذا قيل فى الثلاثى [قَتَلَ] ثم نقل إلى الرباعى فقيل [قَتَلَ] بالتشديد فإنّ الفائدة من هذا النقل هى التكثير ، أى أن القتل وُجد منه كثيراً ، وهذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير كقوله تعالى : (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)^(١) فإنّ [كَلَّمَ] على وزن [قَتَلَ] ولم يُردّ به التكثير ، بل أريد به أنه خاطبه ، سواء كان خطابه إياه طويلاً أو قصيراً ، قليلاً أو كثيراً ، وهذه اللفظة رباعية ، وليس لها ثلاثى نقلت عنه إلى الرباعى ، لكن قد وردت بعينها ، ولها ثلاثى ورباعى ، فكان الرباعى أكثر وأقوى فيما دلّ عليه من المعنى ، وذلك أن تكون [كَلَّمَ] من الجرح : أى جرح ، ولها ثلاثى وهو [كَلَّمَ] مخففاً ، أى جرح ، فإذا وردت مخففة دلّت على الجراحة مرة واحدة ، وإذا وردت منقولة دلّت على التكثير .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)^(٢) فإنّ لفظة [رَتَّلَ] على وزن لفظة [قَتَلَ] ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة ، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأتى والتدبير ، وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثى لها ، حتى تنقل عنه إلى الرباعى ، وإنما هى رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة .

وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوّة فى اللفظ والمعنى إلاّ بالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه ، فأعرف ذلك .

(١) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

(٢) سورة المزمل : الآية ٤ .

ومن هاهنا شدَّ الصواب عمَّن شدَّ عنه في [عالم] و [عليم] فإن جمهورَ علماء العربية يذهبون إلى أن [علما] أبلغُ في معنى العلم من [عالم] وقد تأملتُ ذلك ، وأنعمتُ نظري فيه ، فحصل عندى شكُّ في الذى ذهبوا إليه ، والذى أوجبَ ذلك الشكُّ هو أن عالماً وعلماً على عدّةٍ واحدةٍ ، إذ كلُّ منهما أربعةَ أحرفٍ ، وليسَ بينهما زيادةٌ ينقلُ فيها الأذنى إلى الأعلى .

والذى بوجبه النظر أن يكون الأمرُ على عكسِ ما ذكرُوه ، وذلك أن يكور [عالم] أبلغ من [عليم] ، وسببه أن عالماً اسمُ فاعِلٍ من [عَلِمَ] وهو مُتَعَدِّ ، وأن علماً اسمُ فاعِلٍ من [عَلِمَ] إلا أنه أشبهَ وزنَ الفعلِ القاصرِ ، نحو شرفُ فهو شريفٌ ، وكرّمُ فهو كريمٌ ، وعظُمُ فهو عظيمٌ ، فهذا الوزنُ لا يكونُ إلا في الفعلِ القاصرِ ، فلما أشبهه [عليم] انحطَّ عن رتبةِ [عالم] الذى هو متعدِّ ، ألا ترى أن [فَعِلَ] — بفتح الفاء وكسر العين — يكون متعدِّياً نحو عَمَّ وحمَّدَ ، ويكون قاصراً غير متعدِّ ، نحو غَضِبَ وشَبِعَ ، وأما [فَعُلَ] — بفتح الفاء وضمَّ العين — فإنه لا يكون إلا قاصراً غير متعدِّ ، ولما كان [فَعِلَ] — بفتح الفاء وكسر العين — متردداً بين المتعدِّى والقاصرِ ، وكان [فَعُلَ] [بفتح الفاء وضمَّ العين] — قاصراً غير متعدِّ صار القاصرُ أضعفَ مما يدور بين المتعدِّى والقاصرِ ، وحيثُ كان الأمرُ كذلكَ وأشبهه وزنُ المتعدِّى وزنَ القاصرِ حطَّ ذلك من درجته ، وجعله في الرتبةِ دونَ المتعدِّى الذى ليسَ بقاصرٍ .

هذا هو الذى أوجبَ لى التشكيكُ فيما ذهبَ إليه غيرى من علماء العربية ولربما كان مذهبواً لى لأنه لأمر حَنِى عَنِى ، ولم أطِيعَ عليه .

النوع الثالث عشر

في عكس الظاهر

وهو نفي الشيء بإثباته ، وهو من مُسْتَطَرَفَاتِ علم البيان ، وذاك أنك تذكر كلاماً يدلُّ ظاهره أنه نفيٌ لصفةٍ موصوفٍ وهو نفيٌ للموصوف أصلاً .

فما جاء منه قولُ عليِّ بن أبي طالبٍ — رضى الله عنه — في وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُدْنِي فَلْتَمَانُهُ » أي : لَا تُدَاعُ سَقَطَاتُهُ .

فظاهرُ هذا اللفظ أنه كان ثمَّ فلتاتٌ ، غير أنها لا تُدَاع ، وليس المراد ذلك ، بل أراد أنه لم يكن ثمَّ فلتاتٌ فُتُنِي .

وهذا من أغرب ما توسَّعت فيه اللغة العربية ، وقد ورد في الشعر كقول بعضهم (١) :

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ * (٢)

فإن ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هناك ضبٌّ ، ولكنه غير مُنْجَحِرٍ ، وليس كذلك ، بل المعنى أنه لم يكن هناك ضبٌّ أصلاً .

وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال . وسبب ذلك أن الفهم يكاد يابأه ، ولا يقبله إلا بقربنة خارجية عن دلالة لفظه على معناه ، وما كان عارياً عن قربنة فإنه لا يفهم منه ما أراد قائله :

وسأوضح ذلك فأقول : أمَّا قولنا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) وهو عمرو بن أحرر الباهلي من أبيات يصف فيها فلاة .

(٢) صدر هذا البيت قوله :

* لَا تَفْرَعُ الْأَرْبَ أَهْوَالَهَا *

[لا تَدْنَى فَلَئَانَهُ] فَإِنَّ مَفْهُومَ هَذَا اللفظ أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ فَلَئَاتٍ ، إِلا أَنَّهُا تَطَوَّى وَلَا تَنْشَرُ ، وَتَكْتُمُ وَلَا تَدَاعُ ، وَلَا يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فَلَئَاتٍ إِلاَّ بِقَرِينَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ اللفظِ ، وَهِيَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَتْ فِي النُّفُوسِ ، وَتَقَرَّرَ عِنْدَ الْعُقُولِ أَنَّ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْزَعَةٌ عَنِ فَلَئَاتٍ تَكُونُ بِهِ وَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَوْقَرُ ، فَلَمَّا قِيلَ : إِنَّهُ [لا تَدْنَى فَلَئَانَهُ] فَهَمْنَا مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فَلَئَاتٌ أَصْلاً ، وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَجِرُ *

فإنه لا قرينة تخصّصه ، حتى يفهم منه ما فهم من الأوّل ، بل المفهوم أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ ضَبٌّ ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَنْجَجِرٍ .

ولقد مكثتُ زماناً أطوف على أقوال الشعراء ، قصداً للظفر بأمثلة من الشعر جارية هذا الجرى ، فلم أجِدْ إِلا بيتاً ، لا مَرِيءَ القَيْسِ (١) ، وَهُوَ :

عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى لِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعُودُ الدِّيَابِيُّ جَرَجَرًا (٢)

(١) شعراء النصرانية ٤٧/١ من قصيدة قالها يصف توجهه إلى قيصر مستنجداً على بني أسد ، ومطلعها :

أرى أم عمرو دمعتها قد تحدرت بكاء على عمرو وما كان أصبراً

(٢) اللاحب الطريق ، سافه شمه ، وفي الأصل ساقه بالقاف ، وهو تصحيف والعود الجمل المسن وفيه بقية ، والدياب في نسبة إلى دياب وهي قرية بالشام تنسب إليها النجائب ، جر جر ردد صوته ، وفي الأصل « العود النياطي » ، وفي شعراء النصرانية « العود النباطي » . وروى ابن قتيبة البيت هكذا :

على ظهر عادي تحاربه القطا إذا سافه العود الديابي جرجرا

وانظر الشعر والشعراء ٦٧/١ - وفي اللسان ٦٦/١١ روى صدر البيت هكذا :

* على لاحب لا يهتدى بمناره *

فقوله [لا يهتدى لمناره] أى أن له مناراً إلا أنه لا يهتدى به ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنه لا منار له يهتدى به .

ولى أنا فى هذا بيت من الشعر ، وهو :

أَدْنَيْنَ جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَنْ يَرَى لَدِيُوْهِنَ عَلَى الطَّرِيقِ غَبَارُ

وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يمشين هوناً لحيائهن ، فلا يظهر لديوهن غبار على الطريق ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنهن لا يمشين على الطريق أصلاً ، أى أنهن محبتات ، لا يخرجن من بيوتهن ، فلا يكون إذاً لديوهن على الطريق غبار ، وهذا حسن رائق ، وهو أظهر بياناً من قوله :

* ولا ترى الضب بها ينججر *

فن استعمل هذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا ، وإلا فليدع ، على أن الإكثار من استعماله عسير ، لأنه لا يظهر المعنى فيه .

النوع الرابع عشر

فى الاستدراج

وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى ، وهو مخادعات الأقوال التى تقوم مقام مخادعات الأفعال ، والكلام فيه وإن تضمن بلاغة ، فليس الغرض هاهنا ذكر بلاغته فقط ، بل الغرض ذكر ما تضمنته من النسكت الدقيقة فى استدراج الخضم إلى الإذعان والتسليم . وإذا حُقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه ، لأنه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ، ولا المعانى اللطيفة الدقيقة ، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها :

والكلامُ في مثل هذا ينبغي أن يكونَ قصيراً في خِلايه ، ولا قصيراً في خِطابه .

فإذا لم يتصرّف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده ، وإلا فليس^(١) بكاتبٍ ولا شبيه له إلا صاحبُ الجدل ، فكما أن ذلك يتصرّف في المغالطات القياسيّة ، فكذلك هذا يتصرّف في المغالطات الخاطيية .

وقد ذكرتُ في هذا النوع ما يُتعلّم منه سلوكُ هذه الطريق .

فن ذلك قوله تعالى : (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)^(٢) .

ألا ترى ما أحسنَ مأخذَ هذا الكلامِ والطفه ، فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التّقسيم ، فقال : لا يخلو هذا الرجل من أن يكونَ كاذبًا ، فكذبه يعودُ عليه ولا يتعداه ، أو يكونُ صادقًا ، فيصيبكم^(٣) بعضُ الذي يعدُّكم إن تعرّضتم له :

وفي هذا الكلامِ من حُسنِ الأدبِ والإنصافِ ما أذكركمُ لك . فأقول : إنما قال : [يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ] وقد علم أنه نبيٌّ صادقٌ ، وأن كل ما يعدّهم به لا بدّ وأن يصيبهم ، لا بعضه ، لأنه احتاج في مُقابلة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم طريقَ الإنصافِ والملاطفة في القول ، ويأتيهم من جهةِ المناصحة ، ليكون أدعى إلى سُكونهم إليه ، فجاء بما علم أنه أقرب

(١) سياق المعنى يقتضى حذف كلمة « وإلا » .

(٢) سورة المؤمن : الآية ٢٨ .

(٣) في الأصل « يصيبكم » .

إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم إياه ، فقال : [وإن يك صادقاُ
يُصبِحُكم بعض الذي يعدك] وهو كلامُ المنصف في مقابلة غير المشتط ، وذلك
أنه حين فرّضه صادقاُ فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعدُّ به ، لكنه أردف
بقوله : [يصبِحُكم بعض الذي يعدُّكم] ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام
فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا ، فضلا عن أن يتعصب له ،
وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل ، كأنه برّظلمهم^(١) في صدر الكلام
بما يزعمونه ، لئلا ينفروا منه .

وكذلك قوله في آخر الآية : [إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذابٌ]
أى هو على الهدى ، ولو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله للنبوة ، ولا
عصده بالبينات .

وفي هذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه مالا خفاء به ، وقد تضمن
من اللطائف الدقيقة ما إذا تأملته حق التأمل أعطيته حقه من الوصف .

ومما يجزى على هذا الأسلوب قوله تعالى : (واذكُرْ في الكتابِ
إبراهيمَ إنه كان صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ
وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ
يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)^(٢) .

هذا كلامٌ يهزُّ أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكُرُه ، وهو أنه

(١) يقال برطل فلان فلانا رشاه ، فبرطل فارتشى .

(٢) سورة مريم : الآيات ٤١ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٥

لما أراد إبراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه ويُنقذه مما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل ، رتب الكلام معه في أحسن نظام ، مع استعمال المجاملة واللفظ ، والأدب الحميد ، واخلاق الحسن ، مُستنصِحاً في ذلك بنصيحة ربه ، وذلك أنه طاب منه أولاً العلة في خطيئته طلب مُنبهٍ على تمارده ، مُوقظٍ من غفلته ، لأنّ المعبود لو كان حياً مميّزاً سميعاً بصيراً مقتدرًا على الثواب والعقاب ، إلا أنه بعضُ الخلق يستخفُّ عقلَ من أهله للعبادة ، ووصفه باربوبيّة ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبّيين ، فكيف بمن جعل المعبودَ جامداً لا يسمع ولا يبصر ، يُعني به الصنم ،

ثم نثي ذلك بدعوته إلى الحق ، مترفقاً به ، فلم يسمِ أباهُ بالجهل المطاق ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إنَّ معي لطائفةٌ من العلم وشيئاً منه ، وذلك علمُ الدلالة على سُلوك الطريق ، فلا تستكف ، وهبْ أني وإياك في مسيرٍ وعندى معرفةٌ بهداية الطريق دونك ، فاتبعني أُحجك من أن يضلَّ .

ثم ثلث ذلك بتثبيطه عمّا كان عليه ونهيه ، فقال : إنَّ الشيطان الذي استعصى على ربِّك ، وهو عدوك وعدوُّ أبك آدم ، هو الذي ورطك في هذه الورطة ، وألقك في هذه الضلالة ، وإِنَّمَا أُلغى إبراهيمُ عليه السَّلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته في نصيحة أبيه لأنه لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنابتي الشيطان إلا التي تختصُّ بالله ، وهي عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته .

ثم رُبّع ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة ، فلم يصرِّح بأنَّ العقابَ لاحقٌ به ولكنه قال : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ » ، فنكَّر العذاب ملاطفةً لأبيه ، وصدَّر كل نصيحةٍ من هذه النصائح بقوله [يَا أَبَتِ] توَسُّلاً إليه ، واستعطافاً .

وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه ، فإنه قال : (أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهِتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)^(١) . فأقبل عليه بفظاظَةِ الكُفْرِ ، وَغِلَظِ العناد ، فناده باسمه ، ولم يقابل قوله « يَا أَبَتِ » بقوله « يَا بَنِيَّ » ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله « أَرَاغِبُ أَنْتَ ، لأنه كان أمّ عنده » وفيه ضربٌ من التّعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن أهله .

وفي القرآن الكريم مواضعٌ كثيرةٌ من هذا الجنس لا سيّما في مخاطبات الأنبياء — صلواتُ الله عليهم — للكفار ، والرّد عليهم ، وفي هذين المثلين المذكورين هاهنا كفايةٌ ومقنعٌ .

وبلغنى حديثٌ تفأوّض فيه الحسين بن عليّ — رضى الله عنهما — ومعاوية بن أبي سفيان في أمرٍ ولده يزيد ، وذلك أن معاوية قال للحسين : « أمّا أمك فاطمةُ فإنها خيرٌ من أمّ ، وبتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ من امرأةٍ من كلبٍ ، وأمّا حُبِّي يزيدَ فإني لو أعطيتُ به مثلك مِلاءَ الغُوطَةِ^(٢) لما رضيتُ ، وأمّا أبوك وأبوه فإنهما تما كما إلى الله ، فحكم لأبيه على أبيك » .

وهذا كلامٌ من معاوية كَلَمًا أمرُرتُه بِفِكْرِي عَجِبْتُ من سَدَادِهِ ، فضلاً عن بلاغته وفصاحته . فإنّ معاوية عليمٌ ما لعلّ — رضى الله عنه — من السّبِق

(١) سورة مريم الآية ٤٦

(٢) الغوطة — بالضم ثم السكون وطاء مهملة — هي الكورة التي منها دمشق . استدارتها ثمانية عشر ميلاً ، يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ، ولا سيما من شمالها ، فإن جبالها عالية جداً ، وتمتد فيها أنها تسقى بساقيها ، وهي أنزه بلاد الدنيا وأحسنها منظرًا ، وتصب فضلاتها في بحيرة هناك (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ١٠٠٦) .

إلى الإسلام والأثر فيه ، وما عنده من فضيلة العلم ، فلم يعرض في المناقرة إلى شيء من ذلك ولم يقل أيضاً : إن الله أعطاني الدنيا ونزعها منكم ، لأن هذا لا فضل فيه ، إذ الدنيا ينالها البرّ والفاجر ، وإنما صانع عن ذلك كلفه بقوله : (إن أباك وأباه تحاكما إلى الله ، فحكمكم لأبيه على أبيك) وهذا قول إيهامي يؤهم شبهة من الحق .

وإذا شاء من شاء أن يُناظر خصمه ، ويستدرجه إلى الصمت عن الجواب فليقل هكذا .

الباب الخامس عشر

في الإيجاز

وهو حذف زيادات الألفاظ ، وهذا نوع من الكلام شريف ، لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة ، من سبق إلى غايتها وما صلى ، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلي ، وذلك لعلو مكانه ، وتعذر امكانه .

والنظر فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ ، ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ ، بحيث تعري عن أوصافها الحسنة ، بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني ، فرُب لفظ قليل يدل على معنى كثير ، ورُب لفظ كثير يدل على معنى قليل .

ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفستها ، ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم الفاتحة (أم الكتاب) وإذا نظرنا إلى مجموعها وجدناه يسيراً ، وليست من الكثرة

الى غاية تكونُ بها أمّ « البقرة » و « آل عمران » وغيرهما من السور الطوال
فعلينا حينئذٍ أن ذلك لأمرٍ يرجعُ الى معانيها .

معاني القرآن :

والكلامُ في هذا الموضوع يخرج بنا الى غير ما نحن بصدده ، لأنه يحتاجُ فيه
إلى ذكرِ المرادِ بالقرآنِ الكريم ، وما يشتملُ عليه سُورُهُ وآياته إلى حصر
أقسام معانيه ، لكننا نشيرُ في ذلك إشارةً خفيفةً ، فنقول :

المرادُ بالقرآن هو دعوةُ العبادِ إلى الله تعالى ، ولذلك انحصرت سُورُهُ
وآياته في ستة أقسامٍ : ثلاثة منها هي الأصول ، والثلاثة هي الفروع .

أما الأصولُ :

فالأوّلُ منها : تعريفُ المدعوِّ إليه ، وهو الله تعالى ، ويشتملُ هذا
الأصلُ على ذكرِ ذاته وصفاته وأفعاله .

والأصلُ الثاني : تعريفُ الصراطِ المستقيمِ الذي تجبُ ملازمتهُ في السلوكِ
إلى الله تعالى ، ويشتملُ هذا الأصلُ على التبتُّلِ بعبادةِ الله بأفعالِ القلبِ
وأفعالِ الجوارحِ .

والأصلُ الثالثُ : تعريفُ الحالِ بعد الوُصولِ إلى الله تعالى ، أعني بعدَ
الموتِ ، ويشتملُ هذا الأصلُ على تفصيلِ أحوالِ الدارِ الآخرةِ من الجنةِ والنَّارِ
والصراطِ والميزانِ والحسابِ ، وأشبه ذلك .

فهذه الأصولُ الثلاثةُ .

وأما الفروعُ :

فالأوّلُ منها : تعريفُ أحوالِ المُجيبينَ للدعوة . ولطائفِ صنعِ الله بهم .

من النصرة والإدالة ، وتعريف أحوال المخالفين للدعوة والمخاديين لها ،
وكيفية صنع الله في التدمير عليهم ، والتنكيل بهم .

والفرع الثاني : ذكر مجادلة الخصوم ومحاجتهم ، وحثهم بالمجادلة والمحاجة
على طريق الحق ، وهؤلاء هم اليهود والنصارى ، ومن يجرى مجراه من أرباب
الشرائع والفلاسفة والمُجدِّمة من غير أرباب الشرائع .

والفرع الثالث : تعريف عمارة منازل الطريق ، وكيفية أخذ الزاد والأهبة
للاستعداد ، وذلك قياس الشريعة ، وتبيين الحكمة في أوامرها التي تتعلق
بأفعال أهل التكليف .

فهذه الأقسام الستة المشار إليها هي التي تدور معاني القرآن عليها
ولا تتعداها .

وها هنا تقسيم آخر يطول الخطب فيه ، ولا حاجة إلى ذكره .

وإذا نظرنا إلى سورة الفاتحة ، وتأملنا ما فيها من المعاني وجدناها مشتملة
على أربعة أقسام من الستة المذكورة ، ولذلك سماها النبي صلى الله عليه وسلم
« أم الكتاب » .

كما أنه قال : « إن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن » ، وإذا نظرنا في
الأقسام الستة وجدنا سورة الإخلاص بمنزلة ثلث القرآن .

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : « آية الكرسي سيدة آي القرآن » .

ويروى أنه سأل أبي بن كعب^(١) - رضي الله عنه - فقال : أي آية

• (١) هو أبي بن كعب بن قيس ، أبو المنذر الأنصاري المدني ، سيد
القراء ، وأقرأ هذه الأمة ، قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفراً على
النبي بعض القرآن للإرشاد والتعليم ، وقرأ عليه من الصحابة ابن عباس ، =

ممكن في كتاب الله أعظم؟ فقال: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) (١) فضرب في صدره، وقال: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»، وكلُّ هذا يرجعُ إلى المعاني، لا إلى الألفاظ، فاعرف ذلك وبينه رموزه وأسواره.

* * *

وأعلم أنَّ جماعة من مُدَّعي علم البيان ذهبوا إلى أنَّ الكلام ينقسمُ قسَمين :

فمنه ما يحسنُ فيه الإيجاز، كالأشعار والمسكَّاتبات.

ومنه ما يحسنُ فيه التَّطويلُ كألحظبِ والتقليدات، وكتبِ الفتوح التي تقرأ في ملاء من عوامِّ الناس، فإنَّ الكلام إذا طال في مثل ذلك أثرَ عندهم وأفهمهم، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم، حتى يقال في ذكر الحرب: «التقى الجمعان، وتطاعن الفريقان، واشتد القتال، وحجى النضال...» وما جرى هذا المجرى.

والمذهبُ عندي في ذلك ما أذكره، وهو أن فهم العامة ليس شرطاً معتبراً في اختيار الكلام، لأنَّه لو كان شرطاً لوجبَ على قياسه أن يُستعمل في الكلام الألفاظ العامية المبتذلة عندهم، ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم، لأنَّ العلة في اختيار تطويل الكلام إذا كانت فهم العامة إياه، فكذلك تجعلُ تلك العلةُ بعينها في اختيار المبتذل من الكلام، فإنَّه لاخلاف في أن العامة إلى فهمه أقربُ من فهم ما يقلُّ ابتذالهم إياه، وهذا شيءٌ لا مدفوع.

= وأبو هريرة، ومن التابعين عبد الله بن عياش، وأبو عبد الرحمن السلمى، توفي سنة ثلاث وثلاثين.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

وأما الذي يجب توحيه واعتماده فهو أن يسلك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني ، بحيث لا تزيد هذه على هذه ، مع الإيضاح والإبانة . وليس على مستعمل ذلك أن يفهم العامة كلامه ، فإن نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون ذلك نقصاً في استنارته ، وإنما النقص في بصر الأعمى ، حيث لم يستطع النظر إليه :

عَلَى نَحْتِ الْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَى بَأْنٍ لَا تَفْهَمُ الْبَقْرُ

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فلنرجع إلى ماهو غرضنا ومهمنا من الكلام على الإيجاز ، وحده ، وأقسامه ، ونوضح ذلك إيضاحاً جلياً ، والله الموفق للصواب ، فنقول :

حد الإيجاز :

هو دلالة اللفظ على المعنى ، من غير أن يزيد عليه .

والتطويل هو ضد ذلك ، وهو أن يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه ، كقول العجيز السلولي^(١) من أبيات الحماسة .

طُوعُ الثَنَائِيَا بِالطَّيَايَا وَسَابِقُ إِلَى غَايَةِ مَنْ يَبْتَدِرُهَا يُقَدِّمُ^(٢)

(١) هو ابن عبد الله بن عبيدة ، يصل نسبه إلى سلول بن مرة ، شاعر مقل إسلامي من شعراء بني أمية ، جعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من شعراء لإسلام وكان كريماً جواداً اتصله الملوك والأمراء .

(٢) ديوان الحماسة ٢/ ٢٦٥ ثانياً أربعة أبيات اختارها أبو تمام أولها :

أن ابن عمي لابن زيد وإنه لبلال أيدى جلة الشول بالدم
والجلة لمسة من الإبل ، والشول النوق التي يحن لبنها ، ول أيدىها
يريد أنه يعرقها إذا أراد نحرها - والمعنى أن ابن عمه يقطع بالسيف أيدى
الإبل العظيمة السمينة قبل أن ينحرها للأضياف ، ليتمكن من نحرها .

فصدرُ هذا البيتِ فيه تطويلٌ لا حاجةٌ إليه ، وعجزُهُ من محاسنِ الكلامِ المتواصِفةِ ، ومَوْضِعُ التطويلِ من صدره أنه قال « طَلوعُ الثنايا بالمطايا » فإن لفظة « المطايا » فضلةٌ لا حاجةٌ إليها .

وبيانُ ذلك أنه لا يخلوا الأمرُ فيها من وجهين :

إمّا أن يريد أنه سابقُ الهمة إلى معالي الأمور ، كما قال الحجاج على المنبرِ عند وُضُوئه المراق :

* أنا ابنُ جَلَا وطلّاعُ الثنايا (١) *

أى : أنا الرجلُ المشهورُ السابقُ إلى معالي الأمور :

فإن أرادَ العجّيزُ بقوله « طَلوعُ الثنايا » ما أشرتُ إليه فذِكْرُ « المطايا » يفسدُ ذلك المعنى ، لأن معالي الأمور لا يُرقى إليها بالمطايا .

وإن أرادَ الوجهَ الآخر ، وهو أنه كثيرُ الأسفارِ ، فاختصاصُهُ الثنايا بالذِّكرِ دونَ الأرضِ من المفاوزِ وغيرها لا فائدةٌ فيه .

وعلى كِلَا الوجهين فإن ذكرَ المطايا فضلةٌ لا حاجةٌ إليه ، وهو تطويلٌ باردٌ غثٌ .

فقسْ على هذا المثالِ ما يجرى مجراه من التّطويلاتِ التي إذا أسقطتْ من الكلامِ بقيَ على حاله لم يتغيّرُ شيءٌ .

وكذلك يجرى الأمرُ في ألفاظٍ يُوصَلُ بها الكلامُ ، فتارةً تجيءُ لفائدةً ، وذلك قليلٌ ، وتارةً تجيءُ لغَيْرِ فائدةٍ ، وذلك كثيرٌ ، وأكثرُ ما تردُّ في الأشعارِ ، ليوزنَ بها الأبياتُ الشعريةُ ، وذلك نحو قولهم : لعمرى ، ولعمرك ،

(١) هنا صدر البيت ، وعجزه .

* متى أضع العمامة تعرفوني *

ونحو : أصبح ، وظلّ ، وأضحى . وبتّ ، وأشباه ذلك ، ونحو : باصاحي ،
وياخليلي ، وما يجرى هذا الجرى .

فمّا جاء منه قولُ أبي تمام :

أَقْرُوا - لَعْمَرَى - مُحْكَمِ السُّيُوفِ

وكانتْ أَحَقَّ بِفِصْلِ الْقَضَاءِ (١)

فإنّ قوله « لَعْمَرَى » زيادةٌ لأحاجةٍ للمعنى إليها ، وهي حشوٌّ في الكلام ،
لأفائدة فيه ، إلا إصلاحَ الوزنِ لاغير .

ألا ترى أنّها من باب القسم ، وإنما يردُّ القسمُ في موضعٍ يؤكدُ به المعنى
المرادُ ، إمّا لأنه مما يشكُّ فيه ، أو مما يعزُّ وجوده ، أو ما جرى هذا الجرى ،
وهذا البيتُ الشعريُّ لا يفتقرُ معناه إلى توكيدٍ قسميٍّ ، إذ لاشكُّ في أن
السيوفَ حاكمةٌ ، وأنّ كلَّ أحدٍ يقرُّ لحكمها ، ويدعن لطاعتها .
وكذلك قوله أيضاً :

إذا أنا لم أَلْمُ عَثْرَاتِ دَهْرٍ بُلَيْتُ بِهِ الْغَدَاةَ مِنْ أَلَوْمِ (٢)

فقوله « الغداة » زيادةٌ لأحاجةٍ بالمعنى إليها ، لأنه يتمُّ بدونها ، لأنّ عثراتِ

(١) ديوان أبي تمام ٣٤٨ من قصيدة يرثي بها خالد بن يزيد بن مزيد
الشيباني ومطلعها :

نعاء إلى كلي حتى نعاء فتي العرب اختط ربع الفناء
ورواية الديوان « أقروا لعمرى بحكم السيوف » .

(٢) ديوان أبي تمام ٤٢٥ من قصيدة يشكو فيها الدهر بنيسابور ،
ومطلعها :

صريع هوى تغاديه المموم بنيسابور ليس له حميم

الدهر لم تنله الغداة ولا العشي ، وإنما نالته ، ونيلها إياه لا بد وأن يقع في زمنٍ من الأزمنة كأننا ما كان ، ولا حاجة إلى تعيينه بالذکر .

وعلى هذا ورد قولُ البحتری :

ما أحسنَ الأيَّامَ إلاَّ أنها بِاصحابي إذا مضت لم ترجع^(١)

فقوله « يا صاحبي » زيادةٌ لا حاجة بالمعنى إليها ، إلا أنها وردت لتصحيح

الوزن لا غير .

وهذه الألفاظ التي ترد في الأبيات الشعرية لتصحيح الوزن لا عيبَ فيها ، لأننا لو عيناها على الشعراء لتحجرونا عليهم وصيقنا ، والوزن يضطر في بعض الأحيان إلى مثل ذلك .

لكن إذا وردت في الكلام المغمور فإنها إن وردت حشواً ، ولم ترد لفائدة ، كانت عيباً .

وقد ترد في الأبيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة ، وذلك هو الأحسن كقول البحتری :

قومٌ أهانوا الوفر حتى أصبحوا أولى الأنام بكل عرضٍ وافر^(٢)

فقوله « أصبحوا » بمعنى صاروا ، أي أنهم صاروا أولى الناس بالأعراض

(١) ديوان البحتری ٢/٢١٥ من قصيدة له في مدح يوسف بن محمد ،

مطامعها :

بين الشقيقة فاللوى فالأجرع دمن حبسن على الرياح الأربع
ورواية الديوان « ما أحسن الأيام لولا أنها » .

(٢) ديوان البحتری ٢/١٦٧ من قصيدة له في مدح محمد بن عبد الله

ابن طاهر مطامعها :

لا زال محتفل الغمام الباكرون يهمني على حجرات أعلى الحجر

الوافرة ، وهذه اللفظة لم ترد في هذا البيت حشواً كما وردت في بيتي أبي تمام
المقدم ذكرهما .

وسأزيدُ هذا الموضع بياناً بمثالٍ أُضربُه للتطويل حتى يستدلَّ به على
أمثاله وأشباهه ؛ والمثالُ الذي أُضربه هو حِكَايَةُ أُوردتْ بمحضر مني ،
وذلكَ أَنه جلسَ إليّ في بعض الأيَّام جماعةٌ من الإخوان ، وأخذوا في مفاوِضَةِ
الأحاديث ، وانساقَ ذلكَ إلى ذِكْرِ غرائبِ الوقائع التي تقعُ في العالم ، فذكر
كلُّ من الجماعة شيئاً ، فقال شخصٌ منهم : إنِّي كنتُ بالجزيرة العُمَريَّة في زمن
الملكِ فلانٍ ، وكنتُ إذ ذاكُ صبيّاً صغيراً ، فاجتمعتُ أنا ونفرٌ من الصَّبِيَّانِ في
الحارةِ الفلانيَّة ، وصعدنا إلى سطحِ طَّاحُونِ لَبْنِي فلان ، وأخذنا نلعبُ على
السطح ، فوقَّعَ صبيٌّ منَّا إلى أرضِ الطَّاحُونِ ، فوطئه بغلٌّ من بغالِ الطَّاحُونِ ،
نَحْفِنَا أن يكونَ آذاه ، فأسرعنا النزولَ إليه ، فوجدناه قد وَطَّئه البغلُّ ، نَحَفْتَنه
خِتانَةً صحيحةً حسنةً لا يَسْتَطِيعُ الصانعُ الحاذقُ أن يفعلَ خيراً منها . فقال له
شخصٌ من الحاضرين : والله إن هذا عيٌّ فاحشٌ ، وتطويلٌ كثيرٌ . لا حاجة
إليه ، فإنك بصددِ أن تذكرَ أنك كنتَ صبيّاً تلعبُ مع الصَّبِيَّانِ على سطحِ
الطَّاحُونِ ، فوقَّعَ صبيٌّ منكم إلى أرضِ الطَّاحُونِ ، فوطئه بغلٌّ من بغالِ الطَّاحُونِ ،
نَحَفْتَنه ولم يُؤذِه ، ولا فرَّقَ بين أن تكونَ هذه الواقعةُ في بلدٍ نعرفُه ، أو في
بلدٍ لا نعرفُه ؛ ولو كانت بأقصى المشرقِ أو بأقصى المغربِ لم يكن ذلكَ قدحاً
في غرابتها ، وأمَّا أن تذكرَ أنها كانت بالجزيرة العُمَريَّة ؛ في الحارةِ الفلانيَّة ؛
في طَّاحُونِ بَنِي فلان ، وكان زمنَ الملكِ فلان ، فإنَّ مثلَ هذا كله تطويلٌ
لا حاجةَ إليه ، والمعنى المقصودُ يفهمُ بدونه !!

فاعلم أيُّهَا الناظرُ في كتابي هذا أن التطويلَ هو زياداتُ الألفاظِ في الدلالةِ

على المعاني، ومهما أمكنك حذف شيء من اللفظ في الدلالة على معني من المعاني فإن ذلك اللفظ هو التطويل بعينه^(١).

قسما الإيجاز :

وأما الإيجازُ فقد عرّفْتك أنه دلالةُ اللفظ على المعنى ، من غير أن يزيد عليه .

وهو ينقسمُ قسمين :

أحدهما : الإيجازُ بالحذفِ ، وهو ما يحذفُ منه المفرد والجملة ، لدلالة فحوى الكلام على المحذوفِ ، ولا يكونُ إلّا فيما زاد معناه على لفظه .

والقسمُ الآخرُ : مما لا يحذفُ منه شيءٌ ، وهو ضربان :

أحدهما : ما ساقى لفظه معناه ويسمى (التّقدير) .

والآخر . ما زاد معناه على لفظه ، ويسمى (القصر) .

واعلم أن القسم الأوّل — الذي هو الإيجازُ بالحذفِ — يُتنبّه له من غير كبير كلفة في استخراجِه ، لمكانِ المحذوفِ منه .

(١) البلاغيون على أن الزيادة إن كانت لغير فائدة وكانت تلك الزيادة غير متعينة اختص هذا باسم (التطويل) كما في قوله : « وأنى قوذا كذباً ومينا » فإن الكذب والمين واحد ، وإن كانت تلك الزيادة متعينة لفائدة اختص هذا باسم (الحشو) كقول الشاعر :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فإن لفظ «الندى» فيه حشو يفسد المعنى ، لأن المعنى أنه لا فضل في الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت ، وهذا الحكم صحيح في الشجاعة دون الندى ، لأن الشجاع أو علم أنه يخلد في الدنيا لم يخش الهلاك فلم يكن لشجاعته فضل بخلاف الباذل ماله ، فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذله .

وأما القسمُ الثاني فإنَّ التَّنْبِيهَ له عَسِرٌ ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ ،
وطولِ فِكْرَةٍ ، خِفاءٍ ما يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ، وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي
مُمارَسَةِ عِلْمِ البَيانِ ، وَصارَ لَهُ خَلِيقَةٌ وَمِلْكَةٌ .

وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا عَلمَ هَذِينَ القَمِينَ بِعَلامَةٍ ، وَلَا قَيِّدَها بِقَيِّدٍ ، وَقَدِ أَشْرَتْ
إِلَى ذَلِكَ فِيمَا يَأْتِي مِنْ هَذَا البَابِ عِنْدَ تَفْصِيلِ أَمْثَلِهِما ، فليُؤَخِّذْ مِنْ هُنَاكَ .

فإنَّ قِيلَ : إنَّ هَذَا التَّقسِيمَ الَّذِي قَسَمْتَهُ فِي المَحذُوفِ وَغَيْرِ المَحذُوفِ لَيْسَ
بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّ المَعْنَى لَيْسَتْ أَجْسامًا كالأَلْفاظِ ، حَتَّى يَصِحَّ التَّقْدِيرُ بَيْنَهُما ، ثُمَّ
لو سَلِمَتْ جِوازُ التَّقْدِيرِ فِي المِساوَةِ لَمْ أُسَلِّمْ جِوازَ الزِيادةِ ، فَلَيْسَ لِقائِلٍ أَنْ يَقولَ :
هَذَا المَعْنَى زائِدٌ عَلَى هَذَا اللفظِ ، لِأَنَّهُ إِنْ قالَ ذَلِكَ قِيلَ : فَمِنْ أَيْنَ فُهِمَتْ تِلْكَ
الزِيادةُ الخارِجَةُ عَنِ اللفظِ ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الأَلْفاظَ إِنما وَضَعْتَ لِلدَّلالَةِ عَلَى إِفْهَامِ
المَعْنَى ؟ فإِنْ قالَ إِنَّها فُهِمَتْ مِنْ شَيْءٍ خارجٍ عَنِ اللفظِ ، قِيلَ لَهُ : فَتِلْكَ
الزِيادةُ بِإِزاءِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الخارِجِ عَنِ اللفظِ ، وَالباقي مُساوٍ لِللفظِ ، وَإِنْ قالَ :
إِنَّها فُهِمَتْ مِنَ اللفظِ ، قِيلَ : فَكَيْفَ تَفْهَمُ مِنْهُ وَهِيَ زائِدَةٌ عَلَيْهِ . فإِنْ قالَ :
إِنَّها فُهِمَتْ مِنْ تَرْكِيبِهِ ، لِأَنَّ التَّرْكِيبَ أَمْرٌ زائِدٌ عَلَى اللفظِ ، قِيلَ : الأَلْفاظُ
تَدلُّ بِانْفِرادِها عَلَى مَعْنَى ، وَبِتَرْكِيبِها عَلَى مَعْنَى آخَرَ ، وَاللفظُ المَرْكَبُ يَدلُّ
عَلَى مَعْنَى مَرْكَبٍ ، وَاللفظُ المَفْرَدُ يَدلُّ عَلَى مَعْنَى مُفْرَدٍ ، وَتِلْكَ الزِيادةُ إِنْ أُريدَ
بِها زِيادةُ مَعْنَى المَرْكَبِ عَلَى المَرْكَبِ فَلَا يَخْلُو : إِمَّا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الزِيادةُ
مَفهُومَةً مِنْ دِلالَةِ اللفظِ المَرْكَبِ عَلَيْها ، أَوْ مِنْ دِلالَةِ شَيْءٍ خارجٍ ، فإِنْ كانَتْ
مَفهُومَةً مِنْ دِلالَتِهِ عَلَيْها لَمْ تَكُنْ زائِدَةً عَلَيْهِ ، إِذْ لو كانَتْ زائِدَةً عَلَيْهِ لَمَّا دَلَّ
عَلَيْها ، وَإِنْ كانَتْ مَفهُومَةً مِنْ دِلالَةِ الشَّيْءِ الخارِجِ عَنْهُ فَهِيَ بِإِزاءِ ذَلِكَ الشَّيْءِ
الخارِجِ ، وَالباقي مُساوٍ لِلباقي ! .

فالجوابُ عن ذلك أن تقول :

هذا الذي ذكره كلامٌ شبيهٌ بالسفسطة ، وهو باطلٌ من وجهين :
أحدهما : أن المعاني إذا كانت لا تزيدُ على الألفاظ فيلزمُ من ذلك أن
الألفاظ لا تزيدُ أيضاً على المعاني ، لأنهما متلازمان على قياسك ، ونحن نرى
معنى قد دلَّ عليه بالألفاظ ، فإذا أسقطَ من تلك الألفاظ شيءٌ لا ينقصُ ذلك
المعنى ، بل يبقى على حاله .

والوجهُ الآخر : أن الإيجازُ بال حذفِ أقوى دليلاً على زيادة المعاني على
الألفاظ لأننا نرى اللفظ يدلُّ على معنى لم يتصمَّنه ، وفهمُ ذلك المعنى
ضرورةٌ لا بدَّ منه ، فعلمنا حينئذٍ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهومٌ من
دلالاته عليه .

فإن قيل : إن المعنى الزائد على اللفظ المحذوف لا بدَّ له من تقدير لفظٍ
آخر يدلُّ عليه ، وتلك الزيادةُ بإزاء ذلك اللفظ المقدَّر ؟

قلتُ في الجوابِ عن ذلك :

هذا لا ينقضُ ما ذهبنا إليه من زيادة المعنى على اللفظ ، لأن المعنى
الزائد ظاهرٌ ، واللفظ الدالُّ عليه مُضمَّر ، وإذا كان مُضمَّراً فلا ينطقُ به ؛
وإذا لم ينطقُ به فكأنه لم يكن ، وحينئذٍ يبقى المعنى موجوداً . واللفظ الدالُّ
عليه غير موجود ، وكذلك كلُّ ما يُعلم من المعاني بمفهوم الخطابِ .

ألا ترى أنك إذا قلتَ لئن دخل عليك : « أهلاً وسهلاً » علم أن الأهل
والسهل منصوبان بعاملٍ محذوفٍ ، تقديره « وجدت أهلاً ولقيت سهلاً »
إلا أن لفظتي « وجدت » و « لقيت » محذوفتان ، والمعنى الذي دلَّ
عليه باق ، فصار المعنى حينئذٍ مفهوماً مع حذفهما ، فهو إذاً زائدٌ لا محالة

وكذلك جميع الحذوفات على اختلافها ، وتشعب مقاصدها ، وهذا لانزاع فيه لبيانه ووضوحه .

وقد سَنَح لي في زيادة المعنى على اللفظ في غير الحذوفات دليل أنا ذا كرهه ، وهو أنا نجد من الكلام ما يدل على معنيين وثلاثة ، واللفظ واحد ، والمعاني التي تحته متعددة .

فأما الذي يدل على مَعْنَيْنِ : فالكنائيات جميعها ، كالذي ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه — رضى الله عنهم — أنهم « كانوا إذا خرجوا من عنده إلا يتفرقون إلا عن ذَواقٍ » وهذا يدل على مَعْنَيْنِ :

أحدهما : إطعام الطعام ، أى أنهم لا يخرجون من عنده حتى يطعموا .
الأخر : أنهم لا يتفرقون إلا عن استفادة علمٍ وأدبٍ يقوم لأنفسهم مقام الطعام لأجسامهم .

وأما الذي يدل على ثلاثة معانٍ فكقول أبي الطيب المتنبى :
وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً
مَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ (١)

(١) ديوان المتنبى ١/ ١٨٥ من قصيدة له في مدح كافور ، وقد حمل إليه ستمائة دينار ، مطالعها قوله :
أغالب فيك الشوق ، والشوق أغلب وأعجب من ذاللهجر ، ولهجر أعجب
وقد شرح العكبري البيت المذكور بقوله : يريد أن أشد الظلم وأقبحه حسد المنعم عليك ، يريد : من بات في نعمة رجل ، ثم بات حاسداً له فهو أظلم الظالمين ، يريد : أن الحاسدين يحسدونه ، وهو منقول من قول الحكيم : « أقبح الظلم حسد عبدك الذي تنعم عليه لك » .

فهذا يدلُّ على ثلاثة معانٍ :

الأول : أنه يحسدُّ من أنعمَ عليه .

الثاني : ضدَّ الأول .

الثالثُ : أنه يحسدُّ كلَّ ربِّ نعمةٍ كائنًا من كان ، أى : يحسدُّ من باتَ في نعماءٍ نفسه يتقلبُ .

وهذا وأمثاله من أدلِّ الدليل على زيادة المعنى على اللفظ ، وهو شىءٌ استخرجته ، ولم يكن لأحدٍ فيه قولٌ سابق !

* * *

وحيثُ فرغنا من الكلام على هذا الموضوع فلننتهيه بذكر أقسام الإيجاز المتشابهة إليها أولاً ، وما ينصرفُ إليه ، فنقول :

الإيجاز بالحذف :

أما الإيجازُ بالحذف فإنه عجيبُ الأمر ، شبيهه بالسحر ، وذلك أنك ترى فيه تركَ الذِّكرِ أفصحَ من الذكر ، والصمتُ عن الإفادة أزيدُ للأفادة ، وتجهدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون مُبيناً إذا لم تبين ، وهذه جملةٌ تنسكِرُها حتى تخبرُ ، وتدفعُها حتى تنظرُ .

والأصلُ في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدلُّ على المحذوف ، فإن لم يكن هناك دليلٌ على المحذوف ، فإنه لغوٌ من الحديث ، لا يجوزُ بوجهٍ ولا سببٍ .

ومن شرط المحذوف في حُكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلامُ إلى شىءٍ غثٍّ ، لا يناسبُ ما كان علميه أولاً من الطلَّوة والحسن .

وقد يظهرُ المحذوفُ بالإعرابِ كقولنا « أهلاً وسهلاً » فإنَّ نصب الأهل

والسهل يدلُّ على ناصبٍ محذوفٍ ، وليس لهذا من الحسن ما للذي لا يظهرُ بالإعرابِ ، وإنما يظهرُ بالنظر إلى تمامِ المعنى ، كقولنا : « فلانٌ يحلُّ ويقعد » فإن ذلك لا يظهرُ المحذوف فيه بالإعراب ، وإنما يظهر بالنظر إلى تمامِ المعنى ، أى أنه يحلُّ الأمور ويعقدها .

والذى يظهرُ بالإعراب يقعُ في المفردات من المحذوفات كثيراً ، والذى لا يظهرُ بالإعراب يقعُ في الجملِ من المحذوفات كثيراً .

وسأذكرُ في كتابي هذا ما وصل إلى علمه ، وهو ينقسمُ قسمين :
أحدهما حذفُ الجمل .

والآخرُ : حذفُ المفردات .

وقد يردُّ كلامٌ في بعض المواضع ، ويكونُ مشتملاً على القسمين معاً .

* * *

القسم الأول - حذف الجمل :

فأما القسم الأول ، وهو الذى تحذف منه الجمل ، فإنه ينقسم إلى قسمين أيضاً :

أحدهما : حذفُ الجمل المفيدة التى تستقلُّ بنفسها كلاماً . وهذا أحسنُ المحذوفات جميعها ، وأدملها على الاختصار ، ولا تكاد تجده إلا في كتاب الله تعالى .

والقسم الآخر : حذفُ الجمل غير المفيدة ، وقد وردَ هاهنا مختلطين .
وجملتهما أربعةٌ أضرب :

(١) الضرب الأول : حذف السؤال المقدر (ويسمى الاستئناف) :

ويأتى على وجهين :

الوجه الأول : إعادة الأسماء والصفات :

وهذا يحى تارة بإعادة اسم من تقدم الحديث عنه ، كقولك : أحسنتُ إلى زيدٍ ، زيدٌ حقيقٌ بالإحسان .

وتارة يحى بإعادة صفة ، كقولك : أحسنتُ إلى زيدٍ ، صدقك القديمُ أهلٌ لذلك منك .

وهو أحسنُ من الأوّل وأبلغ ، لانطوائه على بيان الموجب للإحسان وتخصيصه .

فمّا وردَ من ذلك قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ * ذٰلِكَ الْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ * الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُوْنَ الصَّلٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُوْنَ * وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُوْنَ * اُولٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّنْ رَبِّهِمْ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾ (١) .

والاستئناف واقع في هذا الكلام على « أولئك » لأنه لما قال : « ألم ذلك الكتاب » إلى قوله « وبالآخرة هم يوقنون » اتجه لسائل أن يقول : ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا — دون الناس — بالهدى عاجلاً ، وبالفلاح آجلاً .

الوجه الثاني : الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَالِيَ لَأُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * اَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون * إِنِّي إِذًا لَبِي ضَلٰلٍ مُّبِين * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُون *

(١) سورة البقرة : الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ .

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ ﴿١﴾ .

فخرجُ هذا القول مخرج الاستئناف، لأنَّ ذلك من مظان المسألة عن
حاله عند لقاء ربه .

وكانَ قائلًا قال : كيف حالُ هذا الرَّجُلِ عند لقاء ربه بعد ذلك التصلُّبِ
في دينه والتسخُّي لوجهه برُوحه؟ فقيل : « قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » ولم يقل : قيل
له ، لأنَّ صِبابِ الغرض إلى القول ، لا إلى القول له ، مع كونه معلوماً .
وكذلك قوله تعالى : « يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ » مرتبٌ على تقدير سؤال
سائل عمَّا وجد .

وَمِنْ هَذَا النَّحْوِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِي
أَعْمَلُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَّارْتَقِبُوا
لِي نِي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٢) .

والفرق بين إثبات الفاء في « سَوْفَ » كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا
عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِي أَعْمَلُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٣) . وبين حذف الفاء هاهنا في هذه الآية أنَّ
إثباتها وصلُّ ظاهرٍ بحرفٍ موضوعٍ للوصل ، وحذفها وصلُّ خفيٌّ تقديرى
بالاستئناف الذي هو جوابٌ لسؤالٍ مُقدِّرٍ ، كأنهم قالوا : فإذا يكون إذا
عملنا نحن على مكائنا ، وعلمت أنت . فقال : سَوْفَ تعلمون ، فوصلت تارة

(١) سورة يس : الآيات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧

(٢) سورة هود : الآية ٩٣ .

(٣) سورة الزمر : الآيتان ٣٩ و ٤٠

بالفاء ، وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة . وأقوى الوصاين وأبلغها
 الاستئناف ، وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه ، فأعرفه
 إن شاء الله تعالى .

(٢) الضرب الثاني : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب :

فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ
 النَّارِ بِي إِذْ قُضِيَنا إِلَى مُوسَى الْأَمْرِ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا
 قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ (١) كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما
 جرى له وعليه ، ولكننا أوحيناها إليك ، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة
 الفترة ، ودل به على المسبب الذي هو الوحي ، على عادة اختصارات القرآن ،
 لأن تقدير الكلام . ولكننا أنشأنا بعد عهد الوحي الى موسى إلى عهدك قرونًا
 كثيرة ، فتطاول على آخرهم — وهو القرن الذي أنت فيهم — العمر ، أي أمد
 انقطاع الوحي ، فاندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك ،
 وعرفناك العلم بقصص الأنبياء ، وقصة موسى ، فالحذف إذا جملة مفيدة ، وهي
 جملة مطولة ، دل السبب فيها على المسبب .

وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضاً : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ
 الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَا أَنَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ
 قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٢) .

فإن في هذا الكلام محذوقاً لولاه لما فهم ، لأنه قال : « وما كنت بجانب

(١) سورة القصص : الآيتان ٤٤ و٤٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٤٦ وفي الأصل « لعلهم يهتدون »

وهو خطأ .

الطُّور إذ نادينا ولكن رحمةً من ربك » وهذا لا بدَّ له من محذوف ، حتى يستقيم نظم الكلام ، وتقديره ولكن عرفناك ذلك ، وأوحينا إليك رحمة من ربك ، لتندبر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك » فذكر الرحمة التي هي سبب إرساله إلى الناس ، ودلَّ بها على المسبب الذي هو الإرسال .

وأما حذفُ الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكايةً عن مريمَ عليها السلام : (قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غَلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلْنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) (١) .

فقوله « ولنجعله آيةً للناس » تعليلٌ مَعْلَلُهُ محذوفٌ ، أى : وإنما فعلنا ذلك لنجعله آيةً للناس ، فذكر السبب الذي صدرَ الفعلُ من أجله ، وهو جعله آيةً للناس ودلَّ به على المسبب الذي هو الفعل .

ومما وردَ من ذلك في الأخبار النبوية قصة : الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ — رضى الله عنه — والرجل الأنصارى الذي خاصمه في شِراجِ الحرة (٢) التي يُسقى منها النحل ، فلما حضرا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزُّبَيْرِ « اسق ، ثم أرسل الماء إلى جارك » فنضب الأنصارى ، وقال : « يا رسول الله : إن كان ابن عمَّتِكَ ؟ فتلوّن وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « اسق يا زبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر » وفي هذا الكلام محذوف تقديره : أن كان ابن عمَّتِكَ حَكَمْتَ له ؟ ، أو قضيتَ له . أو ماجرى هذا الجرى ، فذكر السبب الذي هو كونه ابن عمته ، ودلَّ به على المسبب الذي هو الحكم أو القضاء ، لدلالة الكلام عليه :

(١) سورة مريم : الآيتان ٢٠ و ٢١ .

(٢) الشرح — بفتح فسكون — مسير الماء من الحرة إلى السهل ،

وجمعها شراج ، بكسر الشين .

وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)^(١) أى : إذا أردت قراءة القرآن ، فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة ، عن السبب الذى هو الإرادة .

والدليل على ذلك أن الاستعاذة قبل القراءة ؛ والذى دلّت عليه أنها بعد القراءة ، كقول القائل : « إِذَا ضَرَبْتَ زَيْدًا فَاجَسُ » ، فإن الجلوس إنما يكون بعد الضرب ، لا قبله .

وهذا أولى من تأويل من ذهب إلى أنه أراد : فإذا تعوذت فاقرأ ، فإن [فى] ذلك قلباً لا ضرورة تدعوا إليه . وأيضاً فليس كل مستعيد أواجبة عليه القراءة .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)^(٢) .

والوضوء إنما يكون قبل الصلاة ، لا عند القيام إليها ، لأن القيام إليها هو مباشرة لأفعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك ، وهذا إنما يكون بعد الوضوء ، وتأويل الآية : إذا أردت القيام إلى الصلاة فاغسل ، فاكتفى بالمسبب عن السبب .

وكذلك ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلْيَتَوَضَّأْ) .

أى : إذا أراد القيام إلى الصلاة ، وإنما يعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل ، لأن الفعل مسبب عن الإرادة ، وهو مع القصد إليه موجود ، فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة .

(١) سورة النحل : الآية ٩٨ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦ .

ومن ذلك قوله تعالى : (فقلنا اضرب بعصاك الحجرَ فانفجرت منه
اثنتا عشرةَ عينا) (١) .

أى : فضربَ فانفجرت منه ، فاكتفى بالسبب — الذى هو الانفجارُ —
عن السبب الذى ، هو الضرب .

(٣) الضرب الثالث : وهو الاضمار على شريطة التفسير :

وهو أن يُحذف من صدر الكلام ما يؤتى به فى آخره ، فيكونُ الآخرُ
دليلاً على الأول .

وهو ينقسمُ إلى ثلاثة أوجه :

الأول : أن يأتى على طريق الاستفهام ، فتذكرُ الجملةُ الأولى دونَ

الثانية ، كقوله تعالى : (أفمن شرحَ اللهُ صدرهُ الإسلامَ فهو على نورٍ من
ربه فويلٌ للناسيةِ فلو بهم من ذكرِ اللهُ أولئك فى ضلالٍ مبين) (٢) تقديرُ
الآية : أفمن شرحَ اللهُ صدرهُ للإسلامِ كمن أفسى قلبه . ويدلُّ على المحذوف
قوله « فويلٌ للناسيةِ فلو بهم » .

الوجه الثانى : يردُّ على حدِّ التثنية والإثبات ، كقوله تعالى : (لا يستوى

منكم من أنفق من قبلِ الفتحِ وقاتلَ أولئك أعظمُ درجةً من الذين
أنفقوا من بعدُ وقاتلوا) (٣) تقديرُهُ : لا يستوى منكم من أنفق من قبلِ الفتحِ
وقاتلَ ، ومن أنفق من بعده وقاتلَ ، ويدلُّ على المحذوفِ قوله « أولئك
أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا » .

(١) سورة البقرة : الآية ٦٠ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٠ .

الوجه الثالث : أن يرد على غير هذين الوجهين ، فلا يكون استفهاماً ،
ولا نفيّاً وإثباتاً ، وذلك كقول أبي تمام (١) .

يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ
وهذا البيتُ مُتَخْتَفٌ نَسَخُ دِيْوَانِهِ فِي إِثْبَاتِهِ ، فَهِيَ مَا يَجِيءُ فِيهِ :
يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ خَيْفَةً غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

ولبس بشيء ، لأن المعنى لا يصحُّ به .

وكنْتُ سُئِلْتُ عَنْ مَعْنَاهُ ، وَقِيلَ : كَيْفَ يَنْطَبِقُ عَجْزُ الْبَيْتِ عَلَى صَدْرِهِ ،
وَإِذَا تَجَنَّبَ الْآثَامَ وَخَافَهَا فَكَيْفَ تَكُونُ حَسَنَاتُهُ آثَامًا . فَفَكَّرْتُ فِيهِ ،
وَأَنْعَمْتُ نَظْرِي ، فَسَنَحَ لِي فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آيَةٌ مِثْلُهُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) (٢) وَفِي صَدْرِ الْبَيْتِ إِضْمَارٌ مَفْسَّرٌ فِي
عَجْزِهِ ، وَتَقْدِيرُهُ أَنَّهُ يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ، فَيَكُونُ قَدْ آتَى بِحَسَنَةٍ ، ثُمَّ يَخَافُ تِلْكَ
الْحَسَنَةَ ، فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامٌ ، وَهُوَ عَلَى طِبَاقِ الْآيَةِ سَوَاءً .

وَمِنَ الْإِضْمَارِ عَلَى شَرِيظَةِ التَّفْسِيرِ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

سُنَّةُ الْعُشَاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أُحْبِبْتَ فَاسْتَكِنَ

خُذَفَ لَفْظَ الْاسْتِكَانَةِ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَذَكَرَهُ فِي الثَّانِي ، أَيْ : سُنَّةُ الْعُشَاقِ
وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ الْاسْتِكَانَةُ ، فَإِذَا أُحْبِبْتَ فَاسْتَكِنَ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ :
« فَإِذَا أُحْبِبْتَ فَاسْتَكِنِ » ، وَهَذَا لِامْعْنَى لَهُ ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَبَيِّنْ سُنَّةَ الْعُشَاقِ

(١) ديوان أبي تمام ٢٨٠ من قصيدة له في مدح المأمون مطلعها :

دَمِنَ أَلَمِهَا فَقَالَ سَلَامٌ كَمَ حَلِّ عَقْدَةِ صَبْرِهِ الْإِلَامُ

(٢) سورة (المؤمنون) : الآية ٦٠

ما هي فباي شيء يستن المسن منها . لكنه ذكر السنة في صدر البيت من غير بيان ، ثم بيدها في عجزه .

(٤) الضرب الرابع : ما ليس بسبب ولا مسبب ، ولا اضممار على شريطة النفسير ، ولا استئناف :

فأما ما حذف فيه من الجمل المفيدة فكقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام : (قَالَ تَزْرَعُونَ سَمِعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَا كَانِ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ) (١) .

قد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرها : فرجع الرسول إليهم ، فأخبرهم بمقالة يوسف ، فعجبوا لها ، أو فصدقوه عليها ، وقال الملك : ائتنوني به .

والمحذوف إذا كان كذلك دل عليه الكلام دلالة ظاهرة ، لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام ، وحذف وسطه ظهر المحذوف ، لدلالة الحاشيتين عليه . وكذلك ورد قوله تعالى في هذه السورة أيضاً : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَابِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) (٢) .

(١) سورة يوسف : الآيات ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ .

(٢) سورة يوسف : الآيات ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ .

قد حذف أيضاً من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرها : نعم إنهم مجهزوا
وساروا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه .

وقد ورد هذا الضرب في القرآن الكريم كثيراً ، كقوله تعالى في سورة
القصص : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ
بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كُنِيَ تَقْرَىٰ
عِنْدَهَا) (١) .

في هذا محذوف ، وهو جواب الاستفهام ، لأنها لما قالت : « هل أدلكم
على أهل بيت يكفلونه لكم » ؟ احتاج إلى جواب ، لينتظم بما بعده من رده إلى
أمه ، والجواب : فقالوا : نعم ، فدللتهم على امرأة ، نجىء بها ، وهي أمه ، ولم
يعلموا بمكانها فأرضعته ، وهذه الجملة الثانية — أعنى قوله تعالى : « فرددناه إلى
أمه » — تدل على المحذوف ، لأن رده إلى أمه لم يكن إلا بعد رد الجواب على
أخته ، ودلائلها إيتام على امرأة ترضعه .

ويكفي هذا الموضع وحده لمن يتبصر في مواقع المحذوفات وكيفيتها .

ومما يجرى على هذا المنهج قوله تعالى في قصة سليمان — عليه السلام —
وقصة المهدد في إرساله بالكتاب إلى بلقيس : (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ
كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ
فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) (٢) .

وفي هذا محذوف ، تقديره : فأخذ الكتاب ، وذهب به ، فلما ألقاه إلى
المرأة وقرأته قالت : يا أيها الملأ .

(١) القصص : الآيتان ١٢ و ١٣ .

(٢) سورة النمل : الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

ومن حذف الجمل المفيدة ما يُعسرُ تقدير الحذف منه بخلاف ما تقدم .
الأنرى أن الآيات المذكورة كلها إذا تأملها المتأمل وجد معانيها متصلة من
غير تقدير للمحذوفات التي حذفت منها ؛ ثم إذا قدر تلك المحذوفات سهل
تقديرها ببديهة النظر .

والذى أذكره الآن ليس كذلك ، بل إذا تأمله المتأمل وجد غير
متصل المعنى ، وإذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَمَا يَنْظُرُ هَوَلاءِ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مآلها من
فواق . وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب . اصبر على ما يقولون
واذكروا عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) (١) فهذا الكلام إذا أمه المتأمل لم
يجده متصل المعنى ، ولم يتبين له جى ، ذكر داود عليه السلام رادقا لقوله تعالى
(اصبر على ما يقولون) ، وإذا أراد أن يقدر هاهنا محذوقا يوصل به المعنى
عسر عليه ، وتقديره يحتمل وجهين .

أحدهما : أنه قال : « اصبر على ما يقولون » وخوفهم أمر معصية الله ،
وعظمها في عيونهم بذكر قصة داود الذى كان نبيا من الأنبياء . وقد آتاه الله
ما آتاه من النبوة والملك العظيم ، ثم لما زل زلة قوبل بكذا وكذا ، فما الظن
بكم أنتم مع كفركم .

الوجه الآخر : أنه قال : « اصبر على ما يقولون » واحفظ نفسك أن تزل
فى شيء مما كلفته من مصابرتهم ، واحتمال أذاهم ، واذكر أخاك داود وكرامته
على الله كيف زل تلك الزلة ، فلتى من توبىخ الله مالتي ؟ !! .

(٢) سورة ص : الآيات ١٥ و١٦ و١٧ .

فهذا الكلام كما تراه يحتاج الى تقدير ، حتى يتصل بعضه ببعض ، وهو من أغمض ما يأتي من المحذوفات ، وبه يتنبه على مواضع أخرى غامضة .

* * *

وأما ما ورد من هذا الضرب في حذف الجمل التي ليست بمفيدة فنحو قوله تعالى : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَتَىٰ بِكَ لِيُكُونَ لِي غُلَامًا وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سُوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (١) .

هذا الكلام قد حذف منه جملة دل عليها صدره ، وهو البشري بالغلام ، وتقديرها : ولما جاءه الغلام ونشأ وترعرع قلنا له : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة .

وعلى هذا النهج ورد قوله تعالى : (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْنَؤُنَّ أُمَّ لَا تَأْخُذُ بَلِجَنَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) (٢) .

(١) سورة مريم : الآيات ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ .

(٢) سورة طه : الآيات ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ .

وقد حذف من هذا الكلام جملة إلا أنها غير مفيدة ، وتقديرها . فلما
رجع موسى ، ورآهم على تلك الحال من عبادة العجل قال لأخيه هارون :
مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني ؟ .

وكذلك ورد قوله تعالى في قصة سليمان — عليه السلام — من سورة النمل
(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ (١) أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ
عَفَرْتُ مَنِ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ
أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ
أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ .
قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ) (٢) .

وفي هذا محذوف تقديره : فلما جاء به قال : نكروا لها عرشها ، لأن
تنكيره لم يكن إلا بعد أن جرى به إليه ، وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام
وآخره ، وكان ذلك دليلاً عليه .

وما ورد على ذلك شعراً قول أبي الطيب المتنبي (٣) :

(١) سقطت عبارة «يا أيها الملأ» من الأصول ومن المطبوع .

(٢) سورة النمل : الآيات ٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١ .

(٣) ديوان المتنبي ٤ / ١٥٦ من قصيدة له يذكر فيها مسيره من مصر ،
ويرثي فاتكا ، ومطلعها :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم وما سراه على خوف ولا قدم

لَا أَبْغِضُ الْعَيْسَ لَكِنِّي وَقَيْتُ بِهَا

قَلْبِي مِنَ الْهَمِّ أَوْ جَسْمِي مِنَ السَّقَمِ (١)

وهذا البيتُ فيه محذوفٌ ، تقديرُهُ : لَا أَبْغِضُ الْعَيْسَ لِإِنْضَائِي إِيَّاهَا فِي الْأَسْفَارِ ، وَلَكِنِّي وَقَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا ، فَالثَّانِي دَلِيلٌ عَلَى حَذْفِ الْأَوَّلِ .

وهذا موضعٌ يحتاجُ في استخراجِه واستخراجِه أمثاله إلى فكرةٍ وتدقيقِ نظرٍ .

ومما يتصلُ بهذا الضربُ حذفُ ما يجيءُ بعدُ « أَفْعَلُ » كقولنا : « اللَّهُ أَكْبَرُ » فَإِنَّ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَمَامٍ ، أَيْ : أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ ، أَوْ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُتَوَقَّعُ كَبِيرًا ، أَوْ مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى .

ومثله يَرِدُ قَوْلُهُمْ : زَيْدٌ أَحْسَنُ وَجْهًا ، وَأَكْرَمُ خُلُقًا ، تَقْدِيرُهُ : أَحْسَنُ وَجْهًا مِنْ غَيْرِهِ ، وَأَكْرَمُ خُلُقًا مِنْ غَيْرِهِ ، أَوْ مَا يَسُدُّ هَذَا الْمَسَدَ مِنَ الْكَلَامِ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ الْبُحْتَرِيِّ (٢) :

اللَّهُ أَعْظَمُكَ الْحُبَّةَ فِي الْوَرَى وَحَبَابَكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي لَا يُنْكَرُ

(١) يريد أن إلتعابها في السفر لم يكن بغضا لها مني ، ولكن أسافر عليها لأتق قلبى وأحفظه من الحزن ، وجسمى من السقم ، إذا غير الهواء والماء وسافر صرح جسمه ، وكذلك المحزون يتنسم بروح الهواء ، أو يصير إلى مكان يسر بالإكرام فيه .

(٢) ديوان البحتري ١ / ١١ من قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله ، ويذكر خروجه يوم الفطر ، ومطلعها :

أخفى هوى لك في الضلوع وأظهر وألام في كد عليك وأعذر

وَلَأَنْتَ أَمْلَأُ فِي الْعُيُونِ لَدَيْهِمْ وَأَجَلٌ قَدْرًا فِي الصُّدُورِ وَأَكْبَرُ
أى : أنتَ أَمْلَأُ فِي الْعُيُونِ مِنْ غَيْرِكَ .

* * *

القسم الثانى - حذف المفردات :

وأما القسم الثانى المشتملُ عَلَى حذف المفردات فإنه يتصرف عَلَى أربعة
عشر ضَرْبًا :

(١) الضرب الأول : حذف الفاعل والاكْتفاء فى الدلالة عليه بذكر الفعل :
كقول العرب : « أَرْسَلْتُ » وهم يُرِيدُونَ : جاءَ المطر ، ولا يذكرونَ
السَّمَاءَ .

ومنه قولُ حاتمِ (١) .

أَمَّا وى ، ما يُعْنَى التَّوَهُُّدَ عَنِ الْفَقَى

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصُّدْرُ

يُرِيدُ : النَّفْسَ ، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ .

وعَلَى هَذَا وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) (٢)
والضمير فى « بَلَغَتْ » لِلنَّفْسِ ، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ .

وقد نصَّ عثمانُ بنُ جُنَيْدٍ - رحمه الله تعالى - على عدم الجواز فى حذف

(١) ديوان حاتم الطائى ١١٨ - من مجموع يشتمل على خمسة دواوين
من أشعار العرب : للنابغة ، وعروة بن الورد ، وحاتم طى ، وعلقمة
الفحل ، والفرزدق (المطبعة الوهبية - القاهرة ١٢٩٣ هـ) - والبيت من
قصيدة رواها ابن الكلبي لحاتم ، ومطلعها :

أماوى قد طال التمجيب والهجر وقد عذرتنى من طلابكم العذر

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٢٦ و ٢٧ .

الفاعل ، وهذه الآية وهذا البيت الشعري وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف ما ذهب إليه^(١) .

إلا أن حذف الفاعل لا يجوز على الإطلاق ، بل يجوز فيما هذا سبيله ، وذلك أنه لا يكون إلا فيما دلّ الكلام عليه .

ألا ترى أن التي تبلغ التراقي إنما هي النفس ، وذلك عند الموت ، فعلم حينئذ أن النفس هي المرادة ، وإن كان الكلام خالياً عن ذكرها ، وكذلك قول حاتم « حَشْرَجَتْ » فإن الحشرجة إنما تكون عند الموت .

وأما قول العرب « أُرْسَلَتْ » — وهم يريدون أرسلت السماء — فإن هذا يقولونه نظراً إلى الحال ، وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجيء المطر ، ولم ترد في شيء من أشعارهم ، ولا في كلامهم المنثور ، وإنما يقولها بعضهم لبعض إذا جاء المطر

فالفرق بينها وبين « حَشْرَجَتْ » وبين « بَلَغَتْ التراقي » ظاهر ، وذلك أن « حَشْرَجَتْ » « وَبَلَغَتْ التراقي » يفهم منها أن النفس التي حشرجت ، وأنها هي التي بلغت التراقي .

وأما « أُرْسَلَتْ » فلولا شاهد الحال ، وإلا لم يجوز أن تكون دالة على مجيء المطر ، ولو قيل في معرض الاستسقاء : « إنا خرجنا نسالُ الله ، فلم نزل حتى أرسلت » ، لفهم من ذلك أن التي أرسلت هي السماء ، ولا بد في الكلام من دليل على المحذوف ، وإلا كان لغواً لا يلتفت إليه .

(١) هنا ليس من باب حذف الفاعل إلا عند الكوفيين ، والضمير في الآية عائد إلى النفس ، وكذلك في بيت حاتم ، وفي قوله تعالى « حتى توارت بالحجاب » فإن الضمير في « توارت » عائد إلى الشمس ، ولم يتقدم لها ذكر ، وذلك إذا كان الاسم الظاهر مفهوماً من سياق الكلام .

(٢) الضرب الثاني : حذف الفعل وجوابه :

اعلم أن حذف الفعل ينقسم قسمين :

أحدهما : يظهرُ بدلالةِ المفعولِ عليه ، كقولهم في المثل : « أَهْلَكَ وَاللَّيْلَ »
فنصبُ « أَهْلَكَ » و « اللَّيْلَ » يدلُّ عَلَى محذوفٍ ناصبٍ ، تقديره « الْحَقُّ
أَهْلَكَ وَبَادِرِ اللَّيْلِ » وهذا مثلُ يُضْرَبُ فِي التَّحْذِيرِ .

وعليه وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) (١) .

ومما ورد منه في الأخبار النبوية أن جابراً تزوج ، فقال له رسول الله صلى
الله عليه وسلم : ما تزوجتَ ؟ قال : نَيْبًا ، فقال : « فَهَلَا جَارِيَةً تَلَاعِبُهَا
وَتَلَاعِبُكَ » : يريدُ : فَهَلَا تَزَوَّجْتَ جَارِيَةً : فحذفَ الفعل ، لدلالةِ
الكلامِ عليه .

ومما ورد منه شعراً قولُ أبي الطَّيِّبِ المُنْتَبِي فِي قَصِيدَتِهِ الكَاوِيَةِ الَّتِي يَمْتَدِحُ
بِهَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ أَبَا شُجَاعِ بْنِ بُوَيْهٍ ، ومطلعُها (٢) :

* فِدَى لَكَ مَنْ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاكَ * (٣)

وسأذكرُ الموضعَ الَّذِي حُذِفَ مِنْهُ الفِعْلُ وجوابُهُ ، لتعلُّقِ الأبياتِ
بعضُها ببعضٍ ، وهى من محاسنِ ما يؤتى به في معنى الوداع ، ولم يأتِ لغيره
مثلها ، وهى :

(١) سورة الشمس : الآية ١٣ .

(٢) ديوان المنتبى ٣٨٥ / ٢ .

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه :

* فلاملك إذن إلا فداكا *

إِذَا التَّوَدَّيعُ أَعْرَضَ قَالَ قَلْبِي عَلَيْكَ الصَّمْتُ لَا صَاحِبَتَ فَكَأ (١)
 وَلَوْلَا أَنْ أَكْثَرَ مَاءَ مَنِيَّ مُعَاوَدَةً لَقَلْتُ وَلَا مُنَاكَ (٢)
 قَدْ اسْتَشْفَيْتُ مِنْ دَاءٍ بَدَأَ وَأَقْتُلُ مَا أَعْلَاكَ مَا شَفَاكَ
 فَأَكْتُمُ مِنْكَ نَجْوَانًا وَأُخْفِي هُمُومًا قَدْ أَطَلْتُ لَهَا الْعِرَاكَ (٣)
 إِذَا عَاصِيَتُهَا كَانَتْ شَيْءًا مَادَاً وَإِنْ طَاوَعْتُهَا كَانَتْ رِكَآكَ (٤)
 وَكَمْ دُونَ الثَّوْبَةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قُدُومِي : ذَا بِنَاكَ (٥)
 وَمِنْ عَذْبِ الرُّضَابِ إِذَا أَنْحْنَا يَقْبَلُ رَحْلَ « تَرْوَكَ » وَالْوِرَاكَ (٦)

(١) إذا ظهر التوديع قال لي قلبي : اسكت ، ولا تتكلم بالوداع ، قال الواحدى ، ويجوز أن يكون المعنى : لا تمدح غيره ، ومعنى « لا صاحبت فاك » أى : لانطقت : دعاء عليه .

(٢) معناه : لولا أن قلبي أكثر ما يتمنى ويطلب معاودة خدمة الممدوح ، لقلت له : لا بلغت منك : وقال الواحدى : لا بلغت منك فى الارتحال ، حتى لا أفارقه ، ولكنه يتمنى الارتحال للعود إليه .

(٣) رواية الديوان « فأستر منك » موضع « فأكتم منك » .

(٤) الركاك : الضعاف ، وهو جمع ركيك كضعيف .

(٥) الثوبية مكان بالكوفة على بعد ثلاثة أميال منها . ومعنى البيت : كم دونها من إنسان حزين لفراقى ، فإذا قدمت فرح لقدمى ، فيقوله القوم . هذا السرور بالغم الذى كنت لقيته بالبعد ، وهذا كقول أبى تمام :

وليست فرحة الأبواب إلا لموقوف على ترح الوداع
 وقول ابن الرومى يخاطب أمه وقد أراد سفراً :

فقلت لها إن اكتئاباً بشاخص سيبعه الله ابتهاجاً بقادم

(٦) الرضاب ماء الأسنان ، وتروك اسم ناقة أعطاه له عضد الدولة ، والوراك جلد يتخذة الراكب تحت وركه ، يقول : كم هناك من شخص عذب الرضاب ، إذا أنخت إليه ناقى قبل رحلها ووراكها إعجاباً بها ، يفديها بنفسه إكراماً لها إذا أدنتى إليه .

يُحْرَمُ أَنْ يَمْسَ الطَّيِّبَ بَعْدِي وَقَدْ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَ (١)
يَحْدُثُ مَقْلَتِيهِ النَّوْمُ عَنِّي فَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ عَن نَدَاكَ
وَمَا أَرْضَى أُمَّقْلَتِيهِ بِجُلْمٍ إِذَا انْتَبَهتَ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَ (٢)
وَلَا إِلَّا بَانَ يُضْفِي وَأَحْكِي فَلَيْتَكَ لَا يَتِيَمُهُ هَوَاكَ

فقوله « ولا مناكا » . فيه محذوف ، تقديره : ولا صاحبت مناكا .
وكذلك قوله . « ولا إلا بَانَ يُضْفِي وَأَحْكِي » فإن فيه محذوفاً ، تقديره :
ولا أرضى إلا بَانَ يُضْفِي وَأَحْكِي .

وأما القسم الآخر : فإنه لا يظهر فيه قسم الفعل ، لأنه لا يكون هناك
منصوبٌ يدلُّ عليه . وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام .

فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَعَرِضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (٣) .

فقوله : « لقد جئتمونا » يحتاج إلى إضمار فعلٍ . أي : فقيل لهم : لقد
جئتمونا ، أو فقلنا لهم .

وقد استعمل هذا في القرآن الكريم في غير موضع ، كقوله تعالى :

(١) في الأصل « عاق » موضع « عبق » ، والتصويب عن الديوان ،
وصاك الشيء بالشئ ، لصق به .

(٢) التبشك والابتشاك الكذب ، وأبشك القول ، وحرفه ،
واختلقه ، بمعنى .

(٣) سورة الكهف : الآية ٤٨ .

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ تُظَاهَرُونَ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) (١).

فقوله: « أَلَّذِينَ تُظَاهَرُونَ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » يحتاج إلى تقدير الفعل المضمر .

وكذلك ورد قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) (٢). فقوله: « وَإِنْ جَاهَدَاكَ » لا بد له من إضمار القول، أي: « وقُلْنَا لَهُ: إِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ».

ومن هذا الضرب: (إِيقَاعُ الْفِعْلِ عَلَى شَيْئَيْنِ، وَهُوَ لِأَحَدِهِمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) (٣).

وهو (٤) لأمركم وحده، وإنما المرادُ أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، وادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ، لأنَّ معنى « أَجْمِعُوا » من « أَجْمَعَ الْأَمْرَ »، إِذَا نَوَّاهُ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ.

وقد قرأ أبي — رضى الله عنه — « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » وهذا دليل على ما أشرت إليه، وكذلك هو مُثَبَّتٌ فِي مَصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٥).

(١) سورة الأحقاف: الآية ٢٠.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٨.

(٣) سورة يونس: الآية ٧١. (٤) وهو أى الفعل

(٥) هو عبد الله بن مسعود بن الحارث، أبو عبد الرحمن الهنلى المكى، أحد السابقين والبلريين والعلماء الكبار من الصحابة، أسلم قبل عمر. وعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أول من أفشى القرآن من فى رسول الله، توفى سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع، وله بضع وستون سنة.

ومن حَذَفِ الفعل ، بابٌ يسمَّى (بابُ إِقامةِ المصدرِ مَقامَ الفعلِ) .
 وإِنَّمَا يُفْعَلُ ذلكُ لضَرْبٍ مِنَ المبالغةِ والتوكيدِ ، كقوله تعالى : (فَإِذَا لَتَيْمٌ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرَّقَابِ) ^(١) قوله : « فَضْرَبَ الرَّقَابِ » أصله : فاضْرِبُوا
 الرَّقَابَ ضَرْبًا ، مُحذَفَ الفعلِ ، وأَقِيمَ المصدرُ مقامه . وفي ذلك اختصارٌ ، مع
 إعطاء معنى التَّوكيدِ المصدرى .

وأما (حذفُ جوابِ الفعلِ) فإنه لا يكونُ في الأمرِ المحتومِ كقوله تعالى :
 (فَدَرَهُمْ يَمْخُضُوا وَيَلْعَبُونَ) ^(٢) فحَزَمَ « يَمْخُضُوا » و« يَلْعَبُونَ » لأنَّهما جوابُ
 أمرٍ « فَدَرَهُمْ » .

وحذفُ الجوابِ في هذا لا يدخلُ في بابِ الإيجازِ ، لأنَّنا إِذا قلنا ذرهمُ
 أَى : انزُرْهُمْ ، لا يحتاجُ ذلكُ إِلى جوابٍ . وكذلك ما يجرى مجراه .
 وإِنَّمَا يكونُ الجوابُ بالفاءِ في ماضٍ ، كقولنا : « قلتُ له : اذْهَبْ فَذْهَبَ »
 وحينئذٍ يظهرُ الجوابُ المحذوفُ كقوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا * فَقلْنَا اذْهَبَا إِلى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا
 فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) ^(٣) .

ألا ترى كيف حُذِفَ جوابُ الأمرِ في هذه الآيةِ ؟ فإنَّ تقديره : قلنا
 اذْهَبَا إِلى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا ، فَذْهَبَا إِلَيْهِمْ ، فَكَذَّبُوهُمَا ، فَدَمَّرْنَاهُمْ

(١) سورة محمد : الآية ٤ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٨٣ .

(٣) سورة الفرقان : الآيتان ٣٥ و ٣٦ .

تدميراً ، فذكر حاشيتي القصة أولها وآخرها ، لأنهما المقصود من القصة بطولها ،
أعنى إلزام الحجة ببعثة الرُّسل ، واستحقاق التدمير بتكذيبهم .

ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى
يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا تَرْتَعْ وَنَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ .
قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ
غَافِلُونَ : قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا خَاسِرُونَ . فَلَمَّا ذَهَبُوا
بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ)^(١) .

جواب الأمر من هذا الكلام محذوف ، وتقديره : فأرسله معهم ، ويدلنا
على ذلك ما جاء بعده من قوله : « فلما ذهبوا به » .

كما حذف أيضاً في قوله هزاً وجل : (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ
أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ . يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ)^(٢) الآية .

جواب الأمر من هذا الموضع محذوف ، وتقديره : فأرسلوه إلى يوسف ،
فأتاه فقال له : يوسفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .

وكذلك قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ
ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي

(١) سورة يوسف : الآيات ١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ . و« ترتع ونلعب » بالنون فيهما مكى وشامى وأبو عمرو - وكذلك هو في الأصل ، وبانبياء
فيهما مدنى وكوفى ، وبكسر العين حجازى من ارتعى يرتعى افتعال
من الرعى .

(٢) سورة يوسف : الآيات ٤٥ و٤٦ .

بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ . قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ (١) الْآيَةَ .
 ففي هذا الكلام حذف واختصار ، استغنى عنه بدلالة الحال عليه ،
 وتقديره : فرجع الرسول الى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك بالنسوة ، وقال
 لهن : ما خطبكم . . ؟

وهكذا ورد قوله تعالى (ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلفه قال إنك
 اليوم لدينا مكين أمين) (٢) .

وقد حذف جواب الأمر هاهنا ؛ وتقديره . فأتوه به فلما كلفه . . .

وفي سورة يوسف — عليه السلام — محذوفات كثيرة من أولها
 إلى آخرها .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه المحذوفات المذكورة هاهنا التي كأنها لم
 تحذف من هذا الكلام لظهور معناها وبيانه ؛ ودلالة الحال عليه .
 وعلى نحو من ذلك ينبغي أن تكون محذوفات الكلام .

(٣) الضرب الثالث : حذف المفعول به :

وذلك مما نحن بصدده أخص ، فإن اللطائف فيه أكثر وأعجب ،
 كقولنا : فلان يجل ويقد ، ويؤزم وينقض ، ويضر وينفع ، والأصل في
 ذلك على إثبات المعنى المقصود في نفسك للشئ . على الإطلاق .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ
 وَأُخْيَا) (٣) .

(١) سورة يوسف : الآيتان ٥٠ و ٥١ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٥٤ .

(٣) سورة النجم : الآيتان ٤٣ و ٤٤ .

ومن بديع ذلك قوله عز وجل: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا
لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) (١) .

فإن في هاتين الآيتين قد حذف المفعول به في أربعة أماكن ، إذ المعنى :
وجد أمة (٢) من الناس يسقون مواشيهم ، وامرأتين تذودان مواشيهما ، وقالتا :
لانسقي مواشينا ، فسقى لها مواشيهما . لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس
سقى : ومن امرأتين ذود ، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يصدر
الرعاء (٣) وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى . فاما كون المسقى
غنا وإبلا أو غير ذلك فخارج عن الغرض .

وقد ورد في الشعر من هذا النوع قول البعيث بن حريث (٤) من أبيات
الحماسة: (٥)

(١) سورة القصص : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٢) الأمة الجماعة الكبيرة .

(٣) يصدر أى يرجع ، والرعاء جمع راع ، كقيام جمع قائم .

(٤) شاعر محسن ، هو ابن حريث بن جابر ، ولهم شاعران آخران
يقال لهما « البعيث » أحدهما : المجاشعي ، واسمه خداش ، شاعر مشهور ،
وله نقائض بين جرير والفرزدق ، والآخر : البعيث التغلبي ، وهو بعيث بن
رزام ، وكان يهاجى زرعة بن عبد الرحمن . حكاه الأمدى في « المؤلفات
والمختلن » .

(٥) ديوان الحماسة ١ / ١٤٩ من جملة أبيات أولها :

خيال لأم السلسيل ودونها مسيرة شهر للبريد المذبذب

دَعَانِي يَزِيدُ بَعْدَ مَاسَاءِ ظَنُّهُ وَعَبَسَ وَقَدْ كَانَا عَلَى حَدِّ مَنْكَبٍ (١)
وَقَدْ عَلِمَا أَنَّ الْعَشِيرَةَ كُلَّهَا سَوَى مُحَضَّرِي مِنْ حَاضِرِينَ وَغُيِّبَ (٢)

فالمفعول الثاني من «علما» محذوف، لأن قوله: «أنَّ العشيَّة» في موضع مفعول «علما» الأوَّل، وتقديرُ الكلام: قد علما أنَّ العشيَّة سوي محضري من حاضرين وغُيِّب لاغناء عندهم، أو سوا حضورهم وغيبتهم، أو ماجرى هذا الجرى.

وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ أَيْضًا: حَذَفَ الْمَفْعُولِ الْوَارِدَ بَعْدَ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) (٣).

فمفعول «شاء» هاهنا محذوف، وتقديره: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهبَ بها.

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ) (٤).

(١) في الأصل جدموضع «حد» والتصويب عن الحماسة، والحد الطرف والمنكب النكبة وهي النائبة - والمعنى دعاني يزيد وعبس انصرتهما، وقد كانا أشرفا على الهلاك، وذلك تفسير «ساء ظنه».

(٢) في الحماسة «خاذلين» موضع «حاضرين»، والغيب جمع غائب - يقول: استغاثنا بنى متيقنين أن كل عشيرتهما - إذالم أحضر - بين شاهد لا ينصر، وغائب لا يحضر، ودل بهذا الكلام على الضرورة الداعية إلى الاستغاثة به.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠

(٤) سورة الأنعام: الآية ٣٥.

وَمَا جَاءَ عَلَى مِثَالِ ذَلِكَ شِعْرًا قَوْلُ الْبُحْتَرِيِّ (١) .

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا وَلَمْ تَهْدِمِ مَآثِرَ خَالِدِ
الأصلُ في ذلك . لو شِئْتَ أَنْ لَا تُفْسِدَ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ لَمْ تُفْسِدِهَا ، فَحُذِفَ
ذَلِكَ مِنَ الْأَوَّلِ ، اسْتِغْنَاءً بِدَلَالَتِهِ عَلَيْهِ فِي الثَّانِي .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ أَلَّا تَنْطِقَ بِالْحُذُوفِ ، وَلَا
تُظْهِرُهُ إِلَى اللَّفْظِ ، وَلَوْ أَظْهَرْتَ لَصِرْتَ إِلَى كَلَامٍ غَثٍّ .

وَجِيءَ الْمَشِيئَةُ بِعَدِّ « لَوْ » وَبَعْدَ حُرُوفِ الْجَزَاءِ هَكَذَا مَوْقُوفَةً غَيْرَ مُعَدَّاةٍ
إِلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ شَائِعٍ بَيْنَ الْبُلْغَاءِ .

وَلَقَدْ تَكَثَّرَ هَذَا الْحَذْفُ فِي « شَاءَ » وَ « أَرَادَ » حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَسْكَادُونَ
بِإِبْرَازِ الْمَفْعُولِ إِلَّا فِي الشَّيْءِ الْمُسْتَفْرَبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ
يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) (٢) .

وَعَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ جَاءَ قَوْلُ الشَّاعِرِ (٣) :

(١) دِيوانُ الْبُحْتَرِيِّ ٤٢/٢ من قصيدة له في مدح يوسف بن محمد ،

ومطلعها :

عجبا لطيف خيالك المتعاهد ولوصلك المتقارب المتباعد

(٢) سورة الزمر : الآية ٤ .

(٣) هو الخريمي ، واسمه إسحاق بن حسان ، ويكنى أبا يعقوب ،

وهو من العجم ، وكان مولى ابن خريم ، الذي يقال لأبيه « خريم الناعم »

وكان أبو يعقوب متصلا بمحمد بن منصور بن زياد ، كاتب البرامكة ،

وله فيه مدائح جياد ، ثم رثاه بعد موته ، فقال له أحمد بن يوسف

الكاظم : يا أبا يعقوب ، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك

وأجود ! فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على

الوفاء ، وبينهما بون بعيد !

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ (١)

فلو كان على حدّ قوله تعالى : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » لوجب أن يقول : ولو شئت لبكيت دماً ، ولسكنته ترك تلك الطريقة ؛ وعدل إلى هذه ؛ لأنه أليق في هذا الموضوع . وسبب ذلك أنه كان بدعاً عجيباً أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً ، فلما كان مفعول المشيئة مما يستعظم ويستغرب كان الأحسن أن يذكر ولا يضمن .

(٤) الضرب الرابع : وهو حذف المضاف والمضاف إليه ، وإقامة كل واحد منهما مقام الآخر :

وذلك بابٌ عريضٌ طويلٌ شائعٌ في كلام العرب ، وإن كان أبو الحسن الأخفش (٢) — رحمه الله — لا يرى القياس عليه .

(١) أنظر ديوان المعاني (٢/١٧٥) قال أبو هلال العسكري : وأخبرنا أبو أحمد قال : سمعت بن يزيد يقول : لو سئلت عن أحسن أبيات تعرفني المرأى لم أختار على أبيات الحريري :

ألم ترني أبنى على الليث بنيسة	وأحشى عليه الترب لا أنخسح
وأعددت ذخراً لكل ملامة	وسهم المنايا بالذخائر مولع
وإني وإن أظهرت مني جلادة	وصانعت أعدائي عليه لواقع
ولو شئت أن أبكي دماً لبكيت	عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

(٢) هو سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط ، وهو أحد الأخافش الثلاثة المشهورين ، كان مولى بنى مجاشع بن دارم ، من أهل بلخ ، سكن البصرة ، وقرأ النحو على سيديويه ، وكان أسن منه ، ولم يأخذ عن الخليل ، وكان معتزلياً ، دخل بغداد ، وأقام بها مدة ، وروى وصنف بها ، قال المبرد : أحفظ من أخذ عن سيديويه الأخفش ثم الناشيء ، ثم قطرب ، قال : وكان الأخفش أعلم الناس بالكلام ، وأحذقهم بالجدل ، صنف الأوساط في النحو ، ومعاني القرآن ، والمقاييس =

فَمَا حَذَفَ الْمُضَافُ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
 وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)^(١) مُحَذَفِ الْمُضَافِ إِلَى يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ^(٢) ،
 وَهُوسُدُّهُمَا ، كَمَا حَذَفِ الْمُضَافُ إِلَى الْقَرْيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)^(٣)
 أَى : أَهْلَ الْقَرْيَةِ^(٤) .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى)^(٥) أَى : حَصَلَةُ
 مِنْ اتَّقَى ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ تَقْدِيرُهُ . وَلَكِنَّ ذَا الْبِرِّ مَنْ اتَّقَى ، وَالأَوَّلَى
 أَوَّلَى لِأَنَّ حَذْفَ الْمُضَافِ ضَرْبٌ مِنَ الْإِتْسَاعِ ، وَالْخَبْرُ أَوَّلَى بِذَلِكَ مِنَ الْمَبْتَدَأِ ،
 لِأَنَّ الْإِتْسَاعَ بِحَذْفِ الْأَعْجَازِ أَوَّلَى مِنْهُ بِحَذْفِ الصَّدُورِ .

= فِي النُّحُوِّ وَالِاشْتِقَاقِ ، وَالْمَسَائِلِ : الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ ؛ وَالْعُرُوضِ وَالْقَوَائِي
 وَالْأَصْوَاتِ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمَاتَ سَنَةَ ٢١٠ وَقِيلَ ٢١٥ وَقِيلَ ٢٢١ هـ -
 وَأَنْظُرْ بَغِيَةَ الْوَعَاةِ ٢٥٨ .

(١) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : الْآيَةُ ٩٦ .

(٢) هُمَا اسْمَانِ أَعْجَمِيَانِ بِدَلِيلِ مَنَعِ الصَّرْفِ ، وَهَمْزُهُمَا عَاصِمٌ فَقَطْ ، وَهَمَا
 مِنْ وَلَدِيَاثِ بْنِ نُوحٍ ، أَوْ يَأْجُوجُ مِنَ التَّرِكِّ ، وَمَأْجُوجُ مِنَ الْجَلْبِ وَالذَّبْلِ . قَالَ النَّسْفِيُّ فِي
 تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى « إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ » قِيلَ :
 كَانُوا يَأْكُلُونَ النَّاسَ ، وَقِيلَ : كَانُوا يَخْرُجُونَ أَيَّامَ الرَّبِيعِ فَلَا يَتْرَكُونَ شَيْئًا
 أَخْضَرَ إِلَّا أَكَلُوهُ ، وَلَا يَأْبَسُ إِلَّا أَحْتَمَلُوهُ .. كُلُّهُمْ قَدْ حَمَلَ السَّلَاحَ ، وَقِيلَ :
 هُمْ عَلَى صَنْفَيْنِ طَوَالَ مَفْرَطُو الطَّوْلِ ، وَقَصَارِ مَفْرَطُو الْقَصْرِ (٢٠ / ٣) .

(٣) سُورَةُ يُوسُفَ : الْآيَةُ ٨٢ .

(٤) عَقَبَ النَّسْفِيُّ عَلَى هَذَا الْآيَةِ بِمَثَلِ مَا عَقَبَ بِهِ ابْنُ الْأَثِيرِ ، قَالَ النَّسْفِيُّ
 (٦٩ / ٣) : أَى فَتَحَ سُدَّهُمَا ، فَحَذَفِ الْمُضَافَ ، كَمَا حَذَفِ الْمُضَافَ إِلَى قَرْيَةٍ ، وَقَالَ
 فِي هَذَا الْمَوْضِعِ : إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ قَبِيلَتَانِ مِنْ جَنْسِ الْإِنْسِ ، يَقَالُ : النَّاسُ عَشْرَةٌ
 أَجْزَاءَ ، تِسْعَةٌ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .

(٥) سُورَةُ الْبَقَرَةِ : الْآيَةُ ١٨٩ .

وقد حُذِفَ المضافُ مكرراً في قوله تعالى : (قَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَمْرِ
الرَّسُولِ)^(١) أى : من أمر حافرِ فرس الرسول .

وهذا الضربُ أكثر اتساعاً من غيره .

ومما جاء منه شِعْراً قول بعضهم^(٢) من شعراء الحماسة :

إِذَا لَأَقَيْتَ قَوْمِي فَاسْأَلِيهِمْ كَفَى قَوْمًا بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرًا^(٣)

هَلْ عَفُو عَنْ أَصُولِ الْحَقِّ فِيهِمْ إِذَا عَسُرَتْ وَأَقْتَطِعُ الصُّدُورًا^(٤)

أراد : أنه يقتطعُ مافي الصدور من الضغائن والأوغام^(٥) ؛ أى : يزيلُ

ذلك بإحسانه من عفوٍ وغيره ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

وأما حذف المضاف إليه . فإنه قليلُ الاستعمال .

(١) سورة طه : الآية ٩٦

(٢) لم ينسبهما أبوتمام في ديوان الحماسة ٢/ ٢٧٣ ، ونقل التبريزي

عن أبي هلال ، أن البيتين لجنامة بن قيس أخى بلعاء بن قيس أحد بني أبي
بكر بن كلاب ، ومن شعرائهم ، وكان رئيساً على قبيلته يوم الفجار
الثاني ، لما قتل أخوه بلعاء بن قيس .

(٣) رواية ديوان الحماسة « كفى قومي » موضع « كفى قوما » ،

وقوله « بصاحبهم » يعنى به نفسه .

(٤) أراد بقوله « أصول الحق » أى ، أصل حتى ، وبقوله « اقتطع

الصدور » أى : آخذ ما سهل مأخذه ، والمعنى : إن سألت عن حقيقتي
فأسألي قومي ، فإنهم أخبر بصاحبهم ، ولو سألتهم عن حسن معاماتي لهم
ورأفتي بهم لأخبروك بأني أتسامح بما يجب لي عليهم من الحقوق ، وآخذ
اليسير منها ، ولا أستقصى في تقاضيها .

(٥) الأوغام جمع وغم ، ومن معانيه المناسبة هنا ، الحرب ،

والثرة ، والحقم الثابت في الصدر .

فَمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)^(١) أَيْ : مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِهِ .

وَرَبَّمَا أُدْخِلَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَوْ بُوِئِدَ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ)^(٢) قِيلَ : أَرَادَ ظَهَرَ الْأَرْضِ ، مُخَذِّفُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ الْمَاءَ وَالْأَلْفَ قَائِمَةٌ مَقَامَ الْأَرْضِ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ « ظَهَرُهَا » يُرِيدُ بِهِ الْأَرْضَ ، لِأَنَّهُ ضَمِيرٌ رَاجِعٌ إِلَيْهَا .

وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ جَرِيرٍ^(٣) :

إِذَا أَخَذْتَ قَيْسٌ عَلَيْكَ وَخَذِفٌ
بِأَقْطَارِهَا لَمْ تَدْرِ مِنْ أَيْنَ تَسْرَحُ^(٤)
وَهَذَا لَا يُسَمَّى إِيجَازًا ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْوِيضٌ^(٥) بِالضَّمِيرِ عَنِ الضَّمِيرِ .

(٥) الضرب الخامس : وهو حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام الآخر :

وَلَا يَكُونُ اطْرَاقُهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، وَأَكْثَرُهُ يَجِيءُ فِي الشُّعْرِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ كَثْرَتُهُ فِي الشُّعْرِ دُونَ الْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ لِامْتِنَاعِ الْقِيَاسِ فِي اطْرَاقِهِ .

(١) سورة الروم : الآية ٤

(٢) سورة فاطر : الآية ٤٥

(٣) ديوان جرير (١١١) من قصيدة له مطلعها :

أجد رواح القوم أم لا تروح نعم كل من يعنى بجمل مترح

(٤) قيس وخندف قبيلتان . يقول : إذا أخذتا عليك الطرق لم يكن

لك رواح ولا مسرح ، بل تنجحرفلا تظهر . وهذه القصيدة إحدى

نقائضه في هجاء الأخطل . وفي الأصل « بأنظارها » موضع « بأقطارها »

وهو تحريف ، والتصويب عن الديوان .

(٥) في الأصل « تعريض » - بالراء موضع الواو - وهو تحريف :

فَمَا جَاءَ مِنْهُ فِي الشُّعْرِ قَوْلُ الْبَحْتَرِيِّ مِنْ أَبِياتٍ فِي صِفَةِ إِيْوَانَ كِسْرَى ،
قَالَ فِي ذِكْرِ التَّصَاوِيرِ الَّتِي فِي الْإِيْوَانَ — وَذَلِكَ أَنَّ الْفَرَسَ كَانَتْ تَحَارِبُ
الرُّومَ فَصَوَّرُوا صُورَةَ مَدِينَةِ «أَنْطَاكِيَّةَ»^(١) فِي الْإِيْوَانَ وَحَرَبَ الرُّومَ وَالْفَرَسَ
عَلَيْهَا — فَمَّا ذَكَرَهُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ^(٢) :

وَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَاكِيَّةَ ازْتَنَّتْ بَيْنَ رُومٍ وَفَرَسٍ^(٣)

وَالْمَنَايَا مَوَائِلَ وَأَنْوَشِيرَ وَأَنْ يُزْجَى الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفَسِ^(٤)

فِي اخْضِرَّارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَصْفَرَ يَخْتَالُ فِي صَبِيغَةَ وَرْسٍ

قَوْلُهُ «عَلَى أَصْفَرَ» أَي : عَلَى فَرَسٍ أَصْفَرَ ، وَهَذَا مَفْهُومٌ مِنْ قَرْبِنَةِ الْحَالِ ،

لَأَنَّهُ لَمَّا قَالَ . «عَلَى أَصْفَرَ» عُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ فَرَسًا أَصْفَرَ .

وَالصَّفَةُ تَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

(١) إِمَّا لِلتَّأَكِيدِ وَالتَّخْصِيصِ .

(٢) وَإِمَّا لِلدَّحِّ وَالذَّمِّ .

(١) أَنْطَاكِيَّةُ — بِالْفَتْحِ ثُمَّ السُّكُونِ وَالْيَاءُ مُخَفَّفَةٌ — مَدِينَةٌ هِيَ قَصْبَةُ

العواصم من الثغور الشامية ، من أعيان البلاد وأمهاها ، موصوفة بالزاهة

والطيب والحسن وطيب الهواء وعضوبة الماء وكثرة الفواكه ، وسعة

الخير ، بينها وبين حلب يوم وليلة .

(٢) ديوان البحتري ١٠٨/١ من قصيدته السينية المشهورة التي مطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس

(٣) فِي الدِّيْوَانَ «فَإِذَا» مَوْضِعٌ «وَإِذَا» .

(٤) فِي الْأَصْلِ «يَرْمَى» مَوْضِعٌ «يُزْجَى» وَ«الدَّرْفَسُ» مَوْضِعٌ

الدرفس ، وهو تحريف ، ومعنى يزجي يسوق ، والدرفس هو العلم

الكبير . وموائل قائمات تنتظر العمل وقت الحرب ، وأنوشروان أحد

الأكاسرة .

وكلاهما من مقامات الإسهاب والتطويل ، لامن مقامات الإيجاز والاختصار
وإذا كان الأمر كذلك لم يلقى الحذف به ، هذا مع ما يضاف إليه من
الالتباس وضدّ البيان .

ألا ترى أنك إذا قلت : مررت بطويل ، لم يبين من هذا اللفظ المرور
به ، إنسان هو أم رُمح ، أم ثوب ، أم غير ذلك .
وإذا كان الأمر على هذا فحذف الموصوف إنما هو شيء قام الدليل عليه ،
أو شهدت به الحال ؛ وإذا استدل بهم كان حذفه غير لائق .

ومما يؤكد عندك ضعف حذفه أنك تجد من الصفات مالا يمكن حذف
موصوفه ، وذلك أن تكون الصفة جملة نحو : مررتُ برجلٍ قام أبوه ؛
ولقيتُ غلاماً وجهه حسنٌ . ألا تراك لو قلت : مررتُ بquam أبوه ، ولقيتُ
وجهه حسن ، لم يجز ؟

وقد وردَ حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في غير موضع من القرآن
الكريم ، كقوله تعالى : (وَآتَيْنَا مُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) (١) فإنه لم يُرد أن
الناقة كانت مبصرة ، ولم تكن عمياء . وإنما يريد آية مبصرة : فحذف
الموصوف ، وأقام الصفة مقامه .

ولقد تأملتُ حذف الموصوف في مواضع كثيرة ، فوجدتُ أكثر
وقوعه في النداء ، وفي المصدر .

أما النداء فكقولهم : يا أيها الظريف ، تقديره : يا أيها الرجل الظريف .

(١) سورة الإسراء . الآية ٥٩ .

وعليه وردَ قوله تعالى: (يَأْيُهَا السَّاحِرُ) ^(١) تقديرُهُ : يَأْيُهَا الرَّجُلُ السَّاحِرُ .
وكذلك قوله تعالى : (يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ^(٢) تقديرُهُ : يَأْيُهَا الْقَوْمُ
الَّذِينَ آمَنُوا .

وأما المصدرُ فكقوله تعالى : (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) ^(٣) ، تقديرُهُ : وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا .

وقد أُقيمت الصِّفَةُ السَّيْبِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ مَقَامَ الْمَوْصُوفِ الْمُبْتَدَأِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :
(وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ) ^(٤) أَيْ : قَوْمٌ دُونَ ذَلِكَ .

وأما حذفُ الصِّفَةِ وإِقَامَةُ الْمَوْصُوفِ مَقَامَهَا : فَإِنَّهُ أَقْلٌ وَجُودًا مِنْ حَذْفِ
الْمَوْصُوفِ وإِقَامَةِ الصِّفَةِ مَقَامَهُ ، وَلَا يَكَادُ يَبْقَى فِي الْكَلَامِ إِلَّا نَادِرًا ،
لَمَّا كَانَ اسْتِهَامَهُ .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا حَكَاهُ سَيْبِيُّهُ ^(٥) - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ قَوْلِهِمْ : « سِيرَ عَلَيْهِ

(١) سورة الزخرف : الآيات ٤٩ ، وتتمة الآية : (وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) .

(٢) تردد هذا النداء في آيات كثيرة من سور القرآن الكريم .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٧١

(٤) سورة الجن : الآية ١١

(٥) هو أبو بشر ، ويقال أبو الحسن ، عمرو بن عثمان بن قنبر امام
البصريين ، أصله من البيضاء من أرض فارس ، ونشأ بالبصرة ، وأخذ عن
الخليل ويونس وأبي الخطاب الأخفش وعيسى بن عمير ، قال أبو عبيدة :
قيل ليونس بعد موت سيبويه : ان سيبويه صنف كتاباً في ألف ورقة من علم
الخليل ، فقال ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ جيئوني بكتابه ،
فأما رآه قال : يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه
عنى . وقال بعضهم : كنت عند الخليل فأقبل سيبويه ؛ فقال : مرحباً بزائر لا يعمل ؛
قال : وما سمعت الخليل يقولها غيره واختلف في وفاته بين ١٨٠ و ١٦١ =

ليل» وهم يريدون : ليلٌ طويل ، وإنما حُذفت الصِّفة في هذا الموضع لما دلَّ من الحال عليه ، وذلك أَنَّهُ يُحْسَنُ في كلام القائل لذلك من التَّطْوِيع والتَّعْطِيع والتَّفْخِيم والتَّعْظِيم ما يقومُ مقامَ قوله : طويل ، وأنتَ تحسُّ هذا من نفسِكَ إِذَا تأمَّلتَهُ ، وهو أَن يكونَ في مَدْحِ إنسانٍ والشَّناءِ عليه ، فتقولُ : « كان واللهِ رجلاً » أَي : رجلاً فاضلاً ، أو شجاعاً ، أو كريماً ، أو ما جرى هذا الجورَى من الصِّفاتِ . وكذلك تقولُ : « سألتُهُ فوجدناه إنساناً » أَي : إنساناً سمحاً ، أو جواداً ، أو ما أشبهه . فعلى هذا ونحوه تُحذفُ الصِّفةُ ، فأما إن عَرَبَتْ عن الدلالةِ عليها من اللفظِ أو الحالِ فإنَّ حذفها لا يجوزُ .

وقد تأمَّلتُ حذفها فوجدته لا يسوغُ إلَّا في صفةٍ تقدِّمها ما يدلُّ عليها ، أو تأخر عنها ، أو فهمَ ذلك من شيءٍ خارجٍ عنها .

أما الصِّفةُ التي تقدِّمها ما يدلُّ عليها ، فقوله تعالى : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَآكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)^(١) حذفت الصِّفة ، أَي : كان يأخذُ كلَّ سفينةٍ صحيفةً غصباً ، ويدلُّ على المحذوفِ قوله : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » . فإنَّ عَيْبَهُ إِيَّاهَا لم يُخْرِجْها عن كونها سَفِينَةً ، وإنما المأخوذ هو الصَّحِيحُ دُونَ المَعِيبِ ، فحذفت الصِّفةَ هاهُنَا لأنَّه تقدِّمها ما يدلُّ عليها .

= ١٨٨ و ١٩٤ : بالبيضاء أو بشرارز ، أو بالذرب ، أو بالبصرة . وقال ابن الجوزي : مات بساوة . ومن أعجب العجب هذا الاختلاف الكثير في وفاة هذا العلم الإمام ! .

(١) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

وأما التي تأخر عنها ما يدل عليها فقول بعض شعراء الحماسة (١) :

كلُّ امرئٍ سَتَيْمٌ مِنْهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَتِيمٌ (٢)

فإنه أراد كلَّ امرئٍ متزوج ، إذ دلَّ عليه ما بعده من قوله : « ستيمٌ منه » ، « أو منها يتيمٌ » إذ لا تتيمُّ هي إلا من زوج ، ولا يتيمُّ هو إلا من زوجة . فجاء بعد الموصوفِ ما دلَّ عليه ، ولولا ذلك لَمَا صحَّ معنى البيت ، إذ ليس كلُّ امرئٍ يتيمٌ من عرسٍ ولا تتيمٌ منه عرسٌ إلا إذا كان متزوجاً .
وأما ما يفهم حذفُ الصفةِ فيه من شيءٍ خارج عن الكلام فقولُ النبي صلى الله عليه وسلم : « لا صلاةَ لجمارِ المسجدِ إلا في المسجدِ » فإنه قد علم جوازُ صلاةِ جاريِ المسجدِ في غير هذا المسجد من غير هذا الحديث ، فعلم حينئذٍ أن المرادَ به الفضيلةُ والسكال ، وهذا شيءٌ لم يُعلم من نفس اللفظ ، وإنما علم من شيءٍ خارجٍ عنه .

(١) هو يزيد بن الحكم الثقفى ، شاعر إسلامي عاصر الفرزدق وجريراً ، ومر عليه الفرزدق ذات يوم وهو ينشد في المجلس شعراً ، فقال : من هذا الذى ينشد شعراً كأنه من أشعارنا ؟ فقالوا : يزيد بن الحكم ، فقال : نعم ، أشهد الله أن عمى والدته ، وكان شاعر ثقيف في الإسلام ، والبيت من قصيدة له يعظ فيها ابنه بدرا ، أولها .

يابدرا والامثال بض ربها لذى اللب الحكيم

وهى فى ديوان الحماسة (٤١/٢) .

(٢) فى الأصل «ستيم» وهو تحريف ، والتصويب عن ديوان الحماسة (٤٤/٢) والأيم من لا زوج له ، والعرس الزوج ، وتتيم منه تصبح المرأة أيما بموت الزوج وعكسه يتيم منها ، والمعنى أن الموت لا بد منه لكل حى ، وأن نظام الأسرة لا بد أن يفرط عقده .

(٦) الضرب السادس : وهو حذف الشرط وجوابه :

فَأَمَّا حَذْفُ الشَّرْطِ فَنَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي
وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)^(١) .

فالفاء في قوله تعالى : « فاعبدون » جوابُ شرطٍ محذوفٍ ، لأنَّ المعنى :
إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ، فَإِنَّ لَمْ تَخْلُصُوا إِلَى الْعِبَادَةِ فِي أَرْضٍ فَأَخْلَصُوا هُنَا فِي غَيْرِهَا ،
ثُمَّ حُذِفَ الشَّرْطُ ، وَعَوَّضَ مِنْ حَذْفِهِ تَقْدِيمَ الْمَفْعُولِ مَعَ إِفَادَةِ تَقْدِيمِهِ مَعْنَى
الِاخْتِصَاصِ وَالِإِخْلَاصِ .

وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى
مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ)^(٢) : أَيْ فَحَلَقَ فَعَلَيْهِ فِدْيَةٌ .

وكذلك قولهم : « النَّاسُ مُجْزِئُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ،
وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ » أَيْ : إِنْ فَعَلَ الرَّءْيُ خَيْرًا جُزِيَ خَيْرًا ، وَإِنْ فَعَلَ شَرًّا
جُزِيَ شَرًّا .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى
سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ »^(٣) تَقْدِيرُ ذَلِكَ : فَأَفْطَرَ فَعِدَّةً مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .

(١) سورة العنكبوت : الآية ٥٦

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٦

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٤ وفي الأصل « ومن كان منكم . . . »
بالواو بدل الفاء ، وليس كذلك في هذه الآية ، وإنما وردت بالواو في
الآية التالية (١٨٥) في قوله تعالى : « ومن كان مريضاً . . . »

ولهذا ذهب داودُ الظاهريُّ^(١) إلى الأخذِ بظاهر الآية ، ولم ينظرْ إلى حذفِ الشرطِ فأوجبَ القضاءَ على المريضِ والمسافرِ ، سواءَ أفطر أم لم يفطر .
ومن حذفِ الشرطِ قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(٢) .

اعلم أن هذه الفاء التي في قول الشاعر :

* فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَ *^(٣)

وحقيقتها أنها في جوابِ شرطٍ محذوفٍ يدلُّ عليه الكلامُ كأنه قال :
إن صحَّ ما قلتم إن خراسان أقصى ما يراد بنا ، فقد جئنا خراسان ، وأن لنا
أن مخلص .

وكذلك هذه الآية ، يقول : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومُ
البعث ، أي : قد تبين بطلانُ قولكم .

(١) هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني ، المعروف بالظاهري ، كان زاهداً كثير الورع ، وكان من أكثر الناس تعصبا للامام الشافعي رضي الله عنه ، وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين ، وكان صاحب مذهب مستقل ، وتبعه جمع كثير يعرفون بالظاهرية ، وانتهت إليه رئاسة العلم ببغداد ، وكان مولده بالسوفة سنة اثنين ومائتين ، ونشأ ببغداد ، وتوفي بها سنة سبعين ومائتين في ذي القعدة .

(٢) سورة الروم : الآيتان ٥٥ و٥٦ .

(٣) جزء من بيت ، وهو بتمامه :

قالوا : خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القمبول ، فقد جئنا خراسانا

وأما حذفُ جوابِ الشرطِ ، فكفوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَذَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)^(١) فإنَّ جوابَ الشرطِ هاهنا محذوفٌ ، تقديره : إِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ ؟ ويدلُّ عَلَى المحذوفِ قوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

(٧) الضرب السابع : وهو حذف القسم وجوابه :

فأما حذفُ القسمِ فنحو قولك : « لأفعلن » أى : والله لأفعلن ، أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها .

وأما حذفُ جوابه فكفوله تعالى : (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ)^(٢) .
جوابُ القسمِ هاهنا محذوفٌ ، تقديره : لِيُعَذِّبَنَّ ، أو نحوه ، ويدلُّ عَلَى ذلك ما بعده من قوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » إلى قوله : « سَوَّطًا عَذَابٍ » .

وتما ينتظم في هذا السلك قوله تعالى : (ق . وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ . بَلْ عَجَّبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)^(٣) فإنَّ معناه :

(١) سورة الأحقاف : الآية ١٠ .

(٢) سورة الفجر : الآيات ١-٨ .

(٣) سورة (ق) : الآيتان ١ و٢ .

ق ، والقرآن المجيد ، لتُبْعَثَنَّ ! والشَّاهدُ على ذلك ما بعده من ذكر البعثِ في قوله : أُنذِرًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (١) .

وقد وردَ هذا الضربُ في القرآن كثيراً ، كقوله تعالى في سورة النَّازِعَاتِ :
(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا . وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا . فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا . فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) (٢) .

جوابُ القسم هاهنا محذوفٌ تقديرُه : لتُبْعَثَنَّ ، أو لتُحْشَرَنَّ . ويدلُّ على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامةِ في قوله : « يومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » وكذلك إلى آخر السورة .

(٨) الضرب الثامن : وهو حذف (لو) وجوابها :

وذلك من اللفظِ ضروب الإيجاز وأحسنها .

فأما حذف « لو » فكقوله تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَعَلَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) (٣) .

تقديرُ ذلك : إذ لو كان معه آلهةٌ لذهبَ كلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ .

وكذلك وردَ قوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِارْتَابِ الْمُبْطِلُونَ) (٤) .

تقديره . إذ لو فعلتَ ذلك لارتابَ المبطلون .

وهذا من أحسن المحذوفات .

(١) سورة (ق) : الآية ٣

(٢) سورة النازعات : الآيات ١ - ٧ .

(٣) سورة (المؤمنون) : ٩١

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

ومما جاء من ذلك شعراً قولُ بعضهم^(١) في صدر الحماسة :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان^(٢)

إذا لقام بنصرى معشر خشن

عند الحفيظة إن ذو لوثه لانا^(٣)

و « لو » في البيت الثاني محذوفة ، لأنها في البيت الأول قد استوفت

جوابها بقوله « لم تستبح إيلي » ثم حذفها في الثاني ، وتقديرُ حذفها : إذ لو كنت منهم لقام بنصرى معشر خشن ، أو : إذ لو كانوا قومي لقام بنصرى معشر خشن .

وأما حذف جواب « لو » فإنه كثير شائع . وذلك كقولك : لو

(١) هو قريظ بن أنيف أحد بني العنبر ، وهو شاعر إسلامي ، قال البغدادي تبعث كتب الشعراء والتراجم ، فلم أظنر له بترجمة . وانظر ديوان الحماسة (١٣ / ١) .

(٢) قوله « بنو اللقيطة » هكذا في شرح الحماسة والشواهد ، وقال أبو محمد الأعرابي : والصواب ما أنشده أبو الندى :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي بنو الشقيقة من ذهل بن شيبان

قال : والشقيقة هي بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان ، وأما اللقيطة فهي أم حصن بن حذيفة من بني فزارة ، ولا اتصال لها بذهل بن شيبان ،

(٣) اللوثه اللين مع الضعف ، يقول : لو كنت من هذه القبيلة لما أغار بنو ذهل على إيلي ، ولو كان ذلك لقام بنصرى قوم صعب أشداء ، ينفعون عني ، ويأخذون بحقي ممن اعتدى على إذا لان ذو الضعف ولم يدفع ضيا ، ولم يحم حقيقة .

زُرْتَنَا ، لَوِ أُمَمْتَ بِنَا ، مَعْنَاهُ . لِأَحْسَنَّا إِلَيْكَ ، أَوْ لِأَكْرَمِنَاكَ ، أَوْ مَا جَرَى
هَذَا الْجَرَى .

وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا
فَوْتَ وَأَخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » (١) .

فَإِنَّ جَوَابَ « لَوْ » هَاهُنَا مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : لِأَيَّتِ أَمْرًا عَظِيمًا ، وَحَالًا
هَائِلَةً ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا جَرَى بِجَرَاهِ .

وَمِمَّا جَاءَ عَلَى نَحْوِ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُؤْنَ عَنْ
وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » (٢) .

تَقْدِيرُهُ : لَوْ يَعْلَمُونَ الْوَقْتَ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَهُ ، وَهُوَ وَقْتُ صَعْبٍ شَدِيدٍ
تَحِيطُ بِهِمْ فِيهِ النَّارُ مِنْ وَرَاءِ وَفُؤَادِهِمْ ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ،
وَلَا يَجِدُونَ نَاصِرًا يَنْصُرُهُمْ ، لَمَّا كَانُوا بِتِلْكَ الصِّفَةِ مِنَ الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ
وَالِاسْتَعْجَالِ ، وَلَكِنْ جَهَلَهُمْ بِهِ هُوَ الَّذِي هُوَ نُهُ عَلَيْهِمْ .

وَمِمَّا جَرَى عَلَى هَذَا النَّهْجِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى
رُكْنٍ شَدِيدٍ) (٣) .

جَوَابُ « لَوْ » فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَحذُوفٌ كَمَا حُذِفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَوْ أَنَّ
قُرْآنًا نَسِيْرْتُ بِهِ الْجِبَالَ) (٤) .

(١) سورة سبأ : الآية ٥١ .

(٢) سورة الأنبياء : الآيات ٣٨ و ٣٩ .

(٣) سورة هود : الآية ٨٠ .

(٤) سورة الرعد : الآية ٣١ .

أى: لو أن لي بكم قوّة لدفتكم ، أو منعتكم ، أو ما أشبهه ، وكذلك قوله : « ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال » لكان هذا القرآن .

وهذا الضربُ من المحذوفاتِ أظهرُ الضروبِ المذكورة ، وأوضحها ، لعلمِ الخطابِ به ، لأنّ قوله تعالى - حكايةً عن لوط عليه السّلام - : « لو أن لي بكم قوّة أو أوى إلى ركنٍ شديدٍ » ، يقسارُ الفهمُ فيه إلى أنّ الكلامَ يحتاجُ إلى جوابٍ .

ومما جاء منه شعراً قولُ أبي تمامٍ في قصيدة البائية^(١) ، التي يمدحُ بها المعتصمَ عند فتحه مدينةَ عموريةَ : (٢) .

لو يعلمُ الكفرُ كم من أعصرُ كمنّت له المرأقبُ بين السمرِ والقضبِ^(٣)
فإنّ هذا محذوفُ الجوابِ ؛ تقديرُه : لو يعلمُ الكفرُ ذلكَ لأخذَ أهبةَ الحِذارِ ، أو غير ذلك .

واعلم أنّ حذفَ هذا الجوابِ لا يسوغُ في أيِّ موضعٍ كان من الكلامِ ، وإنما يحذفُ ما دلَّ عليه مكانُ المحذوفِ .
ألا ترى أنه قد وردَ في القرآن الكريم غير محذوفٍ ، كقوله تعالى :

(١) من قصيدته التي أولها :

السيوفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ في حده الحد بين الجد والعب

(٢) عمورية - بفتح أوله وتشديد ثانيه - بلد ببلاد الروم ، غزاه

المعتصم ففتحها ، وكان من أعظم فتوح الإسلام .

(٣) رواية الديوان « كمنّت له المنية » وفي بعض الروايات « لم يعلم »

مكان « لو يعلم » ، و « خبأت » موضع « كمنّت » والسمر الرماح ، والقضب السيوف .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ (١) .

وهذا ليس كالذي تقدم من الآيات ، لأنَّ تلك علم مكان المحذوف
منها ، وهذه الآية لو حُذِفَ الجوابُ فيها لم يُعلم مكانه ، لأنه يحتملُ وجوهاً ،
منها أن يُقال : لما آمنوا ، أو لطلبوا ما وراء ذلك . وقد تقدّم التولُّ في أوَّل
باب الإيجاز أنه لا بدَّ من دلالة الكلام على المحذوف .

(٩) الضرب التاسع : وهو حذف جواب (لولا) :

فمن ذلك قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهَادَةٌ
إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ
أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَبَدْرًا عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ
أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ
كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَوَلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
حَكِيمٌ (٢)) .

فجواب « لولا » هاهنا محذوف ، تقديره : لما أنزل عليكم هذا الحكم
بطريق التلاعن ، وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه .

وكذلك ورد قوله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي

(١) سورة الحجر : الآيات ١٤ و ١٥

(٢) سورة النور : الآيات ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ .

الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١) .

تقديره : ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته لعجل لكم العذاب ، أو فعل
بكم كذا وكذا .

(١٠) الضرب العاشر : وهو حذف جواب (لما) وجواب (أما) :

فأما حذفُ جوابِ « لما » فكقوله تعالى : (فلما أسلما وتلَّهُ لِّلْجَبِينِ *
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (٢)) .

فإنَّ جوابَ « لما » هاهنا محذوفٌ ، وتقديره : فلما أسلما وتلَّهُ لِّلْجَبِينِ
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا كَانَ مَا كَانَ مِمَّا يَنْطِقُ بِهِ الْحَالُ ،
ولا يحيطُ به الوصفُ من استبشارِها واعتباطِهما ، وشكرهما على ما أنعمَ به
عليهما من دفعِ البلاءِ العظيمِ بعد حلوله ، وما أشبهه ذلك ممَّا اكتسبَاهُ بهذه
الحِئنة من عظامِ الوصفِ دُنْيَا وَآخِرَةً ، وقوله : « إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »
تعليلٌ لتحويلِ ما خولَهما من الفرحِ والشُّرورِ بعد تلك الشدة العظيمة .

وأما حذفُ جوابِ (أمَّا) فنحو قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) (٣) .

(١١) الضرب الحادي عشر : وهو حذف جواب (اذا) :

فمَّا جاء منه قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ

(١) سورة النور : الآيتان ١٩ و ٢٠ .

(٢) سورة الصافات : الآيات : ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٦ .

لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (١).

ألا ترى كيف حذف الجوبُ عن « إذا » في هذا الكلام وهو مذكولٌ عليه بقوله : « إلا كانوا عنها معرضين » كأنه قال : وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ، ثم قال : ودأبهم الإعراضُ عن كل آيةٍ وموعظةٍ .

(١٢) الضرب الثاني عشر : حذف المبتدأ والخبر :

أما حذف المبتدأ فلا يكون إلا مفرداً ، والأحسنُ هو حذف الخبر ، لأنَّ منه ما يأتي جملةً ، كقوله تعالى : (وَاللَّائِي يَتُسَّنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأُنْحَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) (٣) .

وهاهنا قد حذف خبر المبتدأ ، وهو جملةٌ من مبتدأٍ وخبر ، وتقديرها : واللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ .

ومما ورد منه شعراً قولُ أبي عُبادة البُحترى (٣) :

كُلُّ عَذْرٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَلَكِنْ أَعْوَزَ الْعَذْرُ مِنْ بَيَاضِ الْعِدَارِ

(١) سورة يس : الآيتان ٤٥ و ٤٦ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ٤ .

(٣) ديوان البُحترى ٢/ ٢٩ من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد ، ويستوهبه غلاماً ، ومطلعها :

أبكاء في الدار بعد الدار وسلوا بزئيب عن نوار

وهذا قد حذف منه خبر المبتدأ ، إلا أنه مفردٌ غيرُ جُملةٍ ، وتقديرُهُ : كلُّ
عذرٍ من كلِّ ذنبٍ مقبولٌ أو مسموعٌ ، أو ما جرى هذا الجرى .

(١٣) الضرب الثالث عشر : وهو حذف (لا) من الكلام وهي مرادة
وذلك كقوله تعالى : (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف)^(١) يريدُ به :
لا تفتأ ، أى : لا تزال ، وحذفت « لا » من الكلام ؛ وهي مرادة .

وعلى هذا جاء قولُ امرئ القيس^(٢) :
فقتُ يمينُ الله أبرحُ قاعداً ولو قطعوا رأسي لذيك وأوصالي
أى : لا أبرحُ قاعداً ، وحذفت « لا » في هذا الموضع ، وهي مرادة .
ومما جاء منه قولُ أبي محجنٍ الثقفي^(٣) لما نهاهُ سعدُ بن

(١) سورة يوسف : الآية ٨٥ .

(٢) من قصيدته التي أولها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي
(٣) ذكره ابن دريد في الاشتقاق (٣٠٤) فقال : كان شاعراً فارساً
شجاعاً ، شهيد يوم القادسية ، وكان له فيها بلاء عظيم ، وقد شهد
يومئذ عمرو بن معد يكرب وغيره من فرسان العرب ، فلم يبل أحد بلاءه . وذكره
ابن قتيبة في الشعر والشعراء (٣٨٧/١) قال : هو من ثقيف ، وكان
مولعاً بالشراب ، مشتهراً به . وذكر ابن سلام أنه أبو محجن بن حبيب
ابن عمرو بن عمير الثقفي ، قال : وأبو محجن رجل شاعر شريف ، وكان قد
غلب عليه الشراب ؛ فضرب فيه مراراً ، ثم حبسه سعد بالقادسية في
القصر معه ، والناس يقتتلون ، فجال المسلمون جولة ، وهو ينظر .
وكان مقيداً يومئذ عند زيد ، أم ولد سعد بن أبي وقاص ، فقال لما :
أطلقني ؛ فلك الله ، لأن فتح الله على المسلمين وسلمت لأرجعن حتى
أضع رجلي في القيد ، فأطلقته وحملته على فرس لسعد ، فأخذ الرمح ،
فخرج فقاتل ، فحطم المشركين ، وكان سبب الهزيمة (طبقات الشعراء
(٢٢٦)

أبي وقاص (١) - رضى الله عنه - عن شرب الخمر ، وهو إذ ذاك في قتال
الفرس بالقادسية (٢) :

رأيتُ الخمرَ سالحةً وفيها مناقبُ تهلكُ الرجلَ الحليماً
فلا واللهِ أشربها حياتي ولا أستقي بها أبداً نديماً
يريد : لا أشربها ، فحذف « لا » من الكلام ، وهي مفهومة منه .

(١٤) الضرب الرابع عشر : وهو حذف الواو من الكلام واثباتها :

وأحسنُ حذوفها من المعطوف والمعطوف عليه ، وإذا لم يُذكر الحرفُ
المعطوف به كان ذلك بلاغةً وإيجازاً كقول أنس بن مالك (٣) - رضى الله
عنه « كان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ينامون ثمَّ يصلُّون ولا يتوضَّئون »
أو قال : ثمَّ يصلُّون لا يتوضَّئون .

(١) اسم أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبيد مناف بن زهرة بن
كلاب القرشي الزهري ، ويكنى سعد أباً إسحاق ، كان سابع سبعة
في إسلامه ، أسلم بعد ستة . شهد بدرأ والحديبية وسائر المشاهد وهو
أحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى وأخبر أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم توفى وهو عنهم راض . وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة . وبقيّة
أخباره في « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » ٦٠٦ وما بعدها .

(٢) قرية قرب الكوفة من جهة البر ، بينها وبين الكوفة خمسة عشر
فرسخاً ، وبينها وبين العذيب أربعة أميال عندها كانت الواقعة العظمى
بين المسلمين وفارس قتل فيها أهل فارس وفتحت بلادهم على المسلمين .
(٣) أنس بن مالك بن النضر بن ضحضم بن زيد ، خادم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، يكنى أباً حمزة ، سمي باسم عمه أنس بن النضر ، روى
عن أنس قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا ابن
عشر سنين ، وتوفى وأنا ابن عشرين سنة ، ومات أنس في الطف على
فرسخين من البصرة سنة إحدى وتسعين .

فقوله : « لا يتوضئون » بحذف الواو أبلغُ في تحقيق عدم الوضوء من قوله : « ولا يتوضئون » بإثباتها . كأنه جعل ذلك حالةً لهم لازمة : أى أنها داخلةٌ في الجملة ، وليست جملةً خارجةً عن الأولى . لأن واو العطف تُؤذنُ بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه . وإذا حُذفتُ في مثل هذا الموضع صارَ المعطوف والمعطوفُ عليه جملةً واحدةً .

وقد جاء مثلُ ذلك في القرآن الكريم ، وذلك أنه يُذكرُ مجملٌ من القول كلُّ واحدةٍ منها مُستقلةٌ بنفسها ، ثم تُسرَدُ سرِّداً بغير عطفٍ . كقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيَدَانِيَّ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبِفِضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) (١) .

تقديرُ هذا الكلام : لا يألونكم خبالًا ، ودُّوا ما عنيتكم ، وقد بدتِ البفضاء من أفواههم ، فلما حُذفت الواوُ جاء الكلامُ أوجزَ وأحسنَ طلاوةً ، وأبلغَ تأليفاً ونظاماً .

وأمثاله في القرآن الكريم كثيرٌ .

* * *

واعلم أنه قد حُذفت الواوُ وأثبتت في مواضع :
فأما إثباتها فنحو قوله تعالى : (وَمَا أَهْلَكُنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا وَلَهُمَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) (٢) .

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٨

(٢) سورة الحجر : الآية ٤ .

وَأَمَّا حَذْفُهَا فَنَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا أَهْلَكُنَا مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ) (١) .

وعلى هذا فلا يجوزُ حذفُ الواو وإثباتها في كلِّ موضعٍ ، وإنما يجوزُ ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين .

ولنبينَ لك في ذلك رسماً تَدَّبُّعُهُ فنقول :

أعلمُ أنَّ كلَّ اسمٍ نكرةٍ جاء خبره بعدَ إلاَّ يجوزُ إثباتُ الواو في خبره وحذفها ، كقولك : مارأيتُ رجلاً إلاَّ وعليه ثيابٌ ، وإن شئتَ قلتَ إلاَّ عليه ثيابٌ ، بغيرِ واوٍ ، فإن كان الذي يقعُ على النكرة ناقصاً فلا يكونُ إلاَّ بحذفِ الواو ، نحو قولك : ما أظنُّ درهماً إلاَّ هوَ كافيك ، ولا يجوزُ « إلاَّ وهو كافيك » بالواو لأنَّ الظنَّ يحتاجُ إلى شيئين ، فلا يُعترضُ فيه بالواو ، لأنَّه بصيرٌ كالمكتفي من الأفعال باسمٍ واحدٍ .

وكذلك جوابُ ظننتُ ، وكان ، وإن ، وأشباهها ، نخطأُ أن نقول : إنَّ رجلاً وهو قائمٌ ، ونحو ذلك .

ويجوزُ هذا في « ليس » خاصَّةً ، تقول : ليسَ أحدٌ إلاَّ وهو قائمٌ . لأنَّ الكلامَ يتوهمُ تمامه بليسَ وبحرفِ ونكرةٍ ، ألا ترى أنك تقولُ : ليسَ أحدٌ ، وما من أحدٍ ، فجازَ فيها إثباتُ الواو ، ولم يجرِ في « أظنُّ » لأنك لا تقولُ : ما أظنُّ أحداً ، فأما « أصبح » و « أمسى » و « رأى » فإنَّ الواوَ فيهنَّ أسهلٌ ؛ لأنهنَّ توأمٌ في حالٍ ، و « كان » و « أظنُّ » ونحوهما بُنِينَ عَلَى النَّقْصِ ، إلاَّ إذا كانت [كان] تامَّةً .

(١) سورة الشعراء : الآية ٢٠٨ .

وكذلك « لا » في التَّنْزِيهِ وغيرها ، نحو لا رَجُلَ ، وما مِنْ رَجُلٍ ،
فيجوز إثبات الواو فيها وحذفها .

واعلم أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيئاً لا يجوز القياس عليه ،
كقول بعضهم (١) .

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَابِ الْكَتَّانِ مَلْثُومٌ (٢)

قوله . « بسباب الكتان » يريد : بسباب الكتان (٣) .

(١) هو علقمة بن عبدة ، علقمة الفحل ، من قصيدته التي أولها :
هي ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ تأتلك اليوم مصروم
والقصيدة في شعراء النصرانية ٤٩٨ .

(٢) في الأصل «مقدم» وهي رواية شعراء النصرانية (٥٠١) بالقاف
موضع «مقدم» والمقدم الذي جعل الفدام على فيه ، وهو خرقة تجعل في فم
الإبريق ، والشرف المكان العالي المشرف .

(٣) هذا عيب من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن عند قدامة بن جعفر
سماه (التثليم) قال : وهو أن يأتي الشاعر بالألفاظ يقصر عنها العروض ،
فيضطر إلى ثلمها والتقص منها مثال قول أمية بن أبي الصلت :
ما أرى من يعينني في حياتي غير نفسي لإلأبني لإسرال
وقول علقمة بن عبدة :

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَابِ الْكَتَّانِ مَلْثُومٌ
أراد « بسباب الكتان » فحذف للعروض .

وقال لبيد بن ربيعة : * درس المنا بمتالع فأبان *

أراد بالمنا « المنازل » وانظر «نقد الشعر» لقدامة ١٣٦ طبعة ليدن ،
والطبعة الثانية ٢٩٩ من كتاب « قدامة بن جعفر والنقد الأدبي » للدكتور
بدوى طبانة . والسباب جمع سببية ، وهي الشقة من النسيج ، أو البيضاء
خاصة .

وكذلك قول الآخر .

يُذَرِّبُ جَنْدَلَ حَائِرٍ ، إِجْنُوبِهَا فَكَأَنَّمَا تُذَكِّي سَنَابِكُهَا الْحُبَا (١)
فهذا وأمثاله ممَّا يقْبَحُ ولا يَحْسُنُ ، وإن كانتِ العَرَبُ قد استعملته فإنه
لا يجوزُ لنا أن نستعمله .

* * *

أما القسم الثاني من الإيجاز فهو ما لا يحذف منه الشيء :
وذلك ضربان :

أحدهما : ما ساوى لفظه معناه (٢) ، ويسمى (التقدير) .

والآخر : ما زاد معناه على لفظه ، ويسمى (الإيجاز بالقصر) .

فأما (الإيجاز بالتقدير) فإنه الذي يمكن التعبير عن معناه بمثل ألفاظه
وفي عدتها .

وأما الإيجاز بالقصر . فإنه ينقسم قسمين :

أحدهما : ما دلّ لفظه على احتمالات متعدّدة ، وهذا يمكن التعبير عنه بمثل
ألفاظه وفي عدتها ، والآخر : ما يدلّ لفظه على احتمالات متعدّدة ، ولا يمكن
التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها ؛ لا ، بل يستحيل ذلك .

(١) في الأصل « بدر بن جندل حائر » وهو تحريف والتصويب عن
لسان العرب في مادة - ح ب ح ب والضمير في « يذرب » للخيل ،
والجندل الصخر . والحبا أراد به الحياحب ، وهو رجل من بني محارب بن
خصفة : ضرب بناره المثل لأنه كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان
فقلوا « نارالحياحب » .

(٢) ليس هذا من الإيجاز عند جمهور البلاغيين ، وإنما هو قسم
برأسه ، يسمونه « المساواة » .

الضرب الأول : الإيجاز بالتقدير :

ولنورد الآن الضرب الأول الذى هو (الإيجاز بالتقدير) :
فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىِّ شَيْءٍ
خَلَقَهُ * مِنْ نُطْقِهِ خَلَقَهُ قَدْرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ
إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) (١) .

فقوله : « قَتَلَ الْإِنْسَانَ » دُعَاءٌ عَلَيْهِ ، وقوله : « مَا أَكْفَرَهُ » تَعْجِبٌ
من إفراطه في كفران نعمة الله عليه .

ولا نرى أسلوباً أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ، ولا أخشن مساً ، ولا
أدَلَّ على سُخْطٍ ، مع تقارب طرفية ، ولا أجمعَ لِلَّيْمَةِ على قِصَرِ مَتْنِهِ !
ثمَّ إِنَّهُ أَخَذَ فِي صِفَةِ حَالِهِ مِنْ ابْتِدَاءِ حُدُوثِهِ إِلَى مُنْتَهَى زَمَانِهِ ، فقال :
« مِنْ أَىِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » ؟ .

ثمَّ بَيَّنَّ الشَّيْءَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ بِقَوْلِهِ : « مِنْ نُطْقِهِ خَلَقَهُ قَدْرَهُ » أى :
هَيَّأَهُ لِمَا يَصْلَحُ لَهُ .

« ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ » أى : سَهَّلَ سَبِيلَهُ ، وَهُوَ مَخْرَجُهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ،
أَوْ السَّبِيلَ الَّذِي يَخْتَارُ سَلُوكَهُ مِنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ، لِأَنَّهُ تَالٍ
لِخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ تَيْسِيرُ سَبِيلِهِ لِمَا يَخْتَارُهُ مِنْ طَرِيقِ
الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

« ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ » أى : جَعَلَهُ ذَا قَبْرِ يُوَارَى فِيهِ .

« ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ » أى : أَحْيَاهُ .

(١) سورة عبس : الآيات ١٧ - ٢٣ .

« كلاً » . ردع للإنسان عما هو عليه .

« لما يقض ما أمره » أى لم يقض مع تطاول زمانه ما أمره الله به ، يعنى أن إنساناً لم يخلُ من تقصير قط .

ألا ترى إلى هذا الكلام الذى لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك ، لأنك كنت تذهبُ بجزءٍ من معناه ؟ .

والإيجاز هو ألا يمكنك أن تستط شيئا من ألفاظه^(١) .

والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرةٌ ، كقوله تعالى : (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ)^(٢) .

فقوله : « فله ما سلف » من جوامع الكلم ، ومعناه أن خطاياهُ الماضية قد غفرت له . وتاب الله عليه فيها ، إلا أن قوله : (فله ما سلف) أبلغ ، أى أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه إنما هو له .

وكذلك ورد قوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)^(٣) .

ف (عليه كفره) كلمة جامعةٌ ، تُغنى عن ذكر ضروبٍ من العذاب ، لأن من أحاط به كفره فقد أحاطت به كلُّ خطيئة .

وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)^(٤) .

(١) أى من ألفاظ هذا الكلام

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٣٩ .

(٤) سورة النحل : الآية ٩٠ .

فهذه الآية من جوامع الآيات الواردة في القرآن الكريم .
 وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَهَا عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، فَقَالَ لَهُ :
 يَا بَنَ أَخِي ، أَعِدَّهُ ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِرَاءَتَهَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ لَهُ
 لِحَلَاوَةَ ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ ، وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمُشْعِرٌ ، وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمَغْدِقٌ ، وَمَا هُوَ
 بِقَوْلِ الْبَشَرِ .

ومن هذا النحو قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَاتَوَسَّوْسًا
 بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ
 الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ *
 وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي
 غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (١) .

وهذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة التي دلت على تخويف وإرهاب ،
 ترق له القلوب ، وتشعر منه الجلود ، وهي مُشتملة على قصرها على حال
 الإنسان منذ خلقه إلى حين حشره وحشر غيره من الناس ، وتصوير ذلك الأمر
 الفظيع في أسهل لفظ وأقربه ، وما مررت عليها إلا جددت لي موعظة ،
 وأحدثت عندي إيقاظاً .

ومن هذا الضرب ، وَرَدَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَعَائِهِ لِأَبِي سَلَمَةَ (٢)

(١) سورة (ق) : الآيات ١٦-٢٢ .

(٢) هو أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن محزوم القرشي
 المخزومي . اسمه عبد الله بن عبد الأسد . وأمه برة بنت عبد المطلب بن
 هاشم ، كان ممن هاجر بامرأته أم سلمة بنت أبي أمية إلى أرض الحبشة ثم
 شهد بدرًا بعد أن هاجر الهجرةتين . وجرح يوم أحد جرحاً اندمل ثم انتفض
 فمات منه . وذلك ثلاث ماضين لجماعى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة ،
 وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأته .

عند موته ، فقال : « اللهم ارفع درجته في المهتدين ، واخلفه في عقبه في الغابرين لنا وله يا رب العالمين » .

وهذا دعاء جامع بين الإيجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها ، فأوله مفتتحٌ بالمهم الذي يفتقر إليه المدعو له في تلك الحال ، وهو رفع درجته في الآخرة ، وثانيه مُردفٌ بالمهم الذي يؤثبه المدعو له من صلاح حل عقبه من بعده في الدنيا ، وثالثه مُختتمٌ بالجمع بين الداعي والمدعو له .

وهذا من الإيجاز البليغ الذي هو طباقٌ ما قصد له .

وكلامُ النبي صلى الله عليه وسلم كله هكذا ، كما قال : « أوتيتُ جوامعَ الكلم » .

وكذلك وردَ قوله صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ ، فإنه قال : « هذا يومٌ له ما بعده » وهو شبيهٌ بقوله تعالى : (فله ما سلف) .

ولما جرح عمرُ بنُ الخطاب — رضى الله عنه — الجراحةَ التي مات بها اجتمع إليه الناسُ ، فجاءه شابٌّ من الأنصار ، وقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله ، لك من محبة رسول الله وقدِم في الإسلام ما علمتُ ، ووُلِّيتَ فعدلتُ ، ثمَّ شهادةً .

وهذا كلامٌ سديدٌ ، قد حوى المعنى المقصودَ ، وأتى به في أوجز لفظٍ وأحسنه ، ومع ما فيه من الإيجاز فإنه مُستغرب ، وسببُ استغرابه أنه جعل المساءة بُشرى ، وأخرجها نَحْرَجَ السرَّة ، وتلطف في ذلك فأبلغ ، ولو أراد الكاتبُ البليغُ والخطيبُ المصنِّعُ أن يأتي بذلك على هذا الوجه لأعوزه .

ومن هذا النمط ما كتبه طاهر بن الحسين^(١) إلى المأمون^(٢) عند لقائه
[علي بن عيسى بن ماهان^(٣) وهزمه إياه ، وقتله ، فكتب إليه : « كتابي
إلى أمير المؤمنين ، ورأس [علي بن عيسى بن ماهان^(٣) بن يدي ، وخاتمه
في يدي ، وعسكرة مصرف تحت أمري ، والسلام »^(٤) .

وهذا من الكتب المختصرة التي حوت الغرض المطول ، وما يكتب في
هذا المقام مثله .

(١) كان جده رزيق بن همام ، مولى طلحة الطلحات الخزاعي المشهور
بالكرم والجلود المفرط ، وكان طاهر من أكبر أعوان المأمون ، وسيره من
مروكرسى خراسان لما كان المأمون ، بها إلى محاربة أخيه الأمين ببغداد
لما خلع الأمير بيعته ، وسير الأمين أبا يحيى علي بن عيسى بن ماهان لدفع
طاهر عنه ، فتواقعا ، وقتل علي في المعركة ومولد طاهر سنة تسع وخمسين
ومائة وتوفي يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع
ومائتين بمدينة مرو .

(٢) ويروى أنه كتب بهذا الكتاب إلى الفضل بن سهل أول وزراء
المأمون .

(٣) في الأصل « عيسى بن ماهان » والصحيح ما ذكرناه .

(٤) ويروى أن نص الكتاب إلى الفضل بن سهل « أطل الله بقاءك ،
وكبت أعدائك وجعل من يشنك فداك ، كتبت إليك ورأس علي
ابن عيسى في حجري وخاتمه في يدي ، والحمد لله رب العالمين » فلما
وصل الكتاب إلى الفضل نهض ، فسلم على المأمون بأمر المؤمنين ،
وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماه « ذا اليمينين وصاحب حبل الدين »

ولما ارسل المهلبُ بنُ أبي صُفْرة (١) أبا الحسن المدائني (٢) إلى الحجّاج بن يوسف يخبره أخبارَ الأزارقة كلّه كلاماً موجزاً كالذي نحنُ بصدد ذكره هاهنا. وذلك أن الحجّاج سأله ، فقال : كيف تركت المهلبُ ؟ فقال : أدرك ماأمّل ، وأمن ممّا خاف .

فقال : كيف هو جُنْدُهُ ؟ . قال : والدُّرُوفُ .

قال : كيف جُنْدُهُ له ؟ قال : أولادُ بررة .

قال : كيف رضاهم عنه ؟ . قال : وَسِعَهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَأَغْنَاهُمْ بِعَدْلِهِ (٣) .

قال . كيف تصنعون إذا لقيتم العدوَّ ؟ (٤) قال : نلتاقهم بجِدِّنا [فنقطعُ

(١) عمل المهلب لبني أمية ، وحارب عنهم الأزارقة ، وآخر ماتولى من الأعمال بلاد خراسان ، تولاها من جهة الحجاج يوم كان له العراقان وما زال عليهما حتى توفي سنة ٨٣ هـ ، وهو من كبار رجال الإسلام في تلك الدولة ، وقد اشتهر هو وآله بالكرم والشجاعة .

(٢) اختلط الأمر على ابن الأثير ، فإن المهلب لم يرسل أبا الحسن المدائني ، وإنما أرسل مالك بن بشير ، وأبو الحسن المدائني إنما هو رواية هذا الخبر فقط ، والصحيح ما ذكره صاحب العقد (١/١٢٢) أن أبا الحسن المدائني قال : لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطرى بن الفجامة صاحب الأزارقة بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني موفدك إلى الحجاج - فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : ملك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ . . . »

(٣) رواية العقد الفريد (١/١٢٢) : « وسعهم ، بالفضل وأقنعهم بالعدل » .

(٤) وفي العقد : « إذا لقيتم عدوكم » .

فيهم [(١)] وبتقوننا بجدهم [فيطمعون فينا] (١) قال : كذلك الجد إذا
لقي الجد .

[قال : فما حال قطري ؟ قال : كادنا ببعض ما كدناه .

قال : فما منعكم من اتباعه ، قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه] (١) .

قال : فأخبرني عن بني المهلب ، قال . هم أخلاس (٣) القتال بالليل ،
حماة السرح (٤) بالتهار .

قال : أيهم أفضل (٥) [قال : ذلك إلى أبيهم .

قال : لتقولن] (١) .

قال : هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها (٦) .

فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله هو الكلام الفصل الذي ليس
بمصنوع (٧) .

* * *

(١) زيادة عن العقد الفريد

(٢) في العقد « ولد المهلب » موضع « بني المهلب » .

(٣) في العقد « أعداء القتال » موضع « أخلاس القتال » .

(٤) في الأصل « السرح » بالجم المعجمة ، وهو تصحيف ، والسرح
هو المسال السائم من الأنعام ، ويروى : كانوا حماة السرح تهارا فإذا
أيلوا ففرسان البيات » .

(٥) وفي رواية : فأيمهم كان أنجد ؟

(٦) ويروى : « كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها »

(٧) رواية العقد : « فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام

المطبووع لا الكلام المصنوع »

وقد وردَ في الأخبار النبوية من هذا الضرب شيءٌ كثيرٌ ، وسأوردُ منه أمثلةً يسيرةً .

فمن ذلك قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : « الحلالُ بينٌ ، والحرامُ بينٌ ، وبينَهُما أمورٌ متشابهاتٌ » :

وهذا الحديثُ من أجمع الأحاديثِ للعماني الكثيرة ، وذلكَ أنه يشتملُ على جُلِّ الأحكامِ الشرعيَّةِ ، فإنَّ الحلالَ والحرامَ إما أن يكونَ الحكمُ فيما بيننا لا خلافَ فيه بين العلماء ؛ وإما أن يكونَ خافياً يتجاذبهُ وجوهُ التاويلاتِ ، فكلُّ منهم يذهبُ فيه مذهباً

وكذلك جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امرئٍ ما نوى » .

فإنَّ هذا الحديثَ أيضاً من جوامع الأحاديثِ للأحكامِ الشرعيَّةِ .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم . « المضعِفُ أميرُ الركبِ » . وقد وردَ آخرُ هذا الحديثِ بلفظٍ آخر . فقال صلى الله عليه وسلم : « سيرُوا بسيرِ أضعفِكُمْ ، إلاَّ أن الأولَ أحسنُ ، لأنه أبلغُ معنًى ، فإنَّ الأميرَ واجبُ الحكمِ ، فهو يُدبِّعُ . وإذا كان المضعِفُ أميرَ الركبِ كانوا مؤتمرين له في سيرهم ونزولهم ، وهذا المعنى لا يوجدُ في قوله « سيرُوا بسيرِ أضعفِكُمْ » ،

وأحسنُ من هذا كَلِمَةُ ماوردَ عنه صلى الله عليه وسلم في حديثٍ مطوَّلٍ يتضمَّنُ سؤالَ جبريلَ عليه السلام ، فقال من جملتهِ : « ما الإحسانُ » . قال : « أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فقوله « تعبدَ اللهَ كأنك تراه » من جوامع الكلامِ ، لأنه ينبوُ منابَ كلامٍ كثيرٍ ، كأنه قالَ : تعبدَ اللهَ مخلصاً في نيتك ، واقفاً عندَ أدبِ الطاعةِ

من الخضوع والخشوع ، آخذاً أهبةَ الحذر ، وأشباه ذلك ، لأنَّ العبد إذا خدَمَ مولاهُ ناظراً إليه استتصى في آداب الخدمة بكلِّ ما يجدُ إليه السبيل ، وما ينتهي إليه الطوقُ .

وعما أطرَبني من ذلك حديثُ الحديبيةِ ، وهو أنَّه جاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ^(١) إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ له : إني تركتُ كعبَ بنَ لؤيِّ بنِ عامرِ بنِ لؤيِّ معهمُ العوذُ^(٢) المطافيلُ^(٣) ، وهم مقاتلوكُ وصادوكُ ، عن البيتِ « فقالَ له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ قَرِيشًا قد نهكتهمُ الحربُ ، فإن شاءوا مادَدناهم مُدَّةً ، ويدعُوا بيني وبينَ الناسِ ، فإن أظهرَ عليهم وأحسُّوا أن يدخلوا فيما دخلَ فيه الناسُ ، وإلا كانوا قد جمَّوا ، وإن أبوا فوالذي نفسى بيده لا أقاتلهمُ على أمرى هذا ، حتى تنفردَ سألتي هذه ، وليَنفذنَّ اللهُ أمره . »

وهذا الحديثُ من جوامعِ الكليمِ ، وهو من النصيحةِ والبلاغةِ على غايةٍ لا ينتهي إليها وصفُ الواصفِ .

* * *

(١) هو بديل بن ورقاء بن عبد العزى الخزاعي ، أسلم يوم فتح مكة هو وابنه عبد الله بن بديل وحكيم بن حزام بمر الظهران ، وقيل أسلم قبل الفتح ، وذكر ابن إسحاق أن قريشا يوم فتح مكة لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولاه رافع « وشهد بديل وابنه عبد الله حنيننا والطائف وتبوك .

(٢) العوذ الحديثات النتاج من الطباء وكل أنثى .

(٣) المطافيل جمع مطفل يقال طفنانا لبنا تطفيلاً إذا كان معها أولادها ، فرفقنا بها في السير ، هذا هو الأصل ، والمطفل ذات الطفل .

وَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ شِعْراً فَقَوْلُ النَّابِغَةِ (١) :

وَإِنَّكَ (٢) كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي

وَإِنْ خِلْتُ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

وَتَخْصِيصُهُ الدَّيْلَ دُونَ النَّهَارِ مِمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ !

وَكذَلِكَ قَوْلُهُ (٣) :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَحْأَ لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَيُّ الرَّجَالِ الْمُهَذَّبُ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول الأعشى في اعتذاره إلى أوس بن لام عن

هيجائه إياه :

وإني على ما كان مني لنادمٍ وإني إلى أوس بن لامٍ لتائبٌ

وإني إلى أوسٍ ليقبل عذرتي ويصفح عني ما حبيت لراغبٍ

فهب لي حياتي ، فالحياءُ لقائمٌ بشكرِك فيها خيرٌ ما أنتَ وأهبُ

سأخو بمدح فيك إذ أنا صادقٌ كتاب هجاء سارٍ إذ أنا كاذبٌ

(١) ديوان النابغة - من مجموع مشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب - ٥٥ من قصيدة له في مدح النعمان بن المنذر ، والاعتذار إليه ، وهجاء مرة بن ربيعة لما قذف عليه عند النعمان ، ومطلعها :

عفا ذو حساً من فرتنى فالقوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

(٢) رواية الديوان « فإنك » بالفاء .

(٣) المصدر السابق ١٤ من قصيدة له أولها :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

وهذا من المعانى الشريفة فى الألفاظ الخفيفة ، وهو من طناناث
الأعشى المشهورة .

وعلى نحو منه جاء قول الفرزدق (١) :
صَبَحْنَا هُمُ الشُّعَثَ الجِيَادَ كَأَنَّهَا قَطَا هَيْجَتَهُ يَوْمَ رِيحِ أَجَادِلِهِ (٢)
إلى كلِّ حَيٍّ قَدْ خَطَبْنَا بِنَاتِهِمْ بَارِعَنَ جَرَّارٍ كَثِيرٍ صَوَاهِلِهِ (٣)
إِذَا مَا التَّقِينَا نَكَحْتَنَا رِمَاحُنَا مِنْ القَوْمِ أَبْكَارًا كَرَامًا عَقَائِلِهِ (٤)
وَإِنَّا لَمَنَاعُونَ تَحْتَ لَوَائِنَا حِمَانًا إِذَا مَا عَادَ بِالسَّيْفِ حَامِلِهِ

وهذا من محاسن مايجىء فى هذا الباب .

ومما يجرى هذا الجرى قول جرير (٥) :

(١) شرح ديوان الفرزدق ٧٣٦/٢ والنقائض ٦٢٩ الطبعة أوربا
من قصيدة فى هجاء جرير وأرلها :

سمونا لنجران اليماني وأهله ونجران أرض لم تديث مقاوله
وهى إحدى نقائضه وقد نقضها عليه جرير بقوله :

ألم تر أن الجهل أقصر باطله وأمسى عماء قد تجلت مخايله
(٢) رواية الديوان والنقائض :

صبحناهم الجرد والحياد كأنها قطا أفزعته يوم ظل أجادله
والأجادل جمع الأجدل وهو الصقر .

(٣) رواية الديوان للشطر الثانى :

* بارعن مثل الطود جم صواهله *

(٤) رواية الديوان « من الحى » موضع « من القوم »

(٥) ديوان جرير ٤٦٢ والنقائض ١/١٤٤ « طبع مصر » وهى من

قصيدة له فى هجاء البعث والفرزدق ، مطلعها :

عوجى علينا وأربعى ربة البغل ولا تقنلبنى لا يحل لكم قتلى

وهى نقيضة لقصيدة البعث التى أولها :

لهاج عليك الشوق أطلال دمنة بناصفة الجوين أوجانب الهجل

تَعَمَّى رَجُلٌ مِنْ تَمِيمٍ مَنِيَّتِي وَمَا ذَادَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ زَائِدٌ مِثْلِي ^(١)
 فَلَوْ شَاءَ قَوْمِي كَانَ حِلْمِي فِيهِمْ وَكَانَ عَلَى جَهْلِهِمْ أَعْدَائِهِمْ جَهْلِي ^(٢)
 وكذلك ورد قوله متغزلاً ، وهو من محاسن أقواله ^(٣) .

سَرَّتِ الْمُهْمُومُ فَبِشْنَ غَيْرَ نِيَامٍ وَأَخُو الْمُهْمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَرَامٍ
 ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَيْكَ الْأَقْوَامِ
 وَلَقَدْ أَرَاكَ وَأَنْتَ جَامِعَةُ الْهَوَى أُثْنِي ^(٤) بِمَهْدِكَ خَيْرَ دَارٍ مَقَامٍ
 طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ فَلَيْسَ ذَا حِينَ الزِّيَارَةِ ^(٥) فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
 تُجْرِي السَّوَاكَ عَلَى أُغْرَى كَأَنَّهُ بَرْدٌ تَحْدَرُ مِنْ مَتُونِ نَعَامٍ
 لَوْ كَانَ عَهْدُكَ كَالَّذِي حَدَّثْتَنَا لَوْ صَلَّتِ ذَاكَ فَكَانَ خَيْرَ زِمَامٍ ^(٦)
 وَلَقَدْ أَرَانِي وَالْجَدِيدُ إِلَى بَلِي فِي مَوْكِبٍ ^(٧) طَرَفِ الْحَدِيثِ كِرَامٍ

(١) رواية الديوان « لى الردى » موضع « منيتى » .
 (٢) فى الأصل « مثلى » موضع « جهلى » والتصويب عن الديوان
 والنقائض
 (٣) ديوان جرير ٥٥١ والنقائض ٢٥٦/١ وهى نقيضة قصيدة
 الفرزدق التى أولها :

عنى المنازل آخر الأيام قطر ومور واختلاف نعام

(٤) رواية الديوان « نبى » بالنون .

(٥) رواية الديوان « وليس ذا وقت الزيارة » .

(٦) فى الأصل « خير زمام » وفى الديوان « غير زمام » ، وإذا

كان لنا أن نفضل آثرنا رواية ابن الأثير ، لاتصال معنى الكلام ،
 ولذلك أبقيناها ، ورواية الموشح (١٦٧) توافق رواية الديوان .

(٧) رواية الديوان « فى فتية » ويروى الشطر الثانى أيضاً :

* فى فتية طرفى لحديث كرام *

لَوْلَا مُرَاقِبَةُ الْعُيُونِ أُرِينَا حَدَقَ الْمَهَا (١) وَسَوَالِفَ الْأَرَامِ
وَإِذَا صَرَفْنَا عُيُونَهُنَّ بِنَظَرَةٍ نَفَذَتْ نَوَافِذُهَا بِغَيْرِ سِهَامِ
هَلْ تَنْفَعَنَّكَ إِنْ قَتَلْنَا مُرْقَشًا (٢) أَوْ مَا فَهَانَ بِعُرْوَةِ بَنِ حِزَامِ (٣)
وَحَلَاوَةُ هَذَا الْكَلَامِ أَحْسَنُ مِنْ إِجْجَازِهِ ، وَلَقَدْ أَعْوَزَ غَيْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ ،
حَتَّى أَقْرَأَ بِأَعْوَاذِهِ .

(١) رواية الديوان « أريننا مقل المهما » وهى أجود ، لمناسبة ما بعدها فى الإخبار عن جماعة الإناث .

(٢) المرقش الأكبر ، هو عوف ، وقيل عمرو بن سعد من مالك ابن بكر بن وائل ، وهو عم ربيعة بن سفيان المعروف بالمرقش الأصغر والمرقش لقب غلب عليه لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقص فى ظهر الأديم قلم

وكان للمرقشين جميعا موقع فى بكر بن وائل وفى حروبها مع بني تغلب ، وبأس وشجاعة ونجدة ، وللمرقش الأكبر شعر حسن ، وهو يعد من أهل الطبقة الأولى فى الشعر ، وكان بنو بكر يدعون التقدم له ولعمرو بن قميثة ، إلا أن شعره قابل ، تولت عليه يد الضياع ، مات نحو سنة ٥٥٢ م ، ودفن فى أرض مراد . وسائر أخباره فى « شعراء النصرانية » ٢٨٢ .

(٣) يروى « ابن حذام » و « ابن حمام » و « ابن خذام » .
روى محمد بن سلام الجمحى (طبقات فحول الشعراء ٣٣) قول امرئ القيس :

عوجا على الطلل الخميل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

قال ابن سلام : « وهو رجل من طيء ، لم يسمع شعره الذى بكى فيه ، ولا شعر ذكر فيه ، غير هذا البيت الذى ذكره امرؤ القيس » .

ومن باب الإيجاز الذي يسمّى « التقدير » قولُ عليّ بن جبّلة .

وما لامرئٍ حاولتهُ عنك مهربٌ ولو حَمَلتهُ في السَّماءِ المطالعُ
بلى هاربٌ ما يهتدى لمكانهِ ظلامٌ ولا ضوءٌ من الصُّبحِ ساطعُ

فهذا هو الكلامُ الذي ألفاظه وفاقُ معانيه ، فإنه قد اشتمل على مدح رجلٍ بشمول مُلكه وعموم سُلطانه ، وأنه لا مهربَ عنه إن يحاوله ، وإن صعد السماءُ ، ثم ذكر جميع المهاربِ في المشارق والمغربِ ، وأشار إلى أنه يبلغُ الظلام والضياء . وذلك مما تزدُّ عبارته على المعنى المندرج تحته ، ولا قصرت عنه .

ومن هذا الضربِ قولُ أبو نواسٍ (١) ، وهو من نادر ما يأتي في

هذا الموضع :

وَدَارِ نِدَامِي عَطَّلُوها وَأَدْجَلُوا بها أئْرٌ مِنْهُمُ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَساحِبُ مَنْ جَرَّ الزَّقاقُ عَلَى التَّرى وَأَضْغاثُ رِيحانٍ (٢) جَنِيٌّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِها صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدُهُمْ وَإِنِّي عَلَى أَمْثالِ تَلِكِ لِحابِسُ
تُدَارُ (٣) عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ حَبَبُها بِأَنْواعِ التَّصاوِيرِ فَارِسُ

(١) ديوان أبي نواس ٢٩٥ وهي إحدى خمرياته .

(٢) الزقاق جمع زق ، وهو وعاء من جلد يحمل فيه الماء ونحوه ، والأضغاث جمع ضغث ، وهو القبضة من الحشيش ، وجنى جنى لساعته .

(٣) في الديوان « تدور » وقبل هذا البيت بيتان أغفلهما ابن

الأثير ، وهما :

ولم أدر منهم غير ما شهدت به بشرقي ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوماً ويومين بعده ويوماً له يوم الترحل خامس
والبسابس - جمع بسبس بالفتح - وهو القفر .

قرارتها (١) كسرى وفي جنباتها مها تدرّيتها (٢) بالقسي الفوارس
فلراح (٣) ما زرت عليه جيوها (٤) وللماء ما دارت عليه القلائس

ومما انتهى إلى من أخبار ابن المزرع (٥) قال : سمعتُ الجاحظ يقول :
لا أعرفُ شعراً يفضّل هذه الأبيات التي لأبي نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب
القال ، فقال : والله يا أبا عثمان ، إن هذا هو الشعر ، ولو قرأ لطن ، فقلت له :
ويحك ! ما تفارق عمل الجرار والخزف ! .

ولعمري إن الجاحظ عرف فوصف ، وخبر فشكر ، والذي ذكره

هو الحق .

(١) في الأصل « قرارها » وهو تحريف ، والصواب عن الديوان .

(٢) أدرى الصيد ختله ، وادرى غفلته بمعنى تحينها .

(٣) رواية الديوان : « فللخسر » .

(٤) رواية الديوان : « جيوهم » ، والضمير عائد على الفوارس

في البيت قبله ، والمرد صورهم المرسومة على جنبات الكتوس .

(٥) هو يمرت بن المزرع بن موسى بن سيار العبدي ، من عبد

قيس البصرى ابن أخت أبي عثمان الجاحظ ، نحوى أديب راوية ،

ذكره الزبيدي في نحاة في مصر ، أخذ عن أبي عثمان المازني وأبي

حاتم السجستاني وعبد الرحمن بن أخي الاصمعي ونصر بن علي الجهمي

وكان من مشايخ العلم والشعر ، أخبارياً حسن الآداب ، دخل بغداد ،

ومات بطبرية ، وقيل بدمشق سنة ثلاث أو أربع وثلاثمائة ، وكان له

ولد يقال : له مهلهل بن يموت .

وعلى هذا الأسلوب جاء قولُ أبي تمام (١) :

إنَّ القوافيَ والمسايميَ لم تزلْ مثل النُّظام (٢) إذا أصابَ فريداً
هيَ جوهرٌ نثرٌ فإنَّ ألقتهُ بالشعر صارَ قلائداً وَعُوداً
في كلِّ مُعتركٍ وكلِّ مقامةٍ يأخذن منه ذمّةً وَعُوداً
فإذا القصائدُ لم تكنْ خُفراءَها لم ترُضَ منها مشهداً مشهوداً
من أجل ذلك كانتِ العربُ الأولى يدعون هذا سُودداً محدوداً
وَتندُّ عندهمُ العُلاَّ إلاَّ عُلاَّ جُعِلت لها مررَ القريض (٣) قيوداً

الضرب الثاني : الإيجاز بالقصر :

وأما الضربُ الثاني : وهو الإيجاز بالقصر : فإنَّ القرآنَ الكريمَ ملآنٌ منه
وقد تقدّمَ القولُ أنَّه قسمان (٤) :

أحدهما : ما يدل على احتمالات متعددة :

فمن ذلك قوله تعالى (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ
لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى * فَأَنْبِئِهِمْ فرِعُونَ
بِجُنُودِهِ فَفَشَّيْهِمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا غَشَّيْهِمْ * وَأَضَلَّ فرِعُونَ قَوْمَهُ
وَمَا هَدَى (٥) .

(١) ديوان أبي تمام ٩٠ من قصيدة له في مدح خالد بن يزيد
الشبلي ، مطلعها :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئي بذلك شهيدا

(٢) رواية الديوان « الجمان » .

(٣) رواية الديوان « مرر القصيد » والمرر الحبال المحكمة .

(٤) أنظر صفحة ٣٣٣ من هذا القسم .

(٥) سورة طه : الآيات ٧٧ و٧٨ و٧٩ .

فقوله : « فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ » من جوامع الكلم التي يستدلُّ على قَلَّتْهَا بِالْعَائِيِ الْكَثِيرَةِ ، أَى : غَشِيَهُمْ مِنَ الْأُمُورِ الْهَائِلَةِ وَالْخَطُوبِ الْفَادِحَةِ مَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَحِيطُ بِهِ غَيْرُهُ .

ومن هذا الصَّرْبِ قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (١) .

فجمع في الآية جميع مكارم الأخلاق ، لأنَّ في الأمرِ بالمعروفِ صلةَ الرَّحِمِ ومنع اللسان عن الغيبة ، وعن الكذب ، وعن غَضِّ الطَّرْفِ عن المحرِّمات ، وغير ذلك . وفي الإعراض عن الجاهلين الصَّبْر ، والحلم ، وغيرهما ،

وقال بعضُ الأعراب في دُعائه : « اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَقَّكَ ، وَأَرْضَ عَنِّي خَلْقَكَ » ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « هذا هو البلاغة » .

ومن ذلك قوله عزَّ وجلَّ : (أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ) (٢) .

فإنَّه دخل تحت الأمن جميعُ المحبوباتِ ، وذلك أنَّه نفى به أن يخافوا شيئاً من الفقرِ ، والموتِ ، وزوالِ النعمة ، ونزولِ النِّقْمَةِ ، وغير ذلك من أصنافِ المكروه .

وأشبههُ هذا في القرآن الكريم كثيرةٌ ، فهو يكثرُ في بعض الصُّورِ ويقولُ في بعض قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شَاءَ يَرْتَعْ فِي الرِّيَاضِ الْأَنْائِقِ فَعَلَيْهِ بِأَلْحَمَّ » .

ومن ذلك قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « انْخَرَجُ بِالضَّمَانِ » وذلك أن رجلاً اشترى عبداً ، فأقامَ عنده مُدَّةً ، ثمَّ وجد به عيباً ، فغاصمَ البائعَ إلى

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٩ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .

النبي صلى الله عليه وسلم ، فردّه عليه ، فقال : يا رسول الله ، إنه استغَلَ غُلَايَ ، فقال : « الخراجُ بالضمان » . ومعنى قَوْلِهِ « الخراجُ بالضمان » أن الرجل إذا اشترى عبداً فاستغله ، ثم وجد به عيباً دلّسه عليه البائع فله أن يردّه ، ويسترجع الثمن جميعه ، ولو مات العبدُ أو أبقَ أو سرقه سارقٌ ، كان في مال المشتري ، وضمانه عليه ، وإذا كان ضمانه عليه فخرأجه له ، أى له ما تحصل من أجره عمله .

وأما ماوردَ شعراً ؛ فقولُ السَّمَوَيْلِ بنِ عاديا الغَسَّانِي (١) من جملة أبياته اللامية المشهورة (٢) ، وذلك قوله منها :

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَجْمَلْ عَلَى النَّفْسِ ضِيمَهَا فإيسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

فإنَّ هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها من سماحة ، وشجاعة ، وعفة ، وتواضع ، وحلم ، وصبر ، وغير ذلك ، فإن هذه الأخلاق كلّها من ضيم النفس ، لأنها تجد بمحملها ضيماً ، أى مشقةً وعناءً .

وقد تقدّم القول أن الإيجاز بالقصر يكون فيما تضمّن لفظه محتملاتٍ كثيرة . وهذا البيت من ذلك القبيل ، ولا أعلم أن شاعراً قديماً ولا حديثاً أتى بمثله ، وقد أخذهُ أبو تمام ، فأحسنَ في أخذه ، وهو :

وَظَلَمْتَ نَفْسَكَ طَالِباً إِنْصَافِهَا فمَجِئْتُ مِنْ مَظْلُومَةٍ لَمْ تُظَلِّمْ

(١) هو السموعل بن غريض بن عاديا ، والناس يدرجون غريضاً في النسب ، وينسبونه إلى عاديا جده ، وهو صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيما . والسموعل يضرب به المثل في الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ، ولم يخن أمانته في أذراع أودعها عنده امرؤ القيس .

(٢) ديوان الحماسة ١/ ٣٦ وأولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

فَازَ فِي بَيْتِهِ هَذَا بِالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الضَّرْبَيْنِ فِي الظُّلْمِ وَالْإِنصَافِ ، ثُمَّ قَالَ :
« فَعَجِبْتُ مِنْ مَظْلُومَةٍ لَمْ تَظْلَمِ » . وَهَذَا أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ « ظَلَمْتَ نَفْسَكَ طَالِبًا لِنِصَافِهَا » أَي : أَنْتَ أَكْرَهْتَهَا عَلَى
مِشَاقِّ الْأُمُورِ ، وَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمْتَهَا ، ثُمَّ إِنَّكَ مَعَ ظَلَمِكَ إِيَّاهَا قَدْ
أَنْصَفْتَهَا ، لِأَنَّكَ جَلَبْتَ إِلَيْهَا أَشْيَاءَ حَسَنَةً تُكْسِبُهَا ذِكْرًا جَمِيلًا ، وَجَدًّا مُؤَثِّرًا ،
فَأَنْتَ مُنْصِفٌ لَهَا فِي صُورَةِ ظَالِمٍ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ :

* فَعَجِبْتُ مِنْ مَظْلُومَةٍ لَمْ تَظْلَمِ *

أَي : أَنْتَ ظَلَمْتَهَا ، وَمَا ظَلَمْتَهَا ، لِأَنَّ ظَلَمَكَ إِيَّاهَا أَدَّى إِلَى مَا هُوَ
جَمِيلٌ حَسَنٌ .

وَهَذَا الْقَدْرُ فِي الْأَمْثَلَةِ كَافٍ فِي هَذَا الْبَابِ .

الْقِسْمُ الْآخِرُ مِنَ الضَّرْبِ الثَّانِي ، فِي الْإِيْجَازِ بِالْقَصْرِ :

وَهُوَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْ أَلْفَاظِهِ بِأَلْفَاظٍ أُخْرَى مِثْلِهَا ، وَفِي عَدَّتِهَا ،
وَهُوَ أَعْلَى طَبَقَاتِ الْإِيْجَازِ مَكَانًا ، وَأَعْوَزُهَا إِمْكَانًا ، وَإِذَا وُجِدَ فِي كَلَامٍ بَعْضُ
الْبُلْغَاءِ فَإِنَّمَا يَوْجَدُ شَاذًا نَادِرًا .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
حَيَاةٌ)^(١) .

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : « الْقِصَاصُ حَيَاةٌ » لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إِلَّا بِالْفَاظِ

(١) سُورَةُ الْبَقَرَةِ : الْآيَةُ ١٧٩ .

كثيرة ، لأن معناه أنه إذا قُتِلَ القاتِلُ امتنع غيره عن القتل ، فأوجب ذلك حياة للناس .

ولا يلتفتُ إلى ماوردَ عن العربِ من قولهم : « القتلُ أنفى للقتل » .
فإن من لا يعلم يظن أن هذا على وزن الآية ، وليس كذلك ، بل بينهما فرقٌ من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن « القصاص حياة » لفظتان ، و « القتل أنفى للقتل »
ثلاثة ألفاظ .

الوجه الثاني : أن في قولهم « القتل أنفى للقتل » تكريراً ليس في الآية .

الوجه الثالث : أنه ليس كلُّ قتلٍ نافيًا للقتل ، إلا إذا كان على حكم
القصاص^(١) .

(١) قال أبو هلال العسكري : والإيجاز : القصر والحذف ، فالقصر
تقليل الألفاظ وتكثير المعاني ، وهو قول الله عز وجل : « ولكم في
القصاص حياة » ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب
في معناه ، وهو قولهم « القتل أنفى للقتل » فصار لفظ القرآن فوق هذا
القول ، لزيادته عليه في الفائدة ، وهو إبانة العدل المذكور القصاص ،
وذكر العوض المرغوب فيه لذكر الحياة ، واستدعاء الرغبة والرغبة
لحكم الله به ، ولإيجازه في العبارة ، فإن الذى هو نظير قولهم « القتل
أنفى للقتل » إنما هو « القصاص حياة » وهذا أقل حروفاً من ذلك ،
ولبعده من الكلفة بالتكرير ، وهو قولهم « القتل أنفى للقتل » ولفظ
القرآن برىء من ذلك . وبجس التأليف ، وشدة التلاؤم المدرك
بالحس ، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام
إلى الهمزة (وانظر الصناعتين ١٧٥) .

وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب في بعض بيت من شعره ، فقال (١) :

وَأَخَافِكُمْ كِي تُعَمِدُوا أَسْيَافِكُمْ إِنَّ الدَّمَ الْمُعْتَرِ (٢) يَحْرُسُهُ الدَّمُ
فقوله : « إِنَّ الدَّمَ الْمُعْتَرِ (٢) يَحْرُسُهُ الدَّمُ » . أحسن مما ورد عن العرب من قولهم : « القتل أنفى للقتل » ،

ويروى عن معن بن زائدة (٣) أنه سأله أبو جعفر المنصور ، فقال له : أيما أحب إليك : دولتنا أو دولة بني أمية ، فقال : ذاك إليك ! .

فقوله « ذاك إليك » من الإيجاز بالقصر الذى لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة ، لأن معنى قوله « ذاك إليك » ، وهو لفظتان ، أنه إن زاد إحسانك على إحسان بني أمية ، فأنتم أحب إلى ، وهذه عشرة ألفاظ .

فإن قيل : كيف لا يمكن التعبير عن ألفاظ بألفاظ أخرى مثلها وفي

(١) ديوان أبي تمام ٢٧٤ من قصيدة له في ملح مالك بن طوق ، مطلعها :
أرض مصردة وأخرى تشجم تلك التى رزقت وأخرى تحرم
والمصردة التى لا تنال من السقى إلا قليلا ، وتشجم تمطر على الدوام .
(٢) فى الأصل « المغرب » والتصويب عن الديوان ، ومعنى المعتبر المضطرب .

(٣) هو معن بن زائدة الشيبانى ، أحد أجواد العرب وفرسانهم ، وكان فى أيام بنى أمية متنفلا فى الولايات ، ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بنى العباس ، وجرى بين أبى جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر ماجرى من محاصرة واسط أبلى معن مع يزيد بلاء حسناً ، فلما قتل يزيد هرب معن خوفاً من المنصور . ثم دخل معن فى شعبة المنصور ، وصار من خواصه ، وقتل معن بسجستان إذ كان والياً عليها سنة ١٥٢ هـ .

عدتها ، وفي المترادف من الألفاظ ما هو دليل على خلاف ذلك ، فإنه إذا قيل :
« راح » ثم قيل : « مُدَامَة » . أو « سُلَاقَة » . كان ذلك سواء ، وقامت هذه
اللفظة مقام هذه اللفظة .

قلت في الجواب : ليس كل الألفاظ المترادفة يقوم بعضها مقام بعض .
ألا ترى أن لفظة « القصاص » لا يمكن التعبير عنها بما يقوم مقامها ، ولما عبّر
عنها بالقتل في قول العرب « القتلُ أنفى للقتل » ظهر الفرق بين ذلك وبين
الآية في قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » ، فالذي أردته أنا إنما هو
الكلام الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها ، وفي عدتها ، فإن
كان كذلك ، وإلا كان داخلاً في هذا القسم المشار إليه .

النوع السادس عشر

في الإطناب

هذا النوع من الكلام أنعمت النظر فيه ، وفي التكرير ، وفي التطويل ،
فلكنتي حيرة الشبه بينها طويلاً ، وكنت في ذلك كعمربن الخطاب — رضى
الله عنه — في الكلالة ، حيث قال : قد أعيانى أمر الكلالة (١) ، وكنت سألت
رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كثيراً ؛ حتى ضرب في صدرى ، وقال :
« ألا يكفيك آية الصَّيْف » ؟ .

(١) الكلالة من لا ولد له ولا والد ، وما لم يكن من النسب لحا ، أو
من تكلم نسبه بنسب كابن العم وشبهه ، أو هى الأخوة للأم ، أو بنو
العم الأبعد ، أو ما خلا الوالد والولد ، أو هى من العصبية من ورث معه
الأخوة للأم ، ولهم أحكام يرجع إليهما في قواعد الميراث .

وبعد أن أنعمت نظري في هذا النوع الذى هو (الإطناب) وجدته (١)
 ضرباً من ضروب التأكيد التى يؤتى بها فى الكلام قصداً للمبالغة . ألا ترى
 أنه ضرب مفرد من بينها برأسه لا يشاركه فيه غيره ؟ لأن من التأكيد ما يتعمق
 بالتقديم والتأخير ، كاستقديم المفعول ، وبالعراض ، كالعراض بين القسم
 وجوابه ، وبين المعطوف والمعطوف عليه ، وأشباه ذلك ، وسيأتى الكلام
 عليه فى باب .

وهذا الضرب الذى هو الإطناب ليس كذلك .

اختلاف علماء البيان فى الإطناب :

ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه ؛ فمنهم من ألحقه بالتطويل الذى هو
 ضد الإيجاز (٢) ، وهو عنده قسم غيره ، فأخطأ من حيث لا يدري ، كأبي هلال
 العسكري والغامى ، حتى إنه قال : إن كتب الفتوح وما جرى مجراها مما
 يُقرأ على عوام الناس ينبغى أن تكون مطولة مطبناً فيها (٣) .

وهذا القول فاسدٌ ، لأنه إن عنى بذلك أنها تكون ذات معانٍ متعددة

(١) فى الأصل « وجدت » من غير الضمير ، والسياق يقتضيه .
 (٢) يفرق أبو هلال بين الإطناب والتطويل ، فالإطناب عنده بلاغة ،
 والتطويل عى ، لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب ، والإطناب
 بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوى على زيادة فائدة (وانظر الصناعتين ١٩١) .
 (٣) عبارة أبي هلال فى الصناعتين ١٩٠ : « ولاشك فى أن الكتب
 الصادرة عن السلاطين فى الأمور الجسيمة ، والفتوح الجليلية ، وتفخيم
 النعم الحادثة ، والترغيب فى الطاعة ، والنهي عن المعصية ، سبيلها أن
 تكون مشبعة مستقصاة ، تملأ الصدور ، وتأخذ بمجامع القلوب « ولا نرى
 تناقضاً بين تفريقه بين الإطناب والتطويل ، ورأيه فى إشباع هذه الكتب
 واستقصائها بما يدل على الإطناب .

قد استُقصِيَ فيها شرحُ تلك الحادثة من فتح أو غيره فذلك مسلمٌ ، وإن عني بذلك أنها تكون مكررة المعاني ، مطولة الألفاظ ، قصداً لإفهام العامة ؛ فهذا غيرُ مسلمٍ ، وهو مما لا يذهبُ إليه من عنده أدنى معرفةٍ بعلم الفصاحة والبلاغة .
ويكفي في بطلانه كتاب الله تعالى ، فإنه لم يُجمَعَلْ لخواصِّ الناس فقط ، وإنما جُمِلَ لعوامهم وخواصهم ؛ وأكثره ، لا بل جميعه مفهوم الألفاظ للعوام ، إلا كلماتٍ معدودةً ، وهي التي تسمَّى « غريب القرآن » . وقد تقدم الكلام على ذلك في المقالة الأولى المختصة بالألفاظ (١) .

وعلى هذا فينبغي أن تكون الكتبُ جميعها مما يقرأ على عوامِّ الناس وخواصهم ذات ألفاظٍ سهلةٍ مفهومةٍ ، وكذلك الأشعار والخطبُ ، ومن ذهب إلى غير ذلك فإنه بنجوةٍ عن هذا الفن .

وعلى هذا فإن الإطناب لا يختصُّ به عوامُّ الناس ، وإنما هو لخواصِّ ، كما هو للعوام .

وسأبين حقيقته في كتابي هذا ، وأحقق القول فيه ، بحيث تزول الشبهة التي خبط أرباب علم البيان من أجلها ، وقالوا أقوالاً لا تعربُ عن فائدة .

حقيقة معنى الإطناب :

والذي عندي فيه أنه إذا رجعنا إلى الأسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسباً لمسامه ، وهو في أصل اللغة مأخوذٌ من أطنب في الشيء ، إذا بالغ فيه ، ويقال : أطنبت الرِّيح ، إذا اشتدت في هبوبها ، وأطنب في السير ، إذا اشتدَّ فيه .

(١) انظر تفصيل رأى ابن الأثير في هذا في صفحة ٢٢٧ وما بعدها من

القسم الأول من هذا الكتاب .

وعلى هذا فإن حملناه على مقتضى مُسمّاه كان معناه المبالغة في إيراد المعاني ،
وهذا لا يختصُّ بنوع واحدٍ من أنواع علم البيان ، وإنما يوجد فيها جميعها ،
إذ ما من نوع منها إلا ويمكنُ المبالغة فيه .

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يُقرَد هذا النوع من بينها ، ولا يتحقق
إفراده إلا بذكر حدّه الدالُّ على حقيقته .

حد الاطناب :

والذي يُحدُّ به أن يقال : هو زيادةُ اللفظ على المعنى لفائدةٍ .

فهذا حدّه الذي يميزُه عن (التطويل) . إذ التطويلُ هو زيادةُ اللفظ عن
المعنى لغير فائدة (١) .

(١) وعند البلاغيين أن (التطويل) هو أن يزيد اللفظ على أصل المراد
للفائدة ، ولا يكون اللفظ الزائد متعينا كقول عدى بن زيد العبادي :
فقدت الأديم اراشيه وأنى قولها كذبا ومينا
فإن الزائد هو « كذبا » أو « مينا » ولا يتعين أحدهما للزيادة ولا يرجح .
فإن كانت الزيادة متعينة اختص ذلك باسم (الحشو) وهو زيادة معينة
للفائدة كقول أبي الطيب :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لو لا لقاء شعوب
فإن لفظ «الندى» فيه حشو يفسد المعنى ، لأن المعنى أنه لا فضل في الدنيا
لشجاعة والصبر والندى لو لا الموت ، وهذا الحكم صحيح في الشجاعة دون
الندى ، لأن الشجاع لو علم أنه يخاد في الدنيا لم يخش الهلاك في الإقدام
فلم يكن لشجاعته فضل ، بخلاف الباذل ماله ، فإنه إذا علم أنه يموت
هان عليه بذله . وقد يكون الحشو غير مفسد للمعنى كقول الشاعر :

ذكرت أحمى فعاودنى صداع الرأس والوصب

فإن لفظ الرأس حشولا فائدة فيه ، لأن الصداع لا يستعمل إلا في الرأس
وليس بمفسد للمعنى ، وفي هذا وغيره أقوال يرجع إليها في موسوعات البلاغة .

وأما (التكريرُ) فإنه دلالة للفظ على المعنى مردداً ، كقولك لمن تستدعيه ؛
أسرعُ أسرع ، فإنَّ المعنى مرددٌ ، واللفظ واحد .

وسيردُ بيان ذلك مفصّلاً في بابه بعد باب الإطناب ، لأنِّي ذكرتُ الإيجاز ،
ثمَّ الإطنابَ ، ثمَّ التكريرَ ، وهيَّ أبوابٌ يتبعُ بعضها بعضاً .

وإذا كان (التكريرُ) هو إيرادُ المعنى مردداً فمنه ما يأتي لفائدةٍ ، ومنه
ما يأتي لغير فائدةٍ .

فأما الذي يأتي لفائدةٍ فإنه جزءٌ من الإطناب . وهو أخصُّ منه ، فيقال
حينئذٍ : إنَّ كلَّ تكريرٍ يأتي لفائدةٍ فهو إطنابٌ ، وليس كلُّ إطنابٍ تكريراً
يأتي لفائدةٍ ، وأما الذي يأتي من التكرير لغير فائدةٍ فإنه جزءٌ من التطويل ،
وهو أخصُّ منه ، فيقال حينئذٍ : إنَّ كلَّ تكريرٍ يأتي لغير فائدةٍ تطويلٌ ،
وليس كلُّ تطويلٍ تكريراً يأتي لغير فائدةٍ .

وكنتم قدّمتُ القول في باب الإيجاز بأنَّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى
من غير زيادةٍ عليه .

وإذا تقررتْ هذه الحدودُ الثلاثة المشارُ إليها فإنَّ مثالَ الإيجاز والإطناب
والتطويل مثالُ مقصدٍ يسلكُ إليه في ثلاثة طرقٍ : فالإيجاز هو أقربُ الطرقِ
الثلاثةِ إليه ، والإطنابُ والتطويلُ هي الطريقتان المتساويتان في البعدِ إليه ،
إلا أنَّ طريقَ الإطنابِ تشتملُ على منزهِ من المنازه لا يوجدُ في طريقِ
التطويلِ^(١) ، وسيأتي بيان ذلك بضربِ الأمثلةِ التي تُسهِّلُ من معرفته .

(١) هذا هو تمثيل أبي هلال ، وقد سبقَت الإشارةُ إلى شيء من

كلامه في الهامش (٢) من صفحة (٣٥٥) .

والإطنابُ يوجد تارةً في الجملة الواحدة من الكلام ، ويوجد تارةً في
الجل المتعدّدة .

والذي يوجد في الجمل المتعدّدة أبلغ ، لا تُساع المجال في إيرادها .
وعلى هذا فإنه بجملته ينقسم قسمين :

(١) القسم الأول : الذي يوجد في الجملة الواحدة من الكلام :
وهو يرد حقيقةً ومجازاً .

أمّا الحقيقةُ فمثل قولهم : رأيتُه بعيني ، وقبضته بيدي ، ووطنتهُ بقدمي ،
وذقتهُ بفي ، وكلُّ هذا يظنُّ الظانُّ أنه زيادةٌ لأحاجة إليهما ، ويقول إن الرويةُ
لا تكون إلا بالعين ، والقبض لا يكون إلا باليد ، والوطء لا يكون إلا بالقدم ،
والذوق لا يكون إلا بالفم ، وليس الأمر كذلك ، بل هذا يُقالُ في كلِّ شيءٍ
يعظمُ مناله ، ويعزُّ الوصولُ إليه ، فيؤكِّد الأمر فيه على هذا الوجه ، دلالةً على
نيله والحصول عليه ، كقول أبي عبادة البحرى (١) :

تأملُ من خلالِ السَّجْفِ وانظرُ بعينِكَ ما شربتُ ومن سَقَانِي (٢)
تجدُ شمسُ الضُّحَا تَدُنُوا بِشَمْسٍ إِلَى مِنَ الرَّحِيقِ الخُسْرُوَانِي
ولمَّا كَانَ الحُضُورُ فِي هَذَا المَجْلِسِ مَا يَعْرِفُ وجودُهُ ، وَكَانَ السَّقَى فِيهِ
عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الحُسْنِ ، قَالَ : انظرُ بعينِكَ .

(١) ديوان البحرى ١ / ٩٢ من قصيدة له في مدح المعترف بالله ، ومطلعها :

رويدك إن شانك غير شانى وقصرك لست طاعة من نهانى

(٢) السجف - بفتح السين وكسرهما - الستر ، والسجف الستران

المقرونان بينهما فرجة ، أو كل باب ستر بسترين مقرونين فكُل شق
سجف - وفي الديوان :

* تأمل من خلال الشك فانظر *

وعلى هذا وردَ قوله تعالى: (ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ^(١)).

فإنَّ هذا القولَ لما كان فيه افتراءً عظمَ الله تعالى على قائله:

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ^(٢).

فصرَّحَ في هذه الآية بما أشرتُ إليه من تعظيمِ الأمرِ المقولِ.

وفي مساقِ الآيةِ المشارِ إليها جاءَ قوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ^(٣)).

أَلَا تَرَى أَنَّ مَسَاقَ الْكَلَامِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَقُولُ لِرَوْجَتِهِ: «أَنْتِ عَلِيٌّ كَظَهْرِ أُمِّي» وَيَقُولُ لِمَمْلُوكِهِ: «يَا بُنَى» فَضَرَبَ اللَّهُ لَذَلِكَ مَثَلًا، فَقَالَ: كَيْفَ تَكُونُ الزَّوْجَةُ أُمًَّا؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الْمَمْلُوكُ ابْنًا؟ وَالْجَمْعُ بَيْنَ الزَّوْجِيَّةِ وَالْأُمُومَةِ وَبَيْنَ الْعِبُودِيَّةِ وَالْبُنُوتِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ كَالْجَمْعِ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ فِي الْجَوْفِ؛ وَهَذَا تَعْظِيمٌ لِمَا قَالُوهُ، وَإِنْكَارٌ لَهُ، وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي حَالِ الْإِنْكَارِ وَالتَّعْظِيمِ أَتَى بِذِكْرِ الْجَوْفِ، وَإِلَّا فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْجَوْفِ، وَالتَّمثِيلُ يَصِحُّ بِقَوْلِهِ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ» وَهُوَ تَامٌ،

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤

(٢) سورة النور: الآية ١٥

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤

لكن في ذكر الجوف فائدة ، وهي ما أشرت إليها ، وفيها أيضاً زيادةُ تصوير
للمعنى المقصودُ ، لأنه إذا سمع المخاطب به صور لنفسه جوقاً يشتمل على قلبين ،
فكان ذلك أسرع إلى إنكاره .

وعليه وردَ قوله تعالى : (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)^(١) .
فكما أن القلب لا يكون إلا في الجوف فكذلك السقف لا يكون
إلا من فوق ، وهذا مقامٌ ترهيبٍ وتخويفٍ ، كما أن ذلك مقامٌ إنكارٍ
وتعظيمٍ .

ألا ترى إلى هذه الآية بكاملها ، وهي قوله تعالى : (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)^(١) ، ولذكر لفظه « فَوْقِهِمْ » ، فائدةٌ
لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام ، وأنت تُحسّرُ هنا من نفسك ، فإنك
إذا تلوت هذه الآية يُخَيِّلُ إليك أن سقفاً خرَّ على أولئك من فوقهم ، وحصلَ
في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة .

وفي القرآن الكريم من هذا النوع كثيرٌ كقوله تعالى : (فَإِذَا نَفِخَ
فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً
وَاحِدَةً)^(٢) .

وقوله : (أفرأيتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى)^(٣) .

(١) سورة النحل : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الحاقة : الآيتان ١٣ و١٤ .

(٣) سورة النجم : الآيتان ١٩ و٢٠ .

وكلُّ هذه الآياتِ إنما أُظنِبَ فيها بالتأْكِيدِ لِمعانِ اقتضَتْها ، فإنَّ
النَّفْخَ في الصُّورِ الذي تقومُ به الأمواتُ من القُبُورِ مهولٌ عظيمٌ ، دَلٌّ على
القدرةِ الباهرةِ ، وكذلك حملُ الأرضِ والجبالِ .

فلما كانا بهذه الصِّفةِ قيلَ فيهما : « نَفْخَةٌ واحدة » و « دَكَّةٌ واحدة » .
أى أن هذا الأمرُ المهولَ العظيمَ سهلٌ يسيرٌ على الله تعالى ، يفعلُ ويمضى الأمرَ فيه
بنفخةٍ واحدةٍ ، ودكَّةٍ واحدةٍ ، ولا يحتاجُ فيه إلى طولِ مدَّةٍ ، ولا كلفةٍ مشمَّةٍ .
فجىءَ بذكرِ الواحدةِ لتأْكِيدِ الأعلامِ بأنَّ ذلكَ هينٌ سهلٌ على عِظَمِهِ .
وهذه المواضعُ وأمثالها تردُّ في القرآنِ الكريمِ ، ويتوهَّمُ بعضُ الناسِ
أنها تردُّ لغيرِ فائدةٍ اقتضَتْها . وليس الأمرُ كذلكَ ، فإنَّ هذه الأُمُراتُ البلاغيةُ
لا يتنبه لها إلا العارفون بها ، وهكذا يردُّ ما يردُّ منها في كلامِ العربِ .

وهاهنا نكتةٌ لا بدَّ من الإشارةِ إليها : وذلكَ أنِّي نظرتُ في قوله تعالى :
« نفخةٍ واحدة » و « دَكَّةٌ واحدة » وفي قوله تعالى : « وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى »
فوجدتُ ذلكَ غيرَ مقيسٍ على ما تقدَّم ، وسأبيِّنُه ببيانٍ شافٍ ، فأقول :

إنَّ قوله تعالى : « وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى » إنما جىءَ به لتوازنِ الفِقرِ
التي نُظمتِ السُّورةُ كلها عليها وهي : « وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى » ولو قيل :
« أفرايمُ اللاتِ والعزى وَمَنَاةَ » ولم يقل « الثالثة الأخرى » لكانَ
الكلامُ عارياً عن الطلاوةِ والحُسْنِ . وكذلك لو قيل : ومناة الأخرى من
غيرِ أن يقال « الثالثة » لأنَّه نقصٌ في الفقرةِ الثانيةِ عن الأولى ، وذلكَ كَبَيْحٍ ،
وقد تقدَّم الكلامُ عليه في بابِ السَّجْعِ (١) ، لكنَّ التأْكِيدَ في هذه الآيةِ
جاءَ ضمناً لتوازنِ الفِقرِ وتبعاً .

(١) انظر صفحة (٣٣٣) وما بعدها من القسمِ الأولِ من هذا الكتابِ ،
لترى تقسيمَ المؤلفِ للسَّجْعِ ، وما يستحسن من أقسامه .

وأما « نفخةٌ واحدةٌ » و « دَكَّةٌ واحدةٌ » فإنما جيء بلفظ الواحدة فيهما - وقد علم أن النفخة هي واحدة والدكة هي واحدة - لمكان نظم الكلام ، لأن السورة التي هي « الحاقّة » جارية على هذا المنهاج في توازنها السجعي ، ولوقيل : « نفخة » - من غير واحدة - و « دَكَّة » - من غير واحدة - ثم قيل بعدها : « فيومئذٍ وقعت الواقعة » لمكان الكلام منشوراً^(١) محتاجاً إلى تمام . لكن التأكيّد جاء فيهما ضمناً وتبعاً .

وإذا تبين ذلك وأتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات وبين قوله تعالى : « ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه » ظاهرٌ ، وذلك أن « نفخة » هي واحدة ، و « مناة » هي الثالثة .

وأما ما جاء منه على سبيل الجواز ، فقوله تعالى : « فإنها لا تعى الأبصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »^(٢) .

فائدة ذكر « الصدور » ها هنا أنه قد تُعورف وُعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، واستعماله في القلب تشبيه ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ، ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب ، لا الأبصار .

وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه ، وافرة لطائفه ، والمجاز فيه أحسن من الحقيقة ، لمكان زيادة التصوير في إثبات وصف الحقيقي للمجازي ونفيه عن الحقيقي .

(١) أى من غير مراعاة للتوازن ، ومعنى « محتاجاً إلى تمام » أى :

إلى تمام يكمل به التوازن .

(٢) سورة الحج : الآية ٤٦ .

(٢) ولما القسم الثاني المختص بالجميل ، فإنه يشتمل على ضروب أربعة :

(١) الأول منها : أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة ، إلا أن

كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر :

وذلك كقول أبي تمام (١) :

قَطَعَتْ إِلَى الزَّابِيَيْنِ هِسَابَاتُهُ وَالتَّائِثَ مَأْمُولُ السَّحَابِ الْمُسْبِلِ (٢)

مِنْ مِئْتَةِ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بَعْكَرٍ وَإِحْسَانٍ أَعْرَ مَحْجَلٍ

فقوله « مِئْتَةِ مَشْهُورَةٍ ، وَصَنِيعَةٍ بَعْكَرٍ ، وَإِحْسَانٍ أَعْرَ مَحْجَلٍ » تداخلت معانيه ، إذ المِئْتَةُ ، وَالصَنِيعَةُ ، وَالإِحْسَانُ ، متقاربٌ بعضُهُ مِنْ بعضٍ ، وليس ذلك بتكريرٍ ، لأنه لو اقتصر على قوله : مِئْتَةُ ، وَصَنِيعَةُ ، وَإِحْسَانُ ، لجاز أن يكون تكريراً ، ولكنه وصف كلَّ واحدةٍ من هذه الثلاثِ بصفةٍ أخرجتها عن حُكْمِ التكريرِ ، فقال : « مِئْتَةُ مَشْهُورَةٍ » ، فوصفها بالاشتهارِ لعظم شأنها ، و« صَنِيعَةُ بَعْكَرٍ » ، فوصفها بالبكارةِ ، أى : أنها لم يُؤتَ بمنثلها من قبل ، و« إِحْسَانٍ أَعْرَ مَحْجَلٍ » ، فوصفه بالفرةِ والتَّحْجِيلِ ، أى هو ذُو محاسنٍ متعدّدةٍ ، فلما وصف هذه المعانى المتداخلة التي تدلُّ على شيءٍ واحدٍ بأوصافٍ متباينة صار ذلك إطناباً ، ولم يكن تكريراً .

ولم أجدُ في ضُروبِ الإطنابِ أحسنَ من هذا الموضعِ ، ولا أَلطفَ ،

(١) ديوان أبي تمام ٢٣٣ من قصيدة له في مدح الحسن بن وهب ،

مطلعها :

ليس الوقوف يكف شوقك فانزل تبلى غليلا بالدموع فيبلى

(٢) في الأصل « الزابيين » موضع « الزابيين » وهما نهران ، وفيه

« التائث » من غير واو العطف ، و« مأمور » موضع « مأمول » . والتصويب عن

الديوان ، ومعنى التائث أبطأ . والمسبل المطر .

وقد استعمله أبو تمام في شعره كثيراً ، بخلاف غيره من الشعراء ،
كقوله (١) :

زكى سجاياهُ (٢) تضيفُ ضيوفهُ ويرجى مرجيهِ ويسألُ سائلهُ

فإنَّ غرضه من هذا القول إنما هو ذكر المدوح بالكرم وكثرة العطاء
إلا أنه وصفه بصفات متعدّدة ، فجعل ضيوفه تضيفُ ، وراجه يرجيُ ،
وسائلهُ يسألُ ، وليس هذا تكريراً ، لأنه لا يلزم من كون ضيوفه تضيفُ
أن يكون راجيه مرجّواً ، ولا أن يكون سائلهُ مسئولاً ، لأنَّ ضيفهُ
يستصحبُ ضيفاً ، طمعاً في كرم مضيفه ، وسائلهُ يسألُ ، أى : يعطى السائل
عطاءً كثيراً يصيرُ به مُعطيّاً ، وراجه يرجيُ ، أى أنه إذا تعلق به رجاء راج
فقد أيقن بالفلاح والنجاح ، فهو حقيقٌ بأن يرجيُ ، لمكان رجائه إياه ،
وهذا أبلغ الأوصاف الثلاثة .

(٢) الضرب الثاني : يسمى النفي والاثبات :

وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفي ، ثم يذكرُ على سبيل الإثبات
أو بالعكس ، ولا بد أن يكون في أحدهما زيادةٌ ليست في الآخر ، وإلا كان
تكريراً . والغرضُ به تأكيدُ ذلك المعنى المقصود .

فمما جاء منه قوله تعالى : « لا يستأذِنك الذين يؤمنون بالله
واليوم الآخر أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليمٌ بالمتقين * »

(١) ديوان أبي تمام ٣٧٨ من قصيدة له في رثاء القاسم بن طوق ، مطلعها :

جوى ساور الأحشاء والقلب واغله ودمع يضم العين والجفن هامله

(٢) رواية الديوان :

* وكن سجاياه يضيف ضيوفه *

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » (١) .

واعلم أن لهذا الضرب من الإطئاب فائدة كبيرة ، وهو من أوكد وجوهه ، ألا ترى أنه قال : « لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » ، ثم قال : « إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » ، والمعنى في ذلك سواء ، إلا أنه زاد في الثانية قوله : « وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير .

وهذا الموضع ينبغي أن يُعامل ، ويُنعم النظر فيه .

وعليه ورد قوله تعالى : « آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بضع سنينَ اللَّهُ الْأَمْرَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » (٢) .

فقوله : « يعلمون » بعد قوله : « لا يعلمون » من الباب الذي نحنُ بصدد ذكره ، ألا ترى أنه نفى العلمَ عن النَّاسِ بما خفيَ عنهم من تحقيقِ وعده ، ثم أثبت لهم العلمَ بظاهر الحياة الدنيا ؟ فكأنهم علموا وما علموا ، إذ العلمُ بظاهر الأمور ليس بعلم ، وإنما العلم هو ما كان بالباطن من الأمور .

(١) سورة التوبة : الآيتان ٤٤ و ٤٥ .

(٢) سورة الروم : الآيات ١ - ٧ .

(٣) الضرب الثالث : وهو أن يذكر المعنى الواحد تاماً لا يحتاج إلى زيادة
ثم يضرب له مثال من التشبيهه :

كقول أبي عبادة البحترى^(١) :

ذاتُ حُسْنٍ لو استزادتُ من الحُسْنِ إليه لما أصابتْ مزيداً
فهيَ كالشمسِ بهجةً ، والقضيبِ اللَّسْدنِ قِداً ، والرَّيْمِ طرفاً وجيداً^(٢)
ألا ترى أن الأول كافٍ في بلوغ الغاية في الحُسْنِ ، لأنه لما قال :
« لو استزادتُ لما أصابتْ مزيداً » دخل تحتها كلُّ شيءٍ من الأشياءِ
الحسنةِ ، إلا أن التشبيهه مزيةً أخرى تفيدُ السامعَ تصويراً وتخيلاً ، لا يحصلُ
له من الأوَّل .

وهذا الضرب من أحسن ما يجيء في باب الإطناب .

وكذلك ورد قوله^(٣) :

تردد^(٤) في خُلقي سُودِدٍ سماحاً مُرَجِيٍّ وبأساً مَهيباً
فكالسيفِ إن جُمتهُ صارخاً وكالبَحْرِ إن جُمتهُ مُسْتَهيباً

(١) ديوان البحترى ٢ / ٣٤ من قصيدة له في الفخر ، مطلعها :

إنما الغي أن يكون رشيداً فانقصا من ملامه أو فزيدا

(٢) روى هذا البيت في الديوان هكذا :

فهي الشمس بهجة ، والقضيب السغض لينا ، والرئم طرفاً وجيداً

(٣) ديوان البحترى ١ / ٥٨ من قصيدة له في مدح الفتح بن أخافان

وعتابه ، ومطلعها :

لوت بالسلام بنانا خضيباً ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا

(٤) رواية الديوان « تنقل » موضع « تردد » .

فالبيتُ الثاني يدلُّ على معنى الأول ، لأنَّ البحر والسيف للباس المهيب ،
إلا أنَّ في الثاني زيادة التشبيه التي تفيدُ تخيُّلاً وتصويراً .

(٤) الضرب الرابع : أن يستوفى معانى الغرض المقصود من كتاب
أو خطبة أو قصيدة :

وهذا أصعبُ الصُّروب الأربعةِ طريقاً ، وأضيقُها باباً ، لأنه يتفرَّعُ
إلى أساليب كثيرةٍ من المعانى ، وأربابُ النظم والنثر يتفاوتون فيه ، وليسَ
الخاطرُ الذي يقذفُ بالدرر في مثله إلا معدومَ الوجود ، ومثاله ومثاله
الإيجاز مثال مُجمل ومُفصل . وقد تقدّم القولُ أن الإيجازَ والإطنابَ
والتطويلَ بمنزلةٍ مقصدٍ يُسلكُ إليه ثلاثة طرق .

وقد أوردتُ هاهنا أمثلةً لهذه الأساليب الثلاثة ، وجعلتها على هيئةِ
المقصد الذي تُسلكُ إليه الطرق الثلاثة .

فمن ذلك ما ذكرته في وصف بُستانِ ذى فواكه متعدِّدة .

فإذا أريدَ وصفهُ على حكم (الإيجاز) قيل : « فيه من كلِّ فاكهةٍ
زوجان » وهذا [من] كلام الله تعالى ^(١) ؛ وقد جمع جميع أنواع
الفاكهة بأحسن لفظٍ وأخصره .

وإذا أريدَ وصفُ ذلك البستان على حكم (الإطناب) قيل فيه ما أذكره
وهو فصلٌ من كتاب أنشأته ، وهو :

« جنةٌ علَّتْ أرضها أن تسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تستجدي
سما ، وهى ذات ثمارٍ مختلفة الغرابة ، وتربةٌ منجبة ، وما كلُّ تربةٍ توصف
بالنجابة .

(١) كما جاء في سورة الرحمن (آية ٥٢) قوله تعالى : « فيهما من كل
فاكهة زوجان » .

« فيها الشمس الذى يسبق غيره بقدمه ، ويقذف أيدى الجانين
بنجومه ؛ فهو يسمو بطيب الفرع والنجار^(١) ؛ ولو نظم في جيد الحساء
لاشتمه بقلادة من نضار^(٢) وله زمن الربيع الذى هو أعدل الأزمان ، وقد
شبهه بسن الصبا فى الأسنان .

« وفيها التفاح الذى رق جلده ؛ وعظم قده ، وتورد خده ؛ وطابت
أنفاسه ؛ فلا بان الوادى ولا رنؤه^(٣) ؛ وإذا نظر إليه وجد منه حظ
الشم والنظر ؛ ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته الى منابت الشجر .

« وفيها العنب الذى هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة ،
وأول غرس اغترسه نوح — عليه السلام — عند خروجه من السفينة ،
فقطفه يميل بكف قاطفه ، ويفرى بالوصف لسان واصفه .

« وفيها الرمان الذى هو طعام وشراب ، وبه شبهت هود الكعاب ،
ومن فضله أنه لا توى له فيرمى نواه ، ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من
فاكهة سواه .

« وفيها التين الذى أقسم الله به تنويرها بذكره ، واستتر آدم — عليه
السلام — بورقه إذ كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الأعتاق ، فما
يرى بها من ميل فهو نشوة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعاماً ، ونعم
جسماً ، وقيل : هذا كنيف مليء شهداً ، لا كنيف مليء علماً .

(١) نجار الشيء — بكسر النون وضمها — والنجر أيضاً — بفتح
النون — الأصل .

(٢) النضار الذهب أو الفضة ، والمعنى الأول هو ما يناسب هذا
الاستعمال .

(٣) الرند شجر طيب الرائحة ، والعود ، والآس .

« وَفِيهَا مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ مَا يُرْمَى بِلُونِهِ وَشَكَلِهِ ، وَيَشْغَلُ بِلَذَّةِ مَنْظَرِهِ عَنِ لَذَّةِ أَكْلِهِ ، وَهُوَ الَّذِي فَضَّلَ ذَوَاتِ الْأَفْنَانِ بَعْرَجُونَهُ ، وَلَا تَمَائِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحُلُوءِ : « هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » (١) .

« وَفِيهَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَشْكَالِ الْفَاكِهَةِ وَأَصْنَافِهَا ، وَكُلُّهَا مَعْدُودٌ مِنْ أَوْسَاطِهَا لَا مِنْ أَطْرَافِهَا .

« وَلَقَدْ دَخَلْتَهَا فَاسْتَهْوَتْنِي حَسَدًا ، وَلَمْ أَلَمْ صَاحِبِهَا عَلَى قَوْلِهِ : « لَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا » (٢) .

فهذا الوصفُ على هذه الصورة يسمَّى (إطناباً) لأنه لم يعرَ عن فائدة .
وذلك الأوَّل هو (الإيجازُ) لأنه اشتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهة .

وأما (التطويل) : فهو أن تعدَّ الأصناف المذكورة تعداداً من غير وصف لطيفٍ ، ولا نعتٍ رائقٍ ، فيقالُ : مِشْمَشٌ ، وَتَفَاحٌ ، وَعَنْبٌ ، وَرَمَانٌ ، وَنَخْلٌ ، وَكَذَا ، وَكَذَا .

وانظر أَيْهَا المتأمل إلى ما أشرتُ إليه من هذه الأقسام الثلاثة في الإيجاز والإطناب والتطويل ، وقس عليها ما يأتي منها .
وسأزيدُ ذلك بياناً بمثالٍ آخر ، فأقول :

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

(٢) مأخوذ من قوله تعالى : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً » سورة الكهف : الآية ٣٥ .

قد وردَ في باب (الإيجاز) كتابُ كتبه طاهرُ بنُ الحُسينِ إلى المأمون - رحمه الله تعالى - يخبره بهزيمة [عليّ بن] ⁽¹⁾ عيسى ابن ماهانَ وقتله إياه ، وهو : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ورأسُ [علي ابن] ⁽¹⁾ عيسى بن ماهان بين يدي ، وخاتمه في يدي ، وعسكره مُصرّفٌ تحت أمرى ، والسلام . »

وهذا كتاب جامع للمعنى ، شديد الاختصار .

وإذ كتبَ ما هو في معناه على وجه (الإطناب) قيل فيه ما أذكره ، وهو ما أنشأته مثلاً في هذا الموضع ، ليُعلم به الفرقُ بين الإيجاز والإطناب ، وهو :

« أصدرَ كتابه هذا ؛ وقد نُصر بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة ؛ واقلب باليد الملامى والعين القريرة ؛ وكان انتصاره بجدّ أمير المؤمنين لا بجدّ نصله ؛ والجدّ أغنى من الجيش وإن كثرت أمدادُ خيله ورجله ؛ وجيء برأس [عليّ بن] ⁽¹⁾ عيسى بن ماهان وهو على جسدٍ غير جسده ؛ وليس

(1) زيادة ليست في الأصل ، وكان علي بن عيسى بن ماهان هو والفضل بن الربيع من رجال الأمين ، وكان علي بن عيسى صاحب أمره كله ، وعقد له في سنة ١٩٥ على كور الجبل كلها : نهاوند وهمدان وقم وأصفهان ، حربها ونحراجها ، وقد شخص في هذه السنة إلى حرب المأمون ، حتى بلغ الرى ، فلقية طاهر بن الحسين ، واستمر القتال بينهما إلى أن قتل على سنة ١٩٥ . وقد سبق إيراد هذا الكتاب قبل ذلك في هذا القسم الثانى .

لَهُ قَدَمٌ فَيَقَالُ : إِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ ، وَلَا يَدٌ ؛ فَيَقَالُ : إِنَّهُ يَبْطِشُ بِيَدِهِ ، وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ مُؤَوِّدٌ بِقَصْرِ شَانِهِ ، وَحَسَدَاتُ الضِّيَاعِ الطَّيْرِ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مُحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ ؛ وَأَحْضِرَ خَاتَمَهُ وَهُوَ الْخَاتَمُ الَّذِي كَانَ الْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ أَسْطَرَّةِهِ ؛ وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يَصْدُرَ كِتَابُ الْفَتْحِ بِحُجَّتِهِ فَحَالَ زُرُودُ الْمَنِيَةِ دُونَ مَصْدَرِهِ ، وَكَذَلِكَ الْبَغْيُ مُرْتَعُهُ وَيَبِيلُ ، وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ ، وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ كَلِيلٌ ، وَقَدْ نَطَقَ الْفَأَلُ بِأَنَّ الْخَاتَمَ وَالرَّأْسُ مُشِيرَانِ بِالْحُصُولِ عَلَى خَاتَمِ الْمَلِكِ وَرَأْسِهِ ، وَهَذَا الْفَتْحُ أَسَاسٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ بِنَاوِهِ وَلَا يَسْتَقَرُّ الْبِنَاءُ إِلَّا عَلَى أَسَاسِهِ ، وَالْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سَلَامًا ، وَأَعْطَتْهُ الْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مِنْ تَابِعٍ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا ، وَهِيَ الْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ الْأَوَامِرِ ، مُمْتَحِنُونَ بِكُشْفِ السَّرَائِرِ ، مَطِيفُونَ بِاللَّوَاءِ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِاسْتِفْتَاكِ الْمَقَالِدِ ، وَاسْتَيْطَاءِ الْمَنَابِرِ ، وَكَمَا سَرَتْ خُطُوبَاتُ الْقَلَمِ فِي أَمْنَاءِ هَذَا الْقُرْطَاسِ ، فَكَذَلِكَ سَرَتْ طَلَائِعُ الرَّعْبِ قَبْلَ الطَّلَائِعِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَلَيْسَ فِي الْبِلَادِ مَا يَفْتَقُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ بَابًا ، وَلَا يَحْسُرُ نَقَابًا ، وَعَلَى اللَّهِ إِمَامُ النَّعْمِ الَّتِي افْتَتَحَهَا ، وَإِجَابَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرِحَاتِهِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا ، وَالسَّلَامُ .

وَهَذَا الْكِتَابُ يُشْتَمَلُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ مِنْ الْمَعْنَى ، إِلَّا أَنَّهُ فَصَّلَ ذَلِكَ الْإِجْمَالَ .

وَلَوْ كَتَبْتُ عَلَى وَجْهِهِ (التَّسْطُوبِيلِ) الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ : « أُصْدِرُ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا ، وَالتَّقِي عَسْكَرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّهِ الْبَاغِي .

وَتَطَاعَنَ الْفَرِيقَانِ ، وَتَزَاخَفَ الْجَمْعَانِ ؛ وَحَمَى الْقِتَالَ ، وَاشْتَدَّ النَّزَالُ ،

وترادفت الكتابُ وتلاحقت المقانِبُ^(١) وُقُتِلَ [على بنُ] عيسى بن ماهان واحترز رأسه وقُطِعَ ، ونزع الخاتمُ من يده وُخِلعَ ، وترك جسده طعاماً للطيور والسباع ، والذئابِ والضباع ، وانجالت الوقعةُ عن غلب أمير المؤمنين ونصره ، وخذلان عدوه وقهره ، والسلام .

فهذا الكتابُ يشتملُ على تطويلٍ لا فائدة فيه ، لأنه كرر فيه معاني يتم الغرضُ بدونها ، وذكرَ مالا حاجة إليه في الإعلام بالواقعة .
فانظر إلى هذه الكتب الثلاثة ، وتأملها كما تأملت الذي تقدمها .

وبعدَ ذلك إني أوردُ لك كتاباً وتقليداً يوضحان لك فائدة الإطناب ، أما الكتابُ فإنه كتابٌ كتبه عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب — رحمه الله — إلى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح البيت المقدس ، واستنقاده من أيدي الكفار ، وذلك في معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم ابنُ عليّ البيهقي^(٢) عنه ، وكان الفتحُ في السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

« خلد الله سلطانَ الديوان العزيز النبوي ، وجعل أيام دولته أتراباً ، ومناقب مجدها هضاباً ، وزادها على مرور الأيام شباباً ، وأوسعها توشيةً

(١) المقانِب جمع مقنّب — على زنة منبر — جماعة الخيل مابين الثلاثين إلى الأربعين . أو زهاء ثلثمائة .

(٢) هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيهقي اللخمي ، ولد بعسقلان ، ونشأ ببلاد فلسطين ، حيث أم بالعربية والأدب ، ثم كتب في الإسكندرية في دواوينها حتى ظهر فضله ، فتنقل إلى القاهرة زمن العاضد ، ولما استولى صلاح الدين على مصر كان بمنزلة وزير له ، ووزر بعده لابنه العزيز ، وتوفي سنة ٥٩٦ هـ .

وإذهاباً ، إذا أوسع غيرها تلاشياً وذهاباً ، ومنحها في الدنيا والآخرة عطاءً وفاً لا عطاءً حساباً ، ومثل جودها في عيُونُ الأعداء شيئاً عجاباً ، وأراهم منها وراءهم في اليقظة إرهاباً وإرعاباً ، وفي المنام إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً ، لو جمعت المصور في صعيدٍ واحدٍ لكان هذا العصرُ عليها فخرًا ، وفازَ بسبقِ أوائلها وإن جاء آخرًا ، وليس ذلك إلا لحظوته بالدولة الناصرية التي كستهُ خبراً ، وقلتهُ دُرراً ، ودوّنت له من المحامد سيراً ، وجعلت في كلِّ ناحيةٍ من وجهه شمساً وقرماً .

« وقبض الله لها من الخادم ولياً يوصلُ يومه في طاعتها بأمره ؛ ولا يرى إلا ومن نفسه في خدمتها رقيبٌ على نفسه ، وطالما سعى بين يديها بمساعٍ تفصّل بأخبارها محافل القوم ؛ ويقال له فيها : ماضرك ما صنعتَ بعد اليوم ، وقد سلفتُ منها آيات تَمَيلُ في أشباهها وأضرابها ، واستؤنف لها الآن واحدة تُدعى بأُمِّ كتابها . وهي فتحةُ البيتِ المقدس الذي نفتحت له أبوابُ السماء وكثرت بأحاديث مجده كواكبُ الظلماء . واستردّ حق الإسلام . وطالما سعتِ الهممُ في طلبه بالزاد والماء . ومن أحسن ما أتى به أنه آنس قبلته الثانية بقبائمه الأولى . وأطال منه كل ما قصرته يدُ الكفر وكانت هي الطولى . وبه صحَّ لهذا البيتِ معنى اسمه . وانتقل إلى الطهارة ونزاهتها عن الرجس ووضيحه . ولم يجرّه الخادمُ حتى طوى ما حوله من البلاد المنجدة والغائرة . وكان مركزاً لداثرتها . فغادره وهو طرفٌ من أطراف الدائرة . ولما شارفه نظر منه إلى ظلةٍ من الظلل . ورأى بلداً قد استقرت على متن الجبل مثل الجبل . ويطيفُ به وادٍ يستهزيء عِصمته بنوب الدهر . وقد انعطف على جوانبه انعطافُ الحبوّة على الظهر^(١) . والمسالكُ إليه مع ذلك ذاتُ تعاريجٍ ومعارجٍ

(١) يقال : احتبى بالثوب اشتمل ، أو جمع ظهره وساقيه بعمامة ونحوها والاسم الحبوّة بفتح الحاء وكسرهما .

وهي ضيقةٌ مُتَوَعِرَةٌ يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ الطَّرْقِ وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ الْمَنَاهِجِ .
 فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : هَذَا أَمْنِيَّةٌ لِمَنْ يَرَى . وَعِلْمٌ حَيْثُذِي أَنْ كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ
 الْفَرَا (١) إِلَّا أَنْ لِسَانَ حَالِهِ خَاطِبُهُ وَهُوَ أَفْصَحُ الْخُطَابِ . وَقَالَ : اْمُدُّ يَدَكَ
 فَلَيْسَ دُونَهَا مِنْ حِجَابٍ .

«وكان قد برز من السلاح في لباس رائعٍ من المنعة . وأخرج من السوادِ
 الأعظمِ ما خدعَ العيونَ . والحربُ خُدعةٌ . وما يمنعُ رقابَ البلادِ بكثرةِ
 السَّوادِ . ولا يحمي بعوالمِ الأسوارِ بل بعوالمِ الصَّعَادِ . وفي يومٍ كذا وكذا خيمَ
 المسلمونَ في عُمرِ داره . ونزلوا منه نزولَ الجارِ إلى جانبِ جاره . ثم ارتادوا
 موقفاً للقتالِ . وإن لم يكنْ هناكُ موقفٌ يقربُ مناله . ولا يتسعُ مجاله . واتفقَ
 الرَّأْيُ على لسانِ المنجنيقِ في خطبةٍ عقليَّةٍ . أبلغَ خطاباً . وأدنى من المطلوبِ
 طلباً . وأنه إذا ضربَ بعصاه الحجرَ انبجستْ عيونُ أهله دِماءً . كما انبجستْ
 عيونُ الحجرِ ماءً .

« هذا وَالْعَزَائِمُ تنظرُ إلى هذا الرَّأْيِ نظرَ المُسْتَجْهِلِ . وتصدُّ عنه صدودَ
 المُسْتَعْجِلِ . وتقولُ : ما بارتِيادِ السهلِ تملكُ الصَّعَابِ . ومن ابتنى السيفَ
 صرْحاً لم ينأ عنه بلوغُ الأسبابِ . والحديدُ لا يفتحُ إلا بالحديدِ . والركنُ
 الشديدُ لا يُصدَمُ إلا برُّ كني شديدٍ . فعندها صممَ الخادمُ أن يلقى البلدَ موائباً

(١) قال ابن السكيت : الفراء الحمار الوحشى ، وجمعه فراء ،
 قالوا : وأصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين ، فاصطاد أحدهم
 أرنباً . والآخر ظيباً ؛ والثالث حماراً . فاستبشر صاحب الظبي بما نالا ،
 وتطاولا عليه ، فقال الثالث : « كل الصيد في جوف الفراء » أى : هذا
 الذى رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما ، وذلك أنه ليس مما يصيده
 الناس أعظم من الحمار الوحشى ، ولا استعمال المثل بقية — انظر أمثال
 الميداني ٨٢/٢ .

لامواربًا . وأن يجعل للزحف جانبًا وللمنجنيق جانبًا . ونوى أن يبدى
صفحة وجهه أمام الناس . وتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في الاتقاء به
إذا اشتد البأس ، ولا شك أن قلوب الجيوش بمنزلة قلوبها . وأن النفاذ لأسنة
الرمح لا لكعوبها . ولا يشتفى من الوغى إلا من كان طرفه أمام طرفه .
ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه .

« ولما وقع الزحف صورع البلد صراعًا ، بعد أن قورع قراعا ؛ ثم هز
هزة طوته بيمينها . ونشرتة بشمالها . وأذاقته العذاب الأدنى دون العذاب
الأكبر من نكالها . وبدون ذلك يكون عرك أديمه . وعطف شكيمه . ولم
يكن قتاله بالسهم التي غايتها أن تصف أجنتها للمطار . وتنال بكلومها من
فوق الأسوار . بل بالشيوف التي إذا جالدت بدأ أخذت بكظمه وتوغلت
في هجمه . وأغنت سرعة خطواتها إليه عن المنجنيق وإبطاء هدمه . والسيف
ليس بمرتو من النفس التي تظل طائشة عند لقائها . جائشة عند استيفائها .
فالقوب توصف بأنها تجيش إذا كانت أعدادا . والنفوس لا تجيش إلا إذا
كانت ثمادا . وما يستوى وجوه الأفران في إقدامها وإحجامها . فمنها المظلم
إذا رابها الروع بإشراقها . ومنها المشرق إذا شابها الروع بإظلامها . وكانت
وجوه المؤمنين في هذا المقام أحظى بلباس الإشراق . وأتم أبدرا . والبدور
لا يكون تمامها في الحاق . فممنهم إلا من عرض نفسه ليوم العرض . ومشى
إلى جنة عرضها السموات والأرض . حتى اتسع المكر . وضاق بأعداء الله
المقره ، وحرقت أوعار الخنادق ، وصار الرجاء لمنطقة السور كالمناطق ، ولم
يستشهد منهم إلا عدد يسير ، لاندخله لأم التعريف ، وكانت أجنحة الملائكة
مطيفة بهم ، فأكرم بالمطاف به وبالمطيف .

« وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التي هي الفوز الأكبر ، وقرنها بإدناء

مضاجعهم من الأرض المقدسة التي هي أرض الحشر، فما يسرُّهم أن يعودوا إلى الدنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهاد. وأيسرُ ذلك أن أرواحهم في حواصل طيرٍ خضريٍّ تعلَّق من ثمار الجنة إلى يوم المعاد.

« ولما رأى الكفار أن صليهم قد صار خواراً، وأن زئيرهم قد انقلبَ خواراً، أذعنت أيديهم باستسلامها، وصانعتُ بالمال عن الرقاب واسترقاقها، وبالبلد عن النفوس وجمامها، فأبى السيفُ أن يترك رقاباً تغدَى بأكلها. ويحلُّ من عشقتها على مداومة وصالها.

« وذكر الخادمُ أن سلفَ هؤلاء انتزعَ هذا البلدَ قسراً، وفتك بمن كان به من المسلمين غدرًا، وذلك نأرٌ ذخره الله لك حتى تحظى في الآخرة بشوابه، وتجمّل في الدنيا بزينة أثوابه، والمسلمُ أخو المسلم يأخذُ بدمه، وإن تطاولتُ أمدادُ السنين على قدمه، فيا بعدَ عهدِ هذا النأر من نأره، ويا طيبَ خبره عند سامعه، وحسن أثره عند ناظره.

« ولما تحقق العزمُ على ذلك أشار ذؤو الرأى بقبول الفدية المبذولة، وألّا يحمل العدو على ما ليست نفسه عليه بمحمولة، فإن النقد^(١) إذا أُخرج صار ذا أنيابٍ وأظفار، واستضرى حتى يلتحق بالسباع الضوار. وهؤلاء إذا رأوا عينَ القتل تجرّدوا للقتال، وركبوا الأهوالَ للنجاة من الأهوال. ومن يُدع إلى خِطةٍ رُشد فليقبلها. ومن أنشط له عقل الأمور فلا يعقلها. وعلى كل حالٍ فإن الفدية للمسلمين أرغب. وأمواًلٌ يتقوى بها على العدو خيرٌ من دماء تذهب.

« هذا وبالبلد من أسارى المسلمين من حياة أحدهم بحياة كل نفس،

(١) النقد بالتحريك جنس من الغنم.

ومن حُرْمَتُهُ عند الله خيرٌ مما طلعت عليه الشمس ، ولا يوازي فتحه عنوةً أن يتعدى إليهم أضرارُهُ ، ولا شك أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطارُهُ .

« فرأى الخادمُ عند ذلك أن الرأيَ مشتركٍ ، وأنَّ له مُعْتَرَكًا كما أن السيفَ له مُعْتَرَكٌ ، وتقرَّرَ تسليمُ البلدِ وُدوعُ أهله قد خضبتْ أحداقها ، وأقرَّحتْ آماقها (١) ولم تطبْ أنفسهم بفرق قلمه حتى كادت الهامُ تفارق أعناقها ، فعلى حَبِّ ذلك الترابِ تقوم قيامتهم ، وتشيلُ نعامتهم ، وإطالماً ابتهلوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار ، وكيف يرجي النصرُ من معبود تُقرُّ شيعته بقتله ؟ أم كيف يدفع عن غيره من كان هو مبتلى بمثله ! . وهذه عقولٌ سَخِيفَةٌ نَفَذَ فيها كيدُ شيطانها ، وأخفى عنها محجةَ الحقِّ على وضوح بيانها .

« ولقد كان يومُ النسلِ عريضَ الفخارِ ، زائد العمر على عُمر أبيه من الليل والنهار ، واشتقَّ من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار ، وزاده نخرًا إلى نخره أنه وافق اليومَ المسافر عن ليلة المعراج النبوي الذي كان في تلك الأرض موعده ، ومن صخرتها مصعده ، وذلك هو الإسراء الذي ركب إليه ظهرُ البراق (٢) واستفتح له أبواب السَّميع الطباقي ؛ ولقي فيه الأنبياء على إختلاف درجاتهم ؛ فظفرَ خيرٌ ملقىً ببحير لاق . وبركة ذلك اليوم سرتْ إلى هذا فأطالت من شهرته ؛ وضمنته نصره الدِّين الحنيف الذي

(١) جمع مَأَق ومؤق طرف العين مما يلي الأنف ، وهو مجرى الدمع من العين ، أو مقدمها أو مؤخرها .

(٢) البراق دابة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، قال صاحب القاموس (٢١٢/٣) وكانت دون البغل وفوق الحمار .

لله عناية بنصرته ؛ وجعلته تاريخاً يؤرخُ بفتححه كما أرخ للنبي صلى الله عليه وسلم
 بدار هجرته ؛ وإذا أنصف واصفه قال إنه لليوم البدرى في اقتراب النسب ؛
 وإنه العجيبة التي لم تجفل عنها الأيام في صفر وإنما أجفلت عنها رجب .
 فما أكثر الفائز فيه والمغبون ؛ والمسرور والمحزون ؛ فمن جد راكم ؛
 ومن جد راجل ؛ ومن عز قادم وذل راحل .

» ولطالما جدَّ الخادم في السعي له وأبصارُ العدا تزلقه ، وألسنتهم تسلفه .
 وما منهم إلا من أكره الشناعة بأن ذلك السعي للاستكثار من البلاد ،
 والله يعلم أنه لم يكن إلا للاستكثار من موارد الجهاد . لاجرم أن صدقَ النبية
 كان له عُقبى الدار ، وتلك الأقوال الكاذبة كان لها عُقبى البوار . ويوم
 هذا الفتح يفتقرُ قبله الى أيام تجلو بياضه عن سوادها ، ويلتجح لها بطون
 المساعي حتى يكون هو نتيجة ميلادها ، ولما ظفرَ به الخادم لم يكن لأهل
 النجامة^(١) ، فيه قول يردُّ كذابه ، ولا يقبل صوابه ، والشهبُ الطالعة على
 ذوات السروج أصدقُ نبأً من الشهبِ الطالعة من ذوات البروج ؛ على
 أنهما وإن اتفقا رجماً فإنهما يختلفان علماً ، فلم هذه يُسأل عنه نغر
 الأعتاق ؛ وعلم هذه يُسأل عنه بطون الأوراق .

» ولما دخل البلد وجد به أمماً لولا أن ضربت عليهم الذلة لدافعوا
 المنايا مكاثرة ؛ وغالبوا السيوف مصابرة ، وهم طوائف مختلفة الألسنة
 والألوان ؛ وإن قيل إنهم أناسي فإن صورهم صورُ الجان ؛ ومنهم طائفة
 استشعرت حبس نفوسها ؛ وخصت الشعر عن أوساط رؤوسها ؛ وتوحشت
 بالرهابية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها .

(١) النجامة عمل المنجم والمتنجم والنجم من ينظر في النجوم بحسب

مواقفها وسيرها .

« ولما رأوا طلعة الإسلام داخلة عليهم أعانوا بالجوار (١) ، واصطرخوا جميعاً كما يصطرخون غداً في النار ؛ وزادهم غيظاً إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة وقد صارَ الناقدُ أذناناً ؛ وكلمة الكفر إيماناً ؛ وأقيمت الجمعة ؛ وهي أولُ جمعة حظيَ الأقبى بمشهدها ؛ وحضرتها الأمة الإسلامية بأخمرها وأسودها ، فمن بكى بدمعة سروره الباردة ، ومن مجيلٍ نظره في نعمة الله الواردة ، ومن شاكر للزمن الذي أبقاه إلى يومه هذا الذي كلُّ الأيام له حاسدة ، من كان مولده تقدم قبله أو بعده فكأنه لم يولد ، وكانت هذه الجمعة في رابع شعبان ، وهو الشهر الذي جملة الله طليعة لشهر الصيام ؛ وليلة نصفه هي الليلة المعروفة بإحياء قيامها إلى حين وفاة شخص الظلام . والتي يُغفرُ فيها لأكثر من شعر غم كلبٍ من ذوى الذنوب والآثام .

« وَجىء باللواء الأسود ، فرُكز من المنبر في أعلاه . ونطق لسانُ حاله .
 قال : من كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مولاةً فأنا مولاة . ولم يكن لسان الخطيبِ بأفصح بياناً من لسانه . غير أن هذا يزهي ببلاغ موعظته وهذا يزهي بعزة سلطانه . ولما ذُكرت سماتُ الخلافةِ المعظمة أتبعها الناسُ بالدعاء الذي ملأ المسجد بعجيجه . وسبق الكرامُ الكاتبون بزَميله إلى السماء ووشيجه . وكان اليومُ فصلاً . والموقفُ حفلاً . وذلك الدعاء فوضاً لا نقلاً .

« ولا ينتهى الوصفُ إلا ماشوهدَ بالبلدِ من الآثارِ العجيبة التي تستلبُ العجّلان . وتستحلبُ الأذهان . وتستنطقُ الألسنة بالتسبيحِ لله الذي فطر الإنسان ومن جملة ذلك ما تُبوهى في حُسنه من البيع والصوامع . ذواتِ الأبنية الرّوائح . التي رُوِّصتْ بالزخارف ترويض الأزهار . ورُفعت معاقدها حتى

(١) الجؤار رفع الصوت بالدعاء ، والتضرع ، والاستغاثة .

كادت النجوم تُوحى إليها بالأسرار ، وما منها إلا ما يقال إنه إرم ذات العباد .
التي لم يُخلق مثلها في البلاد . ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تحيروا في توسيعها
بضروب الاختيار . وجعلوها أعاجيب للأسماع والأبصار . وقبل فيها هذه
روضات جنان لا أفنية ديار .

هذا إلى غيره مما وُجد من معبودات القوم الموصوفة بأنها آلهة الصناب .
اللاتى من ذوات النصب . وأكثر ذلك وُجد في المسجد موضوعاً . وعلى قببته
مرفوعاً . فأنزلت على قرونها . واستنّ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في
طعن عيونها واستوطن المؤمن مكان الكفور . وبدلت الظلمات بالنور .
وقالت الصخرة : الآن جُمع بينى وبين الحجر الأسود لخطب الإسلام . والجمع
بين الأختين في هذا الأمر من الحلال لا من الحرام : وقال الأقفى : سبحان
الذى أسرى إلى بجنده . كما أسرى بعبده . وأعادلى عهد الفتح الأول بهذا
الفتح الذى أتى من بعده . وعود الناهب أرحى لدوام أحقابه . وخلود
الإنسان لا يكون إلا فى مآبه . وهذا هو الخطب الذى جد للإسلام عهد
ابن خطابه (١) — رضى الله عنه — إلا أن مُستنقذ الطريدة أولى بها من
صاحبها . واثن غصبها يد غالبة فقد جاء الله باليد التى غصبتها من غاصبها .
« هذا ولم يستنقذها الخادم إلا بانضاء سلاح أنفته الواقعة الأولى التى
استأصلت حماة البلاد . واستباححت أغياها بقتل الأسود . فكانت لهذا الفتح
عنواناً . ولتقرير أصوله بنياناً . ولم ينج بها من طواغيت الكفر إلا طاغية
ترايس . فإن السيوف أسارته وبفؤاده فلق من أوجالها . وفى عينيه دهمس
من أهوالها . وقد قرن الله هذا الفتح ببشرى موته . وكفى المسلمين مئونة
الاهتمام لقوته . ففرّ من الواقعة . ولم ينج بذلك الفرار . واعتصم بذات

(١) يشير إلى فتوح المسلمين فى خلافة عمر الخطاب رضى الله عنه .

جداره . فقتله الخوفُ من وراء الجدار . ولا فرق بين قتيل خوف السفار وبين قتيل السفار . ولقد فرّ من المكروه إلى مثله . ولكنه انتقل من ميتة عزّه إلى ميتة ذلّه .

« وكذلك آثارُ الخادم في أعداء الله . فهم هلكي بسيفه في مواقف الطراد . فإن فرّوا فبخوفه على جنوب الوساد . وبعد هذه فهل يمترون في أن دماءهم قد استجابت لمراده وأنّ سوءَ لديه من أمكنَ منها في دنوه ومن امتنع منها في بعاذه . وكلُّ ذلك مستمدٌّ من الاستنصار بعناية الديوان العزيز التي من شأنها أن تجعل الرؤيا حقًا ، وأحاديث الآمال صدقًا ، وتقرّبُ بعيدات الأمور حتى تجعل الشرق غربًا والغرب شرقًا ، فهذا الفتح منسوبٌ إليها ، وإن كان الخادمُ هو الساعي في تسهيله ، والمجاهد بنفسه وماله في سبيله ، فعلى عطف دولتها ترقمُ أعلامه ، وفي أيامها تورّخُ أيامه .

« ولو أبيع للقلم الخيلاء في مقام المقال ، كما أبيع لصاحبه في مقام القتال ، لاختالت مشيئته في هذا الكتاب ؛ ولقال ، وأسهب ، فليس إلاّ كشارُ هاهنا من الإسهاب ، لكنّه منعه من ذلك أن يكون ممن فخر بعمله فأبطله ، وأرسل خطابه إلى الديوان العزيز ؛ فلم يقبضه بالأدب حين أرسله ؛ وقد ارتاد من يبلغ عنه مشاريع هذه الوقائع التي اختصرها ، ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ؛ ويكون مكانه من النباهة كريمًا كما كانها ؛ وهي عرائسُ المساعي ؛ فأحسنُ الناس بيانًا مؤهّلًا لإبداع حسناتها ؛ والسائر بها فلانٌ وهو راوي أخبار نصرها التي صجبتها في تجميع الرجال ، وعوالى إسنادها مأخوذة من طرق العوال ، والأيام والليالي رُواة ؛ فما الظنُّ برواية الأيام والليالي ؟ .

وستتلو هذه الأخبار الصادقة بمشيئة الله أخبارًا مثلها صادقة ؛ وما

دامت السيوف ناطقة في يد الخادم فالألسنة عنها ناطقة ، وللآراء العالية مزيد العلو إن شاء الله تعالى .

وأما التقليد ، فإنه تقليد انشأته لمنصب الحسينية ، وهو :

« أما بعد ، فقد جعل الله جزاء التمكين في أرضه أن يقام بمحدود فرضه ، ونحن نسأله التوفيق لهذا الأمر الذي ثقل حمله ؛ وعُدِمَ أهله ، فقد جرى بنا في زمن أصبح الناس فيه سُدى ، وعاد الإسلام فيه غريباً كما بدا . وهو الزمن الذي كثرت فيه أشراف^(١) اليوم الأخير ؛ وغرِبَت فيه الأمة حتى لم يبق إلا حثالة^(٢) كحِثَالَةِ التَّمَرِ والشَّعِيرِ .

« ومن أهم ما قرّر بناه ؛ ونقدّم عناه ؛ ونصلح به الزمن وأبناءه ، أن نمضي أحكام الشريعة المطهرة على ما قرّرت في تعريف ما عرفته ، وتكبير ما نكرته ومدار ذلك على النظر في أمر الحسبة التي تنزل منه بمنزلة السلك من العتد ، والكف من الزند . وقد أخلصنا النية في ارتياد من يقوم فيها ويكفيها ؛ ويصطفى لها ولا يصطفىها ؛ وهو أنت أيها الشيخ الأجلّ « فلان » ، أحسن الله لك الأثر ؛ وصدق فيك النظر ، فتوّ لها غير موكول إليها ؛ بل معاناً عليها .

« واعلم أن الناس قد أماتوا سنناً وأحيوا بدعا ، وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيماً ؛ وأظلم منهم من أقرّم على أمرهم ؛ ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ؛ فإن السكوت عن البدعة رضا بمكانها ؛ وترك النهي عنها

(١) الاشراف العلامات .

(٢) الحثالة ما لا خير فيه ، والرديء من كل شيء .

كالأمر بإتيانها . ولم يأتِ بنا اللهُ تعالى إلا ليُعيدَ الدينَ قائمًا على أصوله
صادعًا بحكم الله فيه وحُكم رسوله .

« ونحنُ نأمرُك أن تتصنَّحَ أحوالَ الناسِ في أمرِ دينهم الذي هو
عِصمةُ مالمُ . وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم . فابدأْ أولاً
بالنظر في العقائد ، واهد فيها إلى سبيل الفرقةِ الناجيةِ (١) الذي هو سبيلُ
واحدٍ ، وتلك الفرقةُ هي السلفُ الصالحُ الذين لزموا مواطنَ الحقِّ فأقاموا ،
وقالوا : ربُّنا اللهُ ثم استقاموا . ومن عداهم شعبٌ دانوا أديانًا . وعبدوا من
الأهواءِ أو ثنائًا ، واتبعوا مالمُ ينزلُ به اللهُ سلطانًا (ولو نشأ لأربنا كهم فمعرفتهم
بسيماهم وتعرفتهم في لحنِ القولِ واللهُ يعلمُ أعمالكم) (٢) فمن انتهى من
هؤلاء إلى فلسفةٍ فاقتهُ ولا تسمع له قولًا ، ولا تقبل منه صراحةً ولا عدلًا ،
وليكن قتلُه على رموس الأَشهاد ، ما بين حاضرٍ وباد ، فماتكدت الشرائعُ
بمثل مقالته ، ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته والمنتقمي إليها يعرفُ بِنكره ،
ويُستدلُّ عليه بظلمةِ كفره ، وتلك ظلمةٌ تدركُ بالقلوب لا بالأبصار ، وتظهرُ
زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار ، وما تجده من كتبها التي هي
سمومٌ ناقعةٌ ، لا علومٌ ناعمةٌ ؛ وأفاعٍ مُلغفةٌ ، لا أقوالٌ مُؤلَّفةٌ ، فاستأصلِ شأفتها (٣)

(١) يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليأتين
على أمتي ما أتى على بني إسرائيل ، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين
وسبعين ملة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، تزيد عليهم
ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يا رسول الله من الملة
الواحدة ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي . وفي هذا الحديث روايات ،
والملة الواحدة هي الفرقة الناجية .

(٢) سورة محمد : الآية ٣٠ .

(٣) الشأفة الأصل ، واستأصل الله شأفته أذبه ، وأزاه من أصله .

بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ، ولا يقنئك ذلك حتى
تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكان أسرارها . فن وجدت في بيته
فليؤخذ جهاراً ، ولئيمكّل به إشهاراً ، وإيقل هذا جزاء من استكبر استكباراً ،
ولم يرجُ الله وقاراً .

« وأما من تحدّث في القدر ، وقال فيه بمخالفة نصّ الخبر ، فإيس في شيء
من ربقة الإسلام ، وإن تنسك بمداومة الصلاة والصيام ، قال النبي صلى الله
عليه وسلم : « القدرية مجوس هذه الأمة » . والمراد بذلك أنهم ماثلوا بين الله
والعبد ، والضيء والغلّمة . فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تُحزى ، فليقابل
جمعها بالتكسير ، واسمها بالتصغير ، ولتنقل إلى ثقل الحدود عن خفة التعزيز
ومن كان منها ذا مكانة ناهية فليهبط ، أو شهادة عادلة فليسقط :

« وكذلك يجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم ، أو قال بحدوث
القرآن القديم ، ومن ملحدى القرآن فرقة فرقت بين المعنى والخط ، وفرقة
قالت فيه بالشكل والنقط ، وكلّ هؤلاء قومٌ خبّدت سرائرهم ، وعميت
بصائرهم ، وعظمت عند الله جرائمهم ، تُغذّم بالتوبة التي تطهر أهلها ، وتجب
ماقبلها ، وليست التوبة عبارة عن ذكرى اللسان ، والقلب لاه في قبضة
النسيان ، بل هي عبارة عن الندم على مافات ، واستئناف الإخلاص فيما هو
آت ، وقد جعل الله التائب من أحبّابه ، ووصّفه في مواضع كثيرة من كتابه ،
ومن فضله أن الملائكة يستغفرون لذنبه ، ويشفعون له إلى ربه ، فإن أبت هذه
الطوائف إلا أصراراً ، ولم يزدن دعواؤك إلا فراراً ، فاعلم أن الله قد طبع على
قلوبهم طبعاً ، وألحقهم بالذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكره وكانوا
لا يستطيعون سماعاً ، فغذّم عند ذلك بحدّ الجلد ، فإن لم ينجع فبحدّ ذوات

الحدِّ ، فإن هذه أمراضٌ عَمَى لا تُرجى لها الإفاقة ، ولا تُبرىء منها إلا
الدّماء المراقبة .

« وأما الفرقةُ المدعوّةُ بالرافضة التي هي لما رَفَعَهُ اللهُ خافضةً ، فإنهم أناسٌ
ليسَ لهم من الدين إلا اسمه ، ولا من الإسلام إلا رسمه ، وإذا نَقَّبَ عن مذهبهم
وُجِدَ على العصبية موضوعاً ، ولغير ما شرعه اللهُ وَرَسُولُهُ مشروعاً ، ذُبُوا عن
علَى — رضى اللهُ عنه — فأسلموه ، وأخروه إذ قدّموه ، وهؤلاء وضعوا
أحاديث فنتلوها ، وأوّلوها على ما أوّلوها ، فتبع الآخر منهم الأول على غمّة ،
وقالوا : إنا وَجَدْنَا آباءنا على أُمَّة .

« وههنا هيرٌ ما ذكرناه من عقائد محلولة ، ومذاهبٍ غير منقولة ولا
مقبولة ، وبالهدى يتبين طريق الضلال ، وبالصحة يظهر أثر الاعتلال ، ولا عقيدة
إلا عقيدة السنة والكتاب ، ولا دين إلا دين العجايز والماء والحراب .

« وإذا فرغنا من الوصية بالأصول التي هي للدين مَلَاك ، فلنُتَبِعَها بالفرع
التي هي له مِسَاك :

« وأوّلُ ذلك الصلاة ، وهي في مَبَانِي الإسلام الخمس أو كدُخْمِسه ، وآخرُ
ما وصّى به رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلم عند مفارقة نفسه . ومن فضلها أنها
العمل الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا عذر في تركها لأحد من النَّاسِ ،
فيقال : إنه يُعَذَّرُ ، فاجمع الناس إليها ، واحمِلْهم عليها ، ومُرِّهم بالاجتماع
لها في المساجد ، ونادِ فيهم بفضيلة صلاة الجماعة على صلاة الواحد ، وراقبهم
هند أوقات الأذان في الأسواق التي هي معركة الشيطان ، فمن شُغِلَ بثمير
مكسبه ، ولها عنها بالإقبال على هوه ولعبه ، نفذهُ بالآلة العمرية التي تضع من
قدره ، وتذيقه وبال أمره ، ولا يمنعك عن ذى هيبة هيئته ، ولا عن ذى شبيبةٍ

شيبته ، فإنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه
وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ،

» ومن مهمات الصلاة يوم الجمعة الذي هو في الأيام بمنزلة الأعياد في
الأعوام ، وفيه الساعة المخصوصة بالدعاء المجاب ، التي ما صادفها عبدٌ إلا
ظفرَ بالطلّاب ، فسرّ الناسَ بابتدائه في البواكر ، والنور فيه بقربان
البدنات (١) الأخبار ، فإنه اليوم الذي لم تطلع الشمس على مثله ، وبه فضل هذا
الدين على أهل الكتاب من قبله — فهو واسطة عقد الأيام السبعة ، ولاشتماله
على مجموع فضلها سمى يوم الجمعة ، وفي الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة
كالتراويح في شهر رمضان ، والرياض في أول جمعة من رجب ، وليلة
النصف من شعبان ، فلتعلم المساجد في هذه المواسم التي تكثر فيها شهادات
الذقلام في كتب الطاعات ، ومحو الآثام ، ومن حضرها وليس همّه إلا أن يمرّ
بها طروقاً ويواعد إليها أخذانه رفناً أو فسوقاً ، فهؤلاء هم الخلف الذين أضعوا
الصلاة واتبعوا الشهوات . فابعث عليهم قوماً يسلبونهم سلباً ؛ ويوجعونهم
ضرباً ، ويمثلون عيونهم بهابة وقلوبهم رعباً ، فبيوت الله مطهرة من هذه
الأدناس ؛ ولم تعمر لشياطين الإنس ، وإنما عمرت للناس ، فلا يحضرها إلا راعم
وساجد أو ذاكر وحامد .

وهاهنا عظيمة عضيهه (٢) ؛ وفاحشة ينقعه لها من ليست نفسه بفقية ؛
وهي الربا ؛ فإنه قد كثرت أكله ؛ وتظاهر به فاعله ؛ وقال فساق الفقهاء
بتأويله ؛ وتوصلوا إلى شبهة تمليحه ، ولا يتسارع إلى ذلك إلا من أعى الله
قلبه ؛ ومحق كسبه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود ؛

(١) البدنات الاضاحي .

(٢) العضيهه الإفلك والبهتان .

حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فُجِمَلُوها؛ وَبَاعُوها وَأَكَلُوا أُمَّهَاتِها . وَنَحْنُ
 نَأْمُرُكَ أَنْ تَشْمُرَ فِي هَذَا الْأَمْرِ تَشْمِيرًا يَرْهَبُهُ النَّاسُ ، وَلَا تَدْعُ رَبًّا حَتَّى تَضَعَهُ
 وَأَوَّلَ رَبًّا تَضَعُهُ رَبًّا الْعَبَّاسِ (١) ؛ فَعَادِيْبُ الْكَبِيرِ قَاضٍ بِتَهْذِيبِ الصَّغِيرِ .
 وَالْأَسُوءَةُ بِالرَّفِيعِ خِلَافُ الْأَسُوءَةِ بِالنَّظِيرِ ؛ وَجَلُّ مُعَامَلَةِ الرَّبِّ تَجْرَى فِي سَوَاقِ
 الصَّوْفِ الَّذِي تَخْتَلَفُ بِهِ النُّقُودُ ؛ وَتَفْتَرِضُ فِيهِ الْعُقُودُ ؛ وَيَخَاضُ فِي نَارِ
 نَيْرِهِ إِلَى النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ، وَبِهِ قَوْمٌ أَوْسَعُوا عَيْونَ الْمَوَازِينِ غَمَزًا ،
 وَأَلْسِنَتِها هَمَزًا وَلَمَزًا ؛ وَأَصْبَحَ الدَّرْهَمُ وَالدِّينَارُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَمَيْنِ :
 السَّلَاتِ وَالْعَزْمِيِّ ؛ وَلَا يُرَى مِنْهُمُ إِلَّا مَنْ الْحَرَصُ مُفَاضٌ عَلَى ثِيَابِهِ . وَقَدْ
 جَمَعَ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَرَامِ وَالْمُهْجُومِ عَلَى ارْتِكَابِهِ . فَعَدَّلَ مِيلَ هَؤُلَاءِ تَعْدِيلًا
 وَتَحَوَّلَ عَلَى مَرُورِ الْأَيَّامِ تَحْوِيلًا ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ وُلِّيتَ مِنَ الْكَيْلِ
 وَالْمِيزَانِ أَمْرَيْنِ هَلَكْتَ فِيهِمَا الْأُمُّ السَّائِقَةُ . فَبِأَثَرِهَا بِيَدِكَ مَبِاشِرَةً
 الْإِخْتِيَارِ وَالْإِخْتِيَارِ . وَلَا تَقِلْ أَهْلُهَا عَثْرَةً فَإِنَّ الْأَفْئَلَةَ لَا تَنْتَهِي عَنِ
 الْعِثَارِ . وَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنْ سَوَادِ النَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَزِكْ غُرْسُهُ . وَلَا فَهَيْتُ
 نَفْسُهُ وَإِسْهُهُ إِلَّا فَرْجَهُ أَوْ ضِرْسَةَ . نَخِذْهُمْ بِآلَةِ التَّعْزِيرِ الَّتِي هِيَ نَزَّاعَةٌ
 لِلشَّوْيِ ، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ، وَمَنْ آثَارُهَا أَنَّهُ تَرَجُّ أَرْضَ الرَّأْسِ
 رَجًّا . وَتَفَرِّجُ سَمَاءَهُ فَرْجًا . وَيَسْلُكُ بِصَاحِبِهِ هَدْيًا وَنَهْجًا . وَقَدْ كَثُرَ فِي
 الْأَسْوَاقِ الْخِلَابَةُ وَالنَّجْشُ (٢) . وَتَلَقَّى الرَّثْكَانَ . وَبِيعَ الْحَاضِرِ لِلْبَادِي

(١) من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع
 قوله : « وإن ربا الجاهلية موضوع - أي ساقط لاحتساب عليه -
 وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب » .

(٢) النجش أن تواطىء رجلا إذا أراد بيعا أن نمدهه ، أو أن
 يزيد الإنسان أن يبيع ببيعة فتساومه فيها بثمن كثير . لينظر إليك ناظر
 فيقع فيها ، أو أن ينفر الناس عن الشيء إلى غيره .

وتنفيق السّاعة باليمين الكذّابة وكلّ هذه من المحظورات التي وردت الأخبارُ
 النبويّةُ ببيانها ، والنهي عن تورّد مكانها . فنّ قارف شيئاً منها جاهلاً بتحريمه
 فقومه بالتعليم ، واهده إلى الصّراط المستقيم ، ومن عرف ما اقترف فأذقه حرّاً
 التّأديب ، قبل أن يُذاق غداً حرّاً التعذيب ، وأعلمه أنّ الأرزاق بيد الله تعالى
 لا ينقصها عجزُ التّاعد ، ولا يزيدُها حرصُ الكادح ، وقد ينقلبُ الجاهد فيها
 بصفقة الخاسر ، والوادمُ بصفقة الراجح ، ومن سُنّه الله تعالى أن يُنعمَ الحلال وإن
 كان يسيراً ، ويمحقَ الحرامَ وإن كان كثيراً .

« ومن الناس من آتاه الله مالا فبثّ في الأسواق جنودَ ذهبه وورقه ،
 واحتكر ما حمله الميزان من ذوات رطله ، ووسّعه الكيل من ذوات وسّته ،
 فأصبح فقراً بلده في ضيقٍ من عدم الرّفق ومدد الرّزق ، فليمنع هؤلاء أن
 يجمّلوا رزق الله محتكراً ، ومعاشَ عباده محتجراً ، وليؤمروا بأن يتراحوا ،
 ولا يتزاحوا ، وأن يأخذ الغني منهم بقدر الكفاف ، ويترك للفقير ما يعينه على
 الإسعاف ، قال عمر بن الخطّاب — رضی الله عنه — : « لاحكرة في سوقنا ،
 لا يعمدُ رجالٌ بأيديهم فضولٌ من أذهب إلى رزقٍ من أرزاقِ الله تعالى ينزلُ
 بساحتنا ، فيحتكرونها علينا ؛ ولكن أيّما جالبٍ جلب على عمود كبده فذلك
 ضيفُ عمر ، فليبيع كيف شاء الله ، وليمسك كيف شاء الله » .

« وأما التسعيرُ فإنه وإن آثره القاطنون ، وحكم به القاسطون ، وقيل :
 إن في ذلك للتفقير تيسيرَ العسير ؛ فليس لأحدٍ أن يكون يد الله في حفظ
 ما رَفَع ، وبذلِ ما منع ، فتف أنت حيث أوقفك حكم الحق ، ودع ما يعنُّ لك
 من مصلحة الخلق ، ولا تكن ممن اتبع الرأى والنظر ، وترك الآية والخبر ،

فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله ، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ؛ ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) .

« وتما تأمرك به أن تمحو الصغيرة كما تمحو الكبيرة ، فإن لم الذنوب كالقطر يصير مجتمعه سيلاً متدفقاً ؛ وكان أوله قطراً متفرقاً .

« وقد استمرّ في الناس عوائد تهاونوا باستمرارها ، ولم ينظروا إلى ثقل أوزارها ، فن ذلك إبس الذهب والحري الذي لم يلبسه إلا من عدم عند الله خلّاقاً ؛ وإن قيل إنه شعارٌ للفقى فلم يزد صاحبه من الحسنات إلا إملاقاً ، وللبس عبادة مع التّموى أحسن في العيون شعاراً ، وأعظم في الصدور وقاراً .

« وبلتحق بهذه المعصية صوغ الذهب والفضة آنيةً يمنع منها حق الصدقات ، وهو حقٌ يقاتل مانعهُ ، ويُعصى في استعمالها أمر الله وهو حدٌّ من حدوده يعاقب عاصيه ، ويثاب طائعه .

« وكذلك يجري الحكم في الصور المرقومة في البيوت والثياب ، وعلى الستور المعلقة على الأبواب ، وإخراجها في ضروب أشكال الحيوان ، للاعبه الصّبيان ، وذلك مماثلةً لخلق الله في التقدير ، ولهذا يُؤمرُ صانعه بنفخ الروح فيما صورّه من التصوير .

« وما يُفاظ نكيره إطالة الذبول للاجترار ، والمباهاة لما فيها من عنجهية التّية والاستكبار ، ولن يخرق صاحبها الأرض بإعجابه ، ولا يبلغ طول

(١) سورة النساء : الآية ٨٢ .

الجبال بإطالة ثيابه^(١) . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من جرّ ثوبه خيلاً » .

« ومما هو أشد نكيراً أمرُ الحمامات ، فإن الناس قد أصرُّوا بها على الاجهار وترك الاستتار ، والتهاون بأمر العورات التي لصاحبها اللعنة وله سوء الدار .

« والنساء في هذا المقام أشدّ تهالكاً من الرجال ، وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن في فاحشة الابتذال ، ولهنّ محدثاتٌ من المنكر أحدثها كثرة الإفراء والإتراف ، وأهمل إنكارها حتى سرّت في الأوساط والأطراف ، وقد أحدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان في حساب . وتلك من لباس الشهرة الذي لا يستترُّ منه إسبالُ مرطٍ^(٢) ولا إذناء جلبابٍ .

« ومن جملتها أنهنّ يفتصّين عصائب كأمثال الأسنة ، ويخرجن من جهارة أشكالها في الصور الملعنة ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فيما ورد عنه من الأخبار ، وجعل صاحبها ممدوداً من زمرة أصحاب النار .

« ومما حميد فيه عن السنن قراءة القرآن بضروب الألحان ، وتلك قراءةٌ تخرج حروفها من غير خرج ، وتبدوا معوجةً وهو قرآنٌ عربيٌّ غير ذى عوج ، وقد أمر الله بترتيبه ، وإبراده على هيئة تنزيهه ، فمن قرأه بالترجيع والترديد ، وزلزل حروفه بالتمطيط والتديد ، فقد ألحقه بدرجات الأغاني ، وذهب بما فيه من طلاوة الألفاظ والمعاني .

(١) مأخوذ من قول الله تعالى : ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً « سورة الإسراء : الآية ٣٧ .

(٢) المرط : بالكسر كساء من صوف أو خز وجمعه مروط .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإيأكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتائب وسيجيءُ بعمى قومٌ يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوزُ حناجرهم مفتونةٌ قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » .

« ويلتحقُ بذلك اقتناء الثينياتِ المغنّياتِ اللاتي يلعبنَ بالعتول لبعنَ بالأسماع ويُسغنينَ الشيطانَ بغنائهنَّ عن بثِّ الجنود والأشباع ، وفتياً النفس الأمارَةَ في ذلك أن تقول : هؤلاء إملاءٌ يحلُّ نعمةُ سماعهنَّ كما يحلُّ ما تحت قناعهنَّ ، وقد علم أن لكلِّ شيءٍ تماماً ، وقد ينقلبُ الحلالُ فيصيرُ حراماً . ومن حامٍ حول الحمى يوشكُ أن يقع فيه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تبيعوا الثينياتِ المغنّياتِ ، ولا تشتروهنَّ ، ولا تملوهنَّ ، ولا خير في تجارةٍ فيهنَّ ، وثمنهنَّ حرامٌ » . وفي مثل هذا أنزلتُ : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) (١) .

وكذلك يجرى الحكم في المواشيطة اللاتي يجمعان الحسن موفوراً ، والقبح مستوراً ، ويخدعن نظر الناظر حتى يجعلنه مسحوراً ، فهنَّ يبدن صدقاً من كذبٍ وجداً من لعب ، وفعلهنَّ هذا من الفسح الذي نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال ، إنه ليس منه (٢) ، وقد لمن الواصلة والمستوصلة ، والواشمة والمستوشمة ، والواشرة والمستوشرة (٣) .

(١) سورة لقمان : الآية ٦

(٢) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم « من غشنا فليس منا »

أو من غش أمتي فليس مني » .

(٣) الواصلة التي تصل شعرها بشعر غيرها ، والواشرة التي

تحدد أسنانها ، والواشمة التي تشم يدها أو غير ذلك من أعضائها ، والمستفعل من كل هذه الأشياء من يطلبها .

« ومن غش المنكرات أيضاً خضابُ الشَّيبِ الذي يخالفُ فيه الظاهر الباطن ، ويتخلَّق صاحبه بخلقِ الكاذبِ الخائن ؛ وهَبَ أنه أخفى لون شعره وهل يخفى أخلاقِ لباسِه . وإذا استسنَّ ملامئُ المرءِ . فلا يغنيه سواد عارضه ، ولا سوادُ رأسه ، وقد جعل اللهُ الشَّيبَ من نعمه المبشِّرة بطول الأعمار ، وسمَّاه نوراً للوَّنه وهدايته ولا تستوى الظلمات والأنوار ، قال النبي صلى اللهُ عليه وسلم : [« قَوْمٌ يَخْضِبُونَ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الْحَمَامِ ، لَا يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » . والأولى بصاحب (١)] الشَّيبُ أن يشْتَغَلَ بتغيير صِيفَةِ الْكِتَابِ (٢) وَيَذُوبَ فِي مَحْوِ سَوَادِ الْعِقَابِ بِدِيَاضِ الثَّوَابِ ، فَنَفِي بَقِيَّةِ عَمْرِهِ مَنَدُوحَةً لِادْخَارِ مَا يَحْمَدُ ذُخْرُهُ ، وَتَبْدِيلِ مَا تَقَدَّمَ سَطْرُهُ .

« ومما خولفت فيه السُّنَّةُ عقدُ مجالسِ التعازي لحضور الناس ، وإظهار شعارِ الأَسْوَدِ والأَزْرَقِ مِنَ اللَّبَاسِ ، وَالتَّشْبِيهِ (٣) بِالْجَاهِلِيَّةِ فِي النَّوْحِ وَالنَّدْبِ ، وَمَجَاوِزَةَ دَمْعِ الْعَيْنِ وَخَشْوَعِ الْقَلْبِ إِلَى الْإِعْلَانِ بِإِسْخَاطِ الرَّبِّ ، وَقَدُّ تَوَاطَأِ النِّسَاءِ عَلَى ضَرْبِ الْخِيَامِ عَلَى الْقُبُورِ ، وَجَعْلِ الْأَعْيَادِ مَوَاسِمَ لِاجْتِمَاعِ الزَّائِرِ وَالْمَزُورِ ، فَصَارَتِ الْمَآئِمُ بَيْنَهُمْ وَلَائِمٌ وَالْمُنَادِبُ عِنْدَهُمْ مَادِبٌ ، وَرَبِّمَا نَشَأَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَفْضُ طَرْفًا ، وَيَجْدَعُ أَنْفًا ، وَيُوجِبُ حَدًّا وَقَذْفًا ، وَهَكَذَا أَهْمَلُ أَمْرَ الْأِسْلَامِ فِي تَشْبِيهِ أَهْلِ الذَّمِّ بِأَهْلِهِ ، وَمَا كَانُوا يُشَابَهُوهُ فِي زِيَّ غَرَّتِهِ وَمُخَالَفَوهُ

(١) سقط هذا الحديث من أصول الكتاب وجميع طبعاته . وقد أكملنا الحديث الشريف ، ونقلنا الكلمتين الواردتين بعده من رسائل ابن الأثير (١٤٧) التي حررها وحققها الأستاذ أنيس المقدسي - بيروت ١٩٥٩ م .
(٢) أي محو ما كتب عليه من ذنوب بالتوبة والعمل الصالح .
(٣) في الأصل « التشبيه » وهو تحريف ، والصواب عن رسائل ابن الأثير .

في سلوك سُبُهله ، ولا بدَّ من الفيار بأن يشدَّ النصرانيُّ عقدةَ زناره ، وَيُصَفِّرُ اليهودى أعلى إزاره .

« ولِيَمْنَعُوا مِنَ التَّظَاهِرِ ^(١) بِطَفْيَانِ النِّعْمَةِ وَعُلُوِّ الْهَمَّةِ ، وَيُؤْمَرُوا بِالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا حَكَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَأَخَذُوا فِيهِ بِالِاخْتِفَاءِ وَالْاِكْتِمَامِ ، نَحْمُورِهِمْ تُسْتَرُّ ، وَشَعَائِرُ دِينِهِمْ لَا تَظْهَرُ ، وَمَوْتَاهُمْ تَقْبَرُ بِالْخَمُولِ قَبْلَ أَنْ تَقْبَرُ ، فَلَا يُوْقَدُ خَلْفَ مِيْتِهِمْ مَصْبَاحٌ ، وَلَا يَتَّبِعَ بِنْدَبٍ وَلَا صِيَّاحٌ .

« ومما عرف الناس مُنْكَرَهُ إِثَارَةَ التَّحْرِيشِ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَهِيَ ذَوَاتُ أَكْبَادٍ رَطْبَةٍ ، وَأَخْلَاقٍ صَعْبَةٍ ، وَمَا مِنْهَا إِلَّا مَا يَحِلُّ أَكْلُهُ ، وَلَا يَحِلُّ قَتْلُهُ ، كَالْكَبْشِ ، وَالْحِجَلَةِ ، وَالْدِيكِ ، وَالشَّمَانِيِّ ، وَمَا أَشْبَهَهَا ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ اقْتِنَائِهَا ، وَالْمَوَاطِبَةِ عَلَى إِضْرَامِ شَحْنَائِهَا ، وَرَبَّمَا نَشَأَ مِنْ ذَلِكَ فَتْنَةٌ تَقُولُ إِلَى ضِرَابٍ ، وَشَقِّ ثِيَابٍ ، وَإِحْدَاثِ شَجَاجٍ ، وَإِثَارَةِ عَجَاجٍ ، وَتَحْرُشٍ إِلَى أَحْزَابٍ كَثِيرَةٍ وَأَفْوَاجٍ .

« وَيَتَّصِلُ بِهَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ الْمَذْكُورَةِ أَشْيَاءٌ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَاهَا فِي التَّقْدِيمِ ، وَتَنْزَلُ مِنْزِلَتَهَا فِي التَّحْرِيمِ ، فَحَاكَمَ فِيهَا بِحَكْمِكَ ، وَامْضُ فِي شِبْهَاتِهَا بِدَلِيلِ عِلْمِكَ ، وَنَبِّ عِنَّا فِي التَّنْذِيرِ وَالتَّحْذِيرِ وَالتَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ ، حَتَّى يَتَّقُوا الْأُودَ ، وَيَتَّضِحَ الرُّشْدَ ، وَيَمْكُثَ فِي الْأَرْضِ مَا يَنْفَعُ وَيُذْهِبُ الزَّبَدَ ، وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ الَّذِي يَسْمَعُ وَيَرَى ، وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى .

« وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ عِبَادَةٌ يَتَعَلَّقُ نَفْعُ صَاحِبِهَا إِلَى غَيْرِهِ ، وَتَسْتَضْيِفُ خَيْرَ الْأُمُورِ بِهَا إِلَى خَيْرِهِ ، وَهِيَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ الَّذِي تَقَانُلُ فِيهِ عَوَاصِي النُّفُوسِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ « الظَّاهِر » وَهُوَ تَحْرِيفٌ :

وتضربُ فيه رُءوس الشَّهوات التي هي أَمْنَع من معاقِد الرُّءوس ، فقتيله يحيا ،
بقنله ، وجريحه يؤسَى بمجراحة نصله . وبمثل هذا الجهاد تُسْتَنْزَل أمداد النِّعم
مضغمة ، كما تستنزل أمداد النصر مردفة ، فأقدم عليه ذا عزمٍ باتر ، وطرفٍ
ساهر ، وقدمٍ ثابتٍ صابر ، حتى تظلَّ لمعاقل الشيطان فأنحماً ، وتكونَ فيمن
دعا إلى الله وعمل صالحاً .

« واعلم أنك في صديحة كلِّ يومٍ يبتدرُّك الملك والشيطان ، وكلّ منهما
يقول : يا أيها الإنسان ، فإن أجبت نداء الملك كتبك في زمرةٍ من مهَّد لجنبه ،
وخاف مقام ربه ، وعُرِّجَ بعملك ^(١) إلى الله طيباً نشره ، مضاعفاً أجره ، وإن
أجبت نداء الشيطان كتبك في زمرةٍ من أغواه ، وقرنك بمن أغفل الله قلبه
واتَّع هواه ، ثم نزل به إلى الأرض خبيثاً مخبئاً ، وأقبل به على إخوانه من
الشياطين محدثاً .

« وهذا آخر ماعهدناه إليك من العهد الذي طوّقت اليوم بكتابه ،
وستناقش غداً على حسابه ، وكما جعلناه لك في الدنيا ذكراً فاجعله لك في الآخرة
ذخراً ، إن شاء الله تعالى ، والسلام » .

* * *

وهذا الذي ذكرته في هذين من الكتاب والتقليد يتضمَّن إطناباً ، مستوفى
الأقسام ، ولولا خوف الإطالة التي لا حاجة إليها لأوردتُ قصائد من الشعر
أيضاً ، حتى لا يخلو الموضوع من ضربٍ أمثلةٍ من المنظوم والمشور ، ولكن
في الذي ذكرته كفاية لمن يحمله على أشباهه ونظائره .

(١) في الأصل « وعرج بك » ورواية رسائل ابن الأثير (١٤٨)

أنسب ، ولذلك آثرناها .

فإن قيل : إن الأطناب في الكلام قد وضعتوه إسمًا على غير مسمى ،
فإن الكلام لا يخلو من حالين : إما أن لا يزيد لفظه على معناه ، وهو (الإيجاز)
أو يزيد لفظه على معناه ، وهو (التطويل) ، وليس هاهنا قسم ثالث ، فما
الإطناب إذا . . ؟

قلت في الجواب : إعلم أن (الإيجاز) هو ضد (التطويل) ، كما أن
السواد ضد البياض ، غير أن بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضداداً ،
فالإطناب لا إيجاز هو ولا تطويل ، كما أن الحمرة أو الخضرة ليست بياضاً
ولا سواداً .

وقد قدمنا القول أن الإطناب يأتي في الكلام مؤكداً كالذي يأتي بزيادة
التصوير للمعنى المقصود ، إما حتميةً وإما مجازاً ، والتطويل ليس كذلك فإنه
التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه ، يفهم ذلك المعنى بدونهِ . فإذا حذفت تلك
الزيادة بقي المعنى المعبر عنه على حاله ، لم يتغير منه شيء .

وهذا بخلاف الإطناب ، فإنه إذا حذفت منه تلك الزيادة المؤكدة للمعنى
تغير ذلك المعنى ، وزال ذلك التأكيده عنه ، وذهبت فائدة التصوير والتخييل
التي تفيد السامع ما لم يكن إلا بها .

ألا ترى إلى قوله تعالى (فإنها لا تعنى الأبصار ولكن تعنى القلوب
التي في الصدور) وهذا لا يسمى إيجازاً ، لأنه أتى فيه بزيادة لفظ ، وهو ذكر
الصدور ، وقد علم أن القلوب لا تكون إلا في الصدور ، ولا يسمى تطويلاً ،
لأن التطويل لا فائدة فيه أصلاً ، وهذا فيه فائدة ، وهي ما أشرنا إليه وكذلك
بأقسام الإطناب التي تنبئنا عليها ، وهذا الانزاع فيه .

محتويات القسم الثاني من كتاب المثل السائر

في أدب الكتاب والشاعر لضيء الدين بن الأثير

المقالة الثانية

في الصناعة المعنوية توطئة في دعاني الخطابة

والشعر والكتابة (٣ - ٦٩)

صفحة

- ٤ بين الطبع والتحصيل ، هل أفاد أدباء العرب من كتب علماء اليونان
المعاني المبتدعة ، والمعاني المقلدة ، عوامل الابتداع : أثر الحوادث
المتجددة والأحوال الشاهدة
- ٧ أمثلة من ابتداع أبي تمام (٨) والبحترى (٩) والمتنبي (١٠) وأبي نواس
(١٣) وجليمة البكرية (١٦)
- من معاني ابن الأثير المبتكرة :
- في وصف حسان - من كتاب يتضمن منازل بلد ، ووصف
القتال بالمنجنيق
- ١٨
- ١٩ معنى مبتدع مستخرج من حديث نبوي - في وصف مغارة -
- ٢٠ من كتاب في وصف نزول العدو على حصار بلد
- ٢٠ فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد
- ٢١ بين عهد الملك والحجاج ، واستخراج معنى من كتاب الله
أمثلة من شعر أبي نواس (٢٢ ، ٢٢) ومسلم بن الوليد (٢٢)
وعلى بن جبلة (٢٣) وابن الرومي (٢٥) والمتنبي (٢٧) وشعراء
آخريين (٣٠)
- من كتابة ابن الأثير :
- ٣٤ في وصف صورة مليحة (٣٤) في ذم الشيب
كتابان في المعايير والمزل (٣٥) فصل من كتاب يتضمن وصف هزيمة
الكفار
- ٣٦

- ٣٦ من كتاب فى وصف القلم
 ٣٨ كتاب مع هدية من رطب
 ٤١ رقعة من هدية من ثياب ودراهم إلى بعض حجاب السلطان
 ٤٢ رقعة أخرى مع هدية من المسك
 ٤٥ رقعة من عاشق إلى معشوق
 ٤٧ كتاب فى التعزية بوفاة زوجة بعض الملوك وولدها
 ٥٠ كتاب عن الملك الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر غازى
 ٥٤ من جملة رسالة طردية فى وصف قسى البندق وحاملها
 ٥٦ استخراج المعانى من كتاب الله ومن حديث النبي
 ٥٧ فصل من كتاب إلى بعض المنعمين - من كتاب فى وصف القلم
 الضرب الذى يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق ، والرد
 ٥٨ عل القائلين باستنفاد المعانى وصعوبة الاختراع
 ٥٩ مناقشة ابن أفلح البغدادي فى دعواه اختصاص المحدثين بالابتداع
 المتعصبون للألفاظ والرد عليهم
 ٦٣

النوع الأول

فى الاستعارة (٧٠ - ١١٥)

- ٧٠ الأوصاف الخاصة والأوصاف العامة للفصاحة والبلاغة
 أقسام المجاز : التوسع ، والتشبيه التام ، والتشبيه المخدوف
 (الاستعارة)
 ٧١ الفرق بين التشبيه والاستعارة
 ٧٢ التوسع فى الكلام (٧٨) ضرباه : ما يرد على وجه الإضافة
 ٧٨ ما يرد على وجه الإضافة
 ٨١
 ٨٣ نحد الاستعارة ، التعريف المشهور ونقده ، تعريف ابن الأثير

- ٨٤ القرينة في الاستعارة — قول ابن جني في المجاز والرد عليه
- ٨٧ أقسام المجاز عند الغزالي ، واعتراضات ابن الأثير
- ٩٥ أمثلة للاستعارة المفيدة : من القرآن الكريم
- ٩٦ من الأخبار النبوية — من كلام العرب — من كلام ابن الأثير
- من الشعر العربي : لمسكين الدارمي (٩٨) لرجل من بني يسار (٩٩)
- لديك الجن — لأبي تمام (١٠١) للبحترى (١٠٤) للمتنبى (١٠٥)
- والشريف الرضي (١٠٨)
- ١٠٩ خلط الاستعارة بالتشبيه ، ومناقشة الخفاجي والآمدي
- الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة ، الاستعارات التي ينبئ بعضها
- ١١٣ على بعض .

النوع الثاني

في التشبيه (١١٥ — ١٥٨)

- نقد علماء البيان في تفريقهم بين التشبيه والتشبيح . قسما التشبيه :
- ١١٥ التشبيه المظهر والتشبيه المضمّر ، أقسام التشبيه المضمّر ، وأمثلةها
- ١٢١ التشبيه المضمّر أبلغ وأوجز من التشبيه المظهر
- ١٢٣ فائدة التشبيه ومحاسنه
- أقسام التشبيه : تشبيه معنى بمعنى ، تشبيه صورة بصورة ، تشبيه
- ١٢٧ معنى بصورة ، تشبيه صورة بمعنى
- ١٣١ الطرفان من حيث الأفراد والتركيب (١٢٨) تشبيه المفرد بالمفرد
- ١٣٦ تشبيه المركب بالمركب
- ١٤٦ تشبيه المفرد بالمركب
- ١٤٩ تشبيه المركب بالمفرد

- ١٥١ من معيب التشبيه
- ١٥٦ الطرد والعكس « غلبة الفروع على الأصول »
النوع الثالث
في التجريد (١٥٩ - ١٦٧)
- ١٥٩ حد التجريد ، معناه اللغوى : والمعنى البلاغى
- ١٦٠ فائدة التجريد - قسما التجريد : المحض ، وغير المحض
- ١٦١ القسم الأول : تعريفه ، أمثله
- ١٦٣ التجريد غير المحض : تعريفه ، أمثله
- ١٦٤ رأى أبى على الفارسى ، والرد عليه

النوع الرابع

في الالتفات (١٦٧ - ١٨٦)

- ١٦٧ معناه اللغوى ، معناه البلاغى ، من أسمائه « شجاعة العربية »
أقسام الالتفات :
- القسم الأول : فى الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ؛ ومن الخطاب إلى
الغيبة ، رأى الزمخشري ومناقشته
- ١٦٨
- القسم الثانى : فى الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن
الفعل الماضى إلى فعل الأمر
- ١٧٩
- القسم الثالث : فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل وعن الفعل
المستقبل بالفعل الماضى
- ١٨١

النوع الخامس

فى توكيد الضميرين (١٨٦ - ١٩٣)

- ١٨٦ بين النحو والبلاغة - معنى توكيد الضميرين
- ١٨٩ توكيد المتصل بالمتصل (١٨٨) توكيد المصل بالمنفصل
- ١٩١ توكيد المنفصل بالمنفصل

النوع السادس

في عطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده

(١٩٣ - ١٩٦)

فائدته - أمثلة من كلام العرب، ومن القرآن الكريم

النوع السابع

في التفسير بعد الإبهام

(١٩٦ - ٢٠٣)

١٩٦ فائدته - أمثلة من القرآن الكريم

١٩٧ الفرق بين عطف المظهر على ضميره والتفسير بعد الإبهام

١٩٩ الإبهام من غير تفسير ، أمثلة من القرآن ومن كلام العرب ومن الشعر

النوع الثامن

في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات

(٢٠٣ - ٢١٠)

ما يدخل تحت هذا النوع (٢٠٣) الخاص والعام (٢٠٣) الأوصاف

الخاصة إذا وقعت على شيئين - الأسماء المفردة الواقعة على

الجنس (٢٠٤) الصفتان الواردتان على شيء واحد (٢٠٥)

الصفات المتعددة الواردة على شيء واحد (٢٠٨)

النوع التاسع

في التقديم والتأخير

(٢١٠ - ٢٢٧)

٢١٠ ضربه : ما يغير المعنى ، وما لا يغير المعنى

الضرب الأول : بلاغة التقديم : تقديم المفعول على الفعل - تقديم

٢١٠ الخبر على المبتدأ - تقديم الظرف

- ٢١١ غرضاً التقديم : الاختصاص . مراعاة نظم الكلام
- ٢١٩ المعاظلة المعنوية : أمثلتها ، تفاوت درجاتها في القبح
- الضرب الثاني : تقديم السبب على المسبب (٢٢٣) تقديم الأكثر
- ٢٢٤ على الأقل
- ٢٢٦ تقديم الأعجب فالأعجب (٢٢٥) تقديم الأفضل والمفضول
- النوع العاشر
- في الحروف العاطفة والجاراة
- (٢٢٧ - ٢٣٣)
- ٢٢٧ بين النحو والبلاغة - حروف العطف
- التباس مواضع الفاء والواو - فعل المطاوعة - ما يلتبس بأفعال
- ٢٣١ المطاوعة
- ٢٣٢ حروف الجر : معاني بعض الحروف الجارة
- ٢٣٣ العدول عن بعض الحروف إلى بعض
- النوع الحادى عشر
- في الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الإسمية والفرق بينهما
- (٢٣٤ - ٢٤٠)
- ٢٣٤ العدول عن أحد الخطابين إلى الآخر وفائدته
- ٢٣٥ ورود لام التوكيد في الكلام
- النوع الثانى عشر
- في قوة اللفظ لقوة المعنى
- (٢٤١ - ٢٤٧)
- ٢٤١ اختلاف الأوزان والصيغ واختلاف المعنى
- ٢٤٣ زيادة التصغير
- ٢٤٤ النقل من صيغة إلى صيغة ، وفائدته

النوع الثالث عشر

في عكس الظاهر (٢٤٨ - ٢٥٠)

معناه - أمثله - الغرض منه

النوع الرابع عشر

في الاستدراج (٢٥٠ - ٢٥٥)

استخراج ابن الأثير إياه من كتاب الله - معناه - فائدة الاستدراج
أمثلة من القرآن الكريم - من حديث بين الحسين بن علي
ومعاوية بن أبي سفيان

النوع الخامس عشر

في الإيجاز (٢٥٥ - ٣٤١)

٢٥٥ معناه - النظر إلى المعاني لا الألفاظ

٢٥٦ معاني القرآن : المعاني الأصول (٢٥٦) - المعاني الفروع

٢٥٨ رأى لبعض علماء البيان في مواضع الإيجاز والتطويل والرد عليه

٢٥٩ حد الإيجاز - الإيجاز والتطويل - أمثلة للإيجاز وللتطويل

قسما الإيجاز : الإيجاز بالحذف والإيجاز بغير الحذف ، التنبيه إلى

٢٦٤ المحذوف في الأول أيسر

(١) الإيجاز بالحذف : بلاغته ، ضرباه : حذف الجمل ، وحذف

٢٦٨ المفردات

القسم الأول : حذف الجمل ، ضروبه :

٢٦٩ ١ - حذف السؤال المقدر ، ويسمى (الاستئناف)

(أ) إعادة الأسماء والصفات (٢٧٠)

(ب) الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات (٢٧٠)

٢٧٢ ٢ - الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب

٢٧٥ ٣ - الإضمار على شريطة التفسير

- ٢٧٥ (أ) ما يرد على طريق الاستفهام
 ٢٧٥ (ب) ما يرد على حد النفي والإثبات
 ٢٧٦ (ج) ما يرد على غير هذين الوجهين
 ٤ - ما ليس بسبب ولا مسبب ؛ ولا إضمار على شريطة التفسير ،
 ٢٧٧ ولا استئناف

القسم الثاني : حذف المفردات : ضروبه :

- الضرب الأول : حذف الفاعل والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر
 ٢٨٣ الفعل
 ٢٨٥ الضرب الثاني : حذف الفعل وجوابه
 ٢٩١ الضرب الثالث : حذف المفعول به
 الضرب الرابع : حذف المضاف والمضاف إليه ؛ وإقامة كل واحد
 ٢٩٥ منهما مقام الآخر
 الضرب الخامس : حذف الموصوف والصفة ؛ وإقامة كل منهما
 ٢٩٨ مقام الآخر
 ٣٠٤ الضرب السادس : حذف الشرط وجوابه
 ٣٠٦ الضرب السابع : حذف القسم وجوابه
 ٣٠٧ الضرب الثامن : حذف (لو) وجوابها
 ٣١١ الضرب التاسع : حذف جواب (لولا)
 ٣١٢ الضرب العاشر : حذف جواب (لما) وجواب (أما)
 ٣١٢ الضرب الحادى عشر : حذف جواب (إذا)
 ٣١٣ الضرب الثانى عشر : حذف المبتدأ والخبر
 ٣١٤ الضرب الثالث عشر : حذف (لا) من الكلام ، وهى مرادة
 ٣١٥ الضرب الرابع عشر : حذف الواو من الكلام وإثباتها
 ٣١٩ (ب) الإيجاز بغير الحذف : ضرباه

- الضرب الأول : ما ساوى لفظه معناه (الإيجاز بالتقدير) ٣٢٠
 الضرب الثاني : ما زاد معناه على لفظه (الإيجاز بالقصر) - قسماه :
- ٣٣٥ (١) ما يدل على احتمالات كثيرة
 ٣٣٨ (٢) ما لا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها
 النوع السادس عشر
 في الإطناب (٣٤١ - ٣٨٣)
- ٣٤١ فائدة الإطناب
 ٣٤٢ اختلاف علماء البيان في الإطناب : رأى العسكري والغانمي
 ٣٤٣ حقيقة معنى الإطناب في استعمال أهل اللغة
 ٣٤٤ حد الإطناب : الفرق بين الإطناب والتطويل والتكرير
قسما الاطناب :
- ٣٤٦ ١ - الإطناب في الجملة الواحدة : الحقيقة والحجاز
 ٣٥١ ٢ - الإطناب في الحمل : ضروبه
 ٣٥١ (ا) ذكر الشيء بمعان متداخلة ، كل معنى يختص بما ليس للآخر
 ٣٥٢ (ب) النفي والإثبات
 ٣٥٤ (ج) ذكر المعنى الواحد تماماً ، ثم يضرب له مثال من التشبيه
 ٣٥٥ (د) استيفاء معاني الغرض المقصود
 ٣٥٥ أمثلة للإيجاز والإطناب
 كتاب لابن الأثير عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى
 ديوان الخلافة ببغداد ، يتضمن فتح بيت المقدس ، واستنفاذه من
 أيدي الكفار ٣٦٠
 صورة تقليد أنشأه ابن الأثير لمنصب الحسبة ٣٧١
 محتويات القسم الثاني من المثل الثائر ٣٨٤